نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الرابع عشر

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثاني
من القسم الثالث من الفن الخامس
فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليهما السلام
وهو أخبار يُوشَعَ بنِ نُون وحَزْقِيلَ وإلْيَاسَ والْيَسَعَ وعَيْلَى[1] وأشْمَوِيلَ وداودَ وطالوتَ وجالوتَ وسليمانَ بنِ داودَ عليهم السلام

ذكر خبر يُوشَعَ بن نُون عليه السلام وفتح أرِيحَا[2] وغيرها

قال أبو إسحاق الثَّعْلبيّ[3] رحمه الله تعالى: اختلف العلماء فيمن تولّى حرب الجبّارين[4] وفيمن كان على يده الفتح، فقال قومٌ: إنما فَتَح أرِيحا موسى عليه السلام وكان يُوشَعُ على مقدّمته فسار إليها بمن بَقِيَ من بني إسرائيل ولم يَمُت في التِّيه[5]،

---

(١) كذا في الأصل، وفي قصص الأنبياء للثعلبي، وتاريخ الطبري ج١ ص٣٣١، وفي الكتاب المقدّس «ج١ ص٤٥٠ وما بعدها» عالي.

(٢) أريحا: بالفتح ثمّ الكسر، مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس في جبال صعبة المسلك، سمّيت فيما قيل: بأريحا بن مالك بن أرفخشذ» معجم البلدان لياقوت.

(٣) أبو إسحاق الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، مفسّر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ، من كتبه عرائس المجالس في قصص الأنبياء، والكشف والبيان في تفسير القرآن، توفي سنة ٤٢٧هـ. الأعلام ١/ ٢١٢.

(٤) الجبارون: أو الجبابرة: الذين كانوا بالشام من العماليق، ويقال لهم الكنعانيون. انظر تاريخ الطبري ٢/ ٢١٣ ط أوروبا.

(٥) التيه: المفازة لا علامة فيها يهتدى بها، والتيه: الهلاك وقيل الذّهاب، والتيه هنا: حيث تاه بنو إسرائيل، أي حاروا فلم يهتدوا للخروج منه «اللسان مادة تيه».

فدخلها يُوشَعُ بهم وقتل الجبّارين الذين كانوا فيها، ودخلها موسى ببني إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم قبضه[١] الله تعالى، ولم يعلم أحدٌ من الناس أين قبره. قال: وهذا أولى الأقاويل بالصدق. وقال الآخرون: إنما قَتَل الجبّارِين يُوشَعُ ولم يسر إليهم إلاّ بعد موت موسى. وقالوا: إنما مات موسى وهارون عليهما السلام في التِّيه.

قالوا: فلما ٱنقضت مدّة التِّيه ومات موسى عليه السلام بعث الله تعالى يُوشَعَ بن نُون نبيًّا، فأخبرهم أنه نبيّ الله تعالى، وأنّ الله عزّ وجل قد أمره بقتال الجبّارين، فصدّقوه وبايَعُوه. فتوجه ببني إسرائيل إلى أَرِيحا ومعه تابوت[٢] الميثاق، فأحاط بمدينة أَرِيحا ستّة أشهر، فلمّا كان في الشهر السابع نفخوا في القُرُون[٣] وضجَّ الشعبُ ضجَّة واحدة، فسقط سُور المدينة، فدخلوا وقاتلوا الجبّارين، فهزموهم وهجموا عليهم يقتّلونهم، فكانت العِصَابةُ من بني إسرائيل يجتمعون على عُنُق الرجل يضربونها لا يقطعونها، وكان القتال يومَ الجمعة، فبقيت منهم بقيّة وكادت الشمس تغرُب وتدخل ليلةُ السبت، فخشِيَ يُوشَعُ أن يُعْجِزوه، فقال: اللهمّ ٱردُد الشمس عليّ، وقال للشمس: إنكِ في طاعة الله، وأنا في طاعة الله. فسأل الشمسَ أن تَقِف والقمر أن يُقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غُرُوب الشمس، فرُدّت عليه الشمس وزِيدَ له في النهار ساعةٌ واحدةٌ حتى قتلهم أجمعين.

قالوا: ثم أرسل ملوك الأرمانيِّين[٤] بعضُهم إلى بعض ـ وكانوا خمسةً[٥] ـ فجمعوا كلمتَهم على حرب يُوشَع وقومِهِ، فهَزَمت بنو إسرائيل الملوكَ حتى أهبطوهم إلى ثنِيّة حَوْران[٦]، فرماهم الله تعالى بأحجار البَرَد، فكان مَن قَتَله البَرَد أكثرَ ممّن قتله بنو إسرائيل بالسيف، وهربت الملوك الخمسةُ، فٱختفَوْا في غارٍ، فأمرَ بهم يُوشَعُ فأُخرجوا، فقتلهم وصلَبهم، ثم أنزلهم وطرحهم في ذلك الغار، وتتبع سائرَ ملوك الشأم فٱستباح منهم أحدًا وثلاثين ملِكًا حتى غلب على جميع أرض الشأم، وصار الشأم كلُّه لبني إسرائيل، وفرّق عمّاله في نواحي الشأم.

---

(١) قبضه الله: أماته.

(٢) التابوت: هو تابوت بني إسرائيل، وسوف يأتي وصفه في الصفحات القادمة. راجع وصفه في الكتاب المقدّس ١/ ١٣٢ ط. بيروت.

(٣) القرون: المراد بها الأبواق. راجع الكتاب المقدّس ١/ ٣٥٦.

(٤) الأرمانيون: في الكتاب المقدّس (١/ ١٨ ـ ٣٦٣) ملوك الأموريين وهم من ذريّة كنعان.

(٥) هم: ملك أورشليم وملك حيرون وملك يرموث وملك لاكيش وملك عجلون. انظر الكتاب المقدّس ١/ ٣٦٥.

(٦) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق، ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار «معجم البلدان ٢/ ٣١٧».

وحكى الكِسَائيّ[١] في (كتاب المبتدا) أنّ يُوشَع أخذ في الجِهاد بعد وفاة موسى عليه السلام حتى فتح الله على يديه نيِّفًا[٢] وثلاثين مدينة من مدن الكفّار بأرض الشأم. قال: ثم سار ببني إسرائيل إلى أرِيحا لقتال الجبّارين، وكانوا قد عادوا إليها بعد أن فتحها موسى، فقاتلهم يومَ الجمعة، وساق نحو ما تقدّم من حبس الشمس. قال: وفسد على أهل علم النجوم علوم كثيرة من ذلك اليوم.

قال الكِسَائيّ: ولما فرغ يُوشَعُ بن نُون من قتال الجبّارين بأرِيحا سار ببني إسرائيل إلى أرض بني كَنْعان[٣]، فقاتلهم حتى قتل أكثر من ثلاثين ملِكًا، وفتح ثلاثين حصنًا.

قال الثعْلَبيّ في تفسيره: ولمّا قتل يُوشَعُ الملوكَ وٱستباحَ الأموال جمع الغنائم فلم تُنْزَلِ النار، فأوحَى الله تعالى إلى يُوشَع أنّ فيها غُلُولاً[٤]، فمُرهم فليبايعوك فبايعوه، فٱلتصقتْ يدُ رجل منهم بيده، فقال: هَلُمّ[٥] ما عندك! فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه، فجعله في القُرْبان[٦] وجعل الرجلَ معه، فجاءت النار فأكلت الرجلَ والقُربان.

قالوا: ثم مات يُوشَع فدُفن في جبل أفرائيم[٧]، وكان عمره مائةً وستًّا[٨] وعشرين سنة، وتدبيرُه أمرَ بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام تسعًا وعشرين سنة. وقال الكسائيّ: أربعين سنة. والله تعالى أعلم.

---

(١) الكسائي: هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي، أبو الحسن الكسائي من أهل الكوفة، إمام عالم في اللغة والنحو والقراءة، توفي سنة ١٨٩هـ «الأعلام ٤/ ٢٨٣».

(٢) النّيِّف: الزيادة، يقال: عشرة رجال ونيّف ولا تستعمل إلاّ بعد العقود من الأعداد.

(٣) الكنعانيون: وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان بن حام بن نوح «صبح الأعشى ١/ ٤٢٤».

(٤) الغلول: الخيانة في المغانم.

(٥) هلمَّ: كلمة دعاء إلى الشيء، وهي اسم فعل يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكّر والمؤنّث.

(٦) القربان: كلّ ما يتقرّب به إلى الله من ذبيحة أو غيرها.

(٧) جبل أفرائيم: كان يطلق هذا الاسم على سلسلة هضاب في أملاك أفرائيم تمتدّ إلى تخوم بنيامين، أمّا تربة هذا الجبل فخصبة بالإجمال إلاّ ما كان منها إلى جهة الأردن فإنّه صخري صعب المرتقى، وكذلك ما كان منه إلى جهة البحر الميت فإنّه غاية في القحل، وقد ورد ذكره في الكتاب المقدّس (١/ ٣٧٦ ـ ٣٩٠).

(٨) في الكتاب المقدّس ١/ ٣٩٥: «ابن مائة وعشر سنين».

ولما مات ٱستُخلف على بني إسرائيل كالبُ[١] بن يوقَنَّا، وهو من أولاد يَهُوذَا بن يعقوب، وكان من الزهّاد، فسار فيهم أجمل سيرة حتى قبضه الله تعالى.

فأستُخلف عليهم ٱبنه برشاناسُ[٢] وكان نظير يوسف الصدّيق عليه السلام في حُسنه وجماله، فافتتن الناسُ به، فسأل اللّهَ تعالى أن يغيِّر خلقته، فأصابه الجُدَريّ[٣]، فتغيَّرتْ خلقته، فأنكره الناس وأكثروا من سؤاله عن خبره، فشقّ ذلك عليه وشغله عن عبادته، فسأل الله تعالى أن يزيده تشويهًا، فاسترخَى وجهُه، وظهرت له أسنان طوال، وقَبُح حتى كره الناسُ أن ينظروا إليه، وعرفوا منه الأجتهاد في عبادة الله تعالى وطاعته، فاختاروه وسمعوا له وأطاعوا، ولم يزل بين أظهرهم[٤] أربعين سنة ثم قبضه الله تعالى.

فقام بأمرهم العَيْزار[٥] بن هارون بن عِمْران، وكان قد أسنّ ولا ولد له، فجعلوا يقولون: ما حُرِم الولدَ إلاّ لذنب عظيم. فسأل الله الولدَ، فرزقه ولدًا بعد كِبَرِ سنّه وإياسِ زوجته صَفُّورِيّة[٦] بنت عمّه موسى بن عِمْران وجدّد له قوّة، ولها جمالاً وحُسنًا، وسمَّى ولدَه «سباسبا»[٧] وجاء عالمًا بالتوراة، فأستخلفه والده على بني إسرائيل، فقام بأمرهم، وتزوّج بأمرأة يقال لها صَفُّورِيّة، فأولدها إلياس. هكذا نقل الكِسائيّ.

وقال الثعْلبيّ في قصصه في خبر ٱبن كالب وسمّاه «بُوساقُوس»: وأنه لمّا ٱفتتن الناسُ به سأل الله تعالى أن يغيّر صورته مع سلامة حواسه وجوارحه[٨] فأصابه الجُدَريّ. وقال: إنه لبث فيهم مائة سنة، ثم قبضه الله عزّ وجلّ ولم يذكر العَيْزَارَ وٱبْنَهُ، بل ذكر خبر حَزْقِيل. والله تعالى أعلم.

---

(١) في الكتاب المقدّس ١/٣٧٣ «كالب بن يفنا».
(٢) في تاريخ الطبري ١/٣٢٤: أن كالب بن يوحنّا لمّا قبضه الله بعد يوشع خلف فيهم يعني بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو ابن العجوز.
(٣) الجدريّ: مرض جلدي معدٍ، يتقيّح منه الجلد ويعقبه قشر.
(٤) بين أظهرهم: أي بينهم.
(٥) في الكتاب المقدّس ١/٣٩٠ «العازار».
(٦) في الكتاب المقدّس ١/١٢١ «صفورة».
(٧) في قصص الأنبياء للكسائي ص٢٠٩ «بـــابـــا».
(٨) الجوارح: مفردها الجارحة، وهي العضو العامل من أعضاء الجسد كاليد والرّجل.

ذكر خبر حَزْقيل عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى قالت العلماء لمّا قبض الله تعالى كالبَ وآبنَه، بعث الله عزّ وجل حزقيل[١] إلى بني إسرائيل، وهو حَزْقيل بن بُوذِي، ويلقّب بآبن العجوز.

قال: وإنما لُقِّب بذلك لأن أمّه سألت الله تعالى الولد وقد كَبِرت وعَقِمت، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذي أحيا الله تعالى القوم بعد وفاتهم بدعائه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال: قال أكثر المفسرين: كانت قريةٌ يقال لها دَاوَرْدانُ[٢] قِبَلَ واسط وقع بها الطاعون[٣]، فخرج منها طائفةٌ هاربين من الطاعون وبقيت طائفة، فهلك أكثر مَنْ بَقِيَ في القرية، وسَلِم الذين خرجوا، فلمّا آرتفع الطاعون رجعوا سالمين. فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أجرمَ منّا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون بها ثانية لنخرجنّ إلى الأرض التي لا وباء فيها. فوقع الطاعون من قابل[٤]، فهرب عامّة أهلها، فخرجوا حتى نزلوا واديًا أفيح[٥]، فلمّا نزلوا المكان الذي يبغون فيه الحياة والنجاة، إذا هم بملَكٍ من أسفل الوادي وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا فماتوا.

وقال الضحاك[٦] ومقاتل والكلبيّ: إنّما فرّ هؤلاء من الجهاد؛ وذلك أنّ ملِكًا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم، فخرجوا فعسكروا ثم جَبُنُوا وكرِهُوا الموت وآعتلّوا[٧] وقالوا لملِكهم: إنّ الأرض التي نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء؛ فأرسل الله تعالى عليهم الموت، فلمّا رأوا أنّ الموت

---

(١) في الكتاب المقدّس: (٢/ ٥٣٨) «حزقيال».

(٢) داوردان: من نواحي شرقي واسط، بينهما فرسخ، وهي التي وقع فيها الطاعون، وفيها ديرٌ يعرف بدير هزقل «معجم البلدان ٢/ ٤٣٤».

(٣) الطاعون: مرض خبيث ذو حمّى شديدة الحرارة، ينتقل إلى الإنسان من الفئران.

(٤) من قابل: أي من قبل، ومن قابل الشيء من أوّله.

(٥) الأفيح: الواسع.

(٦) هو الضحّاك بن عثمان بن الضحّاك بن عثمان بن عبد الله الأسدي القرشي، علاّمة قريش بأخبار العرب وأيّامها وأشعارها، توفي بمكة سنة ٧٩٦م «الأعلام ٣/ ٢١٤».

(٧) اعتلوا: اختلقوا الحجج والذرائع.

كَثُر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا منه. فلمّا رأى الملك ذلك قال: اللهمّ ربَّ يعقوب وإله موسى، قد نرى معصية عبادك فأرِهم آية[١] في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفِرار من حكمك وقضائك. فلما خرجوا قال الله لهم: موتوا، فماتوا جميعًا وماتت دوابهم كموت رجل واحد، فمما أتت عليهم ثلاثةُ أيام حتى ٱنتفخوا وأَرْوَحَتْ[٢] أجسادهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظَروا عليهم حَظِيرة[٣] دون السِّباع وتركوهم فيها.

قال: وٱختلفوا في مبلغ عددهم، فقال عطاء الخُرَاسانيّ[٤]: كانوا ثلاثةَ آلاف. وقال ٱبن عباس ووهب: أربعةَ آلاف. وقال مُقاتل[٥] والكلبيّ: ثمانية آلاف. وقال أبو روْق: عشرةَ آلاف. وقال أبو مالك: ثلاثين ألفًا. وقال السُّدّيّ: بضعةً وثلاثين ألفًا. وقال ٱبن جُرَيج: أربعين ألفًا. وقال عطاء بن أبي رَبَاح[٦]: سبعين ألفًا.

قالوا: فأتت عليهم مدّة وقد بَلِيتْ أجسادهم، وعَرِيتْ عظامهم، وتقطّعت أوصالُهم[٧]، فمرَّ بهم حَزْقِيل النبيّ عليه السلام فوقف عليهم متفكّرًا متعجِّبًا، فأوحى الله تعالى إليه: يا حَزْقيل، تريد أن أرِيَك كيف أُحيِي الموتَى؟ قال نعم، فأحياهم الله جميعًا.

قال: هذا قول السُّدّيّ[٨] وجماعةٍ من المفسِّرين. وقال هلال بن يَسَاف[٩] وجماعةٌ من العلماء: دعا حَزْقِيل ربّه أن يحييهم فقال: يا ربّ لو شئتَ أحييتَ هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك. فقال الله عزّ وجل أوَتحبّ أن أفعل؟ قال نعم، فأحياهم.

---

(١) الآية: المعجزة.
(٢) أروحت: أنتنت وتغيّرت رائحتها.
(٣) الحظيرة: ما أحاط بالشيء، وتكون من قصب أو خشب أو شجر، وتعمل للإبل لتقيها البرد والرّيح.
(٤) عطاء الخراساني: هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس، مفسّر، كان يغزو، ويكثر من التهجّد في الليل، توفي سنة ٧٥٢، «الأعلام ٤/ ٢٣٥».
(٥) مقاتل: هو مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي بالولاء، البلخي، من أعلام المفسّرين، دخل بغداد وحدّث فيها وتوفي بالبصرة سنة ٧٦٧م له عدّة مؤلّفات «الأعلام ٧/ ٢٨١».
(٦) هو عطاء بن أبي رباح بن أسلم بن صفوان، تابعي من أجلاء الفقهاء، كان عبدًا أسود، ولد باليمن، ونشأ بمكة وكان مفتي أهلها ومحدّثهم وتوفي فيها سنة ٧٣٢م «الأعلام ٤/ ٢٣٥».
(٧) الأوصال: مفردها الوصل، وهو المفصل، أو مجتمع العظام، أو كلّ عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره.
(٨) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن السّدي الكوفي، والسّدّي: نسبة إلى سدة مسجد الكوفة، كان يبيع بها المقانع، والسدّة: الباب، والمقانع: ما تلف به المرأة رأسها. محدّث حسن الحديث توفي سنة ١٢٧ «الكاشف ١/ ٧٥».
(٩) هو هلال بن يساف الأشجعي، أبو الحسن، محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ٢٠٢».

وقال عَطاءٌ ومُقاتل والكلبيّ[١]: بل كانوا قومَ حَزْقِيل، فأحياهم الله عزّ وجل بعد ثمانية أيام؛ وذلك أنهم لمّا أصابهم ذلك خرج حَزْقِيل في طلبهم فوجدهم مَوْتَى، فبكى وقال: يا ربّ كنتُ في قوم يحمدونك ويقدّسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيتُ وحيدًا لا قومَ لي. فأوحى الله تعالى إليه: إني قد جعلتُ حياتَهم إليك. فقال حَزْقيل: احْيَوْا بإذن الله تعالى، فعاشوا.

وقال وهب[٢]: أصابهم بلاءٌ وشدّةٌ من الزمان، فشكَوْا ما أصابهم فقالوا: يا ليتنا مَتنا فاسترحنا ممّا نحن فيه. فأوحى الله عزّ وجل إلى حَزْقيل: إنّ قومَك قد ضجروا من البلاء، وزعموا أنهم وَدُّوا لو ماتوا فاستراحوا، وأيّ راحة لهم في الموت! أيظنّون أنّي لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت! فانطلِق إلى جبّانة كذا، فإنّ فيها قومًا أمواتًا. فأتاهم، فقال الله عزّ وجل: قُم فنَادِهم ـ وكانت أجسامهم وعظامهم قد تفرّقت، فرّقتها الطير والريح ـ فنادى حَزْقِيل: أيتها العظام، إنّ الله يأمركِ أن تكتسيَ اللحم. فاكتست جميعًا اللحم، وبعد اللحم جلْدًا ودَمًا وعَصَبًا وعروقًا، فكانت أجسادًا، ثم نادى: أيتها الأرواح، إنّ الله تعالى يأمرك أن تعودي في أجسادك. فقاموا جميعًا عليهم ثيابهم التي كانوا فيها، وكبّروا تكبيرة واحدة.

قال: وزعم منصور بن المعتمر عن مُجاهد[٣] أنهم قالوا حين أُحْيُوا: سبحانك ربّنا وبحمدك لا إله إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم بعدما أحياهم الله عزّ وجل وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا أمواتًا، سِحْنةُ[٤] الموت على وجوههم، لا يلبَسون ثوبًا إلا عاد رميمًا[٥] مِثلَ الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي كَتب الله لهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما فإنها لتُوجد اليوم في ذلك السِّبط[٦] من اليهود تلك الريح[٧].

---

(١) الكلبي: هو محمد بن السّائب بن بشر بن عمرو بن حارث الكلبي، أبو النضر، نسّابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة مولده ووفاته فيها سنة ٧٦٣م «الأعلام ٦/ ١٣٣».

(٢) وهب: وهب بن مُنبِّه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله مؤرّخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأوّلين ولا سيّما الإسرائيليّات، ولد ومات بصنعاء سنة ٧٣٢م «الأعلام ٨/ ١٢٥».

(٣) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجّاج مولى السّائب بن أبي السّائب المخزومي، إمام في القراءة والتفسير محدّث حجّة مات سنة ١٠٤هـ «الكاشف ٣/ ١٠٦».

(٤) السّحنة: الهيئة واللّون. (٥) الرّميم: البالي.

(٦) السّبط: القبيلة من اليهود.

(٧) قوله: (وقال ابن عباس فإنها لتوجد اليوم تلك الريح الخ) المراد بالريح الرائحة وكان ينبغي تفسيرها لأن المتبادر من معناها الهواء الشديد. وقوله: (فإنها) الفاء فيه للتفريع والمفرع عليه في (ص٨ سطر ٥) عند قوله (وأروحت أجسادهم) أي تغيرت رائحتها وأنتنت فقول ابن عباس إذن مؤخر عن موضعه إلى هذه الصفحة سهوًا. وكان الأصل هكذا (أروحت أجسادهم وقال ابن عباس فإنها الخ) أي وكان من نتيجة إرواح أجساد أولئك القوم أن انتقلت تلك الرائحة الخبيثة إلى أعقابهم.

قال قَتَادةُ[(١)]: مقتهم الله عزّ وجل على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبةً لهم، ثم بعثهم إلى بقيّة آجالهم ليستوفُوها، ولو كانت آجال القوم جاءت ما بُعِثوا بعد موتهم. فلما أحياهم الله عزّ وجل قال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤]. ثم تلا الثعْلبيُّ هذه القصّة بقصّة إلياس؛ وذكرها الكِسَائيّ، تلو قصّة العَيْزَار. والله الموفق للصواب.

ذكر خبر إلياس عليه السلام

قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصافات: ١٢٣]. قال الكسَائيّ رحمه الله تعالى: قال كعب[(٢)]: لمّا وُلِد إلياس عليه السلام ونسبه أنه إلياس بن سباسبا بن العَيْزَار بن هارون. قال: وأمّه صَفُوريّة، وجدّته أمّ أبيه صَفُورِيّة بنت موسى بن عِمْران عليه السلام ظهر ليلة مولده أنوار أضاءت منها محاريب[(٣)] بني إسرائيل. فلما نظرتْ ملوكُ بني إسرائيل ذلك علموا أنه قد حدث حادث، فتعرّفوا الخبر، فقيل لهم: وُلِد مولود من ولد هارون بنِ عِمْران.

قال: وكان إلياس على صورة موسى وقوّته، ونشأ أحسن نشأة. وبنو إسرائيل يقولون: هذا الذي بشَّرَنا به العَيْزَار، أن الله يُهلك الملوك والجبابرة على يديه.

قال: فلمّا بلغ سبعَ سنين ـ وكان يحفظ التوراة ـ قال: يا بني إسرائيل، إني أُريكم من نفسي عَجَبًا. فصاح بهم صيحةً ٱنتشرت فيهم فأرعبتْ قلوبهم. فلما سكنتْ روعتُهم همُّوا بقتله، وقال بعضهم: هو ساحر، فهرب منهم وصعِد إلى جبل وهم يتبعونه. فلمّا قَرُبوا منه ٱنفرج[(٤)] له الجبل فدخل فيه، وٱنصرف القوم. فنُمِي[(٥)] الخبر إلى بعض ملوكهم فعذّبهم، ثم ٱنفرج الجبل، وأقام إلياس به يأكل من المباحات حتى ٱستكمل أربعين سنة، والناس قد أخذوا في عبادة الأصنام وخاضوا في المعاصي، فبعثه الله تعالى نبيًا ورسولاً، وجاءه جبريل بالوحي، وأمَره عن الله تعالى أن يتوجَّه إلى الملوك والجبابرة الذين يعبدون الأصنام ويدعوَهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته،

---

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي الأعمى الحافظ المفسّر مات كهلاً سنة ١١٨هـ وعدّ من الثقات «الكشاف ٢/٣٤١».

(٢) كعب: هو كعب بن ماتع الحميري، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود، ويسمّى كعب الأحبار، أسلم في زمن أبي بكر وسكن حمص وتوفي بها سنة ٦٥٢، روى كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة «الأعلام ٥/٢٢٨».

(٣) المحاريب: جمع محراب، وهو من المسجد: أرفع مكان فيه، ومقام الإمام، وهو مجلس الناس ومجتمعهم.

(٤) انفرج: اتسع وحدثت فيه فرجة أي فتحة. (٥) نُمي الخبر: أذيع ونقل.

وأن يُرسِلوا معه بني إسرائيل وأعطاه القوّة، وأمر النار والجبال والوحش بطاعته. فأنطلق إلياس إليهم وهم في سبعين قرية، كلّ قرية منها مدينةٌ، في كلّ مدينة جبّارٌ يَسُوسهم، وكلّهم يعبدون صنمًا يُدعَى «بَعْلاً» وهو على صورة أمرأة، فصار إلياس إلى قرية من قُراهم، وكان فيها ملك يقال له «آجاب»[١]، فوقف بالقُرب من قصره، وقرأ التوراة بأطيب نغمة، فسمعه الملك، فقال لأمرأته: ألاَ تسمعين؟ ما أطيبَ هذا الصوت! فقامت المرأة إليه وأشرفت عليه من أعلى القصر وسألته عن حاله وخبره، فأخبرها أنه رسول الله. قالت: وما حُجَّتك على دعواك؟ فاستدعَى النار فجاءت إليه وشهِدتْ بنبوّته وصدّقته، فأخبرت المرأةُ زوجَها بما رأت منه، فجاء إليه وآمن به هو وأمرأتُه، وأوصاه بالصبر والجهاد، وأنصرف إلياس. حتى إذا كان يومُ أجتماع القوم وقد خرجوا بزينتهم ونصبوا صنمهم بَعْلاً وقف عليهم ودعاهم إلى الإيمان، فقال فيما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٦] فقالوا له: من أنت؟ فقال: أنسيتموني بعد أن كنتُ فيكم ومعكم! أنا إلياس. فحثَوا[٢] في وجهه التراب ورمَوْه بالحجارة من كلّ جانب. وكان ملِكُهم الأكبر يقال له «عَاميل»، فأمر بزيت فغُليَ في قِدْر نحاس وقال لإلياس: إنْ رجعتَ وإلاّ طرحتُك فيه! فقال: أنا وحيدٌ في أرضكم، فريدٌ في جمعكم، ولكنّي أُريكم آيةً تدلّ على صدق دعوايَ أنّي رسول الله إليكم. فقال له الملِك نعم. فقال إلياس: أيّتها ٱلنار اخْمُدِي بإذن الله تعالى، فَخَمَدت وسكن غَلَيان الزيت، فعجِب الناسُ من ذلك. قال الملِك: قد أتيتَ بحجّة، ولكن أمهِلْنا يومًا لننظر في أمرك. ففارقهم وأتاهم من الغد ودعاهم، فجمع الملِك ملوكَ قومِه وعلماءَهم وقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال العلماء: إنّا نرى في التوراة صفةَ هذا الرجل أنّه يُبْعَثُ نبيًّا تُسَخَّر له النار والأسود والجبال، وأنه لا يسمع أحدٌ صوته إلاّ ذلّ وخضع له.

---

(١) (ملك يقال له آجاب) آجاب بالجيم كذا رواه بعضهم ونقل المصحح عن الطبري (آحاب) بالحاء المهملة وقوله هذا موافق لما جاء في أسفار أهل الكتاب. ويقال في اسمه أيضًا (آخاب) بالخاء المعجمة وكأنه بالمعجمة هو الأصل العبراني فلما عربته العرب نطقته بالحاء المهملة كما هو الدأب في تعريب الألفاظ العبرانية فإذا كان الأمر كذلك وجب أن يُعوَّل على (آحاب) بالمهملة لا آجاب بالجيم. وهكذا نقول في الأعلام الأخرى التي وردت في هذا الكتاب وقد كثر الخلاف في ضبطها: ينبغي أن يرجع فيها إلى ما قاله أمثال الطبري من ثقات مؤرخينا ولا سيما إذا كان معزَّزًا برواية أهل الكتاب: فإنهم مصدَّقون في ما كان شأنًا من شؤونهم ما لم يخالف الثابت في شريعتنا.

(٢) حثوا: رموه.

فقال بعض علمائهم: أيها الملِك، كَذَب هؤلاء فيما ذكروه، وهذا ساحر، فلا يهولنّك أمره، فبسط العذاب على أولئك النفر، فٱشتدّ ذلك على إلياس، وخالفه الملك «آجَاب» الذي كان قد آمَنَ به، ففارقته زوجته ولحِقتْ بإلياس؟ وكانت من الصالحات.

قال: وٱتّخذ إلياس عَرِيشًا[١] بالقُرْب من قصر الملك «عَامِيل»، فأشرفتْ ٱمرأةُ عاميل عليه في بعض الليالي وهو يعبد الله تعالى، فنظرتْ إلى عمود من نور من لدن[٢] العريش حتى السماء فأمنتْ ولحِقتْ به، فأمر زوجُها أن تُلْقَى في النار، فألقِيتْ فيها، فدعا إلياس عليه السلام الله تعالى لها، فلم تعمل النار فيها شيئًا، فأطلقها الملك، فلَحِقَتْ بإلياس. ثم مات ولدٌ لعاميل الملِكِ فجزِع عليه وتضرّع إلى صنمه فلم يُغن عنه شيئًا، فغضب وقال لإلياس: إن ٱبني قد مات وعَجَزَ إلٰهي عن إحيائه، فهل تقدِر أن تُحييَه؟ فقال: هذا على ربِّي هيِّن، ودعا الله تعالى، فقام الغلام يشهد أن لا إله إلا الله، وأن إلياس عبدُه ورسولُه، فآمن الملِك وخرج عن المُلْك وتبع إلياسَ ولبس الصوف وعبدَ اللّهَ تعالى حتى مات، وماتت زوجتُه وٱبنُه. وٱستمرّ القوم في ضلالهم وكفرهم ما شاء الله، وإلياس يدعوهم فلا يجيبونه، فأوحى الله تعالى إليه أنِ ٱدْعُهم وأنذِرْهم، فإن آمنوا وإلاّ حبستُ عنهم الغيث وٱبتليتُهم بالقحط. فدعاهم فقالوا: إنّا لا نؤمن بك ولا بربّك، فاصنع ما أنت صانع. فحبس الله عزّ وجلّ عنهم المطر، وغارت[٣] العيون وجَفّت الأشجار، فأكلوا ما عندهم حتى نَفِد، ثم أكلوا المواشيَ حتى أكلوا الكلاب والسنانير والفئران، وبلغ بهم الجوع حتى كانوا يأكلون مَنْ مات منهم، وإلياس بينهم وهم لا يرونه، ويدعونه وهو لا يجيبهم، وكان الله تعالى قد جعل أمر أرزاقهم إليه، فأوحى الله إليه أن السماءُ والأرض ومن عليها قد بكت على هؤلاء، وقد هلك كثير من خَلْقي بسببهم، وكلٌّ يدعوك ولا ترحمهم، فأنصِفْ خَلْقي يا إلياس، فإني أُعْصَى فأرزُق، وأُكْفَر فأحلُم. ففزع إلياس وقال: يا ربِّ ما غضبتُ إلا لك، وأنت أعلم بمصالح عبادك. فأوحى الله إليه أنْ سِرْ إليهم وٱدْعُهم، فإن آمنوا وإلاّ كنتُ أرأفَ بهم منك.

قال: فٱنطلق إلياس حتى صار إلى أوّل قرية من قُرى مدائنهم، فمرّ بعجوز فقال لها: هل عندك طعام؟ فقالت: وحق إلٰهي بَعْل ما ذقتُ الخبز منذ مدّة. قال: فهلاّ تؤمنين بالله! فقالت: إنّ ابني ٱلْيَسَعَ على دين إلياس، ولا أراه ينتفع به وقد أشرف على الموت من الجوع. فقال له إلياس: يا ٱلْيَسَع، أتحبّ أن تأكل الخبزَ؟ فصاح: كيف لي

---

(١) العريش: ما يستظلُّ به، والسّقف والحظيرة.

(٢) لدن: ظرف زماني ومكاني غير متمكّن، بمنزلة «عند» إلاّ أنّه أقرب مكانًا من «عند» وأخصّ منه.

(٣) غارت العيون: جفّ ماؤها ودخل جوف الأرض.

بالخبز! ومات؛ فبكت العجوز ولطمت[١]. فقال لها: إنْ أحياه الله وجاءكِ مما تأكلين أتؤمنين بالله؟ قالت نعم. فدعا الله تعالى، فقام ٱلْيَسَع وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن إلياس رسول الله، ورزقهم الله تعالى خبزًا ولبنًا، فأكلوا، وآمنت العجوز، وخرجت تُنذر قومها، فخنقوها فماتت، فٱغتمّ ٱلْيَسَعُ لذلك. فقال له إلياس: إن الله سيحييها ويجعلكما آيةً لقومكما. وخرج إلياس إلى قومه وقد ٱجتمعوا عليها يريدون أكلَها؛ فصاح بهم، فتفرّقوا عنها وقالوا: إنك أنت إلياسُ حقًّا، فدعا الله تعالى فأحياها، فأقبل القوم عليه وقالوا: ألاَ ترى ما نحن فيه منذ سبع سنين! قال: فهلاّ دعوتم صنمكم بَعْلًا ليَكشِفَ[٢] عنكم! قالوا: قد دعوناه فلم يُغنِ شيئًا. قال: فإن أغاثكم الله تعالى أتؤمنون؟ قالوا نعم. فسأل الله تعالى فأمطرهم، وجرت أنهارُهم وأنبتت أرضُهم، وأحيا الله من مات منهم من الجوع، فٱزدادوا كفرًا وعُتوًّا[٣]، فحذّرهم إلياس وأنذرهم وذكَّرهم بنعمة الله عليهم. فقالوا: إنّ القحط قد ارتفع عنّا وهيهات[٤] أن يعود أبدًا، وإن عاد فلا نبالي، قد جمعنا في منازلنا ما يكفينا زمنًا طويلاً. فدعا اللّهَ عليهم وٱعتزلهم، وقال: قد بلّغت الرسالة. وأنك لاحق بالملائكة. فاستخلف ٱلْيَسَعَ على المؤمنين[٥]؛ فقال ٱلْيَسَعُ: يا نبيّ الله، إني ضعيف بين قوم كافرين. فأوحى الله تعالى إلى ٱلْيَسَع بذلك، وخرج إلياس عن ديار قومه في يوم جمعة، فإذا هو بفَرس يلتهب نُورًا، وله أجنحة ملوَّنة، فناداه: أقبِل يا نبيّ الله. فٱستوى على ظهره، وجاءه جبريل فقال: يا إلياس طِرْ مع الملائكة حيث شئتَ، فقد كساك الله الريش، وقَطَع عنك لذّة المطعَم والمشرَب وجعلك آدميًّا مَلَكِيًّا سماويًّا أرضيًّا.

قال: ونَشَرَ الفرس أجنحته فهو يطير مع الملائكة. ثم أرسل الله عزّ وجل العذاب على قومه، فأحدقت[٦] بهم سحابةٌ من جهنم، وٱعتزلهم المؤمنون، فأحدقت السحابة بالكَفَرة، فأمطرت عليهم حجارة من العذاب. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]. قال: ثم ٱنكشفتْ عن ديارهم وقد صاروا حُمَمًا[٧] سودًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الصافات: ١٢٧ ـ ١٢٨].

---

(١) لطمت: ضربت خدّها وصفحة وجهها بالكف مبسوطة، أو بباطن كفّها.

(٢) يكشف عنكم: يزيل.

(٣) العتوّ: الاستكبار ومجاوزة الحدّ.

(٤) هيهات: اسم فعل بمعنى «بعد».

(٥) كذا في الأصل: وهو غير واضح، وفي قصص الأنبياء للكسائي ص٢٠٨: فأوحى الله أن يا إلياس قد أدّيت الرسالة وفعلت ما أمرت به فاستخلف الآن موضعك اليسع بن أخطوب فإنه قد جعلته لك خليفة على بني إسرائيل المؤمنين.

(٦) أحدقت: أحاطت.

(٧) الحمم: الفحم، أو كل ما احترق من النار.

قال: وأقام ٱلْيَسَعُ مع بني إسرائيل حتى قبضه الله تعالى.

هذا ما أورده الكسائي في أخبار إلياس وٱليسع عليهما السلام.

وأمّا ما حكاه الثّعْلبيّ ـ رحمه الله ـ في هذه القصة، فإنه قال:

قال ٱبن إسحاق[١] والعلماء من أصحاب الأخبار: لمّا قبض الله حَزْقِيلَ النبيّ عليه السلام عظُمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد، ونَسُوا عهد الله تعالى إليهم في التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عزّ وجل فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيًّا. قال الثعلبيّ: وهو إلياس بن ياسين بن فِنْحَاص بن العَيْزَار بن هارون عليه السلام.

قال: وإنما كانت الأنبياء بعد موسى عليه السلام يُبْعَثون إليهم بتجديد ما نَسُوا وضيعوا من أحكام التوراة، وبنو إسرائيل يومئذ متفرّقون في أرض الشأم وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يُوشَع لمّا فتح أرض الشأم بوّأها[٢] بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحلّ سِبْطًا[٣] منهم بَعْلَبَكَّ ونواحيها، وهم سبط إلياس، فبعثه الله تعالى إليهم نبيًّا، وعليهم يومئذ ملك يقال له «آجاب» قد أضلّ قومه وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان يعبد هو وقومُه صنمًا يقال له «بَعْل» وكان طوله عشرين ذراعًا، وكانت له أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهم في ذلك لا يسمعون منه شيئًا إلاّ ما كان من أمر المَلِك الذي كان ببعلبك[٤] فإنه صدّقه وآمن به، وكان إلياس عليه السلام يقوِّم أمرَه ويسدِّدُه ويُرشدُه، وكان لآجَاب الملك هذا ٱمرأة يقال لها «أرايل»[٥]، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غَزَاة أو غيرها، فكانت تبرُز للناس كما يبرُز زوجها وتركَب كما يركَب، وتجلس في مجلس القضاء فتَقضِي بين الناس، وكانت قتّالَةً للأنبياء، وكان لها كاتب وهو مؤمن حكيم يكتمها إيمانَه، وكان الكاتب قد خَلَّص من يدها ثلاثمائة نبيّ كانت تريد قتلَ كلِّ واحد منهم إذا بُعث، سوى الذين قتلتْهم ممن يكثُر عددهم؛ وكانت في نفسها غيرَ مُحْصَنَةٍ[٦] ولم يكن على وجه الأرض أفحشُ منها،

(١) ابن إسحاق: هو محمد بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرّخي العرب من أهل المدينة، له «السيرة النبويّة» التي هذّبها ابن هشام، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١هـ «الأعلام ٢٨/٦».

(٢) بوّأها بني إسرائيل: أي أنزلهم وأحلّهم فيها، أورثهم إيّاها.

(٣) السبط من اليهود: كالقبيلة من العرب.

(٤) بعلبك: مدينة قديمة فيها آثار عظيم وقصور على أساطين من الرخام لا نظير لها في الدنيا. بينها وبين دمشق ثلاثة أيام «معجم البلدان».

(٥) في قصص الأنبياء للثعلبي ص١٩٩ «أربيل».

(٦) غير محصنة: أي غير محافظة على عرضها.

وهي مع ذلك قد تزوّجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل وقتلتهم كلَّهم بالاغتيال؛ وكانت معمَّرة حتى يقال: إنها ولَدتْ سبعين ولدًا. وكان لآجاب هذا جارٌ من بني إسرائيل رجل صالح يقال له «مزدكِي» وكانت له جُنَينة يعيش منها ويُقبِل على عمارتها ومَرَمّتها[1]، وكانت الجُنَينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، فكانا يُشرفان على تلك الجُنَينة ويتنزّهان فيها، ويأكلان ويشربان ويَقِيلان[2] فيها، وكان «آجاب» في ذلك يُحسِن جِوار «مزدكي» صاحبها ويُحسِن إليه، وامرأته «أرايل» تَحْسُده على ذلك لأجل تلك الجُنَينة، وتحتال في أن تغتصبها منه لمّا تسمع الناس يذكرون الجُنَينة، ويتعجبون من حسنها ويقولون: ما أحرى[3] أن تكون هذه الجُنَينة لأهل هذا القصر، ويتعجّبون من الملك وامرأته كيف لم يَغصباها صاحبَها. فلم تزل المرأة تحتال على العبد الصالح «مزدكي» أن تقتله وتأخذ جُنَينَته، والملِك ينهاها عن ذلك. ثم اتفق خروج الملِكِ إلى سفر بعيد وطالت غيبته، فاغتنمت المرأةُ غَيبة الملك واحتالت على «مزدكي» صاحب الجُنَينة، وهو غافل عما تريد مُقبِلٌ على عبادة ربه وإصلاح جنينته، فجمعت «أرايل» جمعًا من الناس وأمرتْهم أن يشهدوا على «مزدكي» أنه سبّ زوجها الملكَ «آجاب»، فأجابوها إلى ملتمسها من الشهادة عليه، وكان حُكمهم في ذلك الزمان على من سبّ الملِك القتلَ إذا قامت البينة عليه بذلك. فأحضرت «مزدكي» وقالت: بلغني أنك سببت الملك وعبته، فأنكر ذلك. فقالت: إنّ عليك شهودًا، وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بحضرة الناس، فأمرت بقتل «مزدكي»، فقُتل وأُخذت جُنَينته غَصْبًا، فغضِب الله عزّ وجل عليهم للعبد الصالح. فلمّا قدم الملِكُ من سفره قال لها: ما وُفّقتِ وما أصبت، ولا أرانا نُفلح بعده أبدًا، وإنْ كنّا عن جُنَينته لأغنياء، قد كنّا نتنزّه فيها، وقد جاوَرَنا[4] وتحرّم بنا منذ زمان طويل، فأحسنّا جِوَارَه، وكفَفنا عنه الأذى لوجوب حقّه علينا، فختمتِ أمره بأسوأ حال الجِوَار. وما حملَكِ على اجترائِك عليه إلاّ سَفَهُكِ وسوء رأيِك وقلّةُ عقلِك وقلّةُ تفكّرك في العواقب. فقالت: إنما غضِبتُ لك وحكمتُ بحكمك. قال: أو ما كان يَسَعُه حلمُك ويَحْدُوكِ[5] عِظَمُ خَطَرِك على العفو عن رجلٍ واحدٍ فتحفظين له جوارَه! قالت: قد كان ما كان.

---

(١) المرمّة: متاع البيت.

(٢) يقيلان فيها: من قال يقيل قيلاً، أي نام وسط النّهار، والقيلولة: هي الغفوة وسط النّهار في الظلّ.

(٣) ما أحرى: ما أجدر.

(٤) تحرّم بنا: أي استجار ونزل في حرمتنا.

(٥) يحدوك: يدفعك ويبعثك.

فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى «آجاب» الملِكِ وقومه، وأمره أن يخبرهم أنّ الله تعالى قد غضب لوليّه حين قتلوه بين أظهُرِهم ظلمًا، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يردّا الجُنَينة على ورثة «مزدكي» أن يُهلكهما، يعني «آجاب» وٱمرأته، في جوف الجنينة أشر ما يكون بسفك دمهما، ثم يدعهما جيفتين مُلقاتين فيها حتى تتعرّى عظامُهما من لحومهما، ولا يُمتَّعان بها إلا قليلاً.

قال: فجاء إلياس عليه السلام إلى الملِك وأخبره بما أوحى الله عزّ وجل إليه في أمره وأمر ٱمرأته والجُنَينة. فلمّا سمع الملِك ذلك ٱشتدّ غضبه عليه، ثم قال له: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعونا إليه إلاّ باطلاً، والله ما أرى فلانًا وفلانًا ـ سمَّى ملوكًا منهم قد عبدوا الأوثان ـ إلاّ على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون ويتنعَّمون مملَّكين، ما يَنْقص من دنياهم أمرُهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل.

قال: وهمَّ الملِك بتعذيب إلياس وقتلِه. فلمّا سمع إلياس عليه السلام ذلك وأحس بالشرّ، رفضه وخرج عنه. فلحق بشواهق الجبال، ودعا الملِكُ[١] الناسَ إلى عبادة بَعْل، وٱرتقى إلياسُ عليه السلام أصعب جبل وأشمَخه[٢]، فدخل مغارةً فيه. فيقال: إنه بَقِيَ فيه سبع سنين شَرِيدًا طَرِيدًا خائفًا، يأوي الشِّعاب[٣] والكهوف، ويأكل من نبات الأرض وثمارِ الشجر وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون يتوكفون[٤] أخباره ويجتهدون في أخذه، والله تعالى يستره ويدفع عنه. فلمّا تمّت له سبعُ سنين أذِن الله تعالى في إظهاره عليهم، وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله تعالى ٱبنًا لآجاب الملِك وكان أحبَّ ولدِه إليه وأعزَّهم عليه وأشبهَهم به، فأدنفَ[٥] حتى يُئس منه، فدعا صنمه بَعْلاً؛ وكانوا قد فُتِنوا به وعظّموه حتى[٦] جعلوا له أربعَمائة سادِن[٧] وكَّلوهم به وجعلوهم أنبياءه، وكان الشيطان يوسوس إليهم بشريعة من الضلالة، فيبيّنونها للناس فيعملون بها، ويسمُّونهم الأنبياء. فلمّا ٱشتدّ مرض ٱبنِ الملكِ طَلب إليهم أن يشفَعوا إلى بَعْل، ويطلبوا لاْبنه من قِبَله الشفاء والعافية، فدعَوْه فلم يجبهم،

(١) في قصص الأنبياء للثعلبي: «وعاد الملك إلى عبادة بعل».
(٢) أشمخه: أرفعه.
(٣) الشّعاب: مفردها الشّعب وهو الانفراج بين الجبلين.
(٤) يتوكّفون أخباره: ينتظرونها ويسألون عنها.
(٥) أدنف المريض: ثقل مرضه وأدناه إلى الموت.
(٦) في قصص الأنبياء للثعلبي: «حتى سمّوا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا الخ. . .».
(٧) السّادن: خادم بيت العبادة.

ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الوُلوجُ في جوفه، وهم مجتهدون في التضرُّع إليه، وهو لا يزداد مع ذلك إلاّ خمودًا[١]. فلمّا طال عليهم ذلك قالوا لآجاب: إن في ناحية الشأم آلهةً أخرى، وهي في العِظَم مثلُ إلٰهك، فابْعَثْ إليها أنبياءك فليشفعوا لك إليها، فلعلها أن تشفع لك، إلى إلٰهك بَعْل فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لقد كان أجابك وشَفَى لك ٱبنَك. قال آجاب: ومن أجل ماذا غضِب عليّ وأنا أُطيعه وأطلب رضاه منذ كنت لم أُسخطه ساعةً قطّ؟ قالوا: من أجل أنّك لم تقتل إلياس وفرّطتَ فيه حتى نجا سليمًا وهو كافر بإلٰهك يعبد غيره، فذلك الذي أغضبَه عليك. قال آجاب: وكيف لي أن يقتل إلياس يومي هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ٱبني وليس لإلياسَ مطلب، ولا يُعْرَف له موضع فيُقصَد، فلو عُوفيَ ٱبني لتفرَّغتُ لطلبه، ولم يكن لي همٌّ ولا شغل غيره حتى آخُذَه فأقتله فأريحَ إلٰهي منه وأُرضيَه.

قال: ثم ٱندفعتْ أنبياؤه الأربعمائة ليَشفعوا إلى الأرباب التي بالشأم ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملِك ليشفي ٱبنه، فٱنطلقوا حتى إذا كانوا بحِيال[٢] الجبل الذي فيه إلياس أوحَى الله عزّ وجل إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضَهم ويستوقفَهم ويكلِّمَهم، وقال له: لا تَخفْ فإنّي سأصرف عنك شرَّهم، وأُلقِي الرعبَ في قلوبهم. فنزل إلياس عليه السلام من الجبل، فلمّا لقيهم ٱستوقفهم فوقفوا، وقال لهم: إنّ الله عزّ وجل أرسلني إليكم وإلى مَن وراءكم، فٱستمعوا أيّها القوم رسالةَ ربكم لتبلغوا صاحبكم، فٱرجِعوا إليه وقولوا له: إنّ الله تعالى يقول لك: ألستَ تعلم يا آجاب أنّي أنا الله لا إلٰه إلاّ أنا إلٰهُ بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم، أفجهلُك وقلّةُ علمِك حملك على أن تُشرك بي وتطلبَ الشفاء لٱبنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئًا إلاّ ما شئتُ. إني حلفتُ بٱسمي لأغيظنّك في ٱبنك ولأُميتنّه في فوري هذا حتى تعلم أنّ أحدًا لا يملك له شيئًا دوني. فلمّا قال لهم إلياس هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رعْبًا. فلمّا صاروا إلى الملك قالوا له ذلك، وأخبروه أنّ إلياس ٱنحطّ عليهم، وهو رجلٌ نحيفٌ طُوالٌ[٣] قد قَشِفَ[٤] وقَحِلَ[٥] وتمعَّط[٦] شَعرُه وتقشّر جلدُه، عليه

(١) الخمود: الركون، وخمدت النار: سكنت.

(٢) حيال الجبل: قبالته وإزاؤه.

(٣) طوال: أي طويل.

(٤) قشف: يقال: قشف فلان: إذا كان رثّ الهيئة أو يبس عيشه، أو قذر جلده وخشن لأنه لم يتعهّده بالنظافة.

(٥) قحل: يبس، ومنه تقحّل الشيخ: إذا يبس جلده من البؤس والكبر.

(٦) تمعّط شعره: تمرّط وسقط من داء يعرض له.

جبّة[١] من شعر وعباءة قد خلّها[٢] على صدره بخِلال، فاستوقفَنا، فلمّا صار معنا قُذِفَتْ في قلوبنا الهيبة والرُّعب، وانقطعت ألسنتُنا، ونحن في هذا العدد الكثير وهو واحد، فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك، وقصّوا عليه كلامَ إلياس عليه السلام. فقال آجاب: لا ننتفع بالحياة ما دام إلياس حيًّا. ما الذي منعكم أن تبطِشوا به حين لقيتموه وتُوثِقوه وتأتوني به، وأنتم تعلمون أنه طِلبَتِي وعدوّي. قالوا: أخبرناك بالذي مَنَعنا منه ومن كلامه والبطش به. قال آجاب: ما يُطاق إذًا إلياس إلاّ بالمكر والخديعة. فقيّض له خمسين رجلاً من قومه ذوي قوّة وبأس، وعهِد إليهم عهدَه، وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال[٣] به وأن يُطمِعوه في أنهم قد آمنوا به هم ومَن وراءهم، ليستنيم[٤] إليهم ويغترَّ بهم، فيمكّنهم من نفسه، فيأتوا به الملِك. فانطلقوا حتى ارتقَوْا ذلك الجبل الذي فيه إلياس عليه السلام ثم تفرّقوا فيه وهم ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون: يا نبيّ الله، ابرُزْ لنا وأنت آمِنٌ على نفسك فإنا قد آمنا بك وصدّقناك، وملكنا آجاب، وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون: قد بلّغتَنا رسالةَ ربِّك، وعرفنا ما قلتَ، وآمنّا بك، وأجبناك إلى ما دعوتَنا، فهلمّ إلينا فأنت نبيُّنا ورسولُ ربِّنا، فأقِم[٥] بين أظهرنا واحكم فينا؛ فإنّا ننقاد لما أمرتَنا، وننتهي عمّا نهيتَنا، وليس يسعك أن تتخلّف عنّا مع إيماننا وطاعتنا، فتَدارَكْنا وارجع إلينا. وكلّ هذا كان منهم مُماكرةً وخديعةً. فلمّا سمع إلياس عليه السلام مقالَتهم وقعتْ بقلبه وطمِع في إيمانهم وخاف الله تعالى وأشفق من سُخْطه إن هو لم يَظهَر لهم ولم يُجبهم بعد الذي سمع منهم. فلمّا أجمع على أن يبرُز لهم رجع إلى نفسه فقال: لو أنّي دعوتُ الله عزّ وجلّ وسألتُه أن يُعلِمني ما في أنفسهم ويُطْلِعَني على حقيقة أمرهم. فقال: اللهمّ إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذَنْ لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمِهم بنار تُحرِقهم. فما استتمّ قوله حتى حُصِبُوا[٦] بالنار من فوقهم، فاحترقوا أجمعين.

قال: وبلغ آجابَ الخبرُ فلم يرتدع، واحتال ثانيًا في أمر إلياس، وجهَّز فئةً أُخرى مثلَ عدد أولئك أقوى منهم وأمكنَ في الحيلة والرأي، فأقبلوا حتى ارتقَوْا

(١) الجبّة: ثوب سابغٌ واسع الكمّين مشقوق المقدّم، يلبس فوق الثياب.

(٢) خلّها على صدره: أي جمع أطرافها بخلال، والخلال: عودٌ يثقب به.

(٣) الاغتيال به: لعل المراد هنا أخذه من حيث لا يدري على حين غفلة.

(٤) يستنيم إليهم: يميل ويأمن جانبهم فلا يفرّ منهم أو يحاذرهم.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي.

(٦) حُصبوا بالنار: رُميوا بها.

قُلَل[١] تلك الجبال متفرقين[٢]، وجعلوا ينادون: يا نبيّ الله، إنّا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسَطَواته. إنّا لسنا كالذين أتَوك من قَبْلنا، إنّ أولئك فرقة نافقتْ وخالفتْنا، فصاروا إليك ليكيدوك[٣] من غير رأينا ولا علم منّا، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك، وخرجوا إليك سرًّا، ولو علِمنا بهم لقتلناهم ولَكفيناك مؤنتهم، والآن فقد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم بسوء نيّاتهم وأنتقم لنا ولك منهم. فلمّا سمع إلياس عليه السلام مقالَتهم دعا الله تعالى بدعوته الأولى، فأمطر الله عليهم النار، فأحترقوا عن آخرهم، كلّ ذلك وأبن الملِك في البلاء الشديد من وجعه ـ كما وعده الله تعالى على لسان نبيّه إلياس ـ لا يُقْضَى عليه فيموت، ولا يخفَّف عنه من عذابه.

قال: فلمّا سمع الملِك بهلاك أصحابه ثانيًا أزداد غضبًا إلى غضبه، وأراد أن يخرج[٤] في طلب إلياس بنفسه، إلاّ أنه شغله عن ذلك مرضُ أبنه فلم يمكنه، فوجّه نحو إلياسَ الكاتبَ المؤمنَ الذي هو كاتب أمرأته رجاءَ أن يأنَس به إلياس فينزلَ معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءًا. وإنما أظهر له ذلك لَما أطّلع عليه من إيمانه، وكان الملِك مع أطّلاعه يغُضّ عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسَدادِ الرأي، فوجّهه نحوه، وأرسل معه فئةً من أصحابه،وأوعَزَ إلى الفئة دون الكاتب أن يُوثِقوا إلياس ويأتُوه به إن أراد أن يتخلّف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقًا به آنسًا بمكانه لم يُوحِشُوه ولم يروّعوه، ثم أظهر آجاب للكاتب الإنابة[٥] وقال: إنه قد آن لي أن أتوب وأتّعظ، وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني؛ وقد عرفتُ أنّ ذلك بدعوة إلياس، ولستُ آمَنُ أن يدعوَ على جميع مَن بقِي منّا فَنهلِك بدعوته. فأنطلِقْ إليه وأخبره أنّا قد تُبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضا ربّنا وخلعِ أصنامنا إلاّ أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا، ويُخبِرُنا بما يرضَى به ربُّنا. وأمر الملِك قومه فأعتزلوا الأصنام، وقال له: أخبر إلياس بأنّا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد وأرجأنا[٦] أمرَها حتى ينزل إلياس إلينا، فيكون هو الذي يُحرِقها ويُهلِكها وكان ذلك مكرًا من الملك. فأنطلق الكاتب والفئةُ حتى عَلَوا الجبل

---

(١) قُلل الجبال: مفردها قُلّة، بضمّ القاف، وقُلّة كل شيء قمته وأعلاه.

(٢) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي.

(٣) في قصص الأنبياء للثعلبي «ليمكروا بك».

(٤) في الأصل «إلى طلب إلياس» والتصويب عن الثعلبي.

(٥) الإنابة: التوبة والرّجوع عن الغيّ والضلال.

(٦) في الأصل: وأرجينا أمرنا والتصويب عن الثعلبي.

الذي فيه إلياس عليه السلام ثم ناداه الكاتب، فعرف إلياس صوتَه، فتاقتْ نفسُه إليه وأنِسَ بمكانه وكان مشتاقًا إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أنِ ٱبرُز إلى أخيك الصالح فالْقَه وجدِّد العهدَ به، فبرز إليه إلياس وسلَّم عليه وصافحه، وقال له: ما الخبر؟ قال له المؤمن: إنّه قد بعثني إليك هذا الجبّار الطاغيةُ وقومُه، ثم قصّ عليه ما قالوا، ثم قال: وإنّي خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معي أن يقتلني، فمُرْني بما شئتَ أن أفعلَه وأنتهيَ إليه، [إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه، وإن شئتَ جاهدتُه معك](١) وإن شئتَ فأرسلني إليه بما تحبّ فأبلّغه رسالتك، وإن شئتَ دعوتَ ربّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا.

قال: فأوحى الله عزّ وجل إلى إلياس عليه السلام أنّ كلّ شيء جاؤوك به مكرٌ وخديعةٌ ليَظفَروا بك، وأن «آجاب» إن أخبرتْه رسلُه أنّك قد لَقِيتَ هذا الرجل ولم يأتِ بك إليه ٱتّهمَه وعرفَ أنه قد داهن(٢) في أمرك، فلم يأمن أن يقتله، فٱنطلِقْ معه فإنّ في ٱنطلاقك معه عذره وبراءته عند آجاب، وإني سأشغَل عنكما آجاب، وأضاعِفُ على ابنه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره، وأُمِيته على شرّ حال، فإذا مات فٱرجِع عنه ولا تُقِم. فانطلَق معهم حتى قَدِموا على آجاب، فلمّا قدموا عليه شدّد الله تعالى على ابنه الوجع، وأخذه الموت، فشَغَل الله تعالى آجاب وأصحابه بذلك عن إلياس، فرجع إلياس سالمًا إلى مكانه. فلمّا مات ابن آجاب وفرغوا منه وقلّ جزعه، انتبَه لإلياس وسأل عنه الكاتبَ الذي جاء به، فقال: ليس لي به علم، وذلك أنّه شغلني عنه موتُ ابنِك والجزعُ عليه، ولم أكن أحسبك إلاّ قد ٱستوثقتَ منه. فأضرب(٣) عنه آجاب وتركه لما كان فيه من الحزن على ابنه. فلمّا طال الأمر على إلياس ملّ الكُمُونَ(٤) في الجبال والمُقامَ بها وٱشتاق إلى العُمْران وإلى الناس فنزل من الجبل، وٱنطلق حتى نزل بٱمرأة من بني إسرائيل، وهي أمّ يونس بن متّى [ذي النون. فٱستخفى عندها ستة أشهر](٥)، ويونس يومئذ مولودٌ يرضع، وكانت أُمّ يونس تخدِمُه بنفسها، وتواسيه بذات يدها، ولا تدّخر عنه كرامة(٦) تقدِر عليها.

ثم إنّ إلياس سئم ضِيق البيوت بعد مُقامِه بالجبال وسَعَتها، فأحبّ أن يلتحقَ بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه، فجزِعتْ أمّ يُونس لفراقه وأوحشَها فقدُه، ثم لم تَلبث إلاّ يسيراً حتى مات ٱبنها [يونس] حين فطمتْه، فعظمتْ مصيبتها فيه، فخرجتْ في

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٢) داهن: نافق وغشّ وخدع.
(٣) أضرب عنه: أعرض.
(٤) الكمون: الاستتار والإقامة.
(٥) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٦) الكرامة: المعروف والإحسان والخدمة.

طلب إلياس، فلم تَزل تَرقى الجبال وتطُوف [فيها][١] حتّى عثرت عليه ووجدتْه، فقالت: إنّي قد فُجِتُ بموت ٱبني بعدَك، فعظمت فيه مصيبتي، وٱشتدّ لفقده بلائي، وليس لي ولد غيرُه، فٱرحمني وٱدْعُ ربّك جلّ جلاله فيحيي لي ٱبني، ويجبر مصيبتي، وإني قد تركته مسجًّى[٢] لم أدفنه، وإني قد أخفيتُ مكانه. فقال لها إلياس: ليس هذا ممّا أُمرتُ به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني به ربّي، ولم يأمرني بهذا. فجزعتِ المرأة وتضرَّعتْ، فعطّف الله سبحانه وتعالى قلبَ إلياس عليها، فقال لها: ومتَى مات ٱبنُكِ؟ قالت: منذ سبعة أيام. فٱنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى ٱنتهى إلى منزلها فوجد ٱبنَها يونس ميتًا منذ أربعة عشر يومًا، فتوضّأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله تعالى يونسَ بنَ متّى بدعوة إلياس. فلمّا عاش وجلس وثب إلياس وٱنصرف وعاد إلى موضعه. والله أعلم.

ذكر دعاء إلياس على قومه، وما حلّ بهم من القحط وخبر ٱلْيَسَع حين ٱتّبع إلياس

قال: ولمّا طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذَرْعًا[٣] وأجهده البلاء، فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهودٌ: يا إلياس، ما هذا الحزن والجَزَع الذي أنت فيه! ألستَ أميني على وحيي، وحُجّتي في أرضي، وصفوتي من خَلْقي! فسَلْني أُعطِك فإنّي ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم. قال: تميتُني فتُلحقني بآبائي، فإنّي قد مَلِلتُ بني إسرائيل ومَلّوني، وأبغضتُهم فيك وأبغضوني. فأوحَى الله تعالى إليه: يا إلياس، ما هذا باليوم الذي أُعرِي منك الأرضَ وأهلَها، وإنّما قِوامُها وصلاحُها بك وبأشباهِك إن كنتم صبرتم قليلاً، ولكن تسألني فأعطيك. قال إلياس: فإن لم تُمِتني يا إلهي فأعطني ثأري من بني إسرائيل. قال الله تعالى: وأي شيء تريد أن أعطيَك يا إلياس؟ قال: تمكنني من خزائن السماء سبعَ سنين، فلا تُنشِىء[٤] عليهم سحابةً إلاّ بدعوتي، ولا تُمطِر عليهم سبعَ سنين قطرةً إلاّ بشفاعتي، فإنهم لا يُذِلّهم إلاّ ذلك. قال الله تعالى: يا إلياس، أنا أرحم بخَلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: ستَّ سنين. قال: أنا أرحم بخَلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: فخمس سنين. قال: أنا أرحم بخَلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين، ولكني أُعطيك ثلاثَ سنين

---

(١) زيادة عن الثعلبي. (٢) مسجّى: مغطّى.

(٣) ضاق بالأمر ذرعًا: لم يقدر عليه، وأصابه القلق والتبرُّم.

(٤) لا تنشىء: يقال: نشأت السّحابة: أي ارتفعت وبدت وأنشأها الله: رفعها وأبداها.

أجعل خزائن المطر بيدك، فلا تَنشأُ عليهم سحابةٌ إلاّ بدعوتك، ولا تَنزِل عليهم قطرةٌ إلاّ بشفاعتك. قال إلياس: فبأيّ شيء أعيش؟ قال: أُسخِّر جيشًا من الطير تنقل إليك طعامَك وشرابك من الريف والأرض التي لم تَقْحَط. قال إلياس: قد رضيت. قال: فأمسك الله عزّ وجل عنهم المطر حتى هلكت الماشيةُ والدوابُ والهوامُ[1] والشجرُ وجُهِد[2] الناس جَهْدًا شديدًا وإلياسُ على حالته مُستخفٍ من قومه يوضع له الرزقُ حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومُه، فكانوا إذا وجدوا ريحَ ٱلخبز في بيت قالوا: لقد دخل إلياس هذا البيتَ وطلبوه، ولقِيَ أهلُ ذلك المنزل منهم شرًّا.

قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: أصاب بني إسرائيل ثلاثَ سنين القحطُ، فمرّ إلياس عليه السلام بعجوز فقال لها: هل عندكِ طعام؟ قالت: نعم، شيء من دقيق وزيت قليل. فجاءته بشيء من الدقيق والزيت، فدعا فيهما بالبركة ومسّهما، فبارك الله في ذلك حتى ملأت جُرُبَها[3] دقيقًا وملأت خَوابِيَها زيتًا. فلمّا رأوْا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا، فوصفت صفتَه، فعرفوه وقالوا: ذلك إلياس؛ فطلبوه فوجدوه فهربَ منهم.

ثم أوى ليلةً إلى بيت ٱمرأة من بني إسرائيل لها ٱبن يقال له: ٱلْيَسَع بن أخطوب به ضرّ[4]، فآوتْه وأخفتْ أمرَه، فدعا له فعُوفيَ من الضرّ الذي كان به، وٱتّبع ٱلْيَسَعُ إلياسَ وآمن به وصدّقه ولزمه، وكان يذهب به حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسنّ وكَبِر، وكان ٱلْيَسَعُ غلامًا شابًا.

ذكر رفع البلاء عن قوم إلياس بدعوته واستمرارهم على الكفر ورفع إلياس وهلاك آجاب الملك وٱمرأته، ونبوّة ٱلْيَسع

قال: ثم أوحَى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام إنك قد أهلكتَ كثيرًا من الخلق ممن لم يَعْصِ سوى بني إسرائيل من البهائم والدوابّ والطير والهوامّ والشجر بحبس المطر عن بني إسرائيل. فيزعمون ـ والله أعلم ـ أنّ إلياسَ قال: يا ربّ دَعْني أكُنِ الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج ممّا هم فيه من البلاء الذي أصابهم لعلّهم أن

---

(١) الهوام: المراد بها الحشرات والزواحف.

(٢) جُهد الناس: أصابهم الإنهاك والتعب والجدب.

(٣) الجُرُب: جمع جراب، وهو وعاء يحفظ فيه الزّاد ونحوه.

(٤) الضرّ: ما كان من سوء حال أو فقر أو شدّة في بدن.

يرجعوا ويَنزِعوا[١] عمّا هم عليه من عبادة غيرِك. قيل له: نعم. فجاء إلياس عليه السلام إلى بني إسرائيل فقال لهم: إنكم قد هلكتم جوعًا وجَهْدًا، وهلكت البهائمُ والدّوابُ والطيرُ والهَوَامُّ والشجرُ بخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور. فإن كنتم تحبُّون أن تعلموا ذلك فاْخرجوا بأصنامكم هذه، فإن اْستجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنَزعتم، ودعوتُ الله عزّ وجلّ ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفتَ. فخرجوا بأوثانهم فدعَوْها فلم تستجب لهم، ولم تفرّج عنهم ما كانوا فيه [من البلاء][٢]. ثم قالوا لإلياس: يا إلياس، إن الله قد أهلكنا، فاْدعُ الله لنا. فدعا اللّهَ تعالى لهم ومعه[٣] اْليسع بالفرج ممّا هم فيه وأن يُسقَوْا، فخرجت سحابةٌ مثل التُّرْس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبَّقت[٤] الآفاق، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر [فأغاثهم][٥] وحيِيَتْ بلادهم.

فلمّا كشف الله تعالى عنهم الضُّرّ نقضوا العهد ولم يَنزِعوا عن كفرهم، ولم يُقلِعوا[٦] عن ضلالتهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه. فلمّا رأى إلياس عليه السلام ذلك دعا الله تعالى أن يريحه منهم؛ فقيل له ـ كما يزعمون ـ: أنظِرْ[٧] يومَ كذا وكذا فاْخرُجْ فيه[٨] إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فاْركبه ولا تَهَبْه. فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذي أُمِر إلياس به، أقبلَ فرس من نار حتى وقف بين يديه، فوثبَ عليه إلياس، فاْنطلق الفرسُ به، فناداه اْليسع، يا إلياس: ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائه من الجوّ الأعلى، كان ذلك علامةَ اْستخلافه إيّاه على بني إسرائيل، فكان [ذلك][٩] آخر العهد به. ورفع الله عزّ وجلّ إلياسَ من بين أظهُرهم، وقطع عنه لذّة المطعم والمَشرَب، وكساه الرِّيش، فكان إنسيًّا مَلَكيًّا أرضيًّا سماويًّا، وسلّط الله على آجاب الملِكِ وقومه عدوًّا لهم فقصدهم من حيث لم يَشعُروا [به][١٠] حتى رَهِقَهم[١١]، فقُتل آجاب واْمرأته أرايل في بستان مزدكي، فلم تزل جِيفتاهما ملقاتَين في تلك الجُنَينة حتى بَلِيتْ لحومُهما ورَمّت عظامُهما[١٢].

(١) ينزعوا: يتخلّوا ويكفّوا.
(٢) زيادة عن الثعلبي.
(٣) في الأصل: «ومعهم» والتصويب عن الثعلبي.
(٤) طبّقت الآفاق: غطتها.
(٥) زيادة عن الثعلبي.
(٦) يقلعوا: ينتهوا ويتخلّوا.
(٧) انظر: بمعنى انتظر.
(٨) زيادة عن الثعلبي.
(٩) في الأصل: فيهم والتصويب عن الثعلبي.
(١٠) زيادة عن الثعلبي.
(١١) رهقهم: قرب منهم وأصابهم شرّه وظلمه.
(١٢) رمّت عظامهما: بليت.

ذكر نبوّة ٱلْيَسَع عليه السلام

قال أبو إسحاق رحمه الله تعالى: ولمّا رفع الله تعالى إلياسَ عليه السلام نبأ ٱلْيَسَعَ وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحَى إليه وأيّده بما أيّد به عبدَه إلياس؛ فآمنتْ به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه وينتهُون إلى أمره، وحُكْمُ الله تعالى قائمٌ فيهم إلى أن فارقهم ٱلْيَسَع عليه السلام.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله بسند رفعه إلى عبد العزيز بن أبي روّاد[١] قال: إلياسُ والخَضِرُ[٢] عليهما السلام يصومان شهرَ رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسمَ في كلّ عام.

وروي بسند رفعه إلى زيدٍ مَولى عون الطُّفَاوِيّ[٣] عن رجل من أهل عَسْقلان[٤] أنّه كان يمشي بالأُرْدُنّ نصفَ النهار، فرأى رجلاً فقال له: يا عبد الله، من أنت؟ قال: فجعل لا يكلّمني. فقلتُ: يا عبد الله، من أنت؟ قال: أنا إلياس. قال: فوقعتْ عليّ رِعْدة[٥]، فقلتُ: أُدع اللّهَ يَرفع عنّي ما أجد حتى أفهم حديثَك وأعقِلَ عنك. قال: فدعا لي بثمانِ دَعَوات: يا برّ، يا رحيم، يا حنّان، يا منّان، يا حيّ، يا قيوم، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما. قال: فرفع الله عنّي ما كنتُ أجد، فوضع كفّه بين كَتِفيّ، فوجدتُ بَرْدَها بين يديّ. قال فقلت: يُوحَى إليك اليوم؟ قال: منذ بعث الله محمدًا رسوله فإنه ليس يُوحَى إليّ. قال قلتُ له: كم من الأنبياء اليومَ أحياء؟ قال: أربعة، ٱثنان في الأرض، وٱثنان في السماء، في السماء عيسى وإدريس، وفي الأرض إلياس والخضِر. قلتُ: كم الأبدال[٦]؟ قال: ستون رجلاً، خمسون منهم من لَدُن

---

(١) هو عبد العزيز بن أبي روّاد، مولى المهلّب بن أبي صفرة محدّث ثقة، عابد، من المرجئة، توفي سنة ١٥٩هـ «الكاشف ٢/ ١٧٥».

(٢) الخضر: هو العبد الصالح الذي وردت قصته في القرآن الكريم مع نبيّ الله موسى في سورة الكهف.

(٣) الطُّفاوي: بضمّ الطاء: نسبة إلى طفاوة من قيس عيلان.

(٤) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام وقد نزلها جماعة من الصحابة والتابعين وحدّث بها خلق كثير «معجم البلدان ٤/ ١٢٢».

(٥) الرّعدة: الخوف والاضطراب.

(٦) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، بهم يقيم الله عزّ وجل الأرض، قال ابن دريد: هم سبعون رجلاً، أربعون منهم بالشام وثلاثون بغيرها، وقيل: لا يموت أحدهم إلاّ قام به آخر من سائر الناس.

عَرِيش[١] مِصر إلى شاطىء الفُرَات؛ ورجلان بالمَصِّيصة[٢]، ورجلان بعَسْقلان، وستة في سائر البلدان، كلّما أذهب الله واحدًا جاء بآخر [مكانه] بهم يدفع الله عن الناس [البلاء] وبهم يُمْطَرون. قلت: فالخَضِر أين يكون؟ قال: في جزائر البحر. قلتُ: فهل تلقاه؟ قال: نعم. قلت: أين؟ قال: بالمَوْسم. قلتُ: فما يكون من حديثكما؟ قال: يأخذ من شِعْري وآخذ من شعْره. قال: وذلك حين كان بين مَرْوان بن الحَكَم[٣] وبين أهل الشأم قتال. قال: فقلتُ: ما تقول في مَرْوانَ بنِ الحَكَم؟ قال: ما تصنع به! [رجلٌ جبّار][٤] عاتٍ على الله عزّ وجلّ القاتل والمقتول والشاهد في النار.

قال قلت: فإني قد شهِدتُ فلم أطعُن برمْح ولم أرمِ بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله عزّ وجلّ أن أعود إلى ذلك المقام أو مثله أبدًا. قال: أحسنتَ، هكذا فكن.

قال: فإني وإيّاه قاعدان إذ وُضع بين يديه رغيفان أشدّ بياضًا من الثلج، أكلتُ أنا وهو رغيفًا وبعضَ آخرَ ثم رُفع، فما رأيتُ أحدًا وضعه ولا أحدًا رفعه.

قال: وله ناقة ترعى في وادي الأُرْدُنّ، فرفع رأسه إليها، فما دعاها حتى جاءت فبَرَكَتْ بين يديه فركبها. قلتُ: أُريد أن أصحبك. قال: إنك لا تقدِر على صُحبتي. قلتُ: إني خِلْوٌ ما لي زوجة ولا عيال. قال: تَزَوّجْ، وإيّاكَ والنساءَ الأربعَ، إيّاك والناشِزَ[٥]، والمختلِعةَ[٦]، والملاعنة[٧]، والمبارئة[٨]، وتزوّج ما بدا لك من النساء.

---

(١) عريش مصر: هي مدينة كانت أوّل عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم وسط الرّمل، وهي مدينة جليلة كانت حرس مصر أيام فرعون، وهي آخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر «معجم البلدان ٤/ ١١٤».

(٢) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم، تقارب طرسوس، وكانت من أشهر ثغور المسلمين وقد رابط بها الصالحون قديمًا «معجم البلدان ٥/ ١٤٤».

(٣) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص، أبو عبد الملك، خليفة أموي وإليه ينسب «بنو مروان» ودولتهم، ولد بمكة ونشأ بالطائف وسكن المدينة، مات سنة ٦٨٥م «الأعلام ٧/ ٢٠٧».

(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٥) الناشز: المرأة التي تكره زوجها وتبغضه وتستعصي عليه فيضربها ويجفوها.

(٦) المختلعة: المرأة التي تبذل مالاً لزوجها ليطلّقها.

(٧) الملاعنة: المرأة التي يرميها زوجها برجل أنّه زنى بها، فالإمام يلاعن بينهما. (انظر القرآن الكريم سورة النور الآيات ٦ ـ ٩).

(٨) المبارئة: المرأة التي تبرىء الرجل من حقوقها للمفارقة.

قال: قلت: فإني أحبّ لقاءك. قال: إذا رأيتني فقد رأيتني، ثم قال: إني أريد أن أعتكف في بيت المقدس في شهر رمضان. قال: ثم حالت بيني وبينه شجرة، فوالله ما أدري كيف ذهب.

فهذا ما أورده في خبر إلياس وٱليسع عليهما السلام. والله أعلم.

ذكر خبر عَيلى وأشمويل[(١)] وما يتّصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: قال وهبُ بنُ مُنَبِّه: لمّا قبض الله تعالى ٱلْيَسَعَ عليه السلام أخلفت في بني إسرائيل الخلوف[(٢)]، وعَظُمتْ فيهم الخطايا، وكان عندهم تابوت يتوارثونه صاغِرًا عن كابرٍ[(٣)]، فيه السَّكِينة[(٤)] وبقيّة[(٥)] ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون، وكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدِّمون التابوتَ إلاّ هَزَمَ الله ذلك العدوّ. وكان الله تبارك وتعالى قد بارك لهم في جَبَلهم، لا يدخله عدوّ، ولا يحتاجون معه إلى غيره. وكان أحدهم ـ فيما يذكرون ـ يضع الترابَ على الصَّخْرة ثم ينثر فيه الحَبّ فيُخرِج اللّهُ تعالى له ما يأكله سنةً هو وعيالُه. ويكون لأحدهم الزيتونةُ فيعتصر منها ما يأكله سنةً هو وعيالُه. فلمّا عَظُمتْ أحداثهم وكثرتْ ذنوبهم وتركوا عهدَ الله إليهم سلّط الله عليهم العمالقة ـ وهم قوم [كانوا][(٦)] يسكنون غَزّة[(٧)] وعَسْقلان وساحلَ بحر الروم ما بين مصرَ

---

(١) في الكتاب المقدّس ١/ ٤٤٥ «حموئيل». (٢) الخلوف: من لا خير فيهم من الأجيال.

(٣) قوله (يتوارثونه ـ أي التابوت ـ صاغرًا عن كابر) الصاغر الذليل وضده الكابر وهو الرفيع الشأن أو الذي فاق غيره في رفعة الشأن ويقال: توارثوا المجد كابرًا عن كابرٍ أي شريفًا بعد شريف. ويظهر أن هذا التعبير من قبيل الأمثال والأمثال لا تغير. وقد ذكره أرباب المعاجم بهذا التركيب وعلى هذا الشكل فقط ولم نرهم ذكروا (صاغرًا عن كابر) وكأن من ابتدع هذا التركيب ظنَّ أن (الصاغر) بمعنى الصغير و(الكابر) بمعنى الكبير على معنى أن الصغير تلقى المجد عن الكبير. وليس الأمر كما توهم وإنما معنى الصاغر والكابر ما قلنا. والمقام هنا أي في كلام المؤلف يستدعي أن يقال (كابرًا عن كابر) أي أن تابوت العهد كان يقوم بحفظه وكلأته نبي بعد نبي أو شريف بعد شريف من بني إسرائيل. أما أن صاغرًا ذليلاً من شعب إسرائيل يقوم بحفظ التابوت بعد أن يكون في حفظ شريف منهم وكلأته ـ فهذا غير مراد ولا متصور الوقوع فصواب العبارة ما قلنا وقالته المعاجم وتوارثنا استعماله كابرًا عن كابر من شيوخنا وبلغاء كتابنا.

(٤) السكينة: قال ابن عطيّة: الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى «انظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩».

(٥) البقية: قال أبو صالح: البقيّة: عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة «انظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠».

(٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٧) غزّة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقلّ، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان «معجم البلدان ٤/ ٢٠٢».

وَفِلَسْطين ـ وكان جالوت الملك منهم فظهروا على بني إسرائيل، وغلبوهم على كثير من أرضهم وسبَوْا كثيرًا من ذرارِيهم[١] وأسروا من أبناء ملوكهم أربعَمائة وأربعين غلامًا، فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا تَوْراتهم، ومكثوا على اضطراب من أمرهم واختلافٍ من حالهم يتمادَوْن أحيانًا في غيّهم[٢] وضلالتهم، فسلّط الله عليهم مَن ينتقم منهم ليراجعوا التوبة، حتى بعث الله تعالى فيهم طالوتَ ملِكًا. وكانت مدّةُ ما بين وفاة يُوشَع بن نُون إلى نبوّة أشمويل أربعَمائة سنة وستّين سنة، وكان آخرَ ملوكهم في هذه المدّة رجل يقال له «إيلاف» وكان يُدبّر أمرهم في ملكه شيخ يقال له «عَيْلَى» الكاهن، وكان حَبْرَهم[٣] وصاحبَ قُرْبانهم، وكانوا ينتهون إلى رأيه.

ذكر ابتداء أمر أشمويل وكيف كانت نبوّته

قال الثعلبيّ قال وهب: كان لأبي أشمويل امرأتان، إحداهما عجوزٌ عاقِرٌ لم تَلِد، وهي أمّ أشمويل، والأخرى وَلدتْ عشرةَ أولاد. وكان لبني إسرائيل عيدٌ من أعيادهم قد قاموا بشرائطه وقرّبوا فيه القَرابِين، فحضر أبو أشمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد، فلمّا قرّبوا قُربانهم أخذ كلّ واحد منهم نصيبه، فكان لأمّ الأولاد عشرةُ أنصباء، وللعجوز نصيبٌ واحد، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغي، فقالت أمّ الأولاد [للعجوز][٤]: الحمد لله الذي كثّرني بولدي وقللكِ، فوَجَمَتْ[٥] العجوز وُجومًا شديدًا. فلمّا كان عند السَّحَر عَمَدت العجوزُ إلى متعبَّدها فقالت: اللهمّ بعِلْمِك وسَمْعِك كانت مقالةُ صاحبتي واستطالتُها عليّ بنعمتك التي أنعمتَ عليها، وأنت ابتدأتَها بالنعمة والإحسان، فارحَمْ ضَعْفي وارحمني وارزقني ولدًا تقيًّا رضيًّا أجعله لك ذُخْرًا في مسجد من مساجدك، يعبدك ولا يكفرك، ويطيعك ولا يجحدك. وإذا رحِمتَ ضَعفي ومسكنتي وأجبتَ دعوتي، فاجعل لها علامةً أعرفها بها. فلمّا أصبحت حاضت وكانت من قبلُ قد يئست من الحيض، فألّم بها زوجها، فحملتْ وكتمتْ أمرَها، ولقي بنو إسرائيل في ذلك الوقت من عدوّهم بلاءً وشدّة، ولم يكن في بني إسرائيل من يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيًّا يشير عليهم ويجاهدون عدوّهم معه، وكان سِبْط النبوّة قد هَلَك، فلم يبق منهم إلاّ هذه المرأة الحُبلى؛ فلمّا علموا بحَبَلها تعجّبوا وقالوا: إنما حَبِلتْ بنبيّ، لأن الآيسات[٦] لا يَحبَلن إلاّ بالأنبياء، فأخذوها وحبسوها في بيتٍ رَهْبَةَ أن تَلِدَ جارِيةً فتَبدِلَ بها غلامًا، لما ترى من رغبة بني إسرائيل

---

(١) الذراري: مفردها الذّريّة، وهي النسل. (٢) الغيّ: الإمعان في الضلال.

(٣) الحبر: العالم. (٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٥) وجمت: أي سكتت على غيظ وحزن.

(٦) الآيسات من النساء: اللائي قطعهنّ الحيض، وأصبحن لا يرجون من النكاح ذريّة.

في ولدها، فجعلت ٱلمرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلامًا، فولدتْ غلامًا فسمّته «أشمويل» وقيل فيه «شِمْعون». وتقول: سمع الله دعائي.

وٱختُلِف في نسبه، فالذي يقول ٱسمه شِمْعون يقول: هو شمْعون بنُ صفيّة بن علقمة بن أبي ياسف بن قارون بن يَصْهُر بن قاهث بن لاَوِي بن يعقوب.

وقال سائر المفسّرين: هو أشمويل، وهو بالعربية إسماعيل بن بالِي بن علقمة بن حام بن النهر بن بهر بن صوف بن علقمة بن ماحت بن عموصا بن عَزْرَيَا.

قال مُقاتل: هو من نسل هارون عليه السلام. وقال مجاهد: أشمويل بن هلقاثا. والله أعلم.

قالوا: فلمّا كَبِر الغلام أسلمتْه أمّه يتعلّم التوراة في بيت المقدس وكَفَله عَيْلَى، فلمّا بلغ أشمويلُ الوقتَ الذي يبعثه الله عزّ وجلّ نبيًّا أتاه جبريل وهو نائم إلى جَنْب عَيْلَى الكاهن، وعَيْلَى لا يأمن عليه أحدًا، فدعاه بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام فَزِعًا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه، دعوتني؟ فكره الشيخُ أن يقول لا فيفزع الغلام؛ فقال: يا بُنيّ اِرجِعْ. فرجع فنام، ثم دعاه ثانيًا، فأتاه فقال: أدعوتَني؟ فقال الشيخ: ما شأنُك؟ فقال: أمَا دعوتَني؟ قال: لا. قال أشمويل: فإني سمعتُ صوتًا في البيت، وليس فيه غيرُنا. فقال: ارجِعْ فتوضأْ وصلِّ، فإذا دُعِيتَ بٱسمك فأجِب وقل لَبَّيك، أنا طَوْعُك[1]، فمُرْني أفعلْ ما تأمرني. ففعل الغلام ذلك، فنودي الثالثة، فقال: لَبَّيك أنا طوعُك، فمُرْني أفعلْ ما تأمرني. فظهر له جبريل وقال: اِذهبْ إلى قومك فبلِّغهم رسالة ربّك، فإنّ الله تعالى قد بعثك إليهم نبيًّا، وإن الله تعالى ذَرَأَك[2] يَوْمَ ذرأك [للنبوة][3] ورَحِمَ وَحْدَةَ أمِّك في ذلك اليوم الذي تاهت[4] عليها ضَرَّتُها، ولا أحد اليوم أشدُّ عَضُدًا[5] ولا أطيبُ وِلادةً منك، فٱنطلِقْ إلى عَيْلَى [فقل له][6] إنك كنتَ خليفة الله على عباده، فبقيتَ زمانًا تأمر بأمره، وحاكمًا بكتابه، وحافظًا لحدوده؛ فلمّا ٱمتدّ سنّك، ودقّ عَظمُك، وذهبتْ قوّتك، وفنِيَ عمُرك، وقَرُب أجلُك؛ وصرت أفقرَ ما تكون إلى الله تعالى، ولم تزل فقيرًا إليه، عَطَّلتَ الحدود، وعَمِلْتَ بالرُّشَا[7]، وأضعتَ حكومات[8] الخَلْق، حتى عزّ الباطلُ وأهلُه، وذَلّ الحقُّ وحِزْبُه، وظهَر

---

(١) طوعُك: يقال: هو طوع يدك أي منقادٌ لك.

(٢) ذرأك: خلقك.

(٣) زيادة عن الثعلبي.

(٤) تاهت: افتخرت وتكبّرت.

(٥) العضُد: الساعد، وهو من المرفق إلى الكتف.

(٦) زيادة عن الثعلبي.

(٧) الرّشا: مفردها الرّشوة، وهي ما يعطى لإحقاق باطل وإبطال حقّ.

(٨) حكومات الخلق: أي أحكامهم التي تفصل في مشكلاتهم وقضاياهم وفق الأنظمة والأعراف التي تحفظ لكلّ إنسانٍ حقه..

المكر، وخفِيَ المعروف، وفشا الكذب، وقَلّ الصدق، وما ٱللهُ عاهَدَك على هذا، ولا عليه ٱستخلَفَك، فبئس ما خَتَمتَ به عَمَلَك، والله لا يحبّ الخائنين. فبلّغه هذه الرسالة، وقمْ بعده بالخلافة؛ فلمّا بلّغ أشمويلُ عَيْلَى هذه الرسالة فَزِع وجَزِع.

قالوا: وكان السبب فيما عاتب الله تعالى عبدَه عَيْلَى ووبَّخه عليه أنه كان له ٱبنان شابّان، فأحْدَثا شيئًا في القُرْبان لم يكن فيه، وذلك أنه كان في مِسْوَاط[1] القُرْبان الذي يَسُوطونه[2] به كُلاَّبان[3]، فما أخرجا كان للكاهن الذي كان يَسُوطه، فجعل ٱبناه لهما كلاليب، فأوحَى الله تعالى إلى أشمويل: اِنطلقْ إلى عَيْلَى فقل له: مَنعَك حبُّ الولد أن تزجر ٱبنيك أن يُحدِثا في قُرْباني وأن يعصياني، فلأنزعنّ الكَهانة منك ومن ولديك ولأُهلِكَنّك وإياهما. فأخبر أشمويلُ عَيْلَى بذلك، ففزِع فزعًا شديدًا وسار إليهم عدوّهم، فأمر عَيْلَى ٱبنيه أن يَخْرجا بالناس ويقاتلا ذلك العدوّ، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فجعل عَيْلَى يتوقع الخبر؛ فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيّه فأخبره أنّ الناس قد ٱنهزموا، وأن ٱبنيه قُتِلا. قال: فما فُعِل بالتابوت؟ قال: ذهب به العدوّ. فشَهَق[4] عَيْلَى ووقع ميّتًا. فلمّا بلغ مِلكَهم إيلافَ أن التابوت ٱستُلِب، وأن عَيْلَى قد مات كمدًا مالت عنقه فمات كمدًا.

قالوا: فلمّا ماتا وأُخذ التابوت مَرِج[5] أمرُ بني إسرائيل وٱجترأ عليهم عدوّهم فقالوا لأشمويل ما أخبر الله تعالى به عنهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] الآيات. وذلك بعدما دبَّر أشمويلُ أمرَهم عشر سنين.

وإنما كان قِوَامُ أمرِ بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءَهم، وكان الملِك هو الذي يسير بالجنود ويقاتِل العدوّ، والنبيّ يقيم له أمرَه ويُشير عليه ويرشده، ويأتيه بالخبر من الله تعالى.

قال وهب: بعث الله تعالى أشمويلَ نبيًا، فلبثوا أربعين سنةً بأحسن حال، وكان من أمر جالُوتَ الملِكِ والعَمَالِقةِ ما كان، فسألوه أن يَبعث لهم ملِكًا؛ فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٦]. فأجابوه بما قصّ الله تعالى في كتابه: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال: فلمّا أخذ أشمويلُ ميثاقَهم في الطاعة والجهاد سأل اللّهَ تعالى أن يبعث لهم ملِكًا. والله أعلم بالصواب.

---

(١) المسواط: خشبة يحرّك بها ما في القدر ليختلط.

(٢) في الأصل: كان في مسواط للقربان الذي يسوط به كلاّبين، فما أخرجا كان للكاهن الذي يسوطه، والتصويب عن الثعلبي.

(٣) الكلاّب: المهماز، أو هو حديدة معوجّة الرأس ينشل بها الشيء أو يعلّق.

(٤) شهق: تردّد النفس في حلقه مع صوت. (٥) مرج الأمر: أي التبس واختلط.

ذكر خبر الملك طالوتَ وإتيانِ التابوت وخبر جالوت

قالوا: ولما سألوا أشمويلَ أن يبعث لهم ملِكًا، سأل الله تعالى في ذلك، فأتَى بعصًا وقَرَنٍ[١] فيه دُهن القُدْس، وقيل له: إنّ صاحبكم الذي يكون مَلِكًا طوله طول هذه العصا؛ وقيل له: انظر إلى القَرَن الذي فيه الدُّهن فإذا دَخَل عليك رجل فنَشّ[٢] الدُّهن الذي في القَرَن فهو مَلِكُ بني إسرائيل، فادْهُن به رأسه، وملِّكه عليهم؛ فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مِثلَها؛ وكان طالوت ـ واسمه بالسُّريانيّة «شارك»[٣] وبالعِبرانيّة شاول بن قيس بن أنيال بن ضرار بن أحرب بن أفيح بن آيش من بَنْيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ رجلًا دباغًا يعمل الأدَم[٤]. قال وهب وعِكْرِمة[٥] والسُّدّيّ: كان سقَّاء يَسقي على حمار من النهر، فضلّ حماره، فخرج في طلبه. وقال وهب: بل ضلَّت حُمُر لأبي طالوت، فأرسله وغلامًا له يطلبانها، فمرَّا ببيت أشمويل فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبيّ فسألناه عن أمرِ حُمُرنا ليُرشدَنا ويدعوَ لنا بخير. فقال نعم. فدخلا عليه، فبينما هما عنده يذكرَان شأن الحُمُر إذ نشَّ الدُّهنُ في القَرَن فقام أشمويلُ وقاس طالوتَ بالعصا، فكانت على طوله، فقال لطالوت قرب رأسك. فقرّبه فدَهنه بدُهنِ القُدْس، ثم قال له: أنت مَلِك بني إسرائيل، وقد أمرني الله تعالى أن أُملِّكك عليهم. فقال طالوت:

---

(١) (فأتي بعصا وقَرَن فيه دهن القدس) قوله (قَرَن) مشكول هنا وفي صفحات أُخر بفتح الراء وعلق عليه المصحح قوله (القرَن بفتح القاف والراء المهملة الجَعبة ما كانت اهـ. وهذا التفسير خطأ والصواب (قَرْن) بفتح القاف وسكون الراء. والمراد قرن الحيوان الذي كان اليهود يتخذونه وعاء للزيوت والعطور كما يتخذون منه بوقًا ينفخون فيه داعين الشعب إلى الصلوات (راجع قاموس الكتاب المقدس جزء ٢ ص ٢١٣) أما القرَن بفتح الراء فهو في العربية بمعنى الجعبة كما قال المصحح الفاضل والجعبة وعاء النبال وقد اشترط بعضهم أن تكون من جلد وبعضهم قال (ما كانت) أي سواء أكانت من جلد أو من خشب مغشى بجلد وهي ـ كيفما كانت ـ لا تصلح لوضع الدهن فيها لأن الخشب يتشرب الدهن ويتسرب من شقوقه ومن شقوق الجلد. نعم تصلح الجعبة لوضع تمرات يتبلغ فيها المحارب أو المسافر أحيانًا: ففي حديث عمير بن الحمام (فأخرج تمرًا من قَرَنه) بفتح الراء أي من جعبته. ومثل هذا في تفسير كلمات أهل الكتاب إنما يرجع فيه إلى علمائهم ومعاجمهم ما لم يكن هناك نصوص إسلامية تعارضه. وشرّاح التوراة قالوا في تفسير (قرْن الدهن المقدس) إنه قرن حيوان.

(٢) نشّ: صوّت عند الغليان، أو قطر من الوعاء.

(٣) في قصص الأنبياء للثعلبي «سادل».

(٤) الأدَم: الجلود.

(٥) عكرمة: هو عكرمة، أبو عبد الله المفسر، محدّث ثقة، أباضيّ المذهب يرى السّيف، مات سنة ١٠٦هـ وقيل ١٠٧هـ، قال الشعبي: ما بقي أحدٌ أعلم بكتاب الله من عِكرمة، رموه بغير نوع من البدعة «الكاشف ٢/ ٢٤١».

أنا؟ قال نعم. قال: أوما علمتَ أن سِبْطي أدنَى[1] الأسباط في بني إسرائيل؟ قال بلى. قال: أفما علمت أن بيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ قال بلى. قال: فبأيّ آية أكون ملِكًا؟ قال: بآيةِ أنك ترجع وقد وَجد أبوك حُمُرَه. فكان كذلك.

ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبْطان: سِبْط نبوّة، وسِبْط مملكة؛ فكان سِبْطُ النبوّة سِبْطَ لاَوِي بن يعقوب، منهم موسى وهارون عليهما السلام، وسِبْطُ المملكة سِبْطُ يهوذا بن يعقوب، منهم سليمان بن داود؛ ولم يكن طالوت من سِبْط النبوّة ولا المملكة، وإنما كان من سِبْط بَنْيامين بن يعقوب، وكانوا عَمِلوا ذنبًا عظيمًا؛ كانوا ينكحون النساء على ظهر[2] الطريق نهارًا، فغضب الله تعالى عليهم، ونزع النبوّة والمملكة منهم، فأنكر بنو إسرائيل ذلك وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧] قال أشمويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ [البقرة: ٢٤٧]، أي فضيلة وسعة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك أنه كان أعلمَ بني إسرائيل في وقته. وقال الكلبيّ: «في العِلْم» بالحرب. ﴿وَٱلْجِسْمِۖ﴾ يعني بالطُّول والقوّة؛ وكان يفوق الناسَ برأسه ومَنْكِبَيْه؛ وإنما سُمِّيَ طالوتَ لطُوله. وقال ابن كَيْسان[3]: للجمال، وكان أجملَ رجل في بني إسرائيل وأعلمَهم ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] قالوا: فما آية ذلك؟ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

ذكر قصة التابوت وصفته وما قيل فيه

قال أبو إسحاق الثعْلبيّ رحمه الله: قال أهل التفسير وأصحابُ الأخبار: إنّ الله تعالى أهبط تابوتًا على آدمَ حين أُهْبط آدمُ إلى الأرض، فيه صُوَر الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرُّسُل منهم، وآخرُ البيوت بيت محمد ﷺ وهو من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلّي وعن يمينه الكَهْلُ المطيع، مكتوبٌ على جبينه: هذا أوّل من يتّبعه من أمّته «أبو بكر الصدّيق» وعن يساره «الفاروق»، مكتوبٌ على جبينه:

---

(١) أذى: أقرب.

(٢) ظهر الطريق: ما غلظ وارتفع منها، يريد علانيةً.

(٣) ابن كيسان: هو صالح بن كيسان المدني، مؤدّب أبناء عمر بن عبد العزيز، كان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه، وهو أحد الثقات في رواية الحديث، عاش أكثر من مائة سنة، توفي سنة ١٤٠هـ «الأعلام ٣/ ١٩٥».

قِرْن[١] من حديد لا تأخذه في الله لومةُ لائم؛ ومن ورائه ذو النُّورَين آخِذٌ بحُجْزته[٢]، مكتوبٌ على جبينه: بارٌّ من البَرَرَة. ومن بين يديه «عليّ بن أبي طالب» شاهرٌ سيفَه على عاتقه[٣]، مكتوبٌ على جبينه: هذا أخوه وابْنُ عمه المؤيّد بالنصر من عند الله. وحوله عمومته والخلفاء والنُّقَبَاء والكَبْكَبَة[٤] الخَضْراء ـ وهم أنصار الله وأنصار رسوله ـ نورُ حوافِرِ دوابِّهم يومَ القيامة مِثلُ نور الشمس في الدنيا.

وكان التابوت نحوًا من ثلاثة أذرع في ذراعين، وكان من عود الشِّمْشار[٥] الذي تتّخذ منه الأمشاط، مموّهًا بالذهب، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم عند شيث، ثم توارثه أولادُ آدم إلى أن بلغ إبراهيمَ عليه السلام فلمّا مات كان عند إسماعيل، ثم كان عند قَيْذَار بن إسماعيل، فتنازعه ولدُ إسحاق وقالوا: إنّ النبوّة قد صُرِفتْ عنكم، وليس لكم إلاّ هذا النور الواحد، [يعني نور محمد ﷺ][٦] فَأَعْطِنا التابوت. فكان قَيْذَار يمتنع عليهم ويقول: إنه وصيّة لأبي، ولا أعطيه أحدًا من العالمين.

قال: فذهب ذات يوم يفتح التابوت، فتعسّر عليه فتحُه، فناداه منادٍ من السماء: مهلاً يا قَيْذار، فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل، إنه وصيّة نبيّ، لا يفتحه إلا نبيّ، فادْفعه لابْن عمّك يعقوبَ إسرائيلِ الله؛ فحمل قَيْذار التابوتَ على عنقه وخرج يريد أرض كَنْعان وكان بها يعقوب عليه السلام فلمّا قَرُب منه صَرّ[٧] التابوتُ صَرّة سمعها يعقوب، فقال لبنِيهِ: أُقسم بالله لقد جاءكم قَيْذار بالتابوت فقوموا نحوه. فقام يعقوب وأولاده جميعًا إليه، فلمّا نظر يعقوب إلى قَيْذار اسْتَعْبَرَ باكيًا وقال: يا قَيْذَار، ما لي أراك متغيّرًا وقوّتك ضعيفة، أَرَهِقَكَ عدوّ أم أتيتَ معصيةً بعد أبيك إسماعيل؟ قال: ما رَهِقَني عدوّ ولا أتيتُ معصية ولكن نُقِل من ظهري نورُ محمد، فلذلك تغيّر لَوْني وضَعُف رُكْني، قال: أفي بنات إسحاق؟ قال: لا، في العربيّة الجُرْهُمِيّة[٨]، وهي العامريّة، فقال

---

(١) القرن: النظير في الشجاعة والعلم، وهنا بمعنى السيّد البطل الشجاع.

(٢) الحجزة: يقال: أخذ بحجزته أي استظهر به واستنصر، والحجزة: موضع شدّ الإزار من وسط الإنسان.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق. (٤) الكبكبة: الجماعة.

(٥) الشمشار: شجر البقس، يشبه ورقه ورق الآس، وعوده أصفر صلب، وله حبُّ أسود، منابته بلاد الروم، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته.

(٦) زيادة عن الثعلبي. (٧) صرّ التابوت: صوّت.

(٨) الجرهمية: نسبة إلى جُرهم الثانية، لأن جرهم الأولى من العرب البائدة، أما جُرهم الثانية فهم بنو جُرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السّلام، ولمّا أسكن إبراهيم الخليل عليه السّلام ولده إسماعيل بمكة، كانت جرهم الثانية نازلين بالقرب من مكة، فاتصلوا بإسماعيل عليه السلام وتزوّج منهم وكثر ولده وتناسلوا فعمروا الحجاز إلى الآن «صبح الأعشى ٤/٢٥١ ـ ٢٥٢».

يعقوب: بَخ بَخ[١]! شرفًا لمحمد، لم يكن الله عزّ وجل ليُجْريَه إلا في العربيّات الطاهرات يا قيذار، وأنا مُبشّرك ببشارة. قال: وما هي؟ قال: اعلم أن العامريّة قد ولدت لك البارحة غلامًا. قال قيذار: وما علّمك يابن عمّي وأنت بأرض الشأم وهي بأرض الحَرَم؟ قال يعقوب: علمتُ ذلك لأني رأيتُ أبوابَ السماء قد فُتحت، ورأيتُ نورًا كالقمر الممدودِ بين السماء والأرض، ورأيتُ الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة، فعلمتُ أنّ ذلك من أجل محمد ﷺ فسلم قيذارُ التابوتَ إلى يعقوب ورجع إلى أهله، فوجدها قد ولدت غلامًا، فسمّاه «حَمَلاً» وفيه نور محمد ﷺ.

قالوا: وكان التابوت في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعًا من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم تداوله أنبياء بني إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكر الله تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قال الثعلبيّ: واختلفوا في السكينة ما هي؟ فقال عليّ بن أبي طالب: السكينة ريحٌ خَجُوج[٢] هفّافة[٣] لها رأسان [كرأس الهرّة][٤] ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: رأس كرأس الهِرّة، وذَنب كذَنب الهرّة وجناحان. وقال ابن إسحاق عن وهب عن بعض علماء بني إسرائيل: السكينة، رأس هرّة ميّتة كانت إذا صرَخت في التابوت بصُراخِ هِرّ أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال السُدّيّ عن أبي مالك[٥] عن ابن عبّاس: هي طَسْت[٦] من ذهب من الجنة كانت تُغسَل فيه قلوب الأنبياء. وقال بكّار بن عبد الله عن وهب: رُوحٌ من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبي رَبَاح: هي ما يَعرِفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال قَتَادة والكلبيّ: فَعِيلة من السكون أي طُمَأنينة من ربكم، وفي أيّ مكان كان التابوت اطمأنّوا ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قالوا: كان فيه عصا موسَى ورُضاض[٧] الألواح، وذلك أنّ موسى لمّا ألقى الألواح تكسرتْ فوقع بعضها وجمع ما بقيَ فجعله في التابوت. وكان فيه أيضًا لَوْحان

---

(١) بخ بخ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء، أو المدح والفخر.
(٢) ريحٌ خَجوج: تخج في هبوبها أي تلتوي.
(٣) الهفّافة: الرّيح التي إذا هبّت سُمع صوت هبوبها.
(٤) زيادة عن الثعلبي.
(٥) أبو مالك: لعله أبو مالك الأشعري، محدّث، له صحبة. انظر «الكاشف ٣/ ٣٣٠».
(٦) الطست: إناء، يؤنّث ويذكّر.
(٧) رضاض الشيء: دقاق الشيء وفتاته، أي ما رضّ منه.

من التوراة، وقَفِيزٌ من المنّ[١] الذي كان ينزل عليهم، ونَعلاَ موسى، وعِمامةُ هارون وعصاه. وكان التابوت عند بني إسرائيل؛ وكانوا إذا ٱختلفوا في شيء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون[٢] به على عدوّهم، فلمّا عصَوْا وأفسَدوا سلّط الله عزّ وجلّ عليهم العمالقةَ فاستلبوا التابوت كما تقدّم.

ذكر إتيان التابوت إلى بني إسرائيل وسبب عَوْده

قال أبو إسحاق: لمّا سَلب العمالقةُ قومَ جالوتَ التابوت كان جالوتُ صغيرًا، فأتَوْا بالتابوت قرية من قُرى فِلَسْطين يقال لها أشدود[٣]، وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه، وسمَّروا قدمَي الصنم على التابوت، فأصبحوا من الغد وقد قُطعتْ يدُ الصنم ورِجلاه، وأصبحَ ملقًى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم كلُّها منكّسة، فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهلَ تلك الناحية وجعٌ في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إلٰه بني إسرائيل لا يقوم[٤] له شيء، فأخرِجوه عن مدينتكم، فأخرجوه إلى قرية أخرى، فبعث الله عزّ وجلّ على تلك القرية فأرًا، يبيت[٥] الرجل صحيحًا فيَقْرِضه[٦] الفأر فيصبح ميتًا قد أكلت ما في جوفه، فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه في مَخْرَاةٍ لهم، فكان كلُّ من تبرَّز هناك أخذه الباسُور[٧] والقُولَنْج[٨]؛ فتحيَّروا، فقالت لهم ٱمرأة كانت عندهم من سَبْيِ بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون تَرَون ما تكرهون ما دام هذا التابوتُ فيكم، فأخرِجوه عنكم، فأتَوْا بعَجَلةٍ بإشارةِ تلك المرأة فحملوا التابوتَ عليها، ثم علّقوها على ثورين، ثم ضربوا جُنُوبَهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل

---

(١) المن: طلٌّ ينزل من السّماء على شجر أو حجر، ينعقد ويجف جفاف الصمغ، وهو حلو يؤكل.

(٢) يستفتحون به: يقال: استفتح فلان: طلب الفتح والنصر، أي يجعلونه بين أيديهم طلبًا للفتح والنصر.

(٣) أشدود: هي إحدى مدن الفلسطينيين الخمس المتحالفة، وقد خرجت في نصيب يهوذا، وهي المركز الخصوصي لعبادة داجون، وأمّا موقعها فعلى ٣ أميال من البحر المتوسط بين غزّة ويافا، وهي الآن قرية حقيرة تسمى «أسدود» وفي جوارها خرائب كثيرة، «انظر قاموس العهد الجديد ج١ ص١٠١/٢٧٦».

(٤) لا يقوم له شيء: أي لا يستطيع أن يواجهه.

(٥) عبارة الأصل محرّفة، والتصويب عن الثعلبي.

(٦) يقرضه الفأر: يقطعه.

(٧) الباسور: مرض في مقعدة الإنسان.

(٨) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والرّيح.

الله تعالى بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما، فلم يمرّ التابوت بشيء من الأرض إلاّ كان مقدّسًا، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبني إسرائيل فكسرا بُرَتَهما[١] وقطعا حبالهما، ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما، فلم يَرُع بني إسرائيل إلاّ التابوت، فكبّروا وحمدوا الله تعالى.

وقال الكِسَائيّ: إنهم لمّا دفنوه إلى جنب الحش[٢] وأخذهم الباسور أعادوه إلى الكنيسة. فغزاهم بعض الفراعنة فهزمهم ودخل الكنيسة، وأخذوا التابوت وهمّوا بفتحه فلم يقدروا فهمّوا بكسره فلم يقدروا، فتركوه؛ فكان القوم يتشاءمون به لِما كان يصيبهم من البلاء، فحوّلوه إلى خمس مدائن، فقال أهل المدينة الخامسة: إن هذا البلاء يصيبكم بسبب هذا التابوت فأَخْرَجوه. وساق نحو ما تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي تَسُوقه. فعند ذلك أقرّوا بمُلك طالوت. وقال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعوه في دار طالوت، فأقرّوا بمُلكه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما إنّ التابوت وعصا موسى في بحيرة طَبَرِيّة[٣]، وإنهما يخرجان يوم القيامة. والله أعلم.

ذكر مسير طالوت بالجنود وخبرِ النهر الذي ٱبتُلُوا به

قالوا: فلمّا أقرّوا بمُلك طالوت سألوه أن يغزوَ بهم، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل. وقيل: ثمانون ألفًا لم يتخلّف عنه إلاّ كبيرٌ لهَرَمه أو مريضٌ لمرضِه أو ضَرير لضُرِّه أو معذورٌ لعُذره؛ وذلك أنهم لما رأوُا التابوت قالوا: قد أتانا التابوت وهو

---

(١) (فكسرا برتهما وقطعا حبالهما ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما) الظاهر أن ضمير المثنى في هذه الجمل راجع إلى الثورين المذكورين قبلها وليس هذا بمعقول فيكون الصواب فكسروا وقطعوا الخ ويكون ضمير الجمع راجع إلى بني إسرائيل المحدث عنهم، إلا أن يُدَّعى بأن الضمائر راجعة إلى الثورين وإنما فعلا ما فعلا من قبيل الخوارق الإلّهية التي شَذَّ ما وقعت في زمن بني إسرائيل!!.

(٢) الحش: الكنيف، وموضع قضاء الحاجة.

(٣) بحيرة طبرية: هي كالبركة، تحيط بها الجبال، ويصبّ فيها فضلات أنهر كثيرة تجيء من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر، وينفصل منها نهر عظيم فيسقي أرض الأردن الأصغر، وهو بلاد الغور، ويصبّ في البحيرة المنتنة قرب أريحا، ومدينة طبريا في لحف الجبل مشرفة على البحر، ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة، وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتىء يزعمون أنّه قبر سليمان بن داود عليه السلام، وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلاً «انظر معجم البلدان لياقوت».

النصر لا شكّ فيه؛ فسارِعوا إلى الجهاد، فقال طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى، لا يخرج معي رجلٌ بنَى بناءً لم يفرُغ منه، ولا صاحبُ تجارةٍ مشتغِلٌ بها، ولا رجلٌ عليه ديْن، ولا رجلٌ تزوّج بامرأة ولـم يَبْنِ[1] بها؛ ولا يَتْبَعْني إلاّ الشابّ النشيط الفارغ[2]. فٱجتمع له ثمانون ألفًا على شرطه وكانوا في حرّ شديد فشكَوْا قلّة المياه فيما بينهم وبين عدوّهم، وقالوا: إنّ المياه لا تحمِلنا، فٱدع الله تعالى أن يُجريَ لنا نهرًا. فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي من أهل دِيني وطاعتي؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ ثم ٱستثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال الكِسَائيّ: لمّا سألوه أن يُجريَ لهم نهرًا قال: أفعل ـ إن شاء الله ـ وسار بهم حتى إذا كانوا في بَرّيّة وفقدوا الماء وأَجْهدهم العطش، أتَوه، فدعا أن يجري الله تعالى لهم نهرًا؛ فأوحَى الله إليه ما أخبر به في كتابه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] الآية. قال: وهو نهر الأُرْدُنّ من بلاد فَلَسْطين. وقال الثعلبيّ: قال ٱبن عبّاس والسُّدّيّ: هو نهر فلسطين. وقال قَتَادة والربيع[3]: هو نهرٌ بين الأُرْدُنّ وفلسطينَ، عَذْب. قال الكِسَائيّ: قالوا: وما تُغْنِي عنّا الغُرْفة ثم عَرَض لهم النهر فٱنهمكوا في شربه. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] قال: وٱختلفوا في القليل الذين لم يشربوا؛ فقال السُّدّيّ: كانوا أربعة آلاف. وقال غيره: كانوا ثلاثمائة وبضعةَ عشر؛ وهو الصحيح، لقول رسول الله ﷺ لأهل بدر: «أنتم اليوم على عدّة أصحابِ طالوتَ حين عبروا النهر» وكان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قالوا: فلم يزد هؤلاء على الغُرفة فكانت كفايةً لهم ولدوابّهم؛ فمن ٱغترف غُرفة، كما أمر الله، نوّر الله قلبَه وصحّ إيمانُه، وعبر النهرَ سالمًا. والذين شربوا وخالفوا أمر الله عزّ وجل ٱسودّت شفاههم وغلبهم العطش فلم يَرْوَوْا وبقوا على شطّ النهر وجَبُنوا عن لقاء العدوّ؛ فقال طالوت للذين عصَوا ربهم: ارجعوا فلا حاجة لي بكم فرجعوا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وإنّما قال ذلك الذين عصَوْا وشربوا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

---

(١) لم يبنِ بها: أي لم يدخل عليها. (٢) الفارغ: المرتفع الهنيء الحسن.

(٣) الربيع: لعلّه الربيع بن أنس، بصري نزل خراسان محدّث صدوق توفي سنة ١٣٩هـ «الكاشف ١/ ٢٣٤».

ذكر خبر داود حين قتل جالوت الملك

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: قال المفسّرون بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة: عبر النهرَ مع طالوت إيشَى أبو داود في ثلاثة عشر ابنًا له، وكان داود أصغرهم، فأتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمي بقَذّافتي[١] شيئًا إلاّ صرعته. فقال: أبشر يا بُنيّ فإن الله عزّ وجل جعل رزقَك في قذّافتك؛ ثم أتاه مرّة أخرى فقال: يا أبتاه، لقد دخلتُ بين الجبال فوجدتُ أسدًا رابضًا، فركبتُه وأخذتُ بأذنيه فلم يَهِجنِي[٢]، فقال: أبشر يا بنيّ فإنّ هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يومًا آخر فقال: يا أبتاه، إني لأمشي بين الجبال فأسبّح فما يَبْقى جبلٌ إلاّ سبّح معي. فقال: أبشر يا بنيّ فإنّ هذا خيرٌ أعطاكه الله عزّ وجل.

قالوا: فأرسل جالوتُ إلى طالوت، أن ابْرُزْ إليّ أو أبرِزْ إليّ مَن يقاتلني، فإن قتلني فلكم مُلكي، وإن قتلته فلي ملككم. فشقّ ذلك على طالوت، فنَادَى في عسكره: مَن قتل جالوتَ زوّجتُه ابنتي وناصَفْتُه مُلْكي. فهاب الناسُ جالوت فلم يجبه أحد؛ فسأل طالوتُ نبيَّهم عليه السلام أن يدعو، فدعا الله عزّ وجل في ذلك، فأُتِي بقَرَن[٣] فيه دُهْن القدس، وتنُورٍ من حديد، فقيل له: إنّ صاحبكم الذي يقتل جالوتَ هو الذي يوضع هذا القَرَن على رأسه فيَغْلي الدُّهن ثم يَدهُن به رأسَه ولا يسيل على وجهه، يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنُّور فيملأه لا يتقلقل[٤] فيه؛ فدعا طالوتُ بني إسرائيل، فجرَّبهم فلم يوافقه منهم أحد، فأوحى الله عزّ وجل إلى نبيِّهم أن في ولد إيشَى من يقتُل الله به جالوت، فدعا طالوتُ إيشَى وقال له: اعرِض عليّ بنِيك. فأخرَجَ له اثني عشر رجلاً أمثال السواري[٥]، وفيهم رجل فارعٌ[٦] عليهم؛ فجعل يعرضهم على القَرَن فلا يَرَى شيئًا، فيقول لذلك الجسيم: ارجع فيردّده

---

(١) القذّافة: المقلاع.
(٢) لم يهجني: أي لم ينفرني أو يزعجني.
(٣) القرن: الجعبة ما كانت.
(٤) يتقلقل: يتحرّك.
(٥) السواري: مفردها سارية، وهي الأسطوانة أو العمود الذي ينصب في وسط السفينة ويعلّق عليه الشراع.
(٦) رجلٌ فارعٌ عليهم: أي علاهم وجاهة وشرفًا وقامة.

على التنُّور. فأوحَى الله عزّ وجل إليه: إنّا لا نأخذ الرجال على صُوَرهم، ولكنّا نأخذهم على صلاح قلوبهم. فقال لإيشَى هل بقيَ لك ولدٌ غيرُهم؟ فقال لا. فقال النبيّ: ربّ إنه زعم أن لا ولد له غيرهم. فقال كذَب. فقال النبيّ: إن ربِّي كذَّبك. قال: صدق الله يا نبيّ الله، إنّ لي ٱبنًا صغيرًا يقال له داود ٱستَحْيَيْتُ أن يراه الناس لقِصَر قامته وحقارته، فخلَّفتُه في الغنم يرعاها وهو في شِعْب[1] كذا. وكان داود عليه السلام رجلًا قصيرًا مسقامًا مُصفارًا[2] أزرقَ أشقرَ. فدعاه طالوت. ويقال: بل خرج طالوت إليه فوجد الوادي قد حال بينه وبين الزَّريبة التي كان يُرِيح إليها، فوجده يحمل شاتين شاتين فيُجيزُهما السَّيلَ ولا يخوض بهما الماء؛ فلمّا رآه [أشمويل][3] قال: هذا هو لا شكّ فيه، هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم. فدعاه ووضع القَرْن على رأسه ففاض؛ فقال له طالوت: هل لك أن تَقتل جالوتَ وأزوّجَك ٱبنتي وأجريَ حُكْمَك في مُلكي؟ قال نعم. قال: وهل أنِستَ من نفسك شيئًا تتقوّى به على قتله؟ قال: نعم، أنا أرعى فيجيء الأسد أو النِّمر أو الذئب فيأخذُ شاةً فأقوم له فأفتحُ لَحييه[4] عنها وأخرِقُهما إلى قفاه. فردّه إلى عسكره؛ فمرّ داود عليه السلام في الطريق بحَجَر فناداه: يا داود، احملني فإني حَجَر هارون الذي قتل بي مَلِكَ كذا، فحمله في مِخلاته[5]. [ثم مرّ بحجر آخر فناداه: يا داود، احملني فإني حجر موسى عليه السلام الذي قتل به ملك كذا وكذا، فحمله في مخلاته][6]. ثم مرّ بحجر آخر فقال: احملني فإني حجرك الذي تقتل به جالوت، وقد خبأني الله لك، فوضعه في مخلاته. فلما تصافُّوا للقتال وبرز جالوتُ وسأل المبارَزة، ٱنتدب له داودُ، فأعطاه طالوت فرسًا ودرعًا وسلاحًا، فلبس السلاح وركب الفرس، وسار قريبًا، ثم ٱنصرف فرجع إلى الملِك، فقال مَن حولَه: جَبُن الغلام. فجاء فوقف على الملك فقال: ما شأنك؟ قال: إنّ الله عزّ وجل إن لم ينصرني لم يغنِ عنّي هذا السلاحُ شيئًا، فدعني أقاتل كما أريد. قال نعم. فأخذ داود مِخلاته فتقلّدها، وأخذ المِقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشدّ الناس وأقواهم؛ وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بَيْضة[7]

---

(١) الشِّعب: ما كان منفرجًا بين جبلين.

(٢) مصفارًا: أي تعلو وجهه صفرة من سقام أو مرض.

(٣) زيادة عن الثعلبي.

(٤) اللّحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان.

(٥) المخلاة: ما يوضع فيه الخلى، وهو الحشيش الذي يحتش من بقول الربيع.

(٦) زيادة عن الثعلبي.

(٧) البيضة: الخوذة توضع على الرأس.

فيها ثلاثُمائةِ مَنٍّ[١] حديدًا، فلمّا نظر إلى داود أُلْقِي في قلبه الرُّعبُ، فقال له: أنت تَبرُز لي؟ قال نعم ـ وكان جالوت على فرس أبلق[٢]، عليه السلاح التامّ ـ قال: تأتيني بالمِقلاع والحجر كما يُؤتَى الكلب؟ قال: نعم، لأنت شرٌّ من الكلب. قال: لا جَرَم[٣] لأُقسِّمَنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء. فقال داود: [باسم الله و][٤]يقسِّم الله لحمَك. وقال: بسم إلٰه إبراهيم، وأخرج حجرًا، ثم أخرج الآخرَ وقال: بآسم إلٰهِ إسحاق، ووضعه في مِقْلاعه[٥]، ثم أخرج الثالثَ وقال: بآسم إلٰه يعقوب، ووضعه في مِقْلاعه، فصارت كلُّها حجرًا واحدًا، ودوّر المقلاعَ ورماه به، فسخَّر اللّهُ تعالى له الريحَ حتى أصاب الحجرُ أنفَ البَيضة وخالط دماغَه فخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلًا، وهزم الله تعالى الجيشَ وخرّ جالوتُ قتيلًا، فأخذه داودُ فجرّه حتى ألقاه بين يدَيْ طالوتَ.

وقال الكسائيّ في هذه القصة: كان مع طالوتَ سبعةُ إخوة لداود، وكان داود عند أبيه وهو صغير، فقال له أبوه: قد أبطأ عليّ خبر إخوتك مع طالوت، فآحمل إليهم طعامًا وتَعرّفْ لي خبرَهم. فمضى داود ومعه مِخلاة له فيها الطعام، وقد شدّ وَسَطَه بمقلاع؛ فبينا هو يسير إذ ناداه حجر من الأرض: خذني فأنا حجر أبيك إبراهيم. فأخذه؛ ثم ناداه حجر آخر خذني فأنا حجر أبيك إسحاق. فأخذه، ثم ناداه حجر آخر: خُذْني فأنا حجر أبيك يعقوب. فأخذه وسار حتى أتى العسكر، فنزل على إخوته، فلمّا كان من الغد تهيّأ الجيشان للمحاربة؛ فقال طالوت: أيها الناس، من كفاني منكم أمرَ جالوت زوّجتُه آبنتي، وأشركتُه في مُلكي، وجعلتُه خليفتي من بعدي. فلم يجبه أحد إلاّ داود؛ فخلع عليه وأركبه وطاف به في معسكره؛ فلمّا كان من الغد ركبوا، وأقبل جالوتُ بجيوشه وهو على فيل، وكان طوله ثمانيةَ عشر ذراعًا، وطول داود عشرة أذرع، فقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠] الآية.

فبرز جالوتُ بين الصفّين فبرزَ له داودُ، فقال له جالوت: إنك صغير ولا سلاحَ معك فآرجِع، فأبى ذلك، وأخذ تلك الأحجار فوضعها في مِقلاعه ورمى بها، فوقع أحدها بمَيْمنة جالوت فهزمها، والثاني في المَيْسرة فآنهزَموا، والثالث وقع على أنف بَيْضة جالوت فخرج من قفاه، فسقط جالوتُ ميّتًا، وآنهزم أصحابُه.

---

(١) المنّ: كيل أو ميزان، بين ١٨٠ مثقالاً و٢٨٠ مثقالاً، جمعه أمنان.
(٢) الأبلق: الذي فيه سوادٌ وبياض.
(٣) لا جرم: لا بدّ.
(٤) التصويب عن الثعلبي، وفي الأصل «لو يقسّم».
(٥) المقلاع: ما يرمى به الحجر.

قالوا: ولمّا قتل داودُ جالوتَ ذكر الناسُ داودَ وعظُم في أنفسهم، فجاء إلى طالوت وقال له: أنجِزْ لي ما وعدتَني، وأعطني ٱمرأتي. فقال له طالوت: أتريد ٱبنةَ الملِكِ بغير صَدَاق[1]، عجّل صَدَاق ٱبنتي وشأنَك بها. فقال له داود: ما شرطتَ عليّ صَدَاقًا، وليس لي شيء، فتحكّم في الصداق ما شئتَ وأقرضني مَهرَها وعليّ الأداء والوفاء لك. فقال طالوت: أصدِقْها نصيبَك من المُلك. فقالت بنو إسرائيل: لا تظلمه وأنجزْ له ما وعدتَه به.

فلمّا رأى طالوتُ ميلَ بني إسرائيل إلى داود وحُسْنَ رأيهم فيه قال: لا حاجة لأبنتي في المال، ولا أكلّفك إلاّ ما تُطِيق، أنت رجل جريء، وفي جبالنا أعداء من المشركين غُلْف[2] فأنطلِقْ وجاهِدْهم، فإذا قتلتَ منهم مائتي رجل وجئتني برؤوسهم زوّجتُك ٱبنتي. فأتاهم داود، وجعل كلّما قتل منهم رجلاً ٱحتزّ رأسه ونظمه[3] في خيط حتى نَظَم رؤوسهم فجاء بها إلى طالوت، فألقاها إليه وقال: ادفع إليّ ٱمرأتي، فزوّجه ٱبنتَه وأجرى خاتَمه في مُلكه، فمال الناس إلى داود وأحبّوه وأكثروا من ذكره، فوجَد[4] طالوتُ من ذلك في نفسه وحسَده وأراد قتله.

قال وهب بن مُنَبِّه: وكانت الملوك يومئذ يتوكّؤون على عِصِيٍّ فيغرِزون في أطرافها أزِجة[5] من حديد، وكان بيد طالوت منها واحدةٌ، في رأسها رمّانة من ذهب وفي أسفلها زُجٌّ من حديد، وداود جالس قريبًا منه في ناحية البيت، فرماه بها بغتة ليقتله بها، فلمّا أحسّ داود بذلك حاد عن طريقها، وأمال نفسَه عنها من غير أن يبرح من موضعه، فأرتكزتْ في الجِدَار، فقال له داود: عمدتَ إلى قتلي؟ قال طالوت: لا، ولكن أردتُ أن أقف على ثباتك في الطِّعان ورَبْطِ جأشِك للأقران[6]. قال داود: فألفيتَه على ما قدّرتَه فيّ؟ قال: نعم، ولعلك فَزِعت. قال: معاذ الله أن أخاف إلاّ اللّهَ تعالى وأرجوَ إلا الله، ولا يدفع الشرَّ إلا الله. فأنتزعها من الجِدَار ثم هَزّها هَزّة منكرة وقال له: أُثبُتْ كما ثَبَتُّ لك، فأيقن طالوتُ بالهلاك؛ فقال له: أنشُدُك اللّهَ والحُرمةَ التي بيني وبينك إلاّ ما صفحتَ؛ فقال داود: إن الله تعالى كتب في التوراة أن أجز السيئةَ مثلَها، واحدةٌ بواحدة والبادي أظلم؛ فقال طالوت: ألا تقول قول

---

(١) الصداق: المهر يدفع للزوجة. (٢) الأغلف: الذي لم يختن.

(٣) نظمه: سلكه.

(٤) وجد: من الوجد، وهو الغضب هنا والحقد.

(٥) الأزجّة: مفردها المزجّ: وهو رمحٌ صغير في أسفله زجّ والزجّ: الحديدة في أسفل الرمح.

(٦) الأقران: النظراء في الشجاعة والقوّة.

هابيل لأخيه قابيل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨] قال داود: قد عفوتُ عنك لوجه الله تعالى.

فلبث طالوتُ زمنًا يريد قتلَ داود، فعزم على أن يأتيَه ويغتالَه في داره، فأخبر بذلك بنتَ طالوتَ رجلٌ يقال له: ذو العينين، فقالت لداود: إنك مقتولٌ الليلة؛ قال: ومَن يقتلني؟ قالت: أبي، وأخبرتْه الخبر وقالت: لا عليك أن تغيب الليلةَ حتى تنظر مِصْداقَ ذلك. فأخذ داودُ زِقَّ[1] خمرٍ فوضعَه في مَضْجَعه على السَّرير وسَجّاه ودخل تحت السَّرير ودخل طالوتُ نصفَ الليل، فعمد إليه فضربه ضربةً بالسيف فسالتِ الخمرُ، فلمّا وَجَد ريحها قال: رحم الله داود، ما كان أكثرَ شربَه للخمر، وخرج، فلمّا أصبح علم أنه لم يصنع شيئًا، فقال: إنّ رجلاً طلبتُ منه ما طلبتُ لخليق[2] ألاّ يَدَعني حتى يطلب مني ثأرَه؛ فاشتدّ حُجّابه وحُرّاسه وأغلق دونه الأبوابَ، فأتاه داود ليلةً وقد هدأتِ العيونُ وأعمَى الله الحُجّاب عنه وفتح له الأبواب، ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سَهمًا عند رأسه وسهمًا عند رجليه وسهمًا عن يمينه وسهمًا عن شماله ثم خرج. فلمّا استيقظ طالوت بصُر بالسهام فعرفها، فقال: رحم الله داود فهو خير منّي، ظفرتُ به فقصدتُ قتلَه، وظفر بي فكفّ عنّي، لو شاء لوَضَع هذا السهمَ في حلقي وما أنا بالذي آمَنُه. فلمّا كانت الليلةُ القابلة أتاه ثانيًا، وأعمى الله الحُجّاب، فدخل وهو نائم، فأخذ إبريقَ طالوتَ الذي كان يتوضّأ به وكوزَه الذي يشرب منه، وقطع شَعَرات من لحيته وشيئًا من هُدْب ثيابه، ثم خرج وهرب وتَوَارَى؛ فلمّا أصبح ورأى ذلك نصب على داود العيون وطلَبه أشدَّ الطلب فلم يقدر عليه، ثم رَكِبَ طالوتُ يومًا فوجد داود يمشي في البرِّيَّة فقال: اليوم أقتلُ داود، وكان داودُ إذا فرّ لم يُدرَك، فركض داود حتى دخل غارًا، فأمر الله العنكبوتَ أن تَنْسُج، فنَسَجت عليه بيتًا، وجاء طالوتُ إلى الغار فنظر إلى بيتِ العنكبوت فقال: لو كان هاهنا لخَرَق[3] بيتَ العنكبوت، فتركه ومضى، وانطلق داود إلى الجبل ومعه المتعبّدون، فجعل يتعبّد فيه. وطعَن[4] العلماءُ والعبّادُ على طالوتَ في شأن داود؛ فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن داود إلاّ قتله. وأغْرِيَ بقتل العلماء، فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم [ويُطيق قتله إلاّ قتله] ولم يكن طالوت يحارب جيشًا إلا هزمه، حتى أتِيَ بامرأة تعلم اسم الله الأعظم، فأمر جبّاره بقتلها، فرحمها الجبّار وقال: لعلّنا نحتاج إلى عالم فتركها.

---

(١) الزّق: وعاء من جلد توضع فيه الخمرة وغيرها من السوائل.

(٢) الخليق: الجدير. (٣) خرق: شقّ.

(٤) طعن: يقال: طعن على فلان: أي عابه وثلبه واعترض عليه.

ثم وقع في قلب طالوت التوبةُ، وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كلَّ ليلة يخرج إلى القبور ويبكي وينادي: أَنشُد اللّهَ عبدًا يعلم لي التوبةَ إلاّ أخبرني. فلمّا كَثُر عليهم [بكاؤه] ناداه منادٍ من قبر: يا طالوت، أما ترضَى [أنك][1] قتلتنا حتى تؤذينَا أمواتًا، فازداد بكاءً وحزنًا، فقال له الجبّار: ما لك أيها الملك؟ قال: هل تعلم لي في الأرض عالمًا أسأله؟ هل لي من توبة؟ قال الجبّار: هل تدري ما مَثَلُك؟ إنما مَثَلُك مَثَلُ ملِكٍ نزل قريةً عِشَاءً، فصاح ديك فتطيّر[2] به، فقال: لا تتركوا في هذه القرية ديكًا إلاّ ذبحتموه. فلمّا أراد أن ينام قال لأصحابه: إذا صاح الدّيك فأيقِظونا حتى نَدّلِج[3]. فقالوا له: وهل تركتَ ديكًا يُسمَع صوته؟ وأنت هل تركتَ في الأرض عالمًا؟! فازداد طالوتُ حُزنًا وبكاءً؛ فلمّا رأى الجبّار ذلك قال له: أرأيتَك إن دللتُك على عالم لعلّك أن تقتله؟ قال لا. فتوثّق منه الجبّار وأخبره أنّ المرأة العالمةَ عنده؛ قال: فانطلِقْ بي إليها حتى أسألَها هل لي من توبة؟ ـ وكان إنما يعلم ذلك أهلُ بيت لهم علمٌ بالاسم الأعظم[4] ـ فلمّا بلغ طالوتُ البابَ قال له الجبّار: إنها إن رأتك فزِعتْ، فخلَّفه خَلْفَه، ثم دخل عليها فقال لها: ألستُ أعظمَ عليكِ حُرمة، أنجيتُكِ من القتل وآويتُكِ عندي؟ قالت بلى. قال: فإنّ لي إليكِ حاجة. قالت: وما هي؟ قال: هذا طالوت يسأل هل له من توبة؟ فقالت: لا والله ما لطالوت من توبة، ولكن هل تعلمون مكانَ قَبرِ أشمويل؟ قال: نعم. قالت: فانطلقوا بي إلى قبره، ففعلوا، فصلّت ثم نادت: يا صاحب القبر أُخرج. فخرج أشمويل من قبره ينفُض رأسَه من التراب. فلمّا نظر إليهم ثلاثتهم المرأةِ والجبّار وطالوت قال: ما لكم! أقامت القيامة؟ قالت: لا، ولكنّ طالوت يسألكَ هل له من توبة؟ قال أشمويل: يا طالوت، ما فعلتَ بعدي؟ قال: لم أدَع من الشرّ شيئًا إلاّ فعلتُه، وقد جئت أطلب التوبة. قال: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال. قال: ما أعلم لك من توبة إلاّ أن تتخلّى عن مالك وتخرجَ أنت وولدُك في سبيل الله، ثم تُقدِّم ولدَك حتى يُقتَلوا بين يديك، ثم تُقاتِلَ أنت حتى تُقتَلَ آخرهم. ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميّتًا،

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٢) تطيّر به: أي تشاءم، وأصله من الطّير.

(٣) ندّلج: يقال: أدلج القوم أي ساروا في آخر الليل، أو ساروا الليل كلّه.

(٤) عبارة الثعلبي: وكانت تعلم الاسم الأعظم، وكان إنّما يعلم بهذا الاسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم وهو الأصوب للسياق.

ورجع طالوت أحزنَ ما كان، رهبةَ ألاّ يتابعَه أولادُه، وقد بكى حتى سقطت أشفارُ[١] عينيه، ونحَل جسمُه. فدخل عليه أولاده فقال لهم: أرأيتم لو دُفِعتُ إلى النار هل كنتم تنقذونني؟ قالوا: بلى، ننقذك بما قدَرنا عليه. قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول. قالوا: فأعرِضْ[٢] علينا، فذكرَ لهم القصة. قالوا: فإنك لمقتول؟! قال نعم. قالوا: فلا خير لنا في الحياة بعدك، قد طابت أنفسُنا بالذي سألتَ. فتجهّزَ للغَزْو بماله وولده، فتقدّم ولدُه فقاتلوا بين يديه حتى قُتلوا؛ ثم تقدّم فقاتلَ بعدهم حتى قُتل. فجاء قاتله إلى داود يبشّرْه وقال: قد قتلتُ عدوّك. فقال داود: ما أنت بالذي تحيا بعده. فضرب عنقَه.

وحكى الكسائيّ: أنّ طالوت لمّا حسد داود على ما أُوتي من القوّة، وهمّ بالغدر مرارًا فلم يَظْفَر به وظفر به داود فأبقَى عليه، اعتذر له طالوت واتفقا؛ ثم مات أشمويل، فانضمّ بنو إسرائيل إلى داود واختلفوا على طالوت وحاربوه؛ فاستقلّ داود بالمُلك، وجاهدَ ببني إسرائيل وقهر الأعداء. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خلافة داود عليه السلام ونبوّته ومبعثه إلى بني إسرائيل وما خصه الله عزّ وجل به

هو داود بن إيشَى[٣] بن عويل بن باعد بن سلمون بن يحسون بن عمى بن مارب بن أرَم بن حَصْرُون بن فارَص بن يَهُوذَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [صٓ: ٢٦] قال الكسائيّ: لمّا مات أشمويل تفرّق بنو إسرائيل واشتغلوا باللهو، فبعث الله تعالى داود عليه السلام وأعطاه سبعين سطرًا من الزَّبور، وأعطاه حُسن الصوت، فكان إذا سبّح سبّحت الجبال معه والطير والوحش؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [صٓ: ١٨ ـ ١٩] أي مطيع.

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ: قالت العلماء بأخبار الأنبياء: لمّا استُشهد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطَوْه خِزانَة طالوت وملّكوه على أنفسهم، وذلك بعد قتل جالوت بسبع سنين، ولم يجتمع بنو إسرائيل بعد يُوشَع بن نُون على ملِكٍ واحدٍ إلاّ على داود عليه السلام.

---

(١) أشفار العين: مفردها شفر: وهو الحرف الذي ينبت عليه الهدب.

(٢) فاعرض علينا: أي أخبرنا بما تريد.

(٣) في الكتاب المقدّس ١/ ٤٧٢ «يسّي» بفتح الياء وتشديد السين.

قال: وخصّ الله تعالى نبيّه داود بخصائص:

منها: أنه أنزل عليه الزَّبور بالعبرانية خمسين ومائةَ سورة، في خمسين منها ما يكون من بُخْتَنصر وأهل بابِل[١]؛ وفي خمسين ما يكون من أهل إبْرُون[٢]؛ وفي خمسين منها موعظة وحكمة؛ ولم يكن فيها حلال ولا حرام، ولا حدود ولا أحكام؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومنها: الصوت الطيّب، والنغمة اللذيذة، والترجيع[٣] في الألحان؛ ولم يُعْطِ الله تعالى أحدًا من خلقه مثلَ صوته، فكان يقرأ الزَّبور بسبعين لحنًا بحيث يعرق المحموم ويُفيق المَغْشِيّ عليه.

وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرّيّة، فيقوم ويقرأ ويقوم معه علماء بني إسرائيل خَلْفَه، ويقوم الناس خلفَ العلماء، وتقوم الجنّ خلفَ الناس، وتقوم الشياطين خلف الجنّ، وتدنو الوُحوش والسباع حتى تؤخذ بأعناقها، وتُظِلّه الطيرُ مُصيخة[٤]، ويركُد الماء الجاري ويسكن الريح.

قال الثعلبي: وما صنعت المزامير[٥] والبرابط[٦] والصُّنوج[٧] إلاّ على صوته، وذلك أنّ إبليسَ حسده واشتدّ عليه أمره، فقال لعفاريته: ترون ما دهاكم؟ فاقلوا: مُرنا بما شئتَ. قال: فإنه لا يصرف الناس عن داود إلاّ ما يُضادّه ويُحادّه[٨] في مثل حاله. فهيّأ المزامير والأعواد والأوتار والملاهي على أجناس أصوات داود عليه السلام فسمِعها سفهاء الناس فمالوا إليها واغترُّوا بها.

ومنها: تسبيح الجبال والطير معه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [صٓ: ١٨]. يقال: إن داود كان إذا تخلّل الجبالَ يسبّح اللّهَ تعالى

---

(١) بابل: مدينة من أقدم وأكبر مدن العالم الديم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهي مدينة النمرود اشتهرت في الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة وفيها مات الإسكندر «انظر معجم البلدان لياقوت».

(٢) إبرون: لم نقع على وصف لهذه الناحية أو البلد في معجم البلدان وغيره من المظانّ، ولكننا وجدنا صبح الأعشى يذكر أن أبرون: جزيرة «صبح الأعشى ٥/ ٨٣».

(٣) الترجيع: ترديد الصوت.

(٤) مصيخة: أي مصغية ومستمعة.

(٥) المزمار: الآلة التي يزمّر بها.

(٦) البرابط: مفردها بربط، وهو العود.

(٧) الصنوج: مفردها صنج، وهي صفيحة مدوّرة من نحاس يضرب بها على أخرى.

(٨) يحادّه: يعاديه.

جعلت الجبالُ تجاوبه بالتسبيح نحوَ ما يسبِّح. ثم قال في نفسه ليلةً من الليالي: لأعبُدنّ اللّهَ عبادةً لم يُعْبَد مثلَها، فصعِد الجبلَ، فلمّا كان في جوف الليل وهو على جبل داخلتْه وَحْشة، فأوحى الله إلى الجبال: أن آنِسِي داود، فاْصطكّت[1] الجبالُ بالتسبيح والتهليل. فقال داود في نفسه: كيف يُسمع صوتي مع هذه الأصوات؟ فهبَط عليه ملَك وأخذ بعَضُده حتى انتهى به إلى البحر، فوكَزَه[2] برجله فانفرج له البحر، فانتهى إلى الأرض فوكزها برجله فانفرجت له الأرض، حتى انتهى إلى الحوت فوكزه برجله، فانتهى إلى الصخرة، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت فخرجت منها دودة تَنِشّ[3]، فقال: إن الله تعالى يسمع نَشِيش هذه الدودة في هذا الموضع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر[4].

ومنها: أن الله تعالى أكرمه بالحكمة وفصل الخطاب. قالوا: والحكمة: الإصابة في الأمور. واختلفوا في فصل الخطاب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بيان الكلام. وقال ابن مسعود[5] والحسن[6]: المعنى علمُ الحُكْم والنظرُ في القضاء، كان لا يَتتعتَع[7] في القضاء بين الناس. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هو البيِّنة على المدّعِي واليمينُ على المدّعَى عليه. وقال كعب: الشهود والأيمان. وقال الشعبيّ: سمعتُ زيادًا يقول: فصل الخطاب الذي أُعطِيَ داود: أمّا بعد. قال أسباط: وهو أوّل من قالها.

ومنها: السلسلة التي أعطاه الله إيّاها، ليَعرِف المُحِقَّ من المبطل في المحاكَمة إليه. قال الثعلبيّ: روى الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالمجرّة[8] والفلك، ورأسها عند محراب داود حيث يُتحاكَم إليه، وكانت قوّتُها قوّةَ الحديد، ولَوْنُها لونَ النار، وَحَلَقُها مستديرة، مفصَّلة

---

(١) اصطكت: اضطربت.
(٢) وكزه: دفعه وضربه.
(٣) تنش: تصوّت.
(٤) المدر: واحدتها المدرة، وهي القرية المبنية بالطين واللّبن، ومدرة الرجل: بيته.
(٥) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمٰن الهذلي من السابقين الأولين، محدّث ثقة، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ «الكاشف ٢/١١٦».
(٦) الحسن: هو الحسن البصري، أبو سعيد، إمام أهل البصرة، وحبرُ الأمّة في زمانه، ولد بالمدينة وشبّ في كنف عليّ بن أبي طالب، كان غاية في الفصاحة، تنصبّ الحكمة من فيه، توفي سنة ١١٠هـ «الأعلام ٢/٢٢٦».
(٧) يتتعتع: يتردّد.
(٨) المجرّة: نجوم كثيرة في السّماء لا تدرك بالبصر، وإنّما يُرى ضوؤها كأنه بقعة بيضاء.

بالجوهر، مدسَّرة[١] بقُضبان اللؤلؤ الرَّطْب، فلا يحدث في الهواء حَدَث إلاّ صلصلت السلسلةُ، فيعلم داود ذلك الحَدَث؛ ولا يلمَسها ذو عاهة إلاّ برىءَ، وكان علامة دخول قومه في الدّين أن يمسّوها بأيديهم ويمسحوا بأكفّهم على صدورهم. وكانوا يتحاكمون إليه، فمن تعدّى على صاحبه أو أنكره حقّا أتوا السلسلة، فمن كان صادقًا مُحقًّا مدّ يده إلى السلسلة فنالها، ومن كان كاذبًا ظالمًا لم يَنلها؛ فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة.

قال: فبلَغنا أن بعض ملوكهم أودعَ رجلاً جوهرةً ثمينة، فلمّا ٱستردّها منه أنكره ذلك، فتحاكَما إلى السلسلة، فعلم الذي كانت عنده الجوهرة أن يده لا تَنال السلسلة، فعمَد إلى عُكّازة فنَقَرها[٢] ثم ضمّنها الجوهرة وٱعتمد عليها حتى حضر معه غريمه[٣] عند السلسلة، فقال لصاحبها: ما أعرِف لك من وديعة، إن كنتَ صادقًا فتناوَل السلسلة، فتناولَها بيده وقال للمنكِر: قم أنت أيضًا فتناوَلْها، فقال لصاحب الجوهرة: الزمْ عُكّازتي هذه حتى أتناول السلسلة. فأخذها وقام الرجل وقال: اللهم إن كنت تعلم أنّ هذه الوديعة التي يدّعيها عليّ قد وصلتْ إليه فقرِّب منّي السلسلة. فمدّ يده وتناوَلَها، فشكّ القومُ وتعجّبوا، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة.

وقال الكسائيّ في خبر السلسلة: أوحى الله تعالى إلى داود أن ينصِب سلسلةً من حديد ويعلِّقَ فيها جرسًا، ففعل ذلك؛ وساق في خبرها نحو ما تقدّم في أمر المُحقّ والمُبطل.

قال: وجاء خَصمان فٱدّعى أحدهما على الآخر أنه أودعه جوهرًا؛ فاعترف به وقال: أعدتُه إليه، فقام المدّعِي وتناولَ السلسلة فدنت منه حتى تناولَها، ثم قال للمدّعَى عليه: تناوَلْها. وكان قد أخذ الوديعة فجلعها في قَناة[٤] مجوفّة، فناولها للمدّعِي وقال: الزمْ عصايَ هذه، ومدّ يده إلى السلسلة فدنت منه حتى كاد يتناولها؛ ثم ٱرتفعت وتدلّت إليه مرارًا، ثم تناولَها، فقال داود للمدّعِي: لعلّ هذا قد سلّم وديعتَك لأهلك. فرجع وسأل أهلَه، فقالوا: ما دَفَع إلينا شيئًا. فعاد وأعلَمَ داود، فأخذ داود القَناة وشقها، فطلعت الوديعةُ منها؛ وارتفعت السلسلةُ من ذلك اليوم.

---

(١) مدسّرة: مسمّرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾.

(٢) نقرها: حفر فيها نقرة. (٣) الغريم: الدائن الذي يقاضيه.

(٤) القناة: كلّ عصا مستوية أو معوجة.

قال الثعلبي: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اشتبه عليه أمر الخَصْمَين قال: ما أحوجكما إلى سلسلة بني إسرائيل؟ كانت تأخذ بعنُق الظالم فتجرّه إلى الحق جرًّا. والله أعلم بالصواب.

ومنها: القوّة في العبادة وشدّة الاجتهاد؛ قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [صَ: ١٧] أي القوّة في العبادة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [صَ: ١٧] أي توّاب مطيع مسبِّح.

وكان داود يقوم الليل، ويصوم يومًا ويُفطِر يومًا، وما مرّت ساعةٌ من الليل إلاّ وفيها من آل داود قائم يصلّي، ولا يومٌ من الأيام إلاّ وفيه منهم صائم.

ومنها: قوّة المملكة. قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [صَ: ٢٠] أي قوّيناه، وقرأ الحسن: (وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ) بالتشديد. قال ابن عباس[١]: كان أشدّ ملوك الأرض سلطانًا؛ كان يحرس محرابَه كلَّ ليلة ثلاثةٌ وثلاثون ألف رجل. وقال السُّدّيّ: كان يحرسه في كل يوم وليلة أربعةُ آلاف.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً من بني إسرائيل استَعْدَى[٢] على رجل من عظمائهم عند داود؛ فقال المستعدِي: إن هذا قد غصبني بقري. فسأل داودُ الرجلَ فجحدَه، وسأل الآخرَ البيّنة فلم تكن له بيّنة، فقال لهما داود: قُومَا حتى أنظرَ في أمركما. فقاما من عنده، فأوحَى اللّهُ تعالى إلى داود في منامه أن يقتل الذي استُعدِي عليه، فقال: هذه رؤيا [ولستُ أعجل حتى أتبيّن] فأوحى الله تعالى إليه مرة ثانية أن يقتله [فقال: هذه رؤيا، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله] أو تأتيه العقوبة من الله. فأرسل داود إلى الرجل فقال: إن الله تعالى قد أوحى إليّ أن أقتلك. فقال: تقتلني بغير بيّنة ولا تثبُّت؟ فقال نعم، والله لأُنفِذنّ أمرَ الله فيك. فلمّا عرف الرجل أنه قاتلُه قال: لا تَعْجَل حتى أخبرَك. إنّي والله ما أُخِذتُ بهذا الذنب، ولكنّي [كنتُ][٣] اغتلتُ والدَ هذا فقتلتُه. فأمر به داودُ فقتل؛ فاشتدّت هيبتُه عند بني إسرائيل واشتدّ ملكه.

---

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشيّ الهاشمي، حبرُ الأمة، صحابي جليل، ولد بمكة، ولازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، كفّ بصره في آخر عمره، توفي سنة ٦٨هـ «الأعلام ٤/ ٩٥».

(٢) استعدى: اشتكى واستعان.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

ويقال: كان لداود إذا جلس للحكم عن يمينه ألف رجل من الأنبياء، وعن يساره ألفُ رجل من الأحبار(١).

ومنها: شدّة البطش. فرُوِيَ أنه ما فرّ ولا انحاز من عدوّ له قطّ، ولذلك قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عن داود عليه السلام: «كان يصوم يومًا ويُفطِر يومًا».

ومنها: إلانةُ الحديد له. قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١] قالوا: وكان سبب ذلك أنّ داود عليه السلام لمّا ملك أمر بني إسرائيل، كان من عادته أن يخرج للناس متنكّرا، فإذا رأى رجلاً لا يعرفه تقدّم إليه وسأله، فيقول له: ما تقول في داود وإليكم هذا؟ أيّ رجل هو؟ فيُثنون عليه ويقولون خيرًا؛ فبينما هو ذاتَ يوم إذ قيَّض الله له مَلَكًا في صورة آدميّ، فتقدّم داود إليه، فسأله على عادته، فقال له: نِعْم الرجلُ هو لولا خَصْلة(٢) فيه. فراع داودَ ذلك، فقال: ما هي يا عبدَ الله؟ قال: إنه يأكل ويُطعِم عيالَه من بيت المال. قال: فتنبّه داود لذلك، وسأل اللّهَ تعالى أن يسبِّب له سببًا يستغني به عن بيت المال، فألانَ الله له الحديد، فصار في يده مثلَ الشَّمْع والعجين والطِّين المبلول، فكان يصرفه بيده كيف شاء من غير إدخال نار ولا ضربٍ بحديد.

وعلّمه الله تعالى صنعةَ الدروع فهو أوّل من اتّخذها وكانت قبل ذلك صفائح. وقيل: إنه كان يبيع كل دِرْع منها بأربعة آلاف، فيأكل ويطعم عياله ويتصدّق منها على الفقراء والمساكين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] الآية. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١] أي دروعًا كواملَ واسعاتٍ ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، أي لا تجعل المسامير دقاقًا فتنفلق، ولا غِلاظًا فتَكْسِر الحِلَقَ. فكان يفعل ذلك حتى جَمع منه مالاً.

ورُوي أنّ لقمان الحكيمَ(٣) رأى داود وهو يَعمل الدُّروع، فعجب من ذلك ولم

---

(١) الأحبار: العلماء.

(٢) الخصلة: خُلق في الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة، يستفاد معناها من السّياق.

(٣) لقمان الحكيم: ورد ذكره في القرآن الكريم، «سورة لقمان رقمها ٣١» وقيل: كان رجلاً صالحًا ولم يكن نبيًا، وقيل: كان نبيًا. «انظر القرآن الكريم المفسّر: طبعة دار الشروق» وقد ذكر بعض المفسّرين أن لقمان الحكيم من اليمن، ثمّ سكن مدينة آيلة، ثمّ دخل بيت المقدس «انظر صبح الأعشى ٥/ ٢٦٦».

يدر ما هو؟ فأراد أن يسأله، فسكت حتى فَرَغ داود من نسج الدروع، فقام وصبّها على نفسه وقال: نِعم القميصُ هذا للرجل المحارب. فعلِم لقمانُ ما يراد به، فقال: الصمت حكمة وقليلٌ فاعلُه. والله أعلم.

ذكر خبر داود عليه السلام حين ٱبتُلي بالخَطيئة

قال الثعلبيّ رحمه الله: اختلف العلماء في سبب ٱمتحان الله تعالى نبيّه داود عليه السلام فقيل: إنه تمنَّى يومًا من الأيام على ربّه تعالى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو الذي كان يمتحنهم به، ويعطيَه من الفضل نحو الذي أعطاهم. قال: ورَوَى السُّدِّيّ والكلبيّ ومُقاتِل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: كان داود عليه السلام قَسَم الدهر ثلاثةَ أيام[١]: يومًا يَقضِي[٢] فيه بين الناس، ويومًا لعبادة ربّه، ويومًا يخلو فيه بنسائه وأولاده وأشغاله؛ وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام فقال: يا ربّ إنّ الخير كلَّه ذهب به آبائي الذين كانوا من قبلي. فأوحى الله تعالى إليه: أنهم ابتُلوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبَروا عليها؛ ابتُلِيَ إبراهيمُ بالنُّمرود وبذبح ٱبنه؛ وٱبتُليَ إسحاقُ بالذَّبح وبذَهاب بصره، وٱبتُلِيَ يعقوبُ بالحُزن على يوسف، وإنك لم تُبْتَلَ بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: ربّ فٱبتَلِني بمثل ما ٱبتليتَهم وأعطني مثلَ ما أعطيتَهم. فأوحى الله تعالى إليه: إنك مُبتلًى في شهر كذا في يوم كذا فٱحترِس[٣]. فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده الله عزّ وجل دخل داود محرابَه وأغلقَ بابَه، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان، تمثّل له في صورة حمامةٍ من ذهب، فيها من كل لونٍ حَسَن؛ فوقعت بين رجليه، فمدّ يدَه ليأخذها. وفي بعض الروايات: «ليدفعها إلى ٱبن له صغير»، فلمّا أهوَى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه[٤] من نفسها؛ فامتدّ إليها ليأخذها، فتنحّت، فتبعها فطارت حتى وقعت [في كُوّة][٥]، فذهب ليأخذها فطارت من الكُوّة؛ فنظر داود عليه السلام أين تقع فيبعثُ إليها من يصيدها؛ فأبصر ٱمرأةً في بستان على شطّ بركةٍ لها تغتسل، هذا قول الكلبيّ. وقال السُّدِّيّ:

---

(١) في الأصل: ثلاثة أقسام، والتصويب عن الثعلبي.

(٢) يقضي: يحكم ويفصل. (٣) احترس: توقى واحذر.

(٤) تؤيسه: أي ينقطع رجاؤه من إمساكها.

(٥) الكوّة: الفرجة أو الخرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء وهي ليست في الأصل وإنّما زيادة عن الثعلبي.

رآها تغتسل على سطح لها. وقال الكسائيّ: سقط الطائر على شجرة إلى جانب الحوضِ الذي تغتسل فيه نساءُ بني إسرائيل. قالوا: فرأى داودُ ٱمرأةً من أجمل النساء خَلْقًا، فعجب من حُسنها، وحانت منها التفاتة، فأبصرت ظِلّه، فنَفضتْ شعرها فتغطّى بدنُها، فزاده ذلك إعجابًا بها؛ فسأل عنها، فقيل هي بَتْشَابَعُ بنتُ سالغ[١]، ٱمرأة أُورِيّا بن حُنانا، وزوجها في غزاةٍ بالبلقاء[٢] بُعث مع يُوآب[٣] بن صَرُوِيَة ٱبن أخت داود، فكتب داود إلى ٱبن أخته: أن ٱبعث أُوريّا إلى موضع كذا وكذا، وقدِّمه قبلَ التابوت؛ وكل من قُدِّم على التابوت لا يحلّ له أن يرجع وراءه [حتى يفتح الله على يديه][٤] أو يُستشهَد، فبعثه أيوب وقدّمه، ففُتِح له، فكتب إلى داود بذلك؛ فكتب إليه أيضًا: أن ٱبعثه إلى عدوّ كذا وكذا. فبعثه، ففُتِح له؛ فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أيضًا: أن ٱبعثه إلى عدوّ كذا أشدَّ منه بأسًا. فبعثه؛ فقتِل في المرّة الثالثة. فلمّا ٱنقضت عِدّة[٥] المرأة تزوّجها داود عليه السلام وهي أمّ سليمان عليه السلام.

وقال آخرون: كان سببُ ٱمتحانه أن نفسَه حدّثته أنه يُطيق قطع يوم بغير مقارفة سوء.

وقد رَوَى الثعلبيّ في ذلك بسند [سعيد بن][٦] مطر عن الحسن قال: إن داود عليه السلام جزّأ الدهرَ أربعةَ أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا للعبادة، ويومًا للقضاء بين الناس[٧]، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه، ويُبْكِيهم ويُبكونه. فلمّا كان يوم بني إسرائيل ذكروا فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب[٨] فيه ذنبًا؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيُطيق ذلك. فلمّا كان يومُ عبادته غلّق أبوابه، وأمر ألاّ يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزَّبور؛ فبينما هو يقرأ إذا حمامةٌ من ذهب فيها من كل لونٍ

---

(١) التصويب عن الثعلبي، وهي في الأصول: «يشايع بنت سايع».

(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، حنطتها يضرب بها المثل، وقيل: سمّيت بالبلقاء لأنّ بالق من بني عمّان بن لوط عليه السلام عمّرها «معجم البلدان».

(٣) كذا في الكتاب المقدّس ١/٥٠٣، وفي الأصول: أيوب بن صوريا.

(٤) زيادة عن الثعلبي.

(٥) عدّة المرأة: مدّة حدّدها الشرع، تقضيها المرأة دون زواج بعد طلاقها، أو وفاة زوجها عنها.

(٦) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٧) كذا في قصص الأنبياء للثعلبي، وفي الأصول: «بين بني إسرائيل».

(٨) يصيب: يقترف.

حَسَن وقد وقعت بين يديه، فأهوى إليها ليأخذها، فطارت فوقعت غيرَ بعيد، ولم تؤيسه من نفسها، فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خَلْقُها؛ فلمّا رأت ظِلّه في الأرض جلّلت[١] نفسَها بشَعرها، فزاده ذلك إعجابًا بها؛ وكان قد بَعث زوجَها على بعض جيوشه، فكتب إليه: أن سِرْ إلى مكان كذا وكذا - مكان إذا سار إليه قُتِل ولم يرجع - ففعل، فأصيب. فخطبها داود وتزوّجها.

وقال بعضهم في سبب ذلك ما رواه أبو إسحاق بسنده عن قَتَادة عن الحسن قال: قال داود عليه السلام لبني إسرائيل حين ملك: والله لأعدلنّ بينكم. ولم يستثن؛ فٱبتُليَ.

وقال أبو بكر الورّاق[٢]: كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة، فأعجب بعمله وقال: هل في الأرض أحدٌ يعمل عملي؟ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله عزّ وجل يقول: أُعجِبتَ بعبادتك والعجب يأكل العبادة، فإنْ أُعجِبتَ ثانيًا وَكَلْتُك إلى نفسك. فقال: يا ربّ كِلْني إلى نفسي سنة. قال: إنها لكثيرة. قال: شهرًا. قال: إنه لكثير. قال: فأسبوعًا. قال: إنه لكثير. قال: فيومًا. قال: إنه لكثير. قال: فساعة. قال: فشأنَك بها. فوكّل الأحراس ولَبِس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه، فبينما هو في نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه؛ وكان من أمر المرأة ما كان.

قالوا: فلمّا دخل داود عليه السلام بٱمرأة أُوريّا لم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله عزّ وجل مَلَكين في صورة إنسِيّين، يطلبان أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه؛ فتسوّرا[٣] المحراب عليه، فما شَعَر وهو يصلّي إلاّ وهما بين يديه جالسان، فذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صۤ: ٢١ - ٢٢] أي تجر ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صۤ: ٢٢] أي وسط الطريق ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [صۤ: ٢٣] كنى

---

(١) جلّلت: غطّت، والتحفت، وسرّت.

(٢) أبو بكر الورّاق: هو أحمد بن محمد بن سعيد بن عبيد الله بن أبي مريم، أبو بكر القرشيّ الورّاق، الحافظ الدمشقي، ويعرف بابن فُطيس، مات سنة ٣٥٠ هجرية، روى الحديث عن جماعة من أهل الشام، وكان ثقة مأمونًا، يورق للناس بدمشق، له خطّ حسن «انظر معجم الأدباء لياقوت ١/٦٢٦».

(٣) تسوّر المحراب: علاه وتسلّقه، والمحراب: مكان العبادة.

بالنِّعاج عن النساء؛ والعرب تفعل ذلك. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾. قال ٱبن عباس: أعطنيها. وقال ٱبن جُبَير[١] عنه: تحوّل لي عنها. وقال أبو العالية[٢]: ضمَّها إليّ حتى أكفُلَها. وقال ٱبن كَيْسان: اجْعَلْها كِفْلي، أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾، أي غلبني. وقرأ عُبيد بن عُمير[٣]: وعازَّني، من المعازّاة، وهي المغالبة. قال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [صَ: ٢٤] وروى السُّدّيّ أن أحدهما لما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ الآية، قال داود عليه السلام للآخر: ما تقول؟ قال: إن لي تسعًا وتسعين نعجة ولأخي هذا نعجةٌ واحدة، وأنا أريد أن آخذها منه فأكمِّل نعاجي مائة وهو كاره. قال داود: وهو كاره؟ قال نعم. قال: إذًا لا ندَعُك وذلك، وإن رُمْتَ ذلك ضربْنا منك هذا وهذا، يعني طرَف الأنف وأصلَ الجبهة. فقال: يا داود، أنت أحقُّ أن يُضرَب منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأُورِيّاء إلا ٱمرأةٌ واحدة، فلم تزل به تعرّضه للقتل حتى قُتل وتزوّجتَ ٱمرأته. فنظر داود عليه السلام فلم يَرَ أحدًا، فعرف ما قد وقع فيه؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [صَ: ٢٤] أي ٱبتليناه. قال سعيد بن جُبَير: إنما كانت فتنة داود النظر. قال الثعلبيّ: ولم يتعمد النظرَ إلى المرأة، ولكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه[٤].

قال: فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير في قصة ٱمتحان الله تعالى داود عليه السلام. وقد رُوِي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص معتقدًا صحته جلدتهُ حدَّين لعظيم ما ارتكَب وجليل ما ٱحتقَب[٥] من الوِزْر والإثم، يَرمي مَنْ قد رفع الله محلَّه وأنابَه من خلقه رحمةً للعالمين وحجةً للمجتهدين»!

وقال القائلون بتنزيه المرسلين في هذه القصة: إن ذنب داود عليه السلام إنما كان أنه تمنّى أن تكون له ٱمرأةُ أُورِيّاء حلالاً له، وحدّث نفسه بذلك، فٱتفق غَزْو

---

(١) ابن جبير: لعله جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم محدِّثٌ ثقة «انظر الكاشف ١/ ١٢٥».

(٢) هو أبو العالية البرّاء البصري زياد، وقيل كلثوم محدّث ثقة أخذ الحديث عن ابن عباس وأبي برزة «الكاشف ٣/ ٣١١».

(٣) لعلّه عبيد بن عُمير مولى ابن عبّاس، محدّث أخذ الحديث عن ابن عباس «انظر الكاشف ٢/ ٢٠٩».

(٤) صارت عليه: أي صارت ذنبًا عليه، وذلك مصداق قول رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة فإنّ لك الأولى وعليك الأخيرة».

(٥) ما احتقب: ما اكتسب من الإثم.

أُورِيّاء وتقدُّمُه في الحرب وهلاكُه. فلمّا بلغه قتلُه لم يجزَع عليه ولم يتوجّع له كما [كان] يجزَع على غيره من جُنده إذا هلك، [ووافق قتله مُرادَه، ثم تزوّج ٱمرأته فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت][١] فهي عظيمة عند الله تعالى.

وقال بعضهم: ذنب داود أن أَورِيّاء كان قد خطب تلك المرأةَ ووطّن[٢] نفسه عليها، فلما غاب في غَزاته خطبها داود، فتزوّجت منه لجلالته؛ فٱغتمّ لذلك أُورِيّاء غمًّا شديدًا، فعاتبه الله تعالى على ذلك، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأوّل، وقد كانت عنده تسع وتسعون ٱمرأة.

قالوا: فلما علم داود أنه ٱبتُليَ سجد فمكث أربعين ليلةً ساجدًا باكيًا حتى نبت الزرعُ من دموعه، وأكلت الأرض من جبينه، وهو يقول في سجوده: ربَّ داودَ زل داودُ زَلَّةً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضَعْفَ داود وتَغفِرْ ذنبَه جعلتَ ذنبَه حديثًا في الخُلُوف[٣] من بعده. فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال: يا داود، إن الله تعالى قد غَفَر لك الهمّ الذي هَمَمْتَ به. فقال داود: عرفتُ أن الربّ قادر على أن يغفر لي، وقد عرفتُ أن الله عَدْلٌ لا يَميل، فكيف بفلان إذا جاء يومَ القيامة فقال: يا ربّ، دمي الذي عند داود؟ فقال جبريل: ما سألتُ ربك عن ذلك، ولئن شئتَ لأفعلنّ. قال نعم. فعرجَ جبريل عليه السلام وسجد داود فمكث ما شاء الله، ثم نزل جبريل فقال: قد سألتُ يا داود ربَّك عن الذي أرسلتَني فيه فقال: قل لداود: إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له: هَبْ لي دَمَك الذي عند داود؛ فيقول: هو لك يا ربِّ، فيقول: فإن لك في الجنة ما شئتَ وما ٱشتهيتَ عوَضًا.

ورَوَى الثعلبيّ بسندٍ رفعه إلى ٱبن عبّاس وكعب الأحبار[٤] ووهب بن مُنَبِّه، قالوا جميعًا: إن داود عليه السلام لما دخل عليه المَلَكان فقَضَى على نفسه تحوَّلاَ عن صورتهما، فعرَجا وهما يقولان: قَضَى الرجل على نفسه. وعلم داود أنه عُنِيَ به، فخرَّ ساجدًا أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب ولا يرفع رأسه إلاّ لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجدًا، لا يرفع رأسه إلاّ لحاجة لا بدّ منها ثم يعود، فسجد تمامَ

(١) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٢) وطّن نفسه على الأمر: أي حملها على إتيانه.

(٣) الخلوف: العقب.

(٤) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، أخذ عنه العرب كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، خرج إلى الشام وسكن حمص ومات فيها سنة ٣٢هـ «الأعلام ٥/ ٢٢٨».

أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العُشْبُ حول رأسه، وهو ينادي ربه عزّ وجل ويسأله التوبة ويدعو بدعاء طويل ذكره الثعلبيّ، في آخر كل كلمة منه: سبحان خالقِ النور.

قال: فأتاه نداء: يا داود، أجائع أنت فتُطْعَم، أظمآنٌ أنت فتُسْقَى، أمظلوم أنت فتُنْصَر، ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء. فصاح صيحةً هاج منها ما حوله؛ ثم نادى: يا رب الذنب الذي أصبتُه. فنُودِيَ: يا داود، إرفع رأسك فقد غفرتُ لك. فلم يرفع رأسه حتى جاء جبريل عليه السلام فرفعه.

قال وَهْبٌ: إن داود عليه السلام أتاه نِدَاء: إنّي قد غفرتُ لك قال: يا رب كيف وأنت لا تظلِم أحدًا؟ قال: إذْهَبْ إلى قبر أورِيّاء، فنادِه وأنا أُسمِعه نداءك، فتحلَّلْ منه. فانطلَقَ حتى أتى قبرَه وقد لبِس المسُوح[١]، فجلس ثم نادى: يا أُورِيّاء. فقال: لَبَّيك، مَن هذا الذي قطع عليَّ لذّتي وأيقظني؟ قال: أنا داود. قال: ما جاء بك يا نبيَّ الله؟ قال: أسألك أن تجعلني في حِلٍّ مما كان منّي إليك. قال: ما كان منك إليّ؟ قال: عرّضتُك للقتل. قال: عرّضتَني للجنّة، فأنت في حلٍّ. فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، ألم تعلم أني حَكَمٌ عدلٌ لا أقضي بالغيب والتغرير[٢]! ألاَ أعلمته أنك قد تزوّجت آمرأته!.

قال: فرجع إليه فناداه؛ فأجابه فقال: من هذا الذي قَطَع عليّ لذّتي؟ قال: أنا داود. قال: يا نبيّ الله، أليس قد عفوتُ عنك! قال: نعم، ولكن إنما فعلتُ ذلك لمكان آمرأتك فتزوّجتُها، فسكت ولم يُجبه، وعاوَدَه فلم يجبه، فقام عند قبره وحثا[٣] التراب على رأسه ثم نادى: الويلُ لداود ثم الويلُ لداود إذا نُصبت الموازين القِسْطُ [ليوم القيامة][٤]، سبحان خالقِ النور. الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُؤْخَذ بذَقنَه[٥] فيُدفع إلى المظلوم، سبحان خالقِ النور. الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُسْحَبُ على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور. الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقرّبه الزبانية[٦] مع الظالمين إلى النار، سبحان خالق النور.

---

(١) المسوح: واحدها المسح، وهو ثوب الرّاهب، أو الكساء من شعر.
(٢) التغرير: تعريض الإنسان إلى الهلاك، يقال: غرّر به: أي عرضه للهلاك، والغرّة: الغفلة.
(٣) حثا التراب: رماه وأهاله على رأسه، أو نثره.
(٤) زيادة عن الثعلبي.
(٥) يؤخذ بذقنه: يمسك ويشدّ، والذّقن: مجتمع اللحيين من أسفلهما.
(٦) الزّبانية: سمّي بها بعض الملائكة بدفعهم أهل النار إليها.

قال: فأتاه نداء من السماء: يا داود، قد غفرتُ لك ذنبك، ورَحِمتُ بكاءك، واستجبتُ دعاءك، وأقلتُ عَثْرتك[١]. قال: يا ربّ، كيف لي أن تعفوَ عنّي وصاحبي لم يعفُ عنّي؟ قال: يا داود، أُعطيه يوم القيامة ما لم تَرَ عيناه، ولم تَسمَع أذناه، فأقول له: رَضِيتَ عبدي؟ فيقول: يا ربّ، من أين لي هذا ولم يبلُغه عملي؟ فأقول له: هذا عِوَض من عبدي[٢] داود، فأستوهبُك منه فَيَهَبُك لي. قال: يا رب، الآن قد عرفتُ أنك قد غفرتَ لي. فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [صٓ: ٢٤ ـ ٢٥]، أي ذلك الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [صٓ: ٢٥] أي وإنّ له بعد المغفرة عندنا يومَ القيامة حُسْنَ مرجع.

قال الثعلبيّ ورفَعَه إلى وهب بن مُنَبِّه قال: إن داود عليه السلام لما تاب اللّهُ تعالى عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنةً لا تَرْقأُ[٣] له دمعةٌ ليلاً ولا نهارًا، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، فقَسَم الدهرَ بعد الخطيئة على أربعة أيام، فجعل يومًا للقضاء بين بني إسرائيل، ويومًا لنسائه، ويومًا يَسِيحُ[٤] في الفيافي والجبال والساحل، ويومًا يخلو في دار له فيها أربعةُ آلافِ محراب؛ فيجتمع إليه الرُّهبان، فينوح معهم على نفسه، ويساعدونه على ذلك. فإذا كان يومُ سياحته يخرج في الفيافي، فيرفع صوته بالمزامير، فيبكي وتبكي معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يَسِيلَ من دموعهم مثلُ الأنهار؛ ثم يجيء إلى الساحل فيبكي وتبكي معه الحِيتان ودوابُّ البحر والسباعُ وطيرُ الماء، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نَوْحه نادَى مُنادٍ: إن اليوم نوح داود على نفسه فليَحْضُر مَن يساعده. قال: فيدخل الدارَ التي فيها المحاريب، فتُبْسَط له فَرْشٌ من مُسوح[٥] حَشْوُها ليف فيجلس عليها، ويجيء الرُّهبان وهم أربعة آلاف، عليهم البرانس وفي أيديهم العِصِيّ، فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالنَّوح والبكاء، ويرفعُ الرهبانُ معه أصواتَهم، فلا يزال يبكي حتى تَغْرق الفُرُش من دموعه، ويقعَ داود مثلَ الفَرْخ يضطرب، فيجيء ٱبنُه سليمانُ فيحمله، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفَّيه، ثم يمسح بها وجهه ويقول: يا رب ٱغفر ما تَرَى. قال: فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببكاء أهل الدنيا لَعَدَله.

---

(١) أقلت عثرتك: أي غفرت زلّتك وخطيئتك. (٢) أي من أجل عبدي داود.
(٣) ترقأ: تنقطع أو تجفّ. (٤) يسيح: يذهب ويسير تائهًا.
(٥) المسوح: مفردها مسح: وهو الثّوب من شعر، أو البِلاس الذي يقعد عليه.

وقال ثابت[١]: ما شرب داود شرابًا بعد المغفرة إلاّ ونصفُه ممزوجٌ بدموع عينيه. وعن الأوزاعي[٢] قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «خدّت[٣] الدموعُ في وجه داود عليه السلام خَدِيد الماء في الأرض».

ذكر ميلاد سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائيّ: كان لداود عليه السلام عِدّةٌ من الولد، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدًا يرث مُلْكَه؛ فرزقه الله تعالى سليمان. فنُودِيَ إبليس عند ما حَمَلتْ به أمه: يا ملعون، قد حُمِلَ في هذه الليلة برجل يكون طولُ حزنك على يديه، ويكون أولادُك له خُدّامًا. ففزِع من ذلك وجمع الشياطين وأخبرَهم بأمر المولود وما سمعه وقال: إنه لا يكون إلاّ من داود، فإنه خيرُ أهل الأرض.

قال: فلما وضعتْه أمه أتت الملائكةُ إلى داود وقالوا: أقرّ الله عينَك به. فبادر داود إلى منزله فرأى أعلام الملائكة منصوبةً، فخرّ داود شكرًا لله تعالى، وقرّب قُربانًا عظيمًا. ثم جاءه إبليس وقال: يا داود، أقرّ الله عينَك بولدك، غير أنه يقتلك ويَسلُبُك مُلْكَك، فٱقتُلْه صغيرًا وإلاّ قَتَلك كبيرًا، فغضب منه ولعنه، فٱنصرف وقد خاب أملُه.

قال: ونشأ سليمان، فكان داود إذا تلا الزبور حفظ ما يتلوه لوقته، وحفظ التوراة، وكان يحكم بحضرة أبيه.

ذكر خبر أبْشالوم بن داود

قال الكِسائيّ: كان من خبر «أبْشَالوم»[٤] أنه لما كان من أمر فتنة داود عليه السلام ما قدّمناه، تكلّم بعضُ بني إسرائيل في ذلك وجاؤوا إلى «أبشالوم» وهو ٱبن بنت طالوت، وقالوا: إن أباك قد كَبِر وعَجَز عن سياستنا، وقد وقع في هذه الخطيئة، وأنت أكبرُ أولاده، والرأي أن ندعوَ الناس إليك وتقومَ مقامَه، فتبع رأيَهم وتولّى المُلك. فخاف داود على نفسه من سفهاء بني إسرائيل، ففارق منزلَه وٱعتزل القوم برجلين من أصحابه. ثم جاء رجل من بني إسرائيل ٱسمه أحِيتُوفَل[٥] إلى

---

(١) ثابت: لعلّه ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد، كان رأسًا في العلم والعمل، يقال: لم يكن في وقته أعبد منه، عاش ستًّا وثمانين سنة، مات سنة ١٢٧هـ «الكاشف ١/ ١١٥».

(٢) الأوزاعي: هو عبد الرحمٰن بن عمرو، إمام الدّيار الشامية في الفقه والزّهد، ولد في بعلبك، وسكن بيروت وتوفي فيها سنة ١٥٧هـ كان عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعزّ من أمر السلطان «الأعلام ٣/ ٣٢٠».

(٣) خدّت الدموع في وجهه: أي أثرت فيه.

(٤) في الأصل: إبشالوم، والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/ ٥٠٥.

(٥) في الأصل: «نوفل» والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/ ٥٣٠.

أَبْشالُوم وقال: إنه لا يستقيم أمرُك إلاّ بعد وفاة أبيك، والرأي أن تُعاجِله وتقتلَه ما دام في الخطيئة، فهمّ بذلك ثم صرفه الله عنه. فلما غفر الله تعالى لداود ورجع إلى قومه اَعتزل اَبنُه «أبشالوم» في طائفة من بني إسرائيل. فلمّا وُلد سليمان أرسل داودُ اَبنَ أخت[1] له يقال له «يُوآب»[2] إلى اَبنه «أبشالوم» وقال: سِرْ إليه فإنه اَعتزلني خوفًا على نفسه، وما كنتُ بالذي أقتل ولدي وقد تاب الله تعالى عليّ ورزقني هذا الولدَ المبارَك، فإن ظَفِرتَ به فأتني به مكرَّمًا، وإيّاك أن تقتله، فإنك إن قتلتَه قتلتُك به. فسار إليه في نفر من أصحابه، فاَلتقوْا واَقتتلوا قتالاً شديدًا، فاَنهزم أبشالوم ومن معه. فبينا هو في هزيمته إذ مرّ بشجرة فعَلِق بَرْنُسُهُ[3] بها، وخرج الفرس من تحته، فأدركه يوآب فحمله الحرج[4] على قتله فقتله وتركه معلَّقًا في الشجرة، ورجع إلى داودَ فأخبره الخبر، فغضب وقال: إني قاتلُك به لا محالة عاجلاً أو آجلاً.

قال الثعلبي: فلما حضرتْ داودَ الوفاةُ أمر سليمان أن يقتله، فقتله بعد فراغه من دفن أبيه.

ذكر خبر الزرع الذي رعته الغنم وما حكم فيه سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: وبينما داود عليه السلام في يوم قَضائه وسليمانُ بين يديه، إذ تقدّم إليه قوم فقالوا: يا نبيّ الله، إنّا قوم حرثنا أرضًا لنا وزرعناها وسقيناها حتى بلغت الحَصَاد، فجاء هؤلاء وأرسلوا أغنامهم فيها بالليل، فرعتْها جميعًا حتى لم يبق منها شيء. فقال داود لأصحاب الغنم: ما تقولون؟ قالوا: صدقوا. فقال لأصحاب الزرع: كم قيمةُ زرعكم؟ قالوا: كذا وكذا. وقال لأرباب[5] الغنم: كم قيمة أغنامكم؟

(١) كذا في الأصول، وفي الكتاب المقدّس ١/ ٥٠٤ «وفي الثعلبي: ابن أخ» وهو خطأ.

(٢) ورد هذا الاسم في الأصول هكذا «نوال» والتصويب عن الكتاب المقدّس: ١/ ٥٢٥.

(٣) قوله: (إذ مرَّ ـ أبشالوم بن داود ـ بشجرة فعلق بُرنسه بها وخرج الفرس من تحته) لا يعقل أن يمرّ أبشالوم على فرس بشجرة فيعلق برنسه بالشجرة ويخرج فرسه من تحته وأين بقي أبشالوم يا ترى حتى أدركه يوآب وقتله؟ وإنما صوابه ما ورد في الكتاب المقدس ونحن ناقلوه من قاموس الدكتور بوست (جزء ١ ص ٢١) بنصه:
(وهرب أبشالوم وكان راكبًا على بغل فمرَّ به من تحت بُطمة عظيمة فتعلق شعر رأسه في أغصانها ومر البغل من تحته وبقي معلقًا في الفضاء اهـ) فعلق برنسه صوابه (فعلق رأسه) أي بواسطة شعره الكثيف الذي اشتهرت غزارته حتى كان إذا قصه بلغ وزنه مائتي شاقل. واختلف شرّاح الكتاب المقدس في حقيقة هذا الوزن والبَطمة الواحدة من شجر البَطم وهو شجر كالفستق جرمًا.

(٤) الحرج: الضّيق.

(٥) أرباب الغنم: أصحابها ومالكوها.

فذكروا قيمتها، فتقاربت القِيَم، فقال: ادفعوا أغنامكم إليهم بقيمة زرعهم. فقال سليمان: يا أبت إن أذِنتَ لي تكلّمتُ. قال: يا بُنَيّ تكلم بما عندك. فقال سليمان لأرباب الغنم: ادفعوا أغنامَكم إلى هؤلاء ينتفعوا بأصوافها وألبانها ونتاجها، وخذوا أنتم أرضَهم فأحرُثوها وأزرعوها وأسقوها حتى يقوم الزرعُ على سوقه[1]، فإذا بلغ الحَصَاد فسلّموا إليهم أرضهم بزرعها وخذوا أغنامكم، فرضُوا جميعًا بذلك. قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال: ولما نظر مشايخ بني إسرائيل إلى جلوس سليمان عن يمين أبيه مع صغر سنّه حسدوه على ذلك. فأوحى الله إلى داود أن يقيم سليمان خطيبًا ليُسمِعهم من الحكمة ما ألهمه الله ليعلموا فضلَه عليهم. فجمع داودُ الناسَ حتى العُبّاد والرُّهبانَ وأهلَ السّياحة[2] إلى محرابه، وكانت سِنُّ سليمان يومئذ اثنتي عشرةَ سنة، فأخرجه داود إليهم وألبسه لباسَ النبيّين من الصوف الأبيض وقال: هذا ابني قد أخرجتُه إليكم خطيبًا ليُورِد عليكم مما علّمه الله تعالى. فجلس على منبر أبيه وحمد الله تعالى ووحَّده، ووصفَ عجائب خَلْقه وصُنْعه؛ فسجدوا شكرًا لله، ونظروا إليه بعد ذلك بالعين الرفيعة وأجلُّوه، وأعطِي سليمانُ في حياة أبيه من العلم ما فَسَّر لبني إسرائيل خطيئة آدم ووصيّةَ شيثٍ ورفعَ إدريسَ وغيرَ ذلك.

ذكر خبر الذين اعتدَوْا في السبت

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآية.

قال الكسائيّ: وكان في زمن داود عليه السلام قومٌ من بني إسرائيل من أبناء الذين كانوا مع موسى؛ وكانوا ينزلون على ساحل البحر بقرية يقال لها: «أيْلة»[3] وكان الله قد حرّم على بني إسرائيل أن يشتغلوا يوم السبت، وأوجبَ عليهم فيه العبادة؛ لأنّ موسى عليه السلام أمرهم بالعبادة يومَ الجمعة فأبَوْا وقالوا: لا ينبغي لنا أن نشتغل بعبادة الرب إلا في اليوم الذي فَرَغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت. فلمّا اختاروه شدّد الله عليهم فيه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤]. وكان موسى يأمر قومه بتعظيمه؛ فكانوا كذلك مدّة، وكان على

---

(١) السوق: يراد بها سيقان الزرع.

(٢) أهل السّياحة: أهل العبادة والانقطاع عن الناس لعبادة الله.

(٣) أيلة: فرضة في طريق مكة من مصر، وهي أول حدّ الحجاز، يجتمع بها حاج مصر والمغرب «الروض المعطار: ٧٠».

ساحل البحر إلى جانب أيْلة حَجَران أبيضان، وكانت الحِيتان تخرج إلى أصلهما ليلةَ السبت ويومَ السبت، لأنها كانت لا تصاد، فإذا أقبلتْ ليلةُ الأحد خرجتْ منهما إلى البحر، فيتعذّر عليهم صيدها فيه إلاّ بمشقّة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فجعل فُسّاق أهل «أيلة» يقل بعضهم لبعض: إنما حرّم الله تعالى الاصطيادَ على آبائنا وأجدادنا لا علينا، ونحن لا ذنب لنا، وهذه الحِيتان تكثر يومَ السبت وليلتَه، فمن المُحال تركُها؛ فاصطادوها وطبخوها وشوَوْا منها، فشمّ المؤمنون رائحتَها في يوم السبت، فخرجوا إلى الفُسّاق ووعظوهم وحذّروهم، فلم يكترثوا لذلك ولم ينتهوا عنه، فاجتمع المؤمنون على أبواب القرية بالسلاح ومنعوهم من دخولها، فاشتدّ ذلك على الفُسّاق وشق عليهم أن يمتنعوا من الاصطياد في يوم السبت لكثرة الحِيتان فيه دون غيره من الأيام، فقالوا: إن هذه [القرية] مشتركة بيننا [وبينكم][(١)] ولا يحلّ لكم أن تمنعونا منها، فإمّا أن تصبروا على أفعالنا أو تُقاسِمونا القرية فننفرد عنكم. فتراضَوْا على ذلك وقاسموهم القرية، وبنَوْا بينهم حيطانًا عالية وبابًا يدخلون منه غيرَ بابهم، وانفردت كلُّ طائفة، واشتغل الفُسّاق باللهو واللعِب والاصطياد، وحفروا أنهارًا صغارًا من البحر إلى أبواب دُورهم، فكانت الحِيتان تأتيها في يوم السبت، فإذا غَرُبت الشمس همّتِ الحِيتان بالرجوع إلى البحر، فيسُدّون أفواهَ تلك الأنهار مما يلي البحر، ويصيدون تلك الحيتان. هذا والمؤمنون يخوّفونهم عذابَ الله فلا يرجعون. فلمّا طال ذلك وتكرّر منهم قال بعض المؤمنين لبعض: إلى كم ننصح هؤلاء ولا يزيدون إلا تماديًا وعُتُوًّا[(٢)]! قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] الآية.

قال: واستغنى الفُسّاق وكثُرت أموالهم، ولاشترَوْا الضِّياع وانهَمَكُوا على الفِسق فبلغ ذلك داودَ عليه السلام فلعنهم ودعا عليهم. فبينما هم في منازلهم في شر ما هم فيه إذ زُلزلت قريتُهم زلزلة عظيمة، ففزع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨]. فالذين لُعِنوا على لسان داود هم هؤلاء الذين اعتدَوْا في السبت، والذين لُعِنوا على لسان عيسى الذين سألوه نزولَ المائدة، فلمّا نزلت عليهم كفروا.

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن قصص الأنبياء للكسائي.

(٢) العتوّ: الاستكبار وتجاوز الحدّ في الظلم والكفر.

قال: فمسخ[١] الله هؤلاء الذين ٱعتدَوْا في السبت قِرَدة، ومسَخَ أصحابَ المائدة خنازير ـ وسنذكر إن شاء الله خبر أصحاب المائدة في موضعه من أخبار عيسى عليه السلام ـ قال: فكان أحدُهم يأتي حميمَه[٢] من المؤمنين وعيناه تَذْرِفان دمعًا فيقول له: أنت فلان؟ فيشير برأسه، أي نعم. فيقول لهم المؤمنون: قد أنذرناكم عذاب ربكم وعقوبتَه فلم تّتعظوا، فنزل بكم ما نزل.

قال الثعلبيّ قال قَتادة: صارت الشُّبّان قِرَدة، والشيوخُ خنازير، فما نجا إلاّ الذين نَهَوْا وهلك سائرُهم. قال: ثم برز الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيِّرين، فمكثوا ثلاثةَ أيام ثم هلكوا، وكذلك لم يلبث مَسْخٌ فوقَ ثلاثةِ أيام، ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا؛ ثم بعث الله تعالى عليهم ريحًا ومطرًا فقذفهم في البحر، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله إلى صُوَرهم الأولى البشرية، فيدخلهم النار. والله أعلم.

ذكر ٱستخلاف داودَ ٱبنَه سليمانَ عليهما السلام وخبر الصحيفة وٱبتداء أمر الخاتم

قال الكسائي رحمه الله: ولمّا أتى على سليمان بضعٌ وعشرون سنة نزل جبريل على داود بصحيفة، وأمَرَه عن الله تعالى أن يجمع أولاده ويقرأ عليهم ما في الصحيفة من المسائل، فمن أجاب عمّا فيها فهو الخليفة من بعده. فأحضر داود أولاده، وكان سليمان أصغرَهم سنًّا، وقرأ عليهم ما في الصحيفة، فأقرُّوا بالعجز عن معرفتها، وذلك بحضور مشيخة بني إسرائيل، فقال داود عليه السلام لسليمان عليه السلام: أجب عن هذه المسائل. فقال: أرجو أن يَهْدِيَني الله تعالى إلى جوابها. فقال: يا سليمان، ما الشيء؟ قال: المؤمن. قال: فما بعضُ الشيء؟ قال: الفاجر. قال: فما لا شيء؟ قال: الكافر. قال: فما كلّ شيء؟ قال: الماء. قال: فما أكبر شيء؟ قال: الشِّرْك. قال: فما أقلّ شيء؟ قال: اليقين. قال: فما أمرّ شيء؟ قال: الفقر بعد الغنى. قال: فما أحلى شيء؟ قال: المال والولد. قال: فما أقبح شيء؟ قال: الكفر بعد الإيمان. قال: فما أحسن شيء؟ قال: الرُّوح في الجسد. قال: فما أوحشُ شيء؟ قال: الجسد

---

(١) المسخ: هو تغيّر صورة المرء عن طبيعتها إلى صورة أخرى، كصورة القردة والخنازير...
(٢) الحميم: القريب الذي تودّه ويودّك.

بلا رُوح. قال: فما أقربُ شيء؟ قال: الآخرة [من الدنيا][١]. قال: فما أبعدُ شيء؟ قال: الدنيا من الآخرة. قال: فما أشرّ شيء؟ قال: المرأة السوء. قال: فما خير شيء؟ قال: المرأة الصالحة.

قال: وكان داود يصدِّقه عَقِبَ كل مسألة، ثم ٱلتفت إلى بني إسرائيل فقال: ما أنكرتم من قول ٱبني؟ قالوا: ما أخطأ في شيء متّعك الله به، وبارك لنا ولك فيه. قال: أترضَون أن يكون خليفتي عليكم؟ قالوا نعم. هذا ما أورده الكسائيّ رحمه الله.

وقد ذكر الثعلبيّ في هذه القصة زيادات نذكرها. قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى: قال أبو هريرة رضي الله عنه: نزل كتاب من السماء مختوم بخاتَم من الذهب على داود فيه ثلاثَ عشرة مسألة[٢]، فأوحى الله تعالى إليه أن ٱسأل عنها ٱبنك سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك. قال: وإن داود عليه السلام دعا سبعين قسِّيسًا[٣] وسبعين حَبرًا[٤]، ولم يذكر أولاده. قال: وأجلسَ سليمانَ بين أيديهم وقال له: يا بُنَيّ، إن الله أنزل من السماء كتابًا فيه مسائل، وأُمِرتُ أن أسألك عنها، فإن أخرجتَها فأنت الخليفة من بعدي. قال سليمان: اسأل يا نبيّ الله عما بدا لك، وما توفيقي إلا بالله.

قال داود: أخبرني يا بُنيّ، ما أقربُ الأشياء؟ وما أبعدُ الأشياء؟ وما آنَسُ الأشياء؟ وما أوحشُ الأشياء؟ وما أحسنُ الأشياء؟ وما أقبحُ الأشياء؟ وما أقلّ الأشياء؟ وما أكثرُ الأشياء؟ وما القائمان؟ وما المختلفان؟ وما المتباغضان؟ وما الأمرُ الذي إن ركبه الرجل حَمِدَ آخِرَه؟ وما الأمرُ الذي إن ركبه الرجل ذمّ آخره؟

قال سليمان: أمّا أقربُ الأشياء فالآخرة. وأما أبعدُ الأشياء فما فاتك من الدنيا. وأما آنسُ الأشياء فجسد فيه روح. وأما أوحشُ الأشياء فالجسد بلا روح. وأما أحسنُ الأشياء فالإيمان بعد الكفر[٥]. وأما أقبحُ الأشياء فالكفر بعد الإيمان. وأما أقلّ الأشياء

---

(١) زيادة عن الكسائي.

(٢) كذا في الأصول وقصص الأنبياء للثعلبي، غير أن الثعلبي ذكر في كتابه من المسائل أربع عشرة مسألة، ولكلّ مسألة جواب، فزاد في المسائل قوله: وما السّاعيان، وزاد في الأجوبة قوله: وأمّا الساعيان فالشمس والقمر. . .

(٣) القسيس: مرتبة دينية، وهي عند النصارى ما بين الأسقف والشمّاس ويقصد بها هنا رجل الدّين. . .

(٤) الحبر: العالم المتفقّه بالدّين وأحكامه.

(٥) في الأصول: فالروح في الجسد، وهو خطأ من الناسخ، ناتج عن السرّعة، والتصويب عن الثعلبي.

فاليقين. وأما أكثرُ الأشياء فالشكر. وأما القائمان: فالسماء والأرض. وأما المختلفان: فالليل والنهار. وأما المتباغضان: فالموت والحياة. وأما الأمرُ الذي إذا ركبه الرجل حَمِدَ آخره فالحلم. وأما الأمرُ الذي إذا ركبه الرجل ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب.

قال: ففكّوا الخاتَم، فإذا جواب المسائل سواءٌ على ما نزل من السماء. فقال القسّيسُون والأحبار: لا نرضى حتى نسأله عن مسألة، فإن هو أخرجها فهو الخليفة. قال: سلوه. قال سليمان: سلوني وما توفيقي إلا بالله. قالوا: ما الشيءُ الذي إذا صَلَح صَلَح كلُّ شيء من الإنسان، وإذا فسد فسد كلُّ شيء منه؟ قال: هو القلب. فقام داود وصعِد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني أن أستخلف عليكم سليمان. قال: فضجّت بنو إسرائيل وقالوا: غلام حَدَثٌ يُسْتَخْلَفُ علينا وفينا من هو أعلم وأفضَلُ منه! فبلغ ذلك داودَ، فدعا رؤوس أسباط بني إسرائيل وقال: إنه بلغتْني مقالتكم، فأرُوني عِصِيّكم، فأيّ عصا أثمرتْ فإنّ صاحبها وليّ هذا الأمر [بعدي]؛ فقالوا: قد رضِينا. فجاؤوا بعِصِيهم؛ فقال لهم داود: ليكتبْ كل رجل منكم اسمه على عصاه؛ فكتبوا. ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه؛ ثم أُدخلتْ بيتًا وأُغلِقَ عليها الباب وسُكِّر بالأقفال، وحرسه رؤوسُ أسباط بني إسرائيل. فلما أصبح صلّى بهم الغداة؛ ثم أقبل وفتح الباب وأخرج عِصِيَّهم كما هي، وعصا سليمانَ قد أثمرتْ وأورقتْ. قال: فسلَّموا ذلك لداود، فأخذ ابنَه سليمانَ ثم سار به في بني إسرائيل فقال: هذا خليفتي فيكم من بعدي.

قال وهب بن مُنَبِّه: لما استخلفَ داودُ ابنَه وعظه فقال: يا بنيّ، إياك والهَزْلَ؛ فإنّ نفعه قليل ويَهيجُ العداوةَ بين الإخوان. وإيّاك والغضب؛ فإنّ الغضب يستخفّ صاحبه. وعليك بتقوى الله وطاعته؛ فإنهما يغلبان كل شيء. وإيّاك وكثرةَ الغَيرةِ على أهلك من غير شيء؛ فإن ذلك يورِث سوءَ الظنّ بالناس وإن كانوا بُرَآء[1]. واقطع طمَعك عن الناس؛ فإنه هو الغنى. وإياك والطمعَ فهو الفقر الحاضر. وإياك وما يُعتذَر منه من القول والفعل. وعوِّد نفسَك ولسانَك الصدق؛ والزم الإحسان؛ فإن استطعتَ أن يكون يومُك خيرًا من أمسك فافعل. وصلّ صلاةَ مودِّع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تُمارِه[2] في الدِّين. وإذا غضِبتَ فألصِق نفسكَ بالأرض وتحوَّلْ من مكانك. وارجُ رحمةَ الله فإنها واسعة وَسعتْ كل شيء.

---

(١) براء: مفردها بريء، وهو الذي يكون سليم الصدر خالص النّيّة بعيدًا من الإثم.

(٢) تماريه في الدّين: تناظره وتجادله وتنازعه.

قالوا: ثم إن سليمان بعد أن ٱستُخلِف أخفَى أمرَه وتزوّج ٱمرأةً واستتر عن الناس، وأقبلَ على العلم والعبادة. ثم إن ٱمرأته قالت له ذات يوم: بأبي أنت وأمّي، ما أكملَ خِصالَك وأطيبَ ريحَك! ولا أعلم لك خَصلةً أكرهُها إلا أنك في مؤونة[١] أبي، فلو أنك دخلتَ السوق فتعرّضتَ لرزق الله لرجوتُ ألا يخيّبك الله. قال سليمان: إني والله ما عَمِلتُ عملاً ولا أُحسِنه، ثم دخل السُّوق صبيحةَ يومه ذلك فلم يقدِر على شيء، فرجع فأخبرها. فقالت له: يكون غدًا إن شاء الله.

فلما كان في اليوم الثاني مضى حتى ٱنتهى إلى ساحل البحر وإذا هو بصياد، فقال له: هل لك أن أعينك وتُعطِيَني شيئًا؟ قال نعم، فأعانه. فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين، فأخذهما وحَمِد الله تعالى، ثم إنه شقّ بطنَ إحداهما فإذا هو بخاتَم في بطنها، فأخذه وصرَّه في ثوبه، وحَمِد الله تعالى، وجاء بالسمكتين إلى منزله، ففرِحت ٱمرأته بذلك، فأخرج الخاتَم [ولبسه في إصبعه][٢]؛ فعكفت[٣] عليه الطير والريح، ووقع عليه بهاء المُلك؛ ولم يلبث أبوه أن مات. [فلما ملك حَمَل المرأة وأبويها إلى اصطخر][٤].

وقد قيل في أمر الخاتم غير ذلك ـ على ما أورده الكسائيّ ـ وسنذكره إن شاء الله تعالى بعد هذا في أخبار سليمان عليه السلام.

ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الكسائيّ: كان داود عليه السلام شديدَ الغَيرة على النساء، ويُغلق الأبواب عليهنّ إذا خرج، ويحمل المفاتيح معه. فقيل: إنه رجع يومًا ففتح باب نسائه، فرأى رجلاً [في داره ذا مَهَابة][٥] فقال له داود ـ وغضب ـ: مَن أنت؟ ومَن أدخلك داري؟ قال: أدخَلَني الدار من هو أولى بها منك، أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمنعُني دونَهم الحُجّاب والجنود، وأفرّق بين الجمع، أنا ملَك الموت. فارتعد داود وقال: دَعْني أدخل إلى أهلي لأودّعهم. قال: لا سبيل إلى ذلك يا داود. فبكى وقال: مَن

(١) المؤونة: القوت، والمراد هنا: أنك في رعايته وكنفه وهو الذي يتحمّل مؤونتك.

(٢) زيادة عن الثعلبي.

(٣) عكفت عليه: لزمته ولم تنصرف عنه.

(٤) اصطخر: مدينة من أقدم مدن فارس، وبها كان سرير الملك في القديم، وبها آثار عظيمة من الأبنية حتى يقال: إنها من عمل الجنّ كما يقال عن تدمر وبعلبك في بلاد الشام، بينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخًا «صبح الأعشى ٤/٣٤٨».

(٥) في الأصول: في نهاية الجمال، والتصويب عن الكسائي.

لبني إسرائيل من بعدي؟ قال: ٱبنُك سليمان. قال: الآن طابت نفسي، ٱمْضِ لما أُمرتَ به، فقبض رُوحَه عليه السلام وغسّله سليمانُ وإخوتُه، وكفّنه بأكفان نزلت عليه من الجنة، وحمله إلى قبره، ودُفن دون غار إبراهيم عليه السلام قال: وعكفت الطير على قبره أربعين يومًا.

قال الثعلبيّ في خبر وفاة داود: إن داود كانت له وصيفةٌ تُغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام، ويُقبِل داود على وِرْده[١] في العبادة. فأغلقت ذاتَ ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام، فرأت رجلاً قائمًا في وسط الدار فقالت: ما أدخلك هذه الدار! فإن صاحبها رجل غيور، فخذ حِذْرك. فقال: أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن. فسمعه داود، وكان في المحراب يصلّي، ففزِع وٱضطرب وقال: عليّ به، فأتاه. فقال: ما أدخلك هذه الدار في هذا الوقت بغير إذن؟! فقال: أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن. قال: فأنت مَلَكُ الموت؟ قال نعم. قال: أجئتَ داعيًا أم ناعيًا؟ قال: بل ناعيًا. قال: فهلاّ أرسلتَ إليّ قبل ذلك وآذنتني لأستعدّ للموت؟ قال: كم أرسلتُ إليك يا داود فلم تنتبه. قال: ومَن كانت رسُلُك؟ قال: يا داود، أين أبوك إيشى؟ وأين أمّك؟ وأين أخوك؟ وأين قَهْرَمانُك[٢] فلان؟ قال: ماتوا كلهم. قال: أمَا علمتَ أنهم رُسُلي، وأن التوبة تبلُغك! ثم قبضه[٣].

قال أهل التاريخ: كان عمر داود مائة سنة، ومدّةُ ملكه أربعين سنة.

وقد تقدّم خبر آدمَ فيما وَهَب له من عمره.

ذكر نبوّة سليمان بن داود عليهما السلام وملكه

قال الكسائيّ رحمه الله: ولما قام سليمان عليه السلام من عزاء أبيه داود وتفرّق الطير عن قبره، دخل محرابَ أبيه، فهبَط عليه جبريل عليه السلام وقال له: إن الله تعالى يخصّك بالسلام ويقول لك: المُلك أحبّ إليك أو العِلم؟ فخرّ سليمان ساجدًا لله تعالى وقال: العلم أحبّ إليّ من المُلك، لأنه أنفع الأشياء. فأوحى الله تعالى إليه: إنك تواضعتَ وٱخترتَ العلم على المُلك، فقد وهبتُ لك العِلم والمُلك، وأضفتُ إلى ذلك كمالَ العقل وزينةَ الخُلُق، ونزعتُ عنك العُجْب[٤]، وسأطوي لك الدنيا بأسرها حتى تطأها بجيشك وتشاهد عجائبها. فخرّ سليمان ساجدًا

---

(١) الوِرد: الجزء من الليل يكون على الرجل أن يصلّيه.
(٢) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.
(٣) قبضه: أماته.
(٤) العُجب: الكبر والزّهد.

لربه، ورفع رأسه فإذا الرياح الثمانية قد وقفت بين يديه وقالت له: إن الله سخّرنا لك، فاركبْنا إذا شئتَ إلى أيّ موضع شئتَ. وأقبلتِ الوحوشُ والسِّباع فوقفت بين يديه وقالت: إن الله أمرنا بالطاعة لك. وأقبلت الطير وقالت: قد أُمرنا أن نُظِلّك بأجنحتنا ولا نخالفك في أمر. وفوّض الله عزّ وجل إلى سليمان أمرَ الدنيا شرقِها وغربِها.

ذكر حشرِ الطير لسليمان بن داود عليهما السلام وكلامها له

قال الكسائيّ: ولما آتاه الله النبوّة والملك أحبّ أن يستنطق الطير، فحُشِرت إليه، فكان جبريلُ يحشُر طيرَ المشرق والمغرب من البر[١]، وميكائيلُ يحشُر طيرَ الهواء والجبال. فنظر سليمان إلى عجائب خَلْقها، وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه ومعاشه فيخبره، وكان بين يديه سبعةُ ألوية من ألوِية الأنبياء، يُمسكها سبعةٌ من الملائكة.

قال: ولما حُشرت الطيرُ له جاءته فَوْجًا فَوْجًا؛ فسلّمت عليه «الخُطّافة»[٢] بثلاث لغات وقالت: يا نبيّ الله، أنا ممن اختارني نوح وحملني في السفينة، ومنّي تناسَل كلُّ خُطّافة في الدنيا، ودعا لي آدمُ وقال: إنكِ تُدركين من أولادي مَن خلافته مثلُ خلافتي، تُحْشَر إليه الوحوش والطيورُ والمَرَدَةُ، فإذا رأيتِه فأقرئيه منّي السلام. وقالت له: يا نبيّ الله، إن معي سُورةً تعجَب الملائكةُ من نُورها، ما أُعطِيتْ لأحدٍ من بني آدم غيرَ أبيك إبراهيم، فإنها نزلت كرامةً له يوم ألقِيَ في النار، فهل لك أن تسمعها منّي؟ قال نعم. فقرأت سورة «الحَمْدُ»[٣] حتى بلغت ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الحمد: ٧] ومدّت صوتها بآمين وسجدت، وسجد معها سليمان عليه السلام.

ثم تقدّم «النّسر» وهو يومئذ في صورة عظيمة فقال: السلام عليك يا ملِك الدنيا، ما رأيتُ مُلْكًا أعظم من مُلْكك، وإني صحِبتُ آدم وساعدتُه على كثرة حزنه، وأنا أوّل من عَلِم بهبُوطه إلى الأرض، وكنتُ معه إلى أن تاب الله عليه وقال: إنه يكون من ذرّيتي من يحشر له الطير، فإذا رأيتَه فأقرِئه منّي السلام؛ وقد أدّيتُ إليك

---

(١) البرّ: يريد الأرض.

(٢) الخطّافة: السنونو، أو هي ضرب من الطيور القواطع عريض المنقار، دقيق الجناح طويله، منتفش الذّيل.

(٣) سورة الحمد: فاتحة الكتاب الكريم.

وديعته[١]، فاْصطنِعني يا نبيّ الله، فإني عليم بمعادن الأرض وجبالها، ومعي آيةٌ عظيمة لا يفتُرُ لساني عنها، وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النساء: ٨٧] ثم سجد وسجد معه سليمان؛ فلمّا رفع رأسه جعله سليمانُ ملِكًا على سائر الطيور.

ثم تقدّمت «العُقَاب»[٢] فوقفت بين يديه وسلّمت عليه وقالت: يا نبيّ الله: إن الله حين خلقني كنتُ أعظم خلقًا من هذا، غير أن حُزني على هابيل يوم قتله قابيلُ صيّرني إلى ما ترى، ولقد توحّشت الأرض والجبال يوم قُتِل. ومعي آية أعطانيها ربي، وهي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]. ثم قالت: سلِّطني على من شئت، فإني قوية سميعة.

ثم تقدّمت «العنقاء»[٣] وهي يومئذ شديدة البياض، وصدرُها كالذهب الأحمر، ووجهها كوجه الإنسان، ولها ذوائب[٤] كذوائب النساء، ورجلان صفراوان، ولها تحت أجنحتها يدان، في كل يد ثلاثون إصبعًا، فوقفت بين يديه وسلّمت وقالت: إن الله فضّلك على كثير من الملوك حين أبرزَني إليك في صورتي هذه، فمرني بما شئت، فوالله ما نطقتُ لأحد إلا لصفوة الله آدم، فإني وقفت بين يديه وتعجّب من حسن صورتي، وقال: ما أشبهك بطيور الجنان[٥]! فمنذ كم خلقك ربك؟ قالت: منذ ألفي عام. ثم تبخترت بين يديه فقال: أيها الطائر، إنك مُعْجَبُ بخلقك، والعُجْب يهلك صاحبه، لقد فاز المفلحون وخسِر المبطلون.

وللعنقاء خبر عجيب نذكره إن شاء الله في آخر خبر الطير على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ثم تقدّم «الغُراب» فسلّم وقال: يا نبيّ الله، لقد فضّلك الله على كثير من ولد آدم، وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا، وإني كنت أبيض قبل

---

(١) الوديعة: ما استودع، الأمانة.

(٢) العقاب: طائرٌ من العتاق، مؤنثه، وقيل: العقاب يقع على الذكر والأنثى، إلاّ أن يقولوا: هذا عقابٌ ذكر.

(٣) العنقاء: طائر مستوهم لا وجود له، قيل: إنّها طائر عظيم لا ترى إلاّ في الدّهور، وسمّيت عنقاء لأنه كان في عنقها بياض كالطوق، وقال الزجّاج: العنقاء المُغرِب طائرٌ لم يره أحد.. «انظر اللسان مادة عنق».

(٤) الذوائب: خصل الشّعر.

(٥) الجنان: مفردها الجنّة، وهي دار النعيم في الآخرة.

ذلك، فصرت كما ترى، لمّا سمعتهم يقولون ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩٢] ولقد دعا لي أبوك آدم ونوح بطول العمر، وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شيء، وهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدّثر: ٣٨].

ثم تقدّمت «الحمامة» فسلّمت عليه وقالت: يا نبيّ الله، أنا الحمامة التي ٱختارني أبوك آدم لنفسه إلفًا[1] وأنيسًا، وكنت آنسُ به وبتسبيحه؛ وكان إذا ذكر الجنة يصيح صيحة عظيمة ويقول: أتراني أرجع إليها؟ وإن لم أرجع إليها كنت من الخاسرين. وٱعلم يا نبيّ الله أنه قد علّمني كلمات حفظتها عنه، وهي: الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله سيد الأوّلين والآخرين. وقد أقبلتُ إليك طائعة لأمرك، فمرني بما شئت.

ثم تقدّم «الهُدْهُد» فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال: ما أحببتُ أحدًا كما أحببتك، لأني رأيت الدنيا ضاحكة لك، وقد أعطاك الله مُلكًا عظيمًا، فٱتخذني رسولاً آتك بالأخبار، وأدلك على مواضع الماء. فقال له: أراك أكيس[2] الطيور، وأرى فخاخ بني إسرائيل تصطادك، ولا تغني عنك كياستك شيئًا، قال الهدهد: يا نبيّ الله، الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر، وإن الله يضيف إلى عقل المخلوق سبعين ضِعفًا ثم ينفِّذ فيه حكمه وقضاءه. قال: صدقت. ثم سجد بين يديه مرارًا.

قم تقدّم إليه «الديك» وهو آخر من تقدّم، فوقف بين يديه وهو في نهاية الحسن، وضرب بجناحيه، وصاح صيحة أسمع الملائكة والطيور وجميع من حضر وقال في صياحه: يا غافلين اذكروا الله. ثم قال: يا نبيّ الله، إني كنت مع أبيك آدم وكنت أوقظه أوقات الصلوات، ومع نوح في الفُلك[3]، ومع أبيك إبراهيم وكنت أسمعه يقول: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] وٱعلم يا نبيّ الله أني ما صحت صيحة إلا أفزعت بها الجن والشياطين. ففرِح سليمان به وأمره أن يكون معه حيثما كان. ووقف كل طير بين يديه، وفرغ من حَشْر الطيور وعرفها بأسمائها ومنطقها، وكانوا يعبدون الله بالليل والنهار، وكذلك الوحوش والسباع، حتى عَرَف كل واحد منهم بٱسمه وصفته ونعته[4].

---

(١) الإلف: الصديق والمؤانس.
(٢) الكيّس: العاقل الفطن.
(٣) الفُلك: السفينة.
(٤) نعته: أي ما ينعت به ويوصف.

ذكر خبر العنقاء في القضاء والقدر

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى جعفر بن محمد الصادق[١] قال: عاتب سليمان الطير في بعض عتابه فقال لها: إنك تأتين كذا، وتفعلين كذا، فقالت له: والله ربِّ السماء والثَّرَى، إنا لنحرص على الهدى، ولكن قضاءَ الله يأتي إلى منتهى علمه وقَدَره. قال سليمان: صدقت، لا حيلة في القضاء. فقالت العنقاء: لست أُومن بهذا. قال لها سليمان: أفلا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت بلى. قال: إنه وُلد الليلة غلامٌ في المغرب، وجارية في المشرق، هذا ٱبن ملك وهذه بنت ملك، يجتمعان في أمنع المواضع وأهولها على سِفاح[٢] بقَدَر الله تعالى فيهما. قالت العنقاء: يا نبيّ الله، وقد ولُدا؟ قال: نعم الليلةَ. قالت: فهل أُخبرتَ بهما؟ من هما وما اسمهما واسم أبويهما؟ قال: بلى، اسمهما كذا وكذا، واسم أبويهما كذا وكذا. قالت: يا نبيّ الله، فإني أفرّق بينهما وأبطل القَدَر. قال: فإنك لا تقدِرين على ذلك. قالت بلى. فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البُومة. ومرّت العنقاء وكانت في كبر الجمل عِظَمًا، ووجهها وجه إنسان، ويداها وأصابعها كذلك؛ فحلّقت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا وأبصرت كل دار فيها، وأبصرت الجارية في مهدها قد ٱحتوشتها الظئور[٣] والخَوَل[٤]، فاختلست المهد والجاريةَ وطارت، ومرّت حتى ٱنتهت بها إلى جبل شاهق في السماء، أصله في جوف البحر، وعليه شجرة عالية في السماء، لا ينالها طائر إلا بجهد، لها ألف غصن، كل غصن كأعظم شجرة في الأرض، كثيرة الورق، فاتخذت لها فيه وكرًا عجيبًا واسعًا وطيئًا، وأرضعتها وٱحتضنتها تحت جناحها، وصارت تأتيها بأنواع الأطعمة والأشربة، وتكنّها[٥] من الحرّ والبرد، وتؤنسها بالليل، ولا تخبر أحدًا بشأنها، وتغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها. وعلم سليمان بذلك ولم يبده لها، وبلغ الغلام مبلغ الرجال، وكان ملكًا من ملوك الدنيا، وكان يلهو بالصيد ويحبّه ويطلبه حتى نال منه عظيمًا. فقال يومًا

---

(١) هو الإمام جعفر بن محمد الصادق الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم، ولقّب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قطّ مولده ووفاته بالمدينة سنة ٨٠ ـ ١٤٨هـ «الأعلام ٢/١٢٦».

(٢) السّفاح: الزّنى، والإقامة مع المرأة من غير زواج صحيح.

(٣) الظئور: مفردها الظئر: وهي المرضعة لغير ولدها، واحتوشتها: أي أحاطت بها.

(٤) الخول: العبيد والإماء والأتباع.

(٥) تكنّها: تسترّها وتقيها.

لأصحابه: كل صيد البر وفلواته ومفازاته[١] قد تمكنت من صَيده، فلو ركبت البحر لأنال من صيده فإنه كثير الصيد كثير العجائب! فقال وزير من وزرائه: نعْمَ ما رأيتَ، وهو أكثر ما خلق الله صيدًا. فأمره بجَهازه، وهيأ السفن وجعل يختار من كل شيء يملكه، وأخذ من الوزراء والندماء والمُشِيرين والجواري والغلمان والطباخين والخبازين والبُزاة[٢] والصقور وغير ذلك مما يريده ويشتهيه من الملاهي والشراب، وركب ومرّ في البحر يتصيّد ويتلذذ لا يعرف شيئًا غير ذلك، حتى سار مسيرة شهر، فأرسل الله تعالى على سفينته ريحًا عاصفًا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها إلى جبل العنقاء الذي فيه الجارية، وذلك مسيرة خمسين سنة في خمسين ليلة، ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة، فأخرج رأسه من السفينة، فرأى الجبل وهو في لون الزعفران[٣] [صفرة][٤]، وطوله لا يُدْرَى أين منتهاه ولا عرضه، ورأى الشجرة فإذا هي كثيرة الأغصان والورق، ورقها عرض آذان الفِيَلة ليس لها ثمر، بيضاء الساق، فقال: إني أرى عجبًا، أرى جبلاً شاهقًا لم أرَ مثله، وأرى شجرة حسنة قد أعجبني منظرها. فحرّك سفينته نحو الجبل، فسمعت الجارية التي في عُشّ العنقاء صوت الماء وكلام الناس، ولم تكن سمعت قبل ذلك شيئًا من ذلك؛ فأخرجت رأسها من العُشّ، فتطلّعت فرأى الملك صورتها في الماء، ورأى عجبًا من جمالها وكثرة شعرها وذوائبها[٥]؛ فرفع رأسه إلى الشجرة فرأى الجارية، فأبصر أمرًا عظيمًا فأخذه القلق، فناداها: مَنْ أنتِ؟ فأفهمها الله تعالى لغته وقالت: لا أدري ما تقول ولا مَنْ أنت إلا أني أراك يشبه وجهك وجهي وكلامك كلامي، وإني لا أعرف شيئًا غير العنقاء، وهي أمي التي ربّتني وتسميني بنتها. فقال لها الغلام: وأين العنقاء أمك؟ قالت: في نوبتها. قال: وما نوبتها؟ قالت: تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلِّم عليه وتقيم عنده إلى الليل، ثم تروح وتجيئني وتحدّثني بما فعل سليمان وبما حكم وقضى، وإنه لملك عظيم، على ما تصف أمي العنقاء، وإنها تخبرني أنه يشبهني إلا أنها تخبر أنه أحسن وجهًا وأتمّ مني.

---

(١) المفازة: الصحراء الواسعة لا ماء فيها.

(٢) البزاة: واحدها الباز، وهو ضربٌ من الطيور يستخدم في الصيد.

(٣) الزعفران: نبات بصلي معمّر من الفصيلة السوسنيّة، منه أنواعٌ بريّة، ونوع صبغي طبّي مشهور.

(٤) زيادة عن الكسائي.

(٥) الذوائب: مفردها الذؤابة، وهي من كلّ شيء أعلاه، والمراد هنا: شعر مقدّم الرأس.

قال: فانذعر الغلام وفزع، ثم قال: قد عرفته، هو الذي قتل أبي وسبَى ذرّيته، وإني لمن طُلَقائه[١] وممن يؤدّي إليه الخراج[٢]، ورسله الطير والرياح، ثم بكى الغلام. فقالت الجارية: وما يبكيك؟ قال: أبكي على وَحْدتك في مثل هذا الموضع الذي ليس به أنيس ولا أحد، وإن مثلك في الدنيا عدد الشجر والمدر[٣]، وكلهم في مقاصير[٤] الذهب والفضة والعيش الهنيء واللّذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعّمون، ويتوالدون أولادًا مثل خلقتك وخلقتي، أرأيتِ إن هاجت الريح وأزعجتك من وَكْرك مَنْ يمسكك أن تقعي في البحر؛ فإن وقعت في البحر فمن ذا الذي يُخرجك. قال: ففزِعت من قوله وقالت: وكيف لي أن يكون معي إنسيّ مثلُك يحدّثني مثل حديثك، ويحفظني من خوف ما ذكرت. فقال لها الغلام: أو لا تعلمين أن الله الذي ٱتخذَ سليمان نبيًا وسخّر له الطير والرياح هو الذي رَحِمَك وساقني إليك إلفًا وصاحبًا وأنيسًا، وأني من أبناء الملوك. قالت الجارية: وكيف تصير إليّ وأصير إليك، وهذه العنقاء تنام وتحضُنني إلى صدرها بين جناحيها؟ قال الغلام: تُكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتَك هذه إذا ٱنصرفت إليك، فإذا قالت لك: ما تخشَيْن وما شأنُك، فأخبريها بحديثك، ثم ٱنظري إلى ما يكون ردّها عليك فتخبريني به. فراحت العنقاء فوجدتها حزينة كئيبة. فقالت لها: يا بُنَيّة، ما شأنك؟ قالت: الوَحْدة والوَحْشة، وإني لجزِعة على نفسي لذلك. فقالت لها: يا بُنَيّة لا تخافي ولا تحزني، فإني أستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف عنه يومًا. فلمّا أصبحت أخبرت الغلام بجوابها. فقال لها: لا تُريدي هذا، ولكن سأنحر من دوابي هذه فرسًا وأبقر[٥] بطنه وأخرج ما في جوفه وأقيّره[٦] وأطيّنه وأدخل أنا في جوفه، وألقيه على قُرقور[٧] سفينتي هذه، فإذا جاءتكِ العنقاء فقولي لها: إني أرى عجبًا، خِلقةً مُلقاةً على هذه السفينة، فلو ٱختطفتيها وحملتيها إلى وكري هذا، فأنظر وأستأنس بها، كان أحبّ إليّ من كينونتك عندي نهارًا وإمساكِكِ عني خبر سليمان. فرجعت العنقاء فوجدتها في مثل حالها، وشُغل سليمان عنها، فلم تصل إليه في ٱستئذانها إيّاه بالمُقام يومًا في منزلها.

---

(١) الطلقاء: مفردها: الطليق: وهو الأسير أطلق وشأنه.

(٢) الخراج: الجزية التي كانت تفرض على أهل الذمّة، أو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس أو غلّة الأرض.

(٣) المدر: البيوت من لِبن وطين.

(٤) المقاصير: مفردها مقصورة وهي الحُجرة.

(٥) بقر بطنه: شقّها.

(٦) أقيّره: أي أطليه بالقار وهو الزّفت.

(٧) القرقور: ضرب من السفن الكبار، ولكنّ سياق الكلام يدلّ على أنه يريد به رأس السفينة أو مقدّمها.

فقالت لها: إن نبيّ الله شُغِل عني اليوم بالحُكْم بين الآدميين فلم أصِلْ إليه. قالت لها: فإني لا أريد أن تتخلّفي عنه نهارًا لمكان أخبار سليمان، وإني أرى في البحر عجبًا، شيئًا مرتفعًا ما هو؟ قالت العنقاء: هذه سفينة قوم سيّارة ركبوا البحر. قالت: فما هذا الذي أرى مُلقًى على رأس هذه السفينة؟ قالت: كأنه مَيْتة رمَوْها. قالت: فاحمليها إليّ لأستأنس بها وأنظرَ إليها. فانقضّت العنقاء فاختطفت الفرس والغلام في بطنها فحملتها إلى عُشّها. فقالت: يا أمّاه، ما أحسن هذا! وضحكت، ففرِحت العنقاء بذلك وقالت: يا بُنَيّة، لو علمتِ لقد كنت آتيكِ بمثل هذا منذ حين. ثم طارت العنقاء إلى نَوْبتها إلى سليمان، وخرج الغلام من جوف الفرس فلاعبها ومسّها ولامسها[١] وافتضّها فأحبلها، وفرِح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به.

وجاء الخبر إلى سليمان باجتماعهما من قِبَل الريح، ووافت العنقاء، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلسَ الطير؛ فدعا بعُرَفاء[٢] الطير وأمرهم ألاّ يَدَعُوا طائرًا إلا حشروه، ففعلوا؛ ثم أمر عُرَفاء الجنّ فحشروا الجنّ من ساكني البحار والجزائر والهواء والفَلَوات والأمصار، ففعلوا وحشروهم، وأحضروا الإنس وكل دابّة، واشتدّ الخوف وقالوا: نشهَد بالله أن لنبيّ الله أمرًا قد أهمّه. فأوّل سهم خرج في تقديم الطير سهم الحِدَأة[٣]، وكانت الطير لا تتقدّم إلا بسهام، فتقدّمت الحِدَأة واستَعْدَتْ على زوجها، وكان قد جحدها ولدها، فقالت: يا نبيّ الله، إنه سفَدني[٤]، حتى إذا احتضنت بيضي وأخرجتُ ولدي فجحدني. فأمر سليمان بولدها فأُتي به، فوجد الشبه واحدًا، فألحقه بالذكر وقال لها: لا تمكّنيه من السِّفاد أبدًا حتى تشهِدي على ذلك الطير لكيلا يجحدَك بعدها أبدًا. فإذا سفَدها ذَكَرُها صاحت وقالت: يا طيور[٥] سفدني اشهدي، يا معشر الطير اشهدي.

ثم خرج سهم العنقاء فتقدّمت، فقال لها سليمان: ما قولك في القَدَر؟ قالت: يا نبيّ الله، إن لي من القوّة والاستطاعة ما أدفع الشر وآتي الخير. قال لها: وأين شَرْطُك الذي بيني وبينك أنك تفرّقين بقوّتك واستطاعتك بين الجارية والغلام؟ قالت: قد فعلتُ. قال سليمان: الله أكبر! فأتيني بها الساعة والخَلْقُ شهودٌ لأعلمَ تصديق

---

(١) لامسها: باشرها كما يباشر الرّجل زوجته.
(٢) العُرفاء: مفردها عريف: وهو القيم بأمرهم والعارف لهم.
(٣) الحدأة: طائرٌ من الجوارح ينقضّ على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.
(٤) السّفاد: الجامعة.
(٥) في الأصل: يا كفور شهرتني، والتصويب عن الثعلبي.

ذلك، وأمر عَريف الطير ألاّ يفارقها حتى يوافيَ بها. فمرّت العنقاء، وكانت الجارية إذا قرُبت منها العنقاء تسمع حَفيف أجنحتها، فيبادر الغلام فيدخل جوف فرسه، فقالت كالفَزِعة: إن لكِ لشأنًا إذ رجعت نهارًا. قالت: لعمري إن لي لشأنًا، إن سليمان قد أمرني بإحضارك الساعةَ لأمرٍ جرى بيني وبينه في أمرك، فأنا أرجو نُصرتي اليوم فيك. قالت: فكيف تحمليني؟ قالت: على ظهري. قالت: وهل أستقرّ على ظهرك وأنا أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزِلّ وأسقطُ فأهلِك! قالت: ففي منقاري. قالت: وهل أصبر في منقارك! قالت: فكيف أصنع؟ لا بدّ من إحضارك إلى سليمان، وهذا عَريف الطير معي، وقد دعا بكفيلي البُومة. قالت: ادخل جوف هذا الفرس، ثم تحملين الفرس على ظهرك أو في منقارك، فلا أرى شيئًا ولا أسقُط ولا أفزَع. قالت: أصبتِ. فدخلت في جوف الفرس وأجتمعت مع الغلام، وحملت العنقاء الفرس بما فيه في منقارها، وطارت حتى وقعت بين يدي سليمان، فقالت: يا نبيّ الله، هي الآن في جوف الفرس، فأين الغلام! فتبسّم سليمان عليه السلام طويلاً وقال لها: أتؤمنين بقَدَر الله تعالى وقضائه! إنه لا حيلةَ لأحد[1] في دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشرّ. قالت العنقاء: أومن بالله وأقول: إن المشيئة للعباد والقوّة، فمن شاء فليعمل خيرًا ومن شاء فليعمل شرًّا. قال سليمان: كذبتِ ما جعل الله من المشيئة إلى العباد شيئًا، ولكن مَنح شاء الله أن يكون سعيدًا كان سعيدًا، ومن شاء أن يكون كافرًا كان كافرًا، فلا يقدِر أحد أن يدفع قضاء الله وقَدَره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم، وإن الغلام الذي قد وُلِد بالمغرب والجاريةَ التي وُلدت بالمشرق قد آجتمعا الآن في مكان واحد على سِفَاح، وقد حمِلت منه الجارية ولدًا. قالت العنقاء: لا تَقُلْ يا نبيّ الله هذا، فإن الجارية معي في جوف فرسي هذا. قال سليمان: الله أكبر! أين البُومة المتكفِّلة بالعنقاء؟ قالت: ها أنا. قال سليمان: على مثل قول العنقاء أنت؟ قالت نعم. قال سليمان: يا قَدَرَ الله السابقَ قبل الخلق أخرجهما على قضاء الله وقدره. قال: فأخرجهما جميعًا من جوف الفرس.

فأما العنقاء فتاهت[2] وفزِعت فطارت في السماء وأخذت نحو المغرب، وآختفت في بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت لا ينظر الطير في وجهها أبدًا آستحياء منها.

---

(١) في الأصل: «للروحانيين» والتصويب عن الثعلبي.

(٢) تاهت: اضطرب عقلها وفرّت.

وأمّا البُومةُ[١] فلزِمت الآجام[٢] والجبال وقالت: أمّا بالنهار فلا خروج ولا سبيل إلى المعاش. فهي إذا خرجت نهارًا وبّختها الطير واجتمعت عليها وقالت لها: يا قَدَريّة، فهي تخضع لهذا.

هذا ما كان من شأن العنقاء في القضاء والقدر. فلنرجع إلى أخبار سليمان عليه السلام.

ذكر خبر خاتم سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: وأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أنه قد سبق في علمي أني أُملّك سليمان الدنيا، ليعلم الجن والإنس أني لم أخلُق خَلْقًا هو أفضل من ذرّية آدم؛ وأمره أن يأخذ خاتَمَ الخلافة من الجنة ويأتيه به. فجاء جبريل إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضيء كالكوكب الدرّيّ[٣]، ورائحته كالمسك، وعليه كتابة بغير قلم، وهي: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فأعطاه لسليمان وقال له: هنيئًا لك يابن داود بهذه الهديّة، وكان في يوم الجمعة لسبع وعشرين[٤] خلت من المحرّم. فلما صار الخاتَمُ في كفّ سليمان لم يتمكن من النظر إليه حتى قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكذلك كل من كان ينظر إليه.

قال وقيل: إن الخاتَم أنزل من تحت العرش من نور برهان الله، وقيل لسليمان: لا تنزِعه من كفّك إلا بأمانة، وجعل الله عزّه فيه، فتختم[٥] سليمان به وصعِد على كرسيّه واستقبل الناسَ بوجهه ورفع إليه الخاتم وهو يلمع، وقال: هذا الخاتم جمع فيه عِزّي وسلطاني وفضّلني به ربي على العالمين، وسلّطني على كل شيطان مريد[٦]. ثم سجد شكرًا لله تعالى وسجد معه الناس. ثم نزل عليه بعد نزول الخاتم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ والدروع فكان لا يقرؤها على شيء إلا خضع وذلّ، فتلاها على بني إسرائيل فلم يسمعها أحد إلا امتلأ فرحًا. ثم أمر بعد ذلك باتخاذ البَيْض[٧] والسيوف، فكان عنده اثنا عشر ألف درع من نَسْج داود.

---

(١) البومة: طائر يظهر في الليل، قبيح الصورة والصوت، يسكن الأماكن الخربة، ويقضي على الجرذان والفئران.

(٢) الآجام: مفردها الأجمة وهي الشجر الكثير الملتفّ.

(٣) الكوكب الدرّيّ: الثاقب المضيء.

(٤) عبارة الكسائي: «الثلاثِ بقين من شهر رمضان» راجع ذلك في قصص الأنبياء للكسائي حيث تجد في هذا الموضع تفصيلاً أشمل عمّا هو هنا.

(٥) تختّم به: أي وضعه في إصبعه. (٦) المريد: الخبيث الشّرير المتمرّد.

(٧) البيض: واحدتها البيضة وهي الخوذة توضع على الرأس في الحرب.

وقيل: إن داود لم يعمل أكثر من سبع أذرع، ثم قال سليمان: يا بني إسرائيل، إني أمرت بمجاهدة أعداء الله؛ ثم جمع الخيول وشرع في الاستعداد للحرب.

ذكر خبر حشر الجن لسليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائيّ: وأمر الله عزّ وجل جبريلَ عليه السلام أن يحشر الجنّ، فنشر جناحه الأيمنَ على شرق الأرض، والأيسرَ على غربها، ونادى: أيتها الجنّ والشياطين، أجيبوا سليمان بن داود بإذن الله، فخرجت من سائر الأماكن وهي تقول: لَبَّيك لَبَّيك يا حجة الله. فحشرها[١] إلى سليمان طائعةً ذليلة تسُوقها الملائكة، وهي يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة، كل فرقة تَدِين بدين غير دين الأخرى، فوقفت بأجمعها بين يدَيْ سليمان، فنظر إلى عجائب صُوَرها وسجد لله شكرًا؛ ثم قام على قدميه والخاتَم في إصبعه، فلما نظرت إليه الجنّ خرّت ساجدة ثم رفعت رؤوسها وقالت: يابن داود، قد حُشِرنا إليك وأُمرنا بالطاعة لك، فختم على أكتافهم بخاتمه وجنّدهم وصفَّد[٢] مَرَدَتهم بالحديد ولم يتخلّف منهم إلا صخر الجنيّ تغيّب في جزيرة، وسنذكر خبره إن شاء الله تعالى. قال: وبقي إبليس بغير أعوان وفرّق سليمان الشياطين في الأعمال المختلفة. من الحديد والنحاس وقَطْع الصخور والأشجار وعمارة القُرَى والمدن والحصون، وأمرهم بعمل القدور والجِفَان[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: ١٣] قيل: كان يأكل من كل جَفْنة ألفُ إنسان. وشَغَل طائفة منهم يَغوص البحار واستخراج الأصداف والجواهر منها، وأمر بعضهم بحفر الآبار وشقّ الأنهار والقَنَوات، وبعضهم بإخراج الكنوز والمعادن، وغيرِ ذلك من الأعمال.

ثم حُشِر له بعد ذلك الهوامُ[٤] من الحيّات والعقارب وغيرها من الحشرات وسُخِّرت له. فسأل كلاًّ منها عن اسمها [وضرّها ونفعها][٥] ومأكلها ومشربها ومسكنها ومقدار أعمارها وعادتها وغيرِ ذلك من أحوالها، فأخبرته، ثم صرفهم وأمرهم ونهاهم. والله أعلم.

---

(١) حشرها: جمعها وساقها.
(٢) صفّدها: شدّها وأوثقها.
(٣) الجفان: مفردها جفنة وهي القصعة.
(٤) الهوام: الزواحف والحشرات.
(٥) زيادة عن الكسائي.

ذكر خبر مطابخه عليه السلام

قال الكسائيّ: وأمر سليمان أن تُصْنَع الأطعمة للخلق الذين معه، حتى كان طبّاخوه ينادون في عسكره: مَنْ أراد طعامًا فليأت حتى نصنعه له كما يريد، فإن سليمان نَصَبنا[١] لذلك. وكانت موائده منصوبة، كل مائدة طول ميل وأطول، ومعه عدّة من الطبّاخين، مع كل طباخ شيطان يُعينه، ورتب في كل مخبز ألف خباز، وفي كل مطبخ ألف طباخ.

قال ويقال: إنه كان يُذْبَح في مطبخه في كل يوم من الإبل والبقر والغنم زيادة على ثلاثين ألف رأس، ويستعمل في مطابخه كل يوم كذا وكذا كُرّا[٢] من الملح، وكانت موائده منصوبة لعامّة الناس فقيرِهم وغنيِّهم، وكان يلَقى للطير في كل يوم من الحبوب سبعون ألف كُرّ ـ والكر عشرة أجربة[٣]، والجريب ثلاثون قَفِيزًا[٤] ـ وكانت تظل البلاد بأجنحتها.

ذكر خبر الرزق الذي سأل سليمان الله تعالى أن يجريه على يديه

قال الكسائيّ: ولمّا نظر سليمان عليه السلام إلى عِظَم ما آتاه الله عزّ وجل من المُلك، سأل الله تعالى أن يجعل أرزاق المخلوقات على يديه. فأوحى الله تعالى إليه: إنك لا تطيق ذلك. قال: يا رب فيومًا واحدًا؛ فأوحى الله إليه: إنك لا تطيق ذلك. قال: يا رب فساعة واحدة؛ فأوحى الله إليه: إني قد أعطيتك ذلك، فٱستعدّ الآن لأرزاق خلقي وٱجمع لهم. فأخذ في الاَستعداد حتى جمع ما يُنيف على حمل مائة ألف بغل وبعير، وسار يريد ساحل البحر، حتى أتاه ووضع ما جمعه هناك، ونادى مناديه في سكّان البحر احضُروا لقبض أرزاقكم. فٱجتمع الحِيتان والضفادع ودوابُّ البحر على صُوَر مختلفة، وإذا بحوت قد أخرج رأسه وقال: اشبعني يٱبن داود، وهو على مثال الجبل. فقال سليمان: دونك الطعام، فأكل جميع ذلك، ثم قال: زِدْني يا نبيّ الله، والله ما أصابني الجوع منذ خلقني ربي كما أصابني اليوم حين جُعِل رزقي

---

(١) نصبنا: ولاّنا مهمة ذلك العمل.

(٢) الكُرّ: مكيال قيل إنه أربعون أردبًا أو غير ذلك.

(٣) الأجربة: مفردها جراب، وهو وعاءٌ من جلد يحفظ فيه الزاد ونحوه.

(٤) القفيز: مكيال يعدل ثمانية مكاكيك، والمكوك صاعٌ ونصف، والصاع: قدحان وثلث.

على يديك. فعجِب سليمان منه وقال: هل في البحر مثلُك؟ فقال: إني لفي زُمرة[١] من الحيتان فيها سبعون ألف زمرة، كل زمرة مثلُ عدد الرمل؛ وفي البحر حيتان لو دخلت أنا في جوف أحدها ما كنت إلا كخردلة[٢] في أرض فَلاة. فبكى سليمان عند ذلك وقال: رب أقِلْني[٣] عَثرتي. فأقاله الله تعالى، ثم أوحى إليه: أنْ قِفْ يأبن داود حتى ترى جنودي، فإنّ ما رأيت قليل. قوف وإذا بالبحر قد أضطرب أضطرابًا عظيمًا وخرج منه شيء أعظمُ من الجبل يشقّ البحر شقًّا وهو يقول: سبحانَ من تكفّل بأرزاق العباد، ثم نادى: يابن داود، لولا اليَدُ الباسطة[٤] عليك لكنتَ أضعف الخلائق، وإنك لم تقدر أن تُشبع حُوتًا واحدًا ولا نال كلَّ طُعمه، فكيف تقدِر أن تتكفّل بأرزاق الخلائق! . ثم مرّ ذلك الحوت، فنظر سليمان إلى خَلْق عظيم، وقال: إلٰهي، هل خلقتَ خلقًا أكبرَ من هذا؟ فأوحى الله تعالى إليه: إنّ في البحر مَن يحتاج أن يأكل سبعين ألفًا مثل هذا ولا يُشبِعه، ولا يُشبِعه إلا نعمتي ولطفي. فعلِم سليمان أنّ الذي أُعطِيَه ليس بشيء في قدرة الله عزّ وجل. والله الواسع المتفضّل.

ذكر خبر بناء بيت المَقْدِسِ وأبتداء أمره

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله في سبب بناء بيت المَقْدِسِ: إن الله تعالى بارك في نسل إبراهيم عليه السلام حتى جعلهم في الكثرة غاية لا يُحصَوْن. فلما كان زمن داود عليه السلام لبِث فيهم مدّةً مديدةً بأرض فَلَسْطِين وهم يزدادون كلّ يوم كثرةً، فأُعْجِبَ داودُ بكثرتهم فأراد أن يعلمَ عدد بني إسرائيل فأمر بعدّهم، وبعث لذلك عُرَفاء ونُقَباء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ من عِدّتهم، فكانوا يَعُدُّون زمانًا من الدهر حتى عَجزوا وأيسوا أن يحيط علمهم بعدد بني إسرائيل. فأوحى الله تعالى إلى داود: إني وعدت أباك إبراهيم يومَ أمرته بذبح أبنه فصدَّقني وأتمر بأمري أن أبارك له في ذرّيّته حتى يصيروا أكثر من عدد نجوم السماء، حتى لا يحصيهم العادّون. وإني قد أقسمتُ أن أبتليهم ببليّة يقلّ منها عددهم، ويذهب عنك إعجابك بكثرتهم. وخيّره بين أن يبتليهم بالجوع والقحط ثلاث سنين، وبين أن يسلّط عليهم عدوهم ثلاثة أشهر، وبين أن يسلّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام. فجمع داود بني إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيّره فيه. فقالوا: أنت أعلم بما هو أيسر لنا، وأنت نبيُّنا

---

(١) الزمرة: الجماعة.

(٢) الخردلة: واحدة الخردل، نباتٌ له حبٌّ صغير أسود يستعمل في التوابل والطبّ.

(٣) أقال عثرته: غفر زلّته ونجّاه.

(٤) الباسطة: المنعمة المتفضّلة بالرزق.

فأنظُرْ لنا غيرَ الجوع فلا صبرَ لنا عليه، وتسليطُ العدوّ أمر فاضح. فإن كان ولا بدّ فالموت، لأنه بيده لا بيد غيره. فأمرهم داود أن يتجهّزوا للموت، فأغتسلوا وتحنّطوا[١] ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد[٢] بيت المقدس قبل بناء المسجد بالذراريّ[٣] والأهلين، وأمرهم داود أن يَضِجُّوا إلى الله تعالى وأن يتضرّعوا إليه لعله أن يرحمهم. فأرسل الله عليهم الطاعون فأُهْلِكَ منهم في يومٍ وليلةٍ ألوفٌ كثيرةٌ لا يُدرَى عددُهم، ولم يفرُغوا من دفنهم إلا بعد مدّة شهرين.

فلما أصبحوا في اليوم الثاني خرّ داود ساجدًا يبتهل إلى الله تعالى، فأستجاب الله تعالى منه وكشَف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت. ورأى داود الملائكة سالِّين[٤] سيوفَهم فأغمدوها وهم يرقَوْن في سُلَّم من ذهب من الصخرة إلى السماء. فقال داود لبني إسرائيل: إن الله قد منّ عليكم ورحمكم فجدِّدوا له شكرًا. قالوا: وكيف تأمُرنا؟ قال: آمركم أن تتّخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم الله فيه مسجدًا لا يزال فيه منكم وممن بعدكم ذكر الله تعالى. فأخذ داود في بنائه. فلمّا أرادوا أن يبتدئوا البناء جاء رجلٌ صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم في بنيانهم، فقال لبني إسرائيل: إنّ لي فيه موضعًا أنا محتاج إليه، فلا يحلّ لكم أن تحجبوني عن حقي. قالوا له: يا هذا، ما من أحد من بني إسرائيل إلا وله في هذا الصعيد حقّ مثلُ حقّك، فلا تكن أبخلَ الناس ولا تضايقْنا فيه. فقال: أنا أعرف حقي وأنتم لا تعرفون حقكم. قالوا له: إمّا أن ترضَى وتطيب نفسًا وإلا أخذناه كَرهًا. قال لهم: أوَتجدون ذلك في حكم الله تعالى وحكم داود؟! قال: فرفعوا خبره إلى داود فقال: أرْضُوه. فقالوا: نعم نأخذه منه يا نبيّ الله بثمنه. قال: خذوه بمائة شاة. فقال الرجل: زدْني يا نبيّ الله؛ فقال: بمائة بقرة. قال: زدني يا نبيّ الله؛ قال: فبمائة بعير. قال: زدني يا نبيّ الله، فإنما تشتريه لله تعالى. فقال داود: أمّا إذ قلت هذا فأحتكم أُعطِك. قال: تشتريه منّي بحائط[٥] مثله زيتونًا ونخلاً وعِنَبًا؟ قال نعم. قال: أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخَل. قال: سَل ما شئت أُعطِك، وإن شئتَ أُؤْجِرْك نفسي. قال: أوَتفعل ذلك يا نبيّ الله؟ قال: نعم إذا شئت. قال: أنت أكرم على الله تعالى من ذلك، ولكن تبني

(١) تحنّطوا: جعلوا عليهم الحناط، وهو كلّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وذريرة وعنبر وغير ذلك.

(٢) الصعيد: المرتفع من الأرض، أو الموضع الواسع.

(٣) الذّراري: مفردها ذرّيّة، وهي النسل.

(٤) سلّ السّيف: شهره وأخرجه من غمده.

(٥) الحائط: البستان.

حولَه جِدارًا ثم تملؤه ذهبًا وإن شئت ورِقًا[١]. قال داود: هو هيّن. فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل وقال: هذا هو التائب والمخلص. ثم قال لداود: لأنْ يغفر الله تعالى لي ذنبًا واحدًا أحبُّ إليّ من كل ما وهبتَ لي، ولكن كنت أختبركم. فأخذوا في بناء بيت المقدس، وذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من خلافة داود. وكان داود ينقل لهم الحجارة على عاتقه[٢]، وكذلك خيارُ[٣] بني إسرائيل حتى رفعوه قامة. فأوحى الله تعالى إليه: إن هذا بيت مقدّس، وأنت سفّاك للدماء، ولست بانيَه، ولكن ٱبنٌ لك أملّكه بعدك ٱسمُه سليمان أُسلّمه من سفك الدماء وأقضي إتمامَه على يديه ويكون له صيتُه وذكرُه.

قال: فصلَّوْا فيه زمانًا إلى أن توفَّى الله نبيّه داود وٱستخلف سليمان وأمره بإتمام بناء بيت المقدِس. فجمع سليمان الإنس والجنّ والشياطين وقَسَم عليهم الأعمال، فخصّ كلّ طائفة منهم بعمل، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرّخام والمها[٤] الأبيض الصافي من معادنه؛ وأمر ببناء المدينة بالرُّخام والصُّفّاح[٥]، وجعلها ٱثني عشر رَبضًا[٦]، وأنزل كلّ رَبَض منها سِبْطًا من الأسباط. فلمّا فرغ من المدينة ٱبتدأ في بناء المسجد، فوجه الشياطين فِرَقًا، فريقًا منهم يستخرجون الذهب والفِضّة من معادنها، وفريقًا يغوصون في البحر ويستخرجون أنواع الدُّرّ ويقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها، وفريقًا يأتونه بالمسك[٧] والعنبر[٨] وسائر أنواع الطِّيب من أماكنها؛ فأتِيَ من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله تعالى. ثم أحضر الصُّنّاع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها[٩] ألواحًا، وإصلاح تلك الجواهر وتثقيبها؛ فكانوا يُعالجونها فتصوّت صوتًا شديدًا لصلابتها. فكره سليمان تلك الأصوات، فدعا الجنّ فقال لهم: هل لكم حيلة في نحت هذه الجواهر من غير تصويت؟ فقالوا: يا نبي الله، ليس في الجنّ أكثرُ تجارب ولا أكثرُ علمًا من صخر. فاستدعاه. وكان من أمره في حضوره إليه والتلطف في تحصيل حجر السامور ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار صخر.

---

(١) الورق: الفضّة.
(٢) العاتق: ما بين المنكب والعنق.
(٣) خيارُ بني إسرائيل: أي خيارهم من الرّجال المؤمنين الفضلاء.
(٤) المها: البلّور.
(٥) الصُّفّاح: الحجارة العريضة الرقيقة.
(٦) الرّبض: الناحية.
(٧) المسك: نوعٌ من الطيب، يتكوّن من دم حيوان كالغزال، يرد من الصين والهند حبوبًا سمراء.
(٨) العنبر: مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلاّ إذا سحقت أو أحرقت.
(٩) التنضيد: التنسيق أو العمارة.

قالوا: فلمّا أتيَ بحجر السامور، وهو حجر الماس، استعمله في أدوات الصُّنّاع، فسهَّل عليهم نحت الحجارة.

قالوا: فبنى سليمان المسجد بالرُّخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمَّده بأساطين[١] المَهَا الصافي، وفصَّصه[٢] بألواح الجواهر الثمينة، وفصّص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفَيْروزَج[٣]، فلم يكن يومئذ بيت في الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

قالوا: فلما فرغ من بنائه جمع أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى، وأنّ كلّ شيء فيه خالص لله تعالى. وٱتخذ ذلك اليوم عيدًا، فلم يُتخَذْ في الأرض قطُّ أعظمُ منه ولا من الأطعمة التي عُمِلَتْ فيه. قيل: إنه ذبح من الخراف خمسين ألفًا، ومن البقر خمسة وعشرين ألفًا معلوفة، ومن الغنم أربعمائة ألف شاة.

قالوا: ومن أعاجيب ما ٱتخذ سليمان ببيت المَقْدس أنه بنى بيتًا وطيّن حيطانه بالخُضرة وصقَله؛ فكان إذا دخله الوَرع البارّ[٤] ٱستبان خيالَه في ذلك الحائط أبيض؛ وإذا دخله الفاجر ٱستبان خيالُه في الحائط أسود. فارتدع عند ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة. ونصب في زاوية من زوايا المسجد عصا آبِنُوس[٥]، فكان منْ مسّها من أولاد الأنبياء لم تضرّه، ومن مسّها من غيرهم ٱحترقت يدُه.

قالوا: ولمّا فرغ من بناء بيت المقدس قرّب قربانًا على الصخرة، ثم قال: اللّهمّ أنت وهبت لي هذا المُلك مَنًّا منك عليّ، وجعلتني خليفتك في أرضك، وأكرمتني به من قبل أن أكون شيئًا، فلك الحمدُ. اللّهمّ إني أسألك لمن دخل هذا المسجدَ خصالاً: ألاّ يدخله أحدٌ فيصليَ فيه ركعتين مخلصًا فيهما إلا خرج من ذنوبه كيوم

---

(١) الأساطين: مفردها أسطوانة، وهي كلّ جسم أو شيء ذي شكل أسطواني، وأسطوانة الدار: عمودها.

(٢) فصّصه: جعل فيه الفصوص من الحجارة الكريمة، وفصّ الخاتم: ما يركّب فيه من حجارة كريمة.

(٣) الفيروزج: حجر كريم غير شفّاف معروف بلونه الأزرق كلون السّماء أو أميل إلى الخضرة، يُتحلّى به.

(٤) البارّ: الصالح.

(٥) الآبنوس: شجرٌ ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

ولدته أُمّه، ولا يدخله مستتيب إلا تُبْتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمّنته، ولا سقيم إلا شَفَيتَه، ولا مُجدِبٌ إلا أخصبتَه وأغنيته. وإذا أجبتَ دعوتي فأجعلْ علامتها أن تقبل قُرْباني. قال: فنزلت نارٌ من السماء فسدّت ما بين الخافقين[١] ثم امتدّ منها عنق فاحتمل القُرْبان وصعد به إلى السماء.

وقال سعيد بن المسيِّب[٢]: لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلَّقت أبوابه، فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال في دُعائه: بصلوات أبي داود إلا ما فُتحتِ الأبوابُ، ففُتحت. ففرَّغ له سليمان عليه السلام عشرة آلاف من قرّاء بني إسرائيل، خمسةَ آلاف بالليل، وخمسةَ آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعةٌ من ليل أو نهار إلا والله عزّ وجل يعبدَ فيها فيه.

وحكى الكسائيّ في خبر بناء بيت المقدس قال: فأوحى الله تعالى إلى سليمان عليه السلام أن تبنيَ بيتَ المقدس وترفَعَ قواعدَه كما رفع إبراهيم قواعد البيت العتيق، وأن تبنيه على صخرة المِعراج[٣]. فأمر سليمانُ الجانّ أن تقطع الصخور. وتنقل الرُّخام والأحجار والعمَد وآلات العمارة إليه؛ ثم أمر بالبناء على الأساس الذي كان داود وضعه. فلما كمل البناء أنهار وأنهدم؛ فأمر أن يُحْفَر أساسُه حتى يبلغ الماء، وعقدَ البناء بالحجارة المنحوتة بعضِها على بعض، فغلب الماءُ على البناء فما أنعقد الأساس. فأمر أن تُصْنَع قِلالُ[٤] النحاس والرَّصاص، وختمها بخاتَمه، وجعلها تحت الأساس. ثم أمر بالبناء فوقها فبنيت وأرتفع البناء، وعمِل فيه عشرة آلاف عمود من الرُّخام الملوّن، يلي كلَّ عمود سارية[٥] من الذهب، وسارية من الفضة؛ ومحاريب الذهب والفضة، وكمُل البناء والزخرفة في أربعين يومًا.

قال: وكان يَعْمَل فيه في كل يوم ألفُ عِفْريت من الجِنّ وألفُ شيطان وألفٌ من الإنس. وفرغ منه يوم عرفة[٦]، وأتخذ له قناديلَ من الذهب بسلاسل الفضّة.

---

(١) سدّت ما بين الخافقين: وهما أفق الشرق وأفق الغرب.

(٢) هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي الإمام، أبو محمّد، سيّد التابعين وأحد الأعلام والفقهاء السبعة بالمدينة محدّث ثقة حجّة، عرف بالزّهد، رفيع الذكر، رأس في العلم والعمل، عاش تسعًا وسبعين سنة، مات سنة ٩٤هـ «الكاشف ١/٢٩٦».

(٣) صخرة المعراج: هي الصخرة التي في بيت المقدس، وقد عرج عنها الرسول الكريم إلى السّماء حيث كان من العرش قاب قوسين أو أدنى.

(٤) القلال: الأعمدة.

(٥) السّارية: عمودٌ مرتفع، والسارية من السفينة: عمود ينصب عليه الشّراع.

(٦) يوم عرفة: أي يوم وقوف الناس في عرفة يوم الحجّ.

قال الثعلبيّ: فكان بيتُ المَقْدِس على ما بناه سليمان إلى أن غزاه بُخْتَنَصَّر، فخرّب المدينةَ وهدمها، ونقض المسجد، وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدرّ والياقوت وسائر الجواهر، فحمل ذلك معه إلى دار مملكته من أرض العراق. قال: ثم لم يزل خرابًا إلى أن بُنِيَ في الإسلام.

قال الكسائيّ: ثم أمر الله سليمانَ بجهاد العدوّ، فرغِب في جمع الخيل، فأُهديت إليه من جهة ملوك الأطراف(١) الخيولُ المسوَّمة(٢)؛ فاْجتمع له ما يُنيف على سبعين ألف فرس بسروج الذهب والفضة بأجلّة الديباج(٣). وسار صوب بلاد الشأم. وكان إذا خرج للغزو لا يستصحب شيطانًا ولا جِنّيًا بل العبّاد من بني إسرائيل. والله المعين.

ذكر خبر وادي النمل وما قيل فيه

قال: ولمّا سار سليمان لقصد الغزو مرّ في طريقه بوادي النمل. قال الثعلبيّ: إنه مرّ بوادي السدِير(٤) (واد من الطائف) فأتى واديَ النمل(٥). قال الكسائيّ: فنظر إليهم وإذا هم يزيدون على مائة ألف كُرْدوس(٦) مثلَ السحاب، وهم زُرق العيون، ولهم أيدٍ وأرجُل. فقال سليمان: إني أرى سحابة في الأرض لا أعلم ما هي. فحملت إليه الريح قول النملة كما أخبر الله تعالى عنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨ ـ ١٩]. قال: ونزل الناسُ معه، فقال: أتدرون ما هذا السواد؟ هذه أُمّة من الأمم يقال لها النمل، وأخبرهم بقول النملة، وسجد وسجدوا شكرًا لله تعالى. ودخلت النملُ مساكنَها زُمرةً بعد زُمرة، والنملة تناديهم: الوَحَا الوَحَا(٧) فقد وافتكم الخيل. فصاح بها سليمانُ وأراها الخاتَم فجاءته خاضعةً، فوقفت بين يديه وهي أكبر من الذئب، فسجدتْ بين يديه ثم قالت: يا نبيّ الله، ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم، وهاأنا بين يديك مُرْني بأمرك. فقال: ما الذي

---

(١) الأطراف: النواحي المحيطة بمملكته. (٢) المسوّمة: المعلمة بسومة وهي العلامة.

(٣) الديباج: ضرب من الثياب سُداه ولحمته من الحرير.

(٤) قوله: (إنه مر ـ أي سليمان ـ بوادي السدير: واد من الطائف) لا أظن الطائف إلا محرفًا: لأن سليمان إنما يقصد وادي النمل (الواقع بين بيت جيرون وعسقلان) كما نقل المصحح الفاضل عن ياقوت. أو صوابه (الواقع بين بيت جبرين وعسقلان) وكل هذه الأماكن في فلسطين. وقد مرَّ بها سليمان. فما شأنه وأرض الطائف في الحجاز. اللهم إذا ادعى مدعٍ بأن الملائكة نقلوا وادي النمل من الطائف إلى تحت مواطىء أقدام سليمان!!.

(٥) وادي النمل: بين جبرين وعسقلان «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٤٦».

(٦) الكردوس: الفرقة. (٧) الوحا الوحا: أي أسرعوا أسرعوا.

تكلّمتِ به قبل وصولي إليك؟ قالت: يا نبي الله، إني رأيتك في مَوْكِبك وعسكرك، فناديتُ النملَ أن يدخلوا مساكنهم لئلاّ يحطِمهم جُنْدُك، وأنا كمثل غيري من الملوك أُريد الإصلاح لقومي. فقال لها: كم عددُكم؟ وما تأكلون وما تشربون؟ قالت: يا نبيّ الله، لو أمرتَ الجِنّ والشياطينَ أن يحشرونا إليك لعجَزوا، وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبلٌ ولا غابةٌ إلا وفي أكنافها مثل سُلطانك كراديس من النمل. ولو تفرّق كُرْدوس واحد في الأرض لَمَا وسِعته. ولقد خُلقنا قبل أبيك آدم، وإنا لنأكل رزقَ ربنا ونشكره. فأمرها أن تَعرض النمل عليه. فنادتهم، فمرّوا به زُمرةً بعد زُمرة، وسلّموا عليه بلُغاتهم وهو ينظر إليهم. فقالت مَلِكةُ النمل: يا نبيّ الله، مِنّا ما يأوي الجبالَ، ومِنّا ما يأوي قُرْب المياه والأشجار والزرع، وفي الهواء وهي الطيّارة، فإذا نبتت أجنحتها هلكت واَختطفتها الطير. والنملة لا تموت حتى يخرج من ظهرها كراديسُ من النمل. وليس على ظهر الأرض أحرصُ من النملة؛ وإنها لتجمع في صيفها ما يملأ بيتها وهي مع ذلك تظن أنها لا تَشْبَعُ. وتسبيحُها تسأل ربَّها أن يُوسّع الرزقَ على خلقه. قال الثعلبيّ قال الضحّاك: اسم النملة [التي كلمت سليمان][1] «طاحية»[2] وقيل: «حَرْمَى»[3]. والله أعلم.

ذكر خبر البعوض وما قيل فيه

قال الكسائيّ: ولما نظر سليمان إلى كثرة النمل قال: إلٰهي هل خلقت أكثر من النمل؟ فأوحى الله إليه: نعم وسترى ذلك. ثم أمر الله تعالى مَلكَ البَعُوض أن يحشرها لسليمان، فحشرها من شرق الأرض وغربها. فأقبلت كراديس البَعُوض كالسَّحاب يتبع بعضُها بعضًا حتى وقف منهم كُرْدُوس على سليمان، وأقبل مِلِكُهم وقال: يا نبيّ الله، ما لَكَ ولِلضُعَفَاء من خَلْق ربِّك ألهيتَهم عن التسبيح! ياَبنَ داود، إنّا في هذه الأرض قبل أبيك آدم بألفَيْ عام ما عُرِضْنا على آدميّ غيرك، نأكل من رزق ربنا، ولا نفتُرُ[4] عن ذكره صباحًا ولا مساءً. قال: أخبِروني كم أنتم؟ وأين مأواكم؟ ومن أين تُرْزَقون؟ قال مَلِكهم: يا نبيّ الله، تحت يدي سبعون سحابةً، كلُّ سحابة تملأ المشرق والمغرب، لكلِّ زُمرةٍ موضع معلوم، تأكل كل واحدةٍ رزقَها، ولولا خوف المعاد لأكلنا ما في الدنيا. ثم سجدوا واَنصرفوا. وكان سليمان إذا أراد أن يُدرك قومًا بعث إليهم البعوضَ فيأكل جميع ما في مدينتهم.

---

(١) زيادة عن الثعلبي.

(٢) في الأصل: طاجية والتصويب عن الثعلبي.

(٣) في الأصل: جرما، والتصويب عن الثعلبي.

(٤) نفتُرُ: نسكن أو نلين أو نضعف.

ذكر خبر الخيل وما قيل فيها

قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾ [صۤ: ٣١ ـ ٣٣]. قال أبو الحسن عليّ بن إبراهيم الحَوْفي[1] في «كتاب البرهان في علوم القرآن» في تفسيره هذه الآية: الصافن من الخيل الذي يجمع بين يديه. وقال الفرّاء[2]: الصافن هو القائم. وقال مجاهد: صُفُون الفرس إذا رفع إحدى رجليه حتى يكون على طَرَف الحافر. قال ابن زيد[3]: الخيل أخرجها الشيطان لسليمان من مَرْج من مروج البحر. والصَّفْن أن يقوم الفرس على ثلاث ويرفعَ رجلاً واحدة، يكون طرف الحافر على الأرض. قال: وكانت لها أجنحة. قال: والجياد السِّراع. وذكر أنها كات عشرين فرسًا ذوات أجنحة. قال وقوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ إنه لَهَا[4] عن الصلاة حتى فاتته. قال قَتَادةُ والسُّديّ: الخير: الخيل. وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال: هي العصر، وهي التي فُتِن بها سليمان. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس حتى تغيب في مَغِيبها. وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي الخيل التي عُرِضتْ عليّ فشغلتني عن الصلاة. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي جعل يمسح فيها السُّوق وهو جمع ساق. قال بعضهم: عَقرها[5] وضرب أعناقها؛ قاله قَتَادة والحسن والسُّدّيّ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يَمسح أعرافَها[6] عراقيبَها[7] بيده حبًّا لها. وقيل: كشف عن عراقيبها وضرب أعناقها وقال: لا تَشغليني عن عبادة ربِّي مرّة أُخرى. قال أبو إسحاق[8]: يجوز أن يكون الله أباح له ذلك لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنب أعظَم منه. والله أعلم.

---

(١) هو علي بن إبراهيم بن سعيد، أبو الحسن الحوفي، نحوي، من العلماء باللغة والتفسير، من أهل الحَوْف بمصر، توفي سنة ٤٣٠هـ «الأعلام ٤/ ٢٥٠».

(٢) الفرّاء: هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدّيلمي، أبو زكريا إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب وأيّام العرب وأخبارها، توفي في طريق مكة سنة ٢٠٧هـ «الأعلام ٨/ ١٤٥».

(٣) ابن زيد: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد، شهاب الدين، فاضل دمشقي من علماء الحنابلة، له مؤلّفات عدّة، توفي سنة ٨٧٠هـ «الأعلام ١/ ٢٣٠».

(٤) لَهَا: أي اشتغل عن الصلاة حتى نسي موعدها أو تأخّر عنه.

(٥) عقرها: قطع إحدى قوائمها لتسقط، أو ذبحها.

(٦) الأعراف: مفردها العُرف وهو شعر عُنق الفرس.

(٧) العراقيب: مفردها العرقوب، وهو من الدّابة ما يكون في رجلها بمنزلة الرّكبة في يدها.

(٨) أبو إسحاق: هو كعب الأحبار، كعب بن ماتع «تقدّم ذكره».

وقال الثعلبيّ رحمه الله في قصّة الخيل قال الكلبيّ: غزا سليمانُ أهلَ نَصِيبِين[١]، فأصاب منهم ألفَ فرس. وقال مُقاتل: ورِث سليمان من أبيه داود ألف فرس، كان داود أصابها من العمالقة.

قالوا: فصلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيّه، فعُرض عليه منها تسعمائة[٢] فرس؛ فتنبّه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غابت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك، فاغتمّ وقال: ردّوها عليّ، فرُدّت عليه، فعرقبها بالسيف، وقرّبها إلى الله عزّ وجل وبقي منها مائة فرس. فما في أيدي الناس من الخيل العِراب[٣] فهي من نسل تلك المائة. وقال كعبٌ: كانت الأفراس أربعةَ عشر فرسًا، فأمر بضرب أعناقها وسُوقها بالسيف وقتلها؛ فسلبه الله مُلْكه أربعة عشر يومًا؛ لأنه ظلَمَ الخيل بقتلها. قال الثعلبيّ وقال قوم: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ حبسها في سبيل الله وكَوَى سُوقها وأعناقها بِمِيسَم[٤] الصَّدَقة. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن الله تعالى أمر الملائكة الموكّلين بالشمس فردّوها، وصلى سليمان العصر في وقتها.

ذكر خبر بساط سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: وكان سليمان إذا ركب الرّيح تقدّم أمام بساطه البَعُوض ثم الزنابير وكل ما يطير في الهواء، ثم الشياطين. وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمانية: الشَّمال[٥] والجَنوب[٦] والصَّبا[٧] والدَّبور[٨] والصَّرْصَر[٩] والعَقِيم[١٠] والكرس[١١] والراكي[١٢]، فيبسُط بعضَها على بعض؛ ثم يبسط بساطه على هذه

---

(١) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستّة أيّام «معجم البلدان ٥/٢٨٨».

(٢) في الأصل: «أربعمائة» والتصويب عن الثعلبي وكتب التفسير.

(٣) العراب: الكريمة السالمة من الهجنة.

(٤) الميسم: حديدة تكوى بها إبل الصّدقة لتعرف وتتميّز عن غيرها من الإبل المملوكة.

(٥) الشّمال: الرّيح التي تهب من الشمال، وتكون باردة.

(٦) الجنوب: الرّيح التي تهبّ من الجنوب وتكون حارّة.

(٧) الصّبا: ريحٌ مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار وتكون معتدلة.

(٨) الدّبور: ريحٌ تهبّ من المغرب وتقابل القبول، وهي ريح الصّبا.

(٩) الصّرصر: الرّيح الشديدة الصوت، أو الشديدة البرد.

(١٠) العقيم: يقال ريحٌ عقيم أي لم تأت بمطر.

(١١) الكرس: الريح التي تجمع التراب وتثيره.

(١٢) الرّاكي: الريح التي تجيء بالرّك، وهو القليل من المطر.

الرياح، وكان من السندس[١] الأخضر، أخضر البطن أحمر الظهر، أهداه الله تعالى إليه من الجنة، لا يعلم طولَه وعرضَه إلا الله تعالى. وقيل: كان طولُه ثلاثمائة وسبعين فرسخًا في عرض عشرة آلاف ذراع. وكان سليمان إذا ركبه جعل اللّون الأخضر مما يلي الأرض، فإذا رفع الناس رؤوسهم إليه يرونه على لون السماء. وكان يجلس على كرسيّه وعن يمينه ويساره القضاة والعلماء والأحبار من بني إسرائيل على كراسيّ معدّة لهم، وهو جالس في وسط البساط وزمام الريح بيده، ويتغدّى على مسيرة شهر ويتعشى على مسيرة شهر؛ قال الله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال: وكان سليمان إذا ركب الرياح على بساطه يرى كل شيء عليه من الجنّ والإنس والشياطين والهوامّ وغيرهم، والطير تُظِلّه، ولا يقف على مدينة إلا فتحها.

ذكر خبر صخر الجني

قال: وجمع سليمان عليه السلام عفاريت الجنّ والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجنيّ، فقالوا: يا نبيّ الله، إنّ الله قد أعطاه قوّة جماعةٍ منّا؛ ويصعُب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتي في كل شهر إلى عينٍ في جزيرة فيشرب ماءها. والرأي أن ننزفه[٢] منها ونملأها خمرًا، فإذا جاء وشربه وسكِر ذهبت قوّته فنحمله ونأتيك به. ثم خرجوا ففعلوا ذلك، وٱختفَوْا في تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشربَ فاشتَمّ رائحةَ الخمر وقال: أيتها الخمرة إنك لطيّبة غيرَ أنك تسلُبين العقل وتجعلين الحليم جاهلاً، وأمرُك كلُّه ندامةٌ، وٱنصرف ولم يشرب. ثم عاد في اليوم الثاني وقد أجهده[٣] العطش فقال: ما من قضاء يأتي من الله إلا كان مبرمًا، ثم نزل على العين فشرب حتى ٱمتلأ، ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريتُ إليه ومعهم طابَعُ (خاتِم سليمان) فلما رآه ذَلّ وخَضَع، فحملوه حتى وقفوه بين يدَيْ سليمان وهو يُخرج من فِيهِ لَهَبَ النيران، ومن منخريه الدُّخان. فلما عاين الخاتَمَ ضعُفت قوّته وخرّ ساجدًا على وجهه، ثم رفع رأسَه وقال: يا نبيّ الله، سيزول هذا المُلْك عنك ولا يبقى إلا ذكرُه. قال: صدقت. ثم قال له: يا نبيّ الله، ما الذي أحوجك إليّ وأنا بالبعد منك لا أختلط بالآدميين؟ فقال له سليمان: إنّ الناس قد اشتكَوْا من وقع الحديد وصوته على الحجر. فقال: عليك بوَكْر العُقَاب وعُشّه

(١) السندس: ضرب من رقيق الدّيباج.
(٢) ننزفه منها: نفرغه، ونزف ماء البئر: إذا ذهب.
(٣) أجهده العطش: أضناه وأتعبه، فاشتهاه.

وبيضه، فليس شيء من الطيور أبصرَ منه، فأُتِيَ به. فوضعه في البرّيّة وغطّاه بجام[١] من القوارير[٢] شديد الصفاء فوضعه على عُشّ العقاب. فجاء العقاب فلم ير عُشّه، فطار في الهواء حتى نظر إلى عُشّه في تلك البرّيّة، فٱنقضّ عليه وضرب الجام برجله ليكسِرَه فلم يقدرِ على ذلك، فطار وتعلّق في الهواء وغاب يومه وليلته، ثم أقبل صبيحة اليوم الثاني وفي منقاره قطعة من حجر السامور[٣]، فٱنقضّ على الجام بذلك الحجر فضربه به، فانشقّ الجام نصفين ولم يُسْمَع له صوت، وأخذ العقاب عُشّه وبيضَه وترك حجر السامور هناك، فأخذه صخر وهو في صفاء المرآة وحرّ النار. فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور من أين ٱحتمله، فأخبره أنه من جبلٍ شامخٍ[٤]. فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا منه ما قَدَرُوا، فكان يقطع به الأحجار والصخور والجَزْعَ[٥] من غير أن يُسْمَع له وَقْع.

قال: ثم قال صخر: يا نبيّ الله، أتحبّ أن أتّخذ لك مدينةً؟ قال نعم؛ فاتخذَها. فعجب سليمان من ذلك، وأمره أن يتّخذ له مدينةً دون تلك المدينة حتى يحملها معه على بساطه حيثما ذهب. فقال: يا نبيّ الله، لك كلّما أردتَ السفر مدينةٌ على أيّ لون شئت. فبنى له مدينة في طول عسكره وعرضه، وجعل لكل سِبْط من الأسباط قصرًا في طول ألف ذراع وعرضه مثلُ ذلك، وفي كل قصر بيوت وغُرَف، ثم بنى بعد ذلك مجلسًا من القوارير في طول ألف ذراع، وعرضه مثل ذلك، يجلس فيه العلماء والقضاة. وبنى لسليمان قصرًا عجيبًا في طول خمسة آلاف ذراع، وعرضه مثلها، وزخرفه بألوان القوارير ورصّعه بأنواع الجواهر، وجعل فيه جميع الصور والتماثيل وأتقن صنعته. وكان مما صنع صخر لسليمان الكرسيّ.

ذكر صفة كرسيّ سليمان عليه السلام وما ٱنتهى إليه أمره

قالوا: وكان مما عمله صخر الجنيّ لسليمان عليه السلام الكرسيّ، وكان سليمان أمره بٱتخاذه ليجلس عليه للقضاء، وأمره بأن يعمله بديعًا مهولاً بحيث إنه إذا رآه مبطل أو شاهدُ زور ٱرتدعَ وتهيَّب[٦].

---

(١) الجام: إناء للطعام أو للشراب، من فضة أو نحوها.

(٢) القوارير: مفردها قارورة، وهي وعاء من زجاج تحفظ فيه السّوائل.

(٣) السّامور: الألماس. (٤) الشامخ: المرتفع.

(٥) الجزع: ضربٌ من الخرز، وقيل: هو الخرز اليماني، وهو الذي فيه بياضٌ وسواد تشبّه به الأعين «اللسان مادة جزع».

(٦) تهيّب الشيء: حذره وأجلّه وعظّمه.

قال: فعَمِل له الكرسيّ وكان من أنياب الفِيَلة وقصّصه بالياقوت(١) واللؤلؤ(٢)، والزَّبَرْجَد(٣) وأنواع الجوهر، وحفّه بأربع نَخَلات من ذهب، شماريخها(٤) من الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، على رأس نخلتين طاووسان من ذهب، وعلى رأس النخلتين الأخريين نسران من ذهب، بعضها يقابل بعضًا، وجعل مقابل جنبيّ الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل أسد منهما عمود من الزُّمرد الأخضر، وعقد على النخلات أشجارَ كروم من الذهب، عناقيدها من الياقوت الأحمر.

قالوا: وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدَمَيْه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسيّ كله بما فيه دَوَرَان الرحا(٥) المسرعة، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وكذلك كان يفعل في كل درجة يصعد فيها سليمان. فإذا اْستوى سليمان بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان، ثم يستدير الكرسيّ بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان، والأسدان مائلان برؤوسهما إلى سليمان، ينضَحن(٦) عليه من أجوافها المسك والعنبر(٧)، ثم تُناوله حمامة من ذهب جاثمةٌ على عمود من جوهر من أعمدة الكرسيّ التوراةَ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل(٨) القضاء. فإذا دعا بالبيّنات [و](٩)تقدّمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسيّ بما فيه من جميع ما حوله دَوَرَان الرحا المسرعة.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ قال معاوية لوَهْبِ بن مُنَبِّه: ما الذي كان يُدير ذلك الكرسيّ؟ قال: بُلبلتان(١٠) من ذهب. قال: فإذا دار الكرسيّ بسط الأسدان أيديَهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النسران والطاووسان أجنحتها فتفزّع منها الشهود ويداخلهم الرعب الشديد، فلا يشهدون إلا بالحق.

---

(١) الياقوت: حجر كريم شفاف صلب ذو ألوان مختلفة ما بين أحمر وأصفر وأزرق وأخضر.

(٢) اللؤلؤ: الدرّ، ينشأ في الصدف في بعض البحار، ويكثر استخراجه في بلدان الخليج العربي.

(٣) الزبرجد: حجرٌ كريم ذو ألوان كثيرة أشهره الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

(٤) الشماريخ: مفردها شمراخ وهو العنقود الذي عليه بلح.

(٥) الرّحا: الطاحون، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٦) ينضحن: يرشحن.

(٧) العنبر: مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلاّ إذا سحقت أو أحرقت.

(٨) فصل القضاء: أحكامه.

(٩) زيادة يقتضيها السّياق.

(١٠) البلبلة: ضرب من الكيزان في جنبه ينصب منه الماء، والبلبل: قناة الكوز الذي فيه بُلبُل إلى جنب رأسه «اللسان مادة بلل».

قال: فلما توفَّى الله سليمان عليه السلام وجاء بُخْتَنَصّر[(١)] إلى بيت المقدس أخذ الكرسيّ وحمله إلى أنطاكِية[(٢)]، وأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا معرفة بأحواله. فلما وضع قدمه على الدرجة رفع الأسد يده اليمنى فضربه ضربة شديدة دقّه ورماه، فحمل بختنصّر، فلم يزل يعرُج منها ويتوجّع إلى أن مات. وبقي الكرسيّ بأنطاكية حتى غزاهم ملك من ملوك الشام يقال له كداس بن سدارس فهزم خليفة بختنصّر وردّ الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع أحد من الملوك الصعود إليه. فوُضعت تحت الخصرة فغاب فلم يعرف له خبر ولا يُدرَى أين هو. والله أعلم بالصواب.

ذكر خبر بلقيس وٱبتداء أمرها

قال الكسائيّ قال كعب: هي بِلْقِيس بنت ذي شَرْح، وهي متولِّدة من الإنس والجنّ. وأمّها عَمِيرةُ بنتِ ملكِ الجنّ. وكان لاتّصال ذي شَرْح والد بلقيس بعَمِيرة بنت ملك الجنّ سببٌ عجيبٌ نذكره على ما حكاه الكسائيّ، قال: أهلك الله تعالى مساكن[(٣)] سبأ بسيل العَرِم[(٤)]، على ما نذكر ذلك في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى، وهو يلي أخبار ملوك قَحْطان، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس في السفر الثالث عشر من هذه النسخة. قال: فلما ٱنقرضوا وأبادهم الفناء

---

(١) بختنصر: هو ملك بابل الذي غزا بن إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شعيا فخرّب بيت المقدس بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، ثم رجع إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل فنقلهم إلى أصفهان وبلاد العراق، عاش بعد تخريب بيت المقدس أربعين سنة «انظر تاريخ ابن الأثير ١/ ٢٦١ ـ ٢٧٢ ـ ٣٠٣، وتاريخ ابن خلدون ١/ ١٤ ـ ٤١٠، ٢/ ٦٣١».

(٢) أنطاكية: حاضرة سوريا في القديم، وهي واقعة على منعطف من نهر العاصي وقد فاقت قديمًا غيرها من المدن في الثروة والعلوم والتجارة وكان لأهاليها امتيازات مدنية خصوصية حتى أنها كانت الثالثة بين مدن مقاطعات الرومان العظيمة، وقد اشتهرت بحسن موقعها وطيب هوائها وكانت محفوفة بغياض السرو ومجاري المياه العذبة «راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست».

(٣) سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام وسمّيت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان «معجم البلدن ٣/ ١٨١».

(٤) سيل العرم: قيل: العرم اسم وادٍ بعينه، وقيل: العرم الجرذ الذي نقب السكر على أصحاب السّيل العرم، وقيل: العرم: المطر الشديد، وقيل: العرم: ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنان فلم يسقها فيبست وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذابًا أرسل عليهم «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٤ وما بعدها، ففيه تفصيل كافٍ لقصّة السّيل».

توارثها بعدهم جماعةٌ من الملوك ليس هذا موضع ذكرهم، حتى ٱنتهى المُلْك إلى رجل فظّ[١] غليظ يقال له شَرَاحِي الحِمْيَرِيّ. وكان من عادته مع قومه أنه ٱفترض على أهل مملكته في كل أسبوع أن يأتوه بجارية من بناتهم فيفتضّها ثم يردَّها إلى أهلها. وكان ذو شَرْح وزيره وهو من أبناء ملوك حِمْير من ولد سبأ، وكان لذي شرح ألفُ قصر وألفُ فرس عتيق[٢] وألف سيف يمان[٣]، وكان يرجع إلى حُسْنٍ وجمالٍ وعقل، وكان مُولَعًا بالصيد، فكانت الجنّ تتصوّر له في صورة الظبي، فإذا صادهم وهمّ بذبحهم كلّموه وقالوا له: لا تَعجَلْ فإنّا إنما جئنا لننظر إلى محاسن وجهك. وكانت الجنّ تؤذي أهل اليمن، فأقسم ذو شرح أن يقتل ملك الجنّ ويتزوّج بٱبنته. قال: وكان اسم ملك الجنّ عُمَير، وكان حسن الوجه، وٱبنتُه عَمِيرة. فمرّ ذو شرح ذاتَ يوم في واد من بلاد اليمن كثير الأشجار فنزل به، حتى جنّه[٤] الليل، وكان في جمع قليل من أصحابه، وكان الوادي الذي نزل به من مساكن الجنّ. فلما مضى بعض الليل سمع هَمْهَمَة[٥] الجنّ، فقام ونادى: يا معشر الجنّ، قد نزلتُ بكم الليلةَ على أن تُضِيفوني فإني جارٌ لكم، فأسمعوني من أشعاركم. قال: فأنشدته الجنّ من أشعارها، وجاءته عَمِيرة بنت عُمَير مَلك الجن على أحسن صورةٍ. فلما نظر إليها ذَهِلَ عقلُه من حسنها، وغابت عن عينه فشُغِفَ بحبّها فقال: يا معشر الجنّ، إن أنتم زوّجتموها مني وإلاّ كنت حربًا لكم ما عشت أبدًا. فنادوه: يا ذا شَرْح، إنك آدميّ فكيف تقاتل الجنّ ومسكنُهم الهواء وظلمات الأرض! مهلاً أيها الآدميّ لا تعرِّض نفسك إلى ما لا تقدر عليه وٱرجع، فإن قُدِّر لك أمر فسوف تناله. فلما سمع ذلك أيِسَ من التزويج وأخذ في مستأنف أمره في مؤالفة الجنّ، فكان يُهاديهم بما يصلُح لهم من الهدايا، فصافاه عُمَير ملك الجنّ وآخاه وأَلِفه حتى صار عنده كالأخ. فلما رأى ذلك ذو شَرْح وأنه قد تمكّن من ملك الجنّ قال له: هل لك أن تزوّجني ٱبنتَك عمِيرة ليكون لي في ذلك شرفٌ إلى الممات! فرغب فيه عُمَير ملك الجنّ لحسنه وجماله وشرفه وماله؛ فزوّجه ٱبنته بحضرة سادات الجنّ. وٱنصرف ذو شَرْح إلى مدينة سبأ وأهدى هدايا كثيرة إلى ملك الجن وساداتِ قومه، ثم زُفّت إليه فوطِئها فحمَلتْ منه.

---

(١) الفظّ: الحادّ الطب والسّيىء الخلق. (٢) الفرس العتيق: الفرس الرّائع الكريم.
(٣) سيفٌ يمان: أي سيف منسوب إلى اليمن.
(٤) جنّه الليل: ستره بظلامه. (٥) الهمهمة: أصوات خفيّة.

ذكر خبر ميلاد بلقيس وكيف كان وسبب مُلْكها

قال: ووَلَدت عَمِيرة بنت ملك الجنّ بِلقيس بنت ذي شرح على أحسن ما تكون من الصُّوَر، ثم ماتت أمها بعد ذلك بقليل، فربتها الجن. فلما بلغت مبلغ النساء قالت لأبيها: إنّي كرهت المُقَام عند الجن فاْحملني إلى بلاد الإنس فإنهم أحبّ إليّ. فقال لها: إنّ للإنس مَلِكًا ظالمًا وذكر لها سنّته في بلاد قومه، وأنه يفتضّ الأبكار ثم يردّهن إلى أهلهنّ. قالت: لا تخش ذلك عليّ وأنْقُلني، وسترى ما يكون منّي. فبنى لها قصرًا خارجَ مدينة سبأ من أعظم ما يكون من الأبنية، واتّخذ لها عريشًا من العاج والآبِنوس[1] والذهب والفضة، ونقلها إلى القصر واتّخذ لها أواني الجوهر. فأقامت بِلقيس في قصرها زمنًا طويلًا، وانتشر خبرها إلى ملك سبأ، فركب في موكبه حتى وقف على باب القصر ورأى حُسْنَ بنائه، فرجع وأرسل بجارية من جواريه إلى بِلقيس، فدخلت عليها ونظرت إليها وإلى ما في قصرها من التُّحَف العظيمة وما عندها من جواري الإنس والجنّ، فعادت إلى الملك وأخبرته بما هي عليه من الجمال وأنها ٱبنة وزيره. فأحضره وأنكر عليه وقال: كيف ٱتّخذتَ مثل هذا القصر ولك مثلُ هذه البنت وأنت وزيري ولم تعلمني ولا ٱستأذنتَني في بنائه! فقال: أيها الملك، أمّا القصر فإني أنفقت عليه المال الذي ورثتُه من أبي. وأمّا البنت فإنها ٱبنة عَمِيرةَ بنت ملك الجن، ورغِبتْ في السكن في بلاد الإنس، فحملتُها إلى هذا المكان، فهذه قصتها. فقال: صدقتَ فزوِّجْنيها ولا بدّ من ذلك. فقال: أحتاج في ذلك إلى إذنها. قال: استأْذِنْها. فجاء إليها وقال: يا بُنَيّة، قد وقعتُ فيما كنت أخشاه عليكِ، وذكر لها مقالة الملك. فقالت: زوِّجني منه ولا تَخَفْ، فإنه لا يصل إليّ. فزوّجها منه بحضور أكابر أهل المملكة. ولمّا تمّ التزويج كتب الملك كتابًا إليها يقول: إني قد عشِقتُ ٱسمَكِ قبل أن أنظر إليك، فإذا قرأتِ هذه الرقعة فعجّلي بحضورك إليّ. فكتبتْ إليه: إني لمشتاقة إلى وجهك أشوقَ منك إليّ، غير أن قصري هذا هو من بناء الجن، وفيه عجائبُ كثيرة، وقد جمعتُ فيه ما لا يصلح إلا لمثلك. فإن رأيتَ أن تتحوّل إلى قصري فافعلْ. فلما ورد جوابها عليه ركب لوقته في حَشَمه وجنوده وسادات قومه. فبلغ بِلقيس فقالت لأبيها: امضِ إلى الملك وقُلْ له: إنّ ٱبنتي من بنات الجن ولم تنظر قطُّ إلى مثل هذه الجنود، ففَرِّق هؤلاء وٱدخل إليها منفردًا. فقال ذلك للملك،

---

(١) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند خشبه أسود صلب يصنع منه بعض الأدوات المنزلية والأواني والأثاث.

ففرّق جنوده وأتى إليها بمفرده، ودخل القصر وله سبعة أبواب. وكانت بِلقيس قد جعلت عند كل باب جاريةً من بنات الجن من أحسن ما تكون من النساء، وفي أيديهنّ أطباق الذَّهب فيها الدنانير والدراهم والطِّيب، وأمرتهن أن ينثُرنَ ذلك على الملك. فلما دخل توهَّم أنّ كل واحدة منهنّ اَمرأتُه وهمّ بالنزول عليها، فتقول: أنا خادمتها وهي أمامك، حتى اَنتهى إلى آخر الأبواب، فتقدّمت إليه جارية وأصعدته إلى العرش، فنظر إلى القصر وما فيه من الآلات والزينة، فرأى ما لم يخطُر ببالِه. ثم أقبلتْ بلْقيس والجواري بين يديها ينثُرن على الملك من أنواع النِّثار[1] وعلى رأسها تاجٌ، فصعِدت على عرشها. فلمّا رآها الملك فُتن بها وكاد يَذْهَل عقلُه. وأخذت في مخادعته وملاعبته، ثم أمرتْ بالطعام فأُحْضِرَ بين يديه، فاَمتنع من الأكل وقال: ما أريد أن أغفُل عن وجهك. فأمرتْ بإحضار الشراب فأُتيَ به في آلات الجوهر النفيس. وأخذا في الشرب، فلم تزل به حتى أسكرته وغاب عن عقله ووقع على قفاه لا يعقِل من أمره شيئًا. فذبحته بِلْقِيس، ثم دعتْ بأبيها وأعلمته بما فعلت. ففرِح وكتب إلى خُزّان الملِك عن الملِك: إنّي قد أحببتُ النزول بهذا القصر فاَجمعوا ما في الخزائن من الأموال وأنفِذوه إلى عندي[2]. فجمعوا الأموال وأنفذوها إلى القصر. ثم أمرتْ بعد ذلك باَتخاذ الأطعمة فصُنعتْ ودعتْ ساداتِ ملوك اليمن. فلمّا جلسوا قُدِّمتْ إليهم الأطعمةُ فأكلوا، ثم قُدّم إليهم الشراب فشرِبوا. فلما أخذ منهم أشرفتْ بِلقيس عليهم وقالت: إنّ الملك يأمركم أن توجِّهوا إليه بنسائكم وبناتكم. فغضبوا وقالوا: أمَا يكفيه أنه فضَح بناتِ العرب حتى طمِع فينا نحن! فقالت لهم: لا تغضَبوا حتى أرجِع إليه وأعرِّفه غضبكم. ثم أمرتْ أن يُعاد عليهم الشراب ثانيًا فشربوا ساعةً، فعادت إليهم وقالت: قد أخبرتُ الملِك بغضبكم ومقالتكم فقال: لا بدّ من ذلك. فاَزداد القوم غضبًا وصاحوا. فقالت: على رِسْلكم[3] حتى أراجعه وأسأله. ومضتْ وعادت فقالت: إني عدتُ إلى الملك فوجدته قد نام، فما رأيُكم في أمر أفعَلُه وأريحكم مما أنتم فيه من شرّه على أن تملِّكوني على أنفسكم؟ قالوا نعم. فخلَّفتهم على ذلك وأخذت عليهم العهود والمواثيق، وغابتْ ساعةً وعادتْ ومعها رأسُ الملك فألقته إليهم، ففرحوا بذلك واستبشروا وملَّكوها عليهم. فملكت بِضْعَ عشرةَ سنةً حتى بعث الله سليمان نبيًّا.

---

(١) النّثار: ما ينثر من ذهب وعطور وغير ذلك.

(٢) في الكسائي «وأتوني بها» وهي أفصح لغة.

(٣) على رسلكم: أي تمهّلوا ولا تعجلوا.

ذكر خبر سليمان وبلقيس وسبب زواجه بها

قال: وكان سببُ اتّصال خبرها بسليمان عليه السلام أنه بينما هو يسير على بِساطه، وكان الهُدْهُدُ دليلَه على الماء لأنه يراه من عِدّة فراسخ، فارتفع في الهواء لطلب الماء، فنظر إلى هُدْهُدٍ قد أقبل من ناحية اليمن، فالتقيا. فقال له الهدهدُ السليمانيّ: من أين أنتَ؟ قال: من اليمن. وسأله الآخر فقال: أنا من الشام من طيور الملك سليمان. قال: ومَنْ سليمان؟ قال: نبيّ الله ملك الجنّ والإنس والطير وجميع المخلوقات. قال: إنّ هذا مَلِكٌ عظيم. قال: وهل في اليمن ملِكٌ؟ قال: نعم، مَلِكةٌ يقال لها «بِلقيس» تحت يدها عشرة آلاف قائد، تحت يدِ كلِّ قائد كذا وكذا ألفًا من العساكر.

وحكى الثعلبيّ أنه قال لمّا أخبره بمُلْك سليمان: إن لصاحبكم مُلْكًا عظيمًا، ولكن ليس مُلْكُ بِلقيس دونه، فإنها ملكةُ اليمن وتحت يدها اثنا عشر ألفَ قَيْلٍ مع كل قَيْل مائةُ ألف مقاتل - والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن - فهل أنت مُنطلق معي حتّى تراها؟ قال نعم. فانطلقَ الهدهدان حتى أتيا بلادَ اليمن وصارا إلى قصرها؛ فنظر إليها [الهدهد السليمانيّ][1] وإلى قصرها ومُلْكها. وحضر وقتُ الصلاة لسليمان فلم يجد الهدهد، فقال ما أخبر الله به عنه: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢٠ - ٢١] أي بحجة بيّنة. ثم دعا العُقاب وقال: أنت عَريف الطير، فتعرّفْ لي خبر الهدهد. فطار في الشرق والغرب، وإذا هو بالهدهد قد أقبل من جهة اليمن، فجاء به إلى سليمان. فاستخبره عن سبب غيبته فقال: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٣] وذكر صفةَ عرشها وما فيه من أصناف الجواهر وغيرها ثم قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] وخرّ ساجدًا لله، ثم رفع رأسه وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ[2] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] قال سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]!. ثم سأله عن الماء فقال: هو تحت قائمة كُرسيِّك. فأمر سليمان تحويل البِساط، فحُوّل ونقر الهدهدُ بمنقاره فخرج الماء، فشرب الناس وصلّوْا. ثم قال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٨] وأقبل سليمان على آصف بن بَرْخِيَا وقال: اُكْتُبْ إلى هذه المرأة كتابًا لطيفًا. فدعا بصحيفةٍ من فِضّة وكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ

(١) زيادة يقتضيها السّياق.

(٢) الخبء: خبء الأرض: نباتها وخبء السماء: مطرها.

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٣٠ ـ ٣١] وختم الكتاب وبعثه مع الهدهد في زُمرة من الطير، فأقبلوا نحوَ اليمن وٱنقضُوا على قصرها، ودخل الهدهد إلى قُبّتها من كَوّة[1] من كَوى القُبّة وهي نائمة، وقد وَضَعتْ خاتَم مُلْكها على صدرها، فوضع الكتابَ على نحرها وطار. فلما ٱستيقظتْ أخذتِ الكتاب وجمعتْ قومها ثم قالت: ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] وفتحتْه وقالت: إنه من سليمان، وقرأتْه عليهم وعلمتْ أنه من قِبَل رجل عظيم. وجمعتْ أكابرَ قومها وأهلَ العقل والعلم الذين في مملكتها و﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٢ ـ ٣٣] فعلمتْ عند ذلك أنهم قد أخطلُوا[2] الرأيَ في عَزْمِهم على الحرب و﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٤ ـ ٣٥].

قال: وأرادتْ أن تختبِر حالَ سليمان عليه السلام فقالت: إنْ طلب الدنيا أرضيناه بالمال وصرفنا أذاه عنّا، وإنْ كان من الأنبياء ولم ترغِّبه الدنيا لم يكن لنا أمرٌ إلا الطاعةُ له، فمضَوْا على رأيها، فأمرتْ بٱتّخاذ الهدايا. فعاد الهدهد إلى سليمان وأخبره بما كان من أمرها مع قومها. فأمر سليمان أن يُفرَش مَيْدانه بِلَبِن[3] الذهب والفِضّة، وأن يُبْنى حولَ الميدان حائطٌ من الفضة شُرُفاته من الذهب، على كل شُرْفةٍ تاجٌ من الذهب مرصّع بالجوهر، وأمر الجن أن يأتوا بأولادهم من الذكور والإناث، وأمر بإحضار كل فرس عجيب الخَلْق.

قال الثعلبيّ: إنّ سليمان عليه السلام سأل الجنّ عن أحسن دوابَّ رأوْها في البحر. قالوا: رأينا دوابَّ في بحر كذا وكذا منمّرة منقّطة مختلفة ألوانُها، لها أجنحة وأعرافٌ[4] ونواصٍ[5]. قال: عَلَيَّ بها الساعةَ، فأتَوْه بها. قال: شُدُّوها عن يمين المَيْدان ويساره، ففعلا. قالوا: وأمر سليمان الشياطين أن يُظهروا من التهويلات ما لم يُظهروه قبل ذلك اليوم.

---

(١) الكوّة: الفتحة أو الخرق في الحائط.

(٢) قوله: (قد أخطلوا الرأي في عزمهم على الحرب): في المصباح (خطل في منطقه ورأيه أخطأ وأخطل في كلامه لغة اهـ) فأخطل بالهمزة إنما يستعمل مع الكلام لا الرأي فصوابه إذن (قد خطلوا في الرأي) متعديًا بحرف الجر (في) لا بنفسه أو أن (أخطلوا) محرفة من (أخطأوا) الذي يتعدى إلى مفعوله بنفسه. إذ يقال: أخطأ الطريق، وأخطأ الصواب. ومثلهما أخطأوا الرأي.

(٣) اللّبن: المضروب من الذهب هنا بدل الطين.

(٤) الأعراف: مفردها العرف وهو شعر عنق الدّابة.

(٥) النواصي: مفردها الناصية: وهي شعر مقدّم الرأس إذا طال.

قال الكِسائيّ: وكانت بِلقيس قد أعدّتْ مائةَ لَبِنةٍ من الذهب، ومائةَ لَبِنةٍ من الفضّة، ومائةَ غلام أمرد، لكل غلام ضفائرُ كضفائر النساء، ومائةَ وصِيفة مطموماتِ الشعر.

قال الثعلبيّ: وٱختلفوا في عددهم، فقال الكلبيّ: عشرة غِلْمانٍ وعشر جوارٍ. وقال مُقاتل: مائةُ وصيفٍ ومائةُ وصِيفة. وقال مجاهد: مائتا غلام ومائتا جارية. وقال وهب: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية. وألبستْ الغلمانَ ثيابَ الوصائف، وألبست الوصائفَ ثيابَ الغلمان.

وقال الثعلبيّ: قال وَهْبٌ وغيره من أهل الكتُب: عَمَدتْ بِلْقِيسُ إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجوارِيَ لباس الغِلمان، وألبست الغِلمان لباس الجوارِي، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفي آذانهم أقراطًا وشُنُوفًا[١] من ذهب مرصّعاتٍ بألوان الجواهر، وحَمَلت الجوارِي على خمسمائة رَمَكةٍ[٢]، والغلمانَ على خمسمائة بِرْذَوْنٍ[٣]، على كل فرس لجامٌ من ذهب مرصّع بالجواهر، وغواشِيها[٤] من الدِّيباج الملوّن، وبعثت إليه خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب، وخمسمائة لبِنةٍ من فضة.

قالوا: وعَمَدتْ إلى تاجٍ من ذهب مرصع بالجواهر، ومائةِ فرسٍ من جياد خيول اليمن، عليها براقع[٥] الحرير وأجلّة الديباج، وبعثت بحُقّة[٦] من ذهب فيها دُرّة غير مثقوبة، وجَزْعٌ[٧] يمانيّ مثقوبِ مُعْوَجّ الثُّقْب، [وقارورة][٨] وبعثتْ ذلك مع وزيرها، وكتبتْ جوابَ كتابِ سليمان وقالت: قد بعثتُ إليك بمائتَي وصِيفٍ ووصيفةٍ على سِنّ واحدة، وأحبّ أن تميّز ذكورَهم من إناثهم من غير أن تكشف عنهم، ودُرّةٍ غير مثقوبة تأمر من يثقُبها من غير أن تستعين بأحدٍ من الإنس والجنّ والشياطين، وجَزعٍ مثقوبٍ تُدخِله فيه خيطًا، وقارورةٍ تملؤها ماءً ما نزل من السماء ولا نبع من الأرض.

---

(١) الشنوف: مفردها شَنْف وهو ما يعلّق في أعلى الأذن، وأمّا ما يعلق في أسفلها فهو «قرط».

(٢) الرّمكة: الفرس.

(٣) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، وهو من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء، قويّ الأرجل عظيم الحوافر.

(٤) الغواشي: مفردها غاشية، وهي هنا الغطاء الذي يوضع على ظهر الدّابة.

(٥) البراقع: مفردها برقع وهو قناع للدّواب. (٦) الحقّة: وعاء صغير يوضع فيه الطيب.

(٧) الجزع: نوعٌ من الخرز فيه خطوط بيض وسود، أو هو ضربٌ من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان والحجر بجملته بلون الظفر.

(٨) زيادة يقتضيها الكلام الآتي.

فلمّا جاء الرسولُ ونظر إلى مَيْدان سليمانَ وحيطانه وما على شُرُفاتها من التِّيجان والخيول حول الميدان، دخل على سليمان بالجواري والغِلمان والحُقّة والقارورة، ولم يظهر الذهب والفضة والخيل لأنه استحقرها بالنسبة إلى ما رآه.

وقال الثعلبيّ: إنه كان مما بعثته خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب، وخمسمائة لبنةٍ من فضة. قال: فلمّا دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلْك سليمان ورأوْا الدوابّ تَرُوثُ[١] على لَبِنِ الذهبِ والفضة رمَوْا ما معهم من الهدايا. قال: وفي بعض الروايات أنّ سليمان لمّا أمر بفِراش الميدان بلَبِن الذَّهَب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر اللَّبِنات التي معهم. فلمّا رأت الرسل موضع اللَّبِنات خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يُتَّهموا بذلك، وطرحوا ما معهم في ذلك المكان.

قال: ثم مرّوا على الشياطين، فلمّا نظروا إليهم فزِعوا. فقِيل لهم: جُوزُوا[٢] فلا بأسَ عليكم. وكانوا يمرّون على كُرْدُوسٍ[٣] كُرْدوس من الجنّ والإنس والطير والسباع والوحش حتى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام.

قال الكِسائيّ: فقُدِّم الكتابُ إلى سليمان، فأخبر سليمانُ الرسولَ بما فيه قبل فتحه وقراءته، وميّز الوُصَفاء من الوصائف، وأمر دودةً فثقبتُ الدُّرّة وأدخلت الخيط في الجَزْع، وأمر أن تُساق الخيلُ حتى تعرَق وتُملأَ القارورةُ من عَرَقها، وأقبل على وزير بِلْقِيس وقال: ارجعْ إلى صاحبتك بما جئتَ به من الهديّة وقُلْ لها: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

قال: فعاد الوزير إليها بما جاء به من الهديّة وأخبرها بما كان من أمر سليمان. فقالت لقومها: هل علمتم الآن أنّ رأيي كان أصوب من رأيكم في ترك المحاربة؟ ومن أين لنا طاقةٌ بحرب نبيّ!! ثم جمعتْ أموالَها وكنوزها واستصحبت ذلك معها إلاّ عَرْشَها فإنّها تركتْه بقصرها وأغلقتْ عليه سبعةَ أبوابٍ وسارتْ إلى سليمان ومعها ملوكُ اليمن وأكابرُها وساداتُها، فبلغ ذلك سليمانَ.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى: شخصتْ[٤] بِلقيس إلى سليمان عليه السلام في اثنَيْ عشر ألفَ قَيْلٍ[٥] من ملوك اليمن، تحت يد كل قَيْل منهم مائة

---

(١) تروث: تلقي روثها، والرّوث: زبل الفرس وذوات الحوافر.
(٢) جوزوا: أي سيروا وامضوا في طريقكم. (٣) الكردوس: الكتيبة من الخيّالة.
(٤) شخصت: خرجت وسارت. (٥) القيل: القائد في لغة اليمن.

ألف. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: وكان سليمان رجلاً مَهِيبًا، لا يُبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه. فخرج يومًا فجلس على سرير مُلْكه فرأى رَهَجًا[1] قريبًا منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بِلقيس. قال: وقد نزلتْ منّا بهذا المكان؟ قالوا نعم. قال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: كما بين الكوفة والحِيرة قَدْرُ فرسخ.

قال: فأقبل حينئذ سليمان على جنوده فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩] قال: أريد أسْرَعَ من ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ـ وهو آصِف بن بَرْخِيا ـ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل: ٤٠]. قال: وكان عنده ٱسمُ الله الأعظم ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. ثم قال سليمان: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]. فأقبل عفريتٌ من الجنّ وقال: يا نبيّ الله، إنّ رجليها كحافر حمارٍ. قال له سليمان: إن كان ذلك كما قلتَ وإلا عاقبتُك. قال: يا نبيّ الله، أُريد أن أتّخذ لك صَرْحًا من قَوَارير، وأُجريَ فيه ماءً، وأُنزل فيه الحيتانَ والسمك، فلا يشكّ مَنْ رآه أنه ماءٌ جارٍ، فاتّخذه كذلك. فلمّا فرغ منه شكره. فقال: يا نبيّ الله، أُعفُ عني فإنّي كذبت على بِلقيس في رِجْلَيْها، فعفا سليمان عنه.

وأقبلت بلقيس فجعلتْ تنظر إلى الجنّ والإنس والطير والوحش وغيرهم، وهم قيامٌ لا يضرّ بعضهم بعضًا. فلما قاربتِ الصَّرْحَ الممرَّد[2] إذا بعَرْشها، فتعجّبت. فقيل: أهَكَذا عَرْشُك؟ قالت: كأنه هو، وعلمتْ أنّه هو، وأنه من قدرة الأنبياء.

قال: فلمّا أقبلتْ إلى الصرح حَسِبتْه لُجّة[3] وكشفتْ عن ساقَيْها. فناداها سليمان: إنه صرحٌ ممرّد من قوارير. فأرسلت ثوبها على ساقَيْها حياءً من سليمان، ثم ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ثم أسلم قومُها.

---

(١) الرّهج: الغبار أو ما أثير منه.

(٢) الصرّح الممرّد: يقال: مرّد الصّرح إذا سوّاه وماسّه فهو ممرّد، والصّرح: القصر وكل بناء عال.

(٣) اللجّة: معظم البحر وتردّد أمواجه.

قال الثعلبيّ: اختلف العلماء في أمرها بعد إسلامها، فقال أكثرهم: لمّا أسلمت بِلقيس أراد سليمان أن يتزوّجها. فلمّا همّ بذلك كَرِه ما رأى من كثرة شعر ساقَيْها وقال: ما أقبحَ هذا! فسأل الإنس: بِمَ يذهب هذا؟ فقالوا: بالموسى. فقالت المرأة: لم يَمَسَّنِي الحديدُ قطُّ، فكرِهه سليمان. فسأل الجنّ، فقالوا: لا ندري. فسأل الشياطين فمكروا عليه[١]، فلمّا ألحّ عليهم قالوا: نحن نحتال عليه حتى يكون كالفضّة البيضاء، فاتّخذوا لها النُّورةَ[٢] والحمّام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أوّل يوم اتُّخِذَت فيه النُّورة. وقال الكسائيّ في سياقة خبره: ثم قالت بِلقيس: يا نبيّ الله، أرى خاتَمَك منقوشًا، فما الذي عليه؟ قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قالت: ومَنْ محمد؟ قال: نبيّ يخرج في آخر الزمان، فآمنتْ بِلقيس به. ثم قال لها بعد إيمانها: أتحبِّين أنْ تَرجِعِي إلى بلادِك وما كنتِ فيه؟ قالت: لا، بل أكون معك من بعض نسائك، فتزوج بها سليمان عليه السلام.

هذا ما أورده الكسائيّ. وفيه زياداتٌ نقلها أبو إسحاق الثعلبيّ قد ذكرناها في أثناء القصّة ونبّهنا عليها ونسبناها إلى قائلها. وحكى الثعلبيّ أيضًا في هذه القصة زيادات قد رأينا إثباتها؛ فمن ذلك وَصْفُ قصرها وعَرْشِها.

ذكر صفة القصر الذي بنته بلقيس وصفة عرشها

قال أبو إسحاق الثعلبيّ قال الشعبيّ: يُروَى أنّ بلقيس لمّا ملكت أمرت فحُمِل إليها خمسمائة أسطوانة[٣] من الرُّخام، كلُّ أسطوانة خمسون ذراعًا، وأمرت بها فنُصبت على تلّ قريب من مدينة صَنْعاء[٤]، وخَطّت بين كلِّ أسطوانتين عشرةَ أذرع، ثم جعلت على ذلك سقفًا مبسوطًا بألواح الرُّخام وأُلْحِم بعضها إلى بعض بالرَّصاص حتى صارت كأنها لوحٌ واحد. ثم بنَتْ فوق ذلك قصرًا مربّعًا من آجُرّ وجعلت في كل زاوية من زواياه قُبّةً من ذهب مُشرفةً في الهواء، وفيما بين ذلك مجالسُ حيطانُها

(١) مكروا عليه: أخفوا معرفتهم وأنكروا.

(٢) النورة: حجر الكلس، أو أخلاط من الكلس والزرنيخ وغيره يستعمل لإزالة الشعر.

(٣) الأسطوانة: العمود.

(٤) صنعاء: كان اسمها في القديم أزال، فلمّا وافتها الحبشة، قالوا: نعم نعم فسمّي الجبل نعم أي انظر، فلمّا رأوا مدينتها وجدوها مبنيّة بالحجارة، حصينة فقالوا هذه صنعة ومعناها حصينة فسمّيت صنعاء بذلك، وقيل: سمّيت بصنعاء بن أزال بن يقطن بن عابر بن شالخ وهو الذي بناها، وهي بلد في خط الاستواء وهي من الاعتدال من الهواء بحيث لا يتحوّل الإنسان من مكان طول عمره صيفًا ولا شتاءً، وهي قصبة اليمن وأحسن بلادها، بينها وبين عدن ثمانية وستون ميلاً. «معجم البلدان ٣/ ٤٢٦».

من ذهبٍ وفضّةٍ مُرصّعةً بأنواع الجواهر الملوّنة، فكانت الشمس إذا طلعت على ذلك القصر ٱلتهبَ الذهبُ والجوهر فيكاد يُعْشي[١] العيونَ وتحَارُ فيه الأبصار. وجعلتْ بابَ ذلك القصر مما يلي المدينةَ بدَرَج من الرخام الأبيض والأحمر والأخضر، وفي جانبه حُجُرًا لحُجّابها وبوّابيها وحَرَسها وخَدَمها وحَشَمها[٢] على قدرِ مراتبهم.

قال: وأمّا صفة عَرْشها فكان مُقَدَّمُه من ذهب مفصَّص بالياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، ومؤخَّرُه من فضّة مكلّل بأنواع الجواهر، وله أربعُ قوائم: قائمةٌ من ياقوت أحمَر، وقائمةٌ من ياقوت أصفَر، وقائمةٌ من زُمُرُّد أخضَر، وقائمةٌ من دُرٍّ أصفَر، وصفائح السرير من ذهب. وعليه سبعةُ بيوت، على كل بيت بابٌ مُغْلَقٌ، وكان ثمانين ذراعًا في ثمانين ذراعًا، وطولُه في الهواء ثمانون ذراعًا، فذلك قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] أيْ سرير ضخم.

ذكر خبر وادي القِرَدَة

قال الكسائيّ: وبينما سليمان عليه السلام مع بِلْقِيسَ ذاتَ يوم إذ قال لها: أكلُّ اليمن في طاعتك؟ قالت: نعم، إلاّ وادٍ عن يمين سبأ، فيه أشجار ومياه غلبت عليه القِرَدَةُ وأزاحوا عنه سُكّانه، وهو وادٍ طويلٌ عريضٌ، وهم في كثرة، وإنهم على سُنَن[٣] اليهود لا يتبايعون[٤] يوم السبت. فبعث سليمانُ العُقَابَ ليأتيَه بخبرهم. فطار إلى الوادي وعاد إليه قبل أن يقوم من مُقامه ذلك، وأخبره بكثرتهم. فركب سليمان الريحَ على بِساطه في قُبّة القوارير، وسار في نفر من بني إسرائيل حتى نزل على شَفِير[٥] الوادي، فعلم القِرَدة أنه سليمان، فبادروا إلى طاعته وأتَوْه، وقالوا: يا نبيّ الله، إنّا من نَسْل اليهود الذين ٱعتدَوْا في السبت، ونحن على دين موسى نعمل بأحكام التوراة، وسألوه أن يُقِرّهم في ذلك الوادي، فأقرّهم فيه وكتب لهم سِجِلاًّ[٦] على لَوْح من نُحاس وجعله في عُنق كبيرهم يتوارثونه، ثم ٱنصرف عنهم. هكذا نقل. والصحيح أنّ الذين ٱعتدَوْا في السبت وغيرهم ممن مُسِخ لم يُعْقِبوا. وفي الصحيح: إنّ الله لم يجعل لمَسِيخٍ[٧] نَسْلاً.

---

(١) يعشي العيون: يذهب ببصرها، والأعشى: ضعيف البصر.
(٢) الحشم: خاصة الرّجل من أهل وعبيد وجيرة.
(٣) سنن اليهود: شرائعهم وأحكامهم واعتقادهم.
(٤) يتبايعون: يعقدون البيع، أي لا بيع في ذلك اليوم ولا شراء.
(٥) شفير الوادي: ناحيته من أعلاه.
(٦) السّجل: الكتاب الذي تدوّن فيه العهود والأحكام ونحوها.
(٧) المسيخ: أي الممسوخ الذي تحوّل عن صورة الإنسان إلى الحيوان كالقرد والخنزير.

ذكر خبر الرجل الذي قُبِض بأرض الهند

قال الكسائيّ: كان سليمان عليه السلام قد سأل الله تعالى أن يُرِيَه مَلَك الموت فأراه إيّاه، وكان يعوده ويأتيه في كل خميس. فأتاه في بعض الأيام على صُورة البشر، وجعل يطيل النظر إلى رجل في مجلس سليمان حتى أرعبَ ذلك الرجل. فلمّا فارقه مَلَك الموت قال: يا نبيّ الله، لقد فزّعني هذا الرجل الذي كان في مجلسك من نظره إليّ، فمَنْ هو؟ قال: هو مَلَك الموت. قال: يا نبيّ الله أسألك أن تأمُرَ الريح أن تحملني إلى أرض الهند، فأمرها سليمان فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند. ثم جاء مَلَك الموت إلى سليمان، فقال له: قد كنتَ اليوم عندي وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا شافنًا حتى خاف منك. قال: يا نبيّ الله، إني كنتُ قد أمرت بقبض روحه في موضع من أرض الهند في هذا اليوم، فلمّا رأيته عندك عجبتُ متى يصل إلى الهند، فإذا الريح قد جاءت به، فألقتْه في البقعة التي أمِرتُ بقبض رُوحه فيها، فقبضتُ روحه هناك. فعجِب سليمان عليه السلام من ذلك.

ذكر خبر الفتنة وذهاب خاتَم سليمان عليه السلام ورجوعه إليه

قال الكسائيّ: كان سليمان عليه السلام كلّما نزل بمنزلٍ من البراري بنتِ الجنّ والشياطين له قصرًا بديعًا، فإذا تحوّل عنه خرّبوه. وكان له قصر على ساحل البحر من بناء الجنّ، فأمرهم أن يتركوه على حالته. فجاء سليمان إلى ذلك القصر فنزله، وكان صخر الجنيّ معه وهو شديد الحرص على أن يسلبه الخاتم؛ لأنه كان قد علِم أن مُلْكه في خاتَمه. وكان لسليمان جاريةٌ اسمها «الأمينة» فكان إذا أراد الدخول إلى الخَلْوة بنسائه يسلِّم الخاتَم إليها، فإذا اغتسل أخذ خاتمه منها، وكذلك إذا أراد الوضوء. فجاء سليمانُ في بعض الأيام فنزل ذلك القصر وأراد الوضوء، فدفع الخاتَم إلى الجارية. فجاء صخرٌ وقد ألقَى على نفسه صورة سليمان، فقال للجارية: هاتِ الخاتَمَ، فناولته إيّاه وهي لا تعلم. فلمّا صار الخاتَمُ في يد صخر لم يستقرّ في يده لأنه شيطان، فرماه في البحر، فجاء حُوت بإذن الله فابتلعَه. ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيّه ومعه الناس وهم يظنّون أنه سليمان؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صٓ: ٣٤] قيل: الجسد هو صخر الجني.

قال: وخرج سليمان من الخلاء وقد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتَم، فقالت الجارية: أعوذ بالله منك، قد فعتُ الخاتم إلى سليمان. فعلم أن الله قد

أوقع به البليّة، فخرج يريد القصر ويقول للناس: أنا سليمان، والناسُ يهزؤون بقوله ويقولون: لستَ سليمان أنت صخر الجنّيّ. فجعل سليمان يدور على جميع الناس وهم على كلمة واحدة في إنكاره، وجعل يدور في القرى ويقول: أنا سليمان والناس يَشْتُمونه حتى لزِق بطنُه بظهره من الجوع، فقال: إلٰهي إنّكَ ٱبتليتَ كثيرًا من الأنبياء ولم تَحرِمهم رِزقك. إلهي إنّي تائب إليك من خطيئتي. فلم يَزَلْ سليمان كذلك أربعين يومًا لم يَطْعَمْ شيئًا، ثم وجد قرصةً[1] يابسةً مُلقاةً، فأخذها ولم يقدِر على أكلها ليُبْسها، فأقبل إلى ساحل البحر وقعد يبُلّ القرصة فٱستلبتْها الأمواج من يده. فقال: إلٰهي رزقتَني بعد أربعين يومًا قُرصةً يابسة نزلتُ حتى أبلّها فٱستلبتْها الأمواج من يدي وأنت المتكفّل بأرزاق العباد، وأنا عبدك المذنب، فارزقني فأنت الرزّاق الكريم. ثم جعل يمشي على الساحل وهو يبكي، فإذا هو بقوم يصطادون السمك، فسألهم شيئًا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا له: انْصَرِفْ عنّا، فما رأينا أوحش من وجهك. قال: ما عليكم من وجهي إذا أطعمتموني؟! قالوا: وحقِّ سليمان إنْ قُمْنا إليك لنُوجعنّك ضربًا إن لم تَرُحْ[2] عنّا. قال: يا قوم، فأنا والله سليمانُ. فضربه رجلٌ منهم على رأسه وقال: أتكذِب على نبيّ الله! فبكى حتى بكت الملائكة لبكائه ورحِمه أولئك القوم وناولوه سمكةً وأعطَوْه سِكّينًا، فشقّ بطنها ليصلحها ويَشويَها ويأكلَها، فخرج الخاتَمُ من بطنها فغسَله وجعله في إصبعه، وعاد إليه حسنُه وجماله، فوضع السمكة وسار يريد قصره، فجعل يمرّ بتلك القُرَى، فكُلٌّ من كان قد أنكره عَرَفه وسَجَد له. فبلغ ذلك صخرًا الجنّيّ فهربَ. وعاد سليمان إلى قصره وٱجتمع له الإنس والجن والشياطين والسباع والهوامّ كما كانوا أوّل مرّة. فبعث العفاريت في طلب صخر فأتَوْه به، فأمر أن ينقُروا له صخرتين وصفّده[3] بالحديد وجعله بينهما وأطبقهما عليه وختم عليه بخاتَمه وطرحه في بُحيرة طَبَريّة. فيقال: إنه فيها إلى يوم القيامة. ثم أمر الله الرياح أن تَحشُر له سائر الشياطين فحُشِرتْ له، فصفّد مَرَدَتهم بالحديد وحبسهم. هذا ما أورده الكِسائيّ في قصّة الفتنة، وهو أولى ما أورده وأشبه ما نقل.

---

(١) القرصة: خبزة صغيرة مبسوطة مدوّرة.

(٢) قوله: (لنوجعنك ضربًا إن لم تَرُح عنا) راح يروح بمعنى مطلق الذهاب لهجة شامية مستعملة اليوم ويظهر أنها كانت مستعملة في زمن المؤلف ايضًا. أو صوابه (تبرح عنا) ففي كتب اللغة برح مكانه زال عنه. فهو متعدٍ بنفسه. ونقل صاحب أقرب الموارد أنه يتعدى بمن أيضًا. فقوله هنا (تبرح عنا) إما أن تكون (عنا) محرفة من (منا) أي من مكاننا. أو أن فعل (تبرح) قد ضمن معنى فعل زال عنه يزول فعدى تعديته فمعنى (تبرح عنا) (تزل عنا) والتضمين بشروطه طريق مطروق، واستعمال مألوف.

(٣) صفّده: قيّده بالأغلال.

وحكى الثعلبيّ رحمه الله في خبر الفتنة قال قال محمد بن إسحاق قال بعض العلماء عن وهب بن مُنَبِّه قال: سمع سليمان عليه السلام أنّ في جزيرة من جزائر البحر رجلاً يقال له «صَيْدون» ملك عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس عليه سبيل لمكانه في البحر. وقال غيره: إن هذه الجزيرة مسيرة شهر في مثله، وفيها عجائب كثيرة وأشجار وأنهار، وفي وسطها مجلس على عمد من مرمر[١] ملوّن، والمجلس من ذهب مفصل بأنواع الجواهر يُشرف على جميع الجزرة. وقيل: إنه كان ساحرًا، فكانت الجنّ تُطيف[٢] به وتعمل له العجائب، فدُلّ سليمان عليها فغزاه.

نَرْجِع إلى سياق الثعلبيّ قال: فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والإنس، فقتل مَلِكها وسَبَى ما فيها، وأصاب فيما أصاب بنتَ الملك وٱسمُها «جرادة» لم ير الناسُ مثلَها حسنًا وجمالاً، فٱصطفاها سليمان لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلّة ثقة، وأحبّها سليمان حبًّا لم يحبّه شيئًا من نسائه، وكانت منزلتُها عنده منزلةً عظيمة، وكان لا يذهَب حزنُها ولا ترقأ[٣] دمعتُها على أبيها. فشقّ ذلك على سليمان وقال لها: ويحِك! ما هذا الحزنُ الذي لا يذهَب، والدمع الذي لا يرقأ! قالت: إني أذكره وأذكر مُلْكه وما كان فيه وما أصابه فيَحزُنني ذلك. قال سليمان: فقد بدّلك الله مُلْكًا أعظَمَ من ملكه، وسلطانًا أعظَمَ من سلطانه، وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك كلّه. قالت: إنّ ذلك كذلك، ولكن إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن. ولو أنك أمرت الشياطين فصوّروا لي صورته في داري أراها بُكرةً وعشيّة لرجوتُ أن يذهب ذلك، وأن يسكُنَ عنّي بعضُ ما أجد في نفسي. فأمر سليمان الشياطين أن يمثّلوا صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئًا، فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا رُوحَ فيه. فعَمَدتْ إليه حين صنعوه فأزّرتْه[٤] وقمّصته[٥] وعمّمته[٦] بمثل ثيابه التي كان يَلْبَس. ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو على ذلك التمثال هي وولائدُها[٧] فيسجُدْن

---

(١) المرمر: نوع من الرّخام شديد الصلابة والصفاء.
(٢) تطيف به: تأتيه، أو تدور وتحوم.
(٣) لا ترقأ: لا تجفّ ولا تنقطع.
(٤) أزّرته: ألبسته الإزار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.
(٥) قمّصته: ألبسته القميص.
(٦) عمّمته: ألبسته العمّة، وهي كورة من القماش توضع على الرأس.
(٧) الولائد: مفردها وليدة وهي الأمة.

له كما كانت تصنع ذلك في مُلكه، وتفعل ذلك بكرةً وعشيّة وسليمانُ لا يعلمَ بشيء من ذلك أربعين يومًا. وبلغ ذلك آصِفَ بن بَرْخِيَا، وكان صدّيقًا، وكان لا يُرَدّ من باب سليمان متى أراد دخوله من ليل أو نهار، فأتاه فقال: يا نبيّ الله، كَبِرتُ سنّي، ودقّ عظمي، ونَفِدَ عمري، وقد حان منّي الذهاب، وقد أحببتُ أن أقوم مقامًا قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأُثني عليهم بعلمي، وأُعَلِّم الناس ما يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعلْ. فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيبًا، فذكر مَنْ مضى من أنبياء الله وأثنى على كلٍّ منهم بما فيه، وذكر ما فضّلهم الله به حتى ٱنتهى إلى سليمان، فقال: ما كان أحلمَك في صغرك، وأورعَك وأفضلَك في صغرك، وأحكمَ أمرَك في صغرك، وأبعدَك من كل ما تكره في صغرك، ثم انصرف. فوجدَ[1] سليمان في نفسه من ذلك. فلمّا دخل سليمان داره أرسل إلى آصِف بن بَرْخِيَا فقال: ذكرتَ مَنْ مضى من أنبياء الله، وأثنيتَ عليهم خيرًا في كل زمانهم، وفي كل حالٍ من أمورهم؛ فلما ذكرتَني جعلت تُثني علي بخير في صِغَري وسكتّ عما سوى ذلك من أمري في كِبَرِي، فماذا أحدثتُ في آخر أمري؟ قال: لأنّ غيرَ الله يُعْبَد في دارك أربعين يومًا في هَوَى ٱمرأة. قال سليمان: في داري! قال: نعم في دارك. فٱسترجع[2] سليمانُ ثم دخل داره فكسر ذلك الصنم، وخافت تلك المرأة. ثم أمر سليمان بثياب الطُّهر فأُتِيَ بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تَمَسُّها ٱمرأة ذاتُ دم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد ففُرش له، ثم أقبل تائبًا إلى الله حتى جلس على ذلك الرَّماد تذلُّلاً لله تعالى وتضرُّعًا إليه، يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره، فلم يزل ذلك دأبَه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره. وكان له وَليدة يقال لها «الأمينة»، فكان إذا دخل لحاجته أو أراد إصابة ٱمرأة من نسائه وضع خاتَمه عندها حتى يتطهّر، فوضعه يومًا من الأيام عندها ثم دخل لقضاء حاجته، فأتاها صخر الجِنّيّ على صورة سليمان لا يُنْكَر منه شيء، فقال لها: يا أمينة، خاتَمي؛ فناولته إياه، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت[3] عليه الجنّ والإنس والطير. وخرج سليمان فأتى الأمينةَ وقد تغير عن حلْيته وهيئته عند كل مَنْ يراه. فقال: يا أمينة. قالت: ومن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود. قالت: كذبتَ لستَ سليمان، وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سريره في مُلكه، فعرف سليمان أنّ خطيئته قد أدركتْه، فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل

---

(١) وجد في نفسه: حزن أو غضب. (٢) استرجع: قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٣) عكفت عليه: أقبلت عليه وأمّن مجلسه.

فيقول: أنا سليمان بن داود، فيَحْثُون[١] عليه التراب ويسبُّونه ويقولون: أُنظروا إلى هذا المجنون يزعم أنه سليمان. فلمّا رأى سليمان ذلك عمَد إلى البحر، فكان ينقُل الحِيتان لأصحاب البحر منه إلى السوق فيعطونه كلَّ يوم سمكتين، فإذا أمسَى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوي الأخرى فيأكلها. فمكث كذلك أربعين صباحًا عدّة ما كان ذلك الوثن في داره.

قال: وأنكر آصِف وعظماءُ بني إسرائيل حُكْم عدوّ الله الشيطان في تلك المدّة. فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم من ٱختلاف حكم سليمان بن داود ما رأيتُ؟ قالوا نعم. قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه وأسألهنّ هل أنكرنَ منه في خاصّة أمره ما أنكرناه في عامّة أمرِ الناس. فدخل على نسائه فقال: ويحكنّ! هل أنكرتنّ من أمر نبيّ الله سليمانَ ما أنكرناه؟ فقلن: أشدّ وأعظم، ما يدع ٱمرأة منّا في دمها، ولا يغتسل من جنابة. فقال آصِف: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين. ثم خرج إلى بني إسرائيل فقال: ما في الخاصّة أعظمُ ممّا في العامّة. فلمّا مضت أربعون صباحًا طار الشيطان عن مجلسه ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتمَ فيه، فٱبتلعته سمكة وأخذها بعض الصيادين، وقد عمِل له سليمان صدر يومه حتى إذا كان آخرُ النهار أعطاه سمكتيه، فأُعطيَ السمكة التي ٱبتلعت الخاتم، وحمل سليمان سمكتيه فباع التي ليس فيها الخاتَمُ بالأرغفة، ثم عَمَد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها، فاستقبله الخاتم من جوفها فأخذه، فجعله في يده ووقع ساجدًا لله تعالى، وعكفت عليه الطير والوحش والجنّ. وأقبل إليه الناس ورجع إلى مُلكه وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين بإحضار صخر فأدخله في صخرة عظيمة، ثم شدّ عليه أخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقُذف في البحر.

هذا حديث وَهْب. وقال السُّدِّيّ في سبب الفتنة: كان لسليمان مائةُ ٱمرأة وكانت منهن ٱمرأةٌ يقال لها «جَرَادةُ» وهي آثر[٢] نسائه وآمنهنّ عنده، وكان إذا أجنبَ[٣] أو أتى حاجته نزع خاتَمه ولم يأتمن عليه غيرَها. فجاءها يومًا من الأيام فقالت له: إنّ أخي بينه وبين فلان خصومة، وإني أُحبّ أن تقضيَ[٤] له إذا جاءك. قال نعم، ولم يفعل؛ فٱبتُليَ بقوله وأعطاها خاتَمَه ودخل المَذْهَب[٥]، فخرج الشيطان في صورته فقال لها: هاتي الخاتم، فأعطته إيّاه، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج

(١) يحثون التراب: يهيلون وينثرون.
(٢) آثر نسائه: أخصّهم منزلةً لديه.
(٣) أجنب: صار جُنبًا من النكاح.
(٤) تقضي: تفصل وتحكم.
(٥) المذهب: المتوضأ.

سليمان بعده فسألها أن تُعطيَه الخاتم فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا! وخرج من مكانه. ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يومًا، فأنكر الناس حكمه، فاْجتمع قرّاء بني إسرائيل وعلماؤهم فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا: إنّا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمانَ فقد ذهب عقلُه وأنكرنا حكمه، فأبكى النساءَ عند ذلك. فأقبلوا يمشون حتى أتَوْه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوها، فطار الشيطان من بين أيديهم حتى وقع على شُرْفة والخاتم معه حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم في البحر فاْبتلعه الحوت. فأقبل سليمان في حالته التي كان فيها حتى اْنتهى إلى صيّادين وهو جائع فاستطعمهم من صيدهم وقال: إنّي سليمان بن داود. فقام إليه بعضهم فضربه بعصاه فشجّه[1]. فجعل يغسِل دمه وهو على شاطىء البحر، فلام الصيّادون صاحبه الذي ضربه وقالوا: بئسما صنعتَ حيث ضربته. فقال: إنه زعم أنه سليمان بن داود! فأعطاه سمكتين. فقام إلى ساحل البحر فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه ولبسه وردّ الله تعالى عليه مُلكه وبهاءه، وجاءت الطير فعكفت عليه، فعرفه القوم فقاموا يعتذرون إليه مما صنعوا. فقال: ما أؤاخذكم على عُدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم، هذا ما كان لا بدّ منه. وجاء حتىٰ أتى مُلكه، فأخذ الشيطانَ فجعله في صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختَمه بخاتمه، ثم أمر به فأُلقيَ في البحر، وهو فيه كذلك[2] إلى يوم القيامة.

قال: وفي بعض الروايات أنّ سليمان لمّا اْفتُتِن سقط الخاتم من يده، فأخذه سليمان فأعاده إلى يده، فسقط من يده فلما رآه لا يثبت في يده أيقن بالفتنة. وقال آصف لسليمان: إنّك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك أربعةَ عشر يومًا؛ ففِرَّ[3] إلى الله تعالى تائبًا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير في عملك وأهل بيوتك بسيرتك حتى يتوب الله عليك ويردّك إلى مُلكك. ففرّ سليمان هاربًا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم ووضعه في يده فثبت. وإنّ الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [صۤ: ٣٤] هو آصف كاتب سليمان، وكان عنده علمٌ من الكتاب. فأقام آصِف في مُلك سليمان يسير سيرته ويعمل بعمله أربعةَ عشر يومًا، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبًا إلى الله تعالى، وردّ الله تعالى عليه مُلكه، وقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيّه وأعاد الخاتم في يده فثبت فيها.

(١) شجّه: شقه وأدماه.
(٢) في الأصل: وهو حيٌّ كذلك إلى الساعة، والتصويب عن الثعلبي.
(٣) فرَّ إلى الله تائبًا: أي عجّل بالتوبة بعد المعصية.

قال أبو إسحاق: وقيل في سبب ذلك ما رُوِيَ عن سعيد بن المسيِّب[١]: إنّ سليمان ٱحتجب عن الناس ثلاثةَ أيّام، فأوحى الله تعالى إليه أنْ يا سليمان ٱحتجبتَ عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تُنصف مظلومًا من ظالم. وذكر حديث الخاتم وأَخْذ الشيطان إيّاه كما تقدّم، وقال في آخره: قال عليّ: فذكرت ذلك للحسن فقال: ما كان الله ليسلّطه على نسائه.

قال: وقال بعض المفسّرين: كان سبب فتنة سليمان أنه أُمِر ألاّ يتزوّج ٱمرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوّج من غيرهم فعُوقب على ذلك.

وقيل: إن سليمان لمّا أصاب ٱبنة الملك صَيْدون أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت وٱمتنعت، فخوّفها فقالت: إنْ أكرهتني على الإسلام قتلتُ نفسي. فخاف سليمان أن تقتل نفسها، فتزوّج بها وهي مشركة أربعين يومًا، وكانت تعبد صنمًا لها في خُفْية من سليمان إلى أن أسلمتْ، فعُوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يومًا.

قال وقال الشعبيّ[٢] في سبب ذلك: إنّ سليمان وُلد له ولد، فٱجتمعتِ الشياطين وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ولد لم ننفك[٣] مما نحن فيه من البلاء والسُّخْرة[٤]، وما لنا إلا أن نقتل ولده أو نَخْبَله[٥]. فعلم سليمان بذلك، فأمر السحاب أن يأخذ ٱبنه، وأمر الريح فحملته، وغدا ٱبنُه في السحاب خوفًا من مضرّة الشيطان. فعاقبه الله تعالى بخوفه من الشيطان، ومات الولد فأُلقِيَ ميّتًا على كرسيّه، فهو الجسد الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صَ: ٣٤].

---

(١) سعيد بن المسيّب: هو أبو محمد سعيد بن المسيّب بن حزن بن مخزوم القرشي المدني، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان سيّد التابعين، جمع بين الفقه والحديث والزّهد والعبادة والورع «وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥».

(٢) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، كان نديم عبد الملك بن مروان وسفيره إلى ملك الروم، وهو من رجال الحديث الثقات، وكان فقيهًا وشاعرًا، مات سنة ١٠٣هـ «الأعلام ٣/ ٢٥١».

(٣) لم ننفك: لم نتخلّص.

(٤) السّخرة: الاستعباد أو العمل بلا أجر.

(٥) نخبله: أي نفسد عقله.

ذكر عزم سليمان عليه السلام أن يطوف على نسائه

قال الكسائيّ: كان سليمان عليه السلام قد أُعطِيَ من القوّة ما إنه يأتي على خمسمائة حرّة وسبعمائة سُرِّيَّة[1]. فقال في يوم: لأطوفنّ على ألف امرأة وأجامعهنّ كلهنّ، فتحمل كل واحدة منهنّ بغلامين فارِسَيْن يركبون الخيل ويغزون البلاد، ولم يقل إن شاء الله. وطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ غير واحدة، حملتْ بنصف إنسان، قيل: إنه الجسد الذي أُلقيَ على كرسيّ سليمان. والله تعالى أعلم.

والذي ثبت من هذه القصة ما رويناه من صحيح البخاريّ بسندنا المتقدّم إليه. قال البخاريّ[2] حدّثنا خالد بن مَخْلَد[3] حدّثنا مُغيرة بن عبد الرحمٰن[4] عن أبي الزِّناد[5] عن الأعرج[6] عن أبي هريرة[7] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «قال سليمان بن داود لأطوفنّ الليلةَ على سبعين امرأةً تحمِل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبُه إن شاء الله فلم يقل، ولم تحمِل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا إحدى شِقَّيه فقال النبيّ ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله» قال شُعَيب وابن أبي الزناد تسعين وهو أصح.

ذكر وفاة بلقيس زوجة سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: أقامت بِلقيس عند سليمان سبعَ سنين وسبعةَ أشهر ثم تُوُفِّيت، فدفنها بمدينة تَدْمر من أرض الشام تحت حائط، ولم يعلم أحد بموضع قبرها إلى أيّام الوليد بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) السُّرِّيَّة: الجارية المملوكة.

(٢) البخاري: هو محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب الجامع الحصيح المعروف بصحيح البخاري، مات سنة ٢٥٦هـ «الأعلام ٦/ ٣٤».

(٣) هو خالد بن مخلد القطواني الكوفي، أبو الهيثم، والقطواني بثلاث فتحات، نسبة إلى قطوان موضع بالكوفة، محدّث صدوق توفي سنة ٢١٣هـ «الكاشف ١/ ٢٠٨».

(٤) هو المغيرة بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الحزامي المدني، محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ١٤٩».

(٥) هو عبد الله بن ذكوان، أبو عبد الرحمٰن، الإمام أبو الزّناد المدني محدّث ثقة ثبت مات فجأة في رمضان سنة ١٣١هـ «الكاشف ٢/ ٧٥».

(٦) الأعرج: هو عبد الرحمٰن بن هرمز، أبو داود، محدّث ثقة، كان يكتب المصاحف، توفي في ثغر الإسكندرية سنة ١١٧هـ «الكاشف ٢/ ١٦٧».

(٧) أبو هريرة: هو عبد الرحمٰن بن صخر الدّوسي، كان حافظًا متثبّتًا ذكيًا مفتيًا صاحب صيام وقيام، ولي أمر المدينة عدّة مرات، توفي سنة ٥٧هـ «الكاشف ٣/ ٣٤١».

قال موسى بن نُصَيْر[١]: بُعِثْتُ في أيّام الوليد إلى مدينة تَدْمُر[٢] ومعي العباس بن الوليد بن عبد الملك، فجاء مطر عظيم فٱنهار بعضُ حائط المدينة، فٱنكشفت عن تابوت طولُه ستون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا مُتَّخِذ من حجر كالزَّعْفران مكتوبٍ عليه: «هذا تابوتُ بِلقيس الصالحة أسلمت لثلاثَ عشرة سنة خلت من مُلْك سليمان، وتزوّج بها يوم عاشوراء سنة أربع عشرة خلت من مُلكه، وتوفيت يوم الاثنين من ربيع الأوّل سنةَ إحدى وعشرين مضت من مُلكه، وقد دُفنت ليلاً في حائط مدينة تدمُر، ولم يطّلع على دفنها إنس ولا جنّ ولا شيطان». قال: فرفعنا غطاء التابوت وإذا هي غضّة[٣] كأنها دُفنت ليلَتها. فكتبنا بذلك إلى الوليد فأمر بتركه في مكانه، وأن يُبنَى عليه بالصخر والمرمر، ففعلنا ذلك.

ذكر خبر وفاة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائيّ: مَلَك سليمان شرق الأرض وغربها وطاف أقطارها حتى ٱنتهى إلى السَّدّ[٤] الذي هو بالقُرب من جبل قاف[٥]، فوقف هناك ثم قال للريح: هل جريتِ هاهنا قطّ؟ قالت: لا يا نبيّ الله، وإنه آخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى. ثم أمر الريح فاحتملته حتى نظر إلى التِّنِّين[٦] المُحْدِقِ بالعالم، فسار أيامًا على طرَف من

(١) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمٰن بن زيد اللخمي، فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، نشأ في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية، مات سنة ٩٧هـ «الأعلام ٧/ ٣٣٠».

(٢) تدمر: مدينة قديمة معناها بالعبرانية «النخيل» وكانت عامرة ذات تجارة واسعة وهي واقعة بطرف بادية الشام في الشمال الشرقي من دمشق، تمرّ عليها القوافل بين الشّام والعراق من القرن السادس قبل الميلاد، وهي بين القريتين والرّحبة، قال صاحب حماة: وهي من أعمال حمص من شرقيها، وغالب أرضها سباخ، وبها آثار عظيمة أزليّة من الأعمدة والصخور، ولها سورٌ وقلعة «انظر صبح الأعشى ٤/ ١١٨».

(٣) الغضّة: النّظرة الطّريّة.

(٤) السّد: هو السدّ الذي بناه الإسكندر ذو القرنين، وهو المعروف بسدّ يأجوج ومأجوج وسيأتي ذكره في آخر هذا الكتاب..

(٥) جبل قاف: جبل مذكورٌ في القرآن الكريم، ذهب المفسّرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض، قالوا: وهو من زبرجدة خضراء، وإن خضرة السّماء من خضرته، قالوا: وأصول الجبال كلّها من عرق جبل قاف، ذكر بعضهم أنّ بينه وبين السّماء مقدار قامة رجل، وقيل بل السّماء مطبقة عليه، وأن الشمس تغرب فيه وتطلع منه وهو الستار لها عن الأرض وتسميه القدماء البرز «معجم البلدان ٤/ ٢٩٨».

(٦) التنّين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، يقال: له مخالب أسد وأجنحة نسر وذنب أفعى، ويُتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا.

أطرافه فإذا هو بملَك، فقال: يأبن داود إن هذا التنّين محيط بالعالم الذي هو مسيرة خمسمائة عام. ثم أرتفع إلى مستقرّ الغمام ونظر إلى مجمع القَطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار فإذا هو بملَك يقول: اللهم أعطِ كل مُنفقٍ خَلَفًا[١] وكل ممسك[٢] تَلَفًا. ثم أمر الريح أن تحطّ بساطه إلى الأرض المقدّسة، وكانت مدّةُ غيبته مائة وثلاثين يومًا. وكان في طول سَفْرته هذه يرى شخصًا بين يديه يسبق كل شيء، فسأله من هو؟ فأخبره أنه ملَك الموت، فوقعت عليه الرِّعدة[٣] وتغيّر لونه وجعل أبنه رَحْبَعَم خليفتَه، وأوصى الناس بالسمع والطاعة له. وأخذ في الصوم والصلاة طول ليله، فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيها نبات حسن يتسلّى به. فخرج في بعض الأيام فرأى نبتًا غريبًا لم يكن قد رآه قبل ذلك اليوم. فقال: أيها النبت ما أنت؟ قال: أنا الخَرْنوب[٤] الذي لا أنبت في موضع إلا خرّبته. فقال سليمان: فما تصنع هاهنا فلستَ من نبات الرياض بل من نبات البراري؟ قال: قد أمرت أن أنبت هاهنا. فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نباته. فقال له سليمان: ألم آمُرْك أن تلحقَ بموضعك من البراري! قال الخرنوب: يا نبيّ الله، إنّ هذا الموضع سَيخْرَب عن قريب، فسكت سليمان. فلما ضعُف عن العبادة توكّأ على عصاه. فبينا هو في محرابه متوكئًا قائمًا يتلو الزَّبور والتوراة إذ أتاه ملك الموت، فرفع رأسَه إليه فناوله شمّةً فشمّها فمات. وبقي سليمان على حالته لم يسقط إلى الأرض ولم يتحرّك ولا مال. فهابوه وما جَسَروا أن يتقدّموا إليه. وقالوا: إنه لم يمتْ، ولم تزل الإنس والجنّ والشياطين والوحش والطير في الطاعة والأعمال حتى مضت سنة، ثم وقعت الأرَضة[٥] في أسفل العصا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤] فخرّ سليمانُ عند ذلك كالخشبة اليابسة، وكانت الجنّ قبل ذلك تدّعي علم الغيب؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] أي في تلك السنة في نقل الصخور والبنيان وغير ذلك.

وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في خبر وفاة سليمان عليه السلام: قال أهل التاريخ: لبِث سليمان في مُلكه بعد أن ردّه الله عليه تعمل له الجنّ ما يشاء

(١) الخلف: العوض عمّا أنفق. (٢) الممسك: البخيل.

(٣) الرّعدة: اضطراب الجسم من حمّى أو خوف أو غيرهما.

(٤) الخرنوب: شجر مثمر من الفصيلة القرنيّة، ثماره قرونٌ تؤكل، وتعلفها الحيوانات.

(٥) الأرضة: دويبة بيضاء تشبه النملة، تظهر في أيّام الربيع، أو دويبة تأكل الخشب ونحوه.

من محاريب[١] وتماثيل وجِفان[٢] كالجوابي وقدور راسيات وغير ذلك، ويعذّب من الشياطين مَن يشاء، ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحبّ. فأتاهم إبليس وهم في العمل فقال: كيف أنتم؟ فقالوا: ما بنا طاقة لما نحن فيه. فقال لهم: تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فُرَّاغًا لا تحملون شيئًا؟ قالوا نعم. قال: فأنتم في راحة. فأبلغت الريح ذلك سليمان، فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين. فقال لهم إبليس: تعملون بالليل؟ قالوا لا. قال: فأنتم في راحة. فأبلغت الريح ذلك سليمان، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار. فأتاهم إبليس فسألهم فشكَوْا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار. فقال لهم إبليس: وفَعَلَها؟ قالوا: نعم. قال: فتوقّعوا الفرج، فقد بلغ الأمر منتهاه. فما لبِثوا إلا يسيرًا حتى مات سليمان.

قال ابن عبّاس وغيره: كان سليمان يتحنّث[٣] في بيت المَقْدس السنةَ والسنتين والشهرَ والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر، يدخله ومعه طعامه وشرابهُ، فدخله في المرّة التي مات فيها. قال: وكان بدء ذلك أنه لم يكن يومًا يُصبِحُ فيه إلا نبتَ في بيت المقدس شجرةٌ فيسألها سليمان ما اسمُكِ؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا. فيقول: لأي شيء تصلُحين؟ فتقول: لكذا وكذا؛ [فيأمر بهَا فتُقْطَع][٤]، فإن كانت تنبت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا. فبينا هو يصلّي ذات يوم إذ رأى شجرةً بين يديه، فقال لها: ما اسمكِ؟ فقالت: الخَرْنوبةُ. قال: ولأيّ شيء نبتِّي؟ قالت: لخراب هذا المسجد. فقال سليمان: ما كان الله ليُخربَه وأنا حيّ، أنتِ التي على وجهكِ هلاكي وخرابُ بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط له، ثم قال: اللهمّ عَمِّ عن الجنّ موتي حتى يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنّ يخبرون الإنس أنهم يعلمون الغيب وأنهم يعلمون ما في غدٍ.

قال: ثم دخل سليمان المحرابَ فقام يصلّي متكئًا على عصاه، فمات على تلك الحالة، ولم يعلم بذلك أحدٌ من الشياطين، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم.

قال وقال عبد الرحمٰن [بن زيد][٥] قال سليمان لملك الموت: إذا أُمِرتَ بي فأعْلِمْني. قال: فأتاه فقال: يا سليمان قد أُمرتُ بك وقد بَقِيَتْ لك سُوَيعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب، فقام يصلّي واتكأ على عصاه، فدخل عليه ملَك الموت فقبض رُوحه وهو متكىء على عصاه.

---

(١) المحاريب: أماكن العبادة، مفردها محراب، أو القصر.

(٢) الجفان: مفردها الجفنة، وهي القصعة.

(٣) يتحنّث: يتعبّد.

(٤) زيادة عن الثعلبي.

(٥) زيادة عن الثعلبي.

قال وفي رواية أخرى: أنّ سلميان قال ذاتَ يوم لأصحابه: قد آتاني الله من المُلْك ما تَرَوْن، وما مرّ عليّ يوم في ملكي بحيث صفا لي من الكَدَر، وقد أحببت أن يكون لي يومٌ واحد يصفو لي إلى الليل ولا أغتمّ فيه، وليكن ذلك غدًا. فلما كان من الغد دخل قصرًا له، وأمر بإغلاق أبوابه ومَنَع الناس من الدخول عليه ورَفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئًا يسوءه، ثم أخذ عصاه بيده وصعِد فوق قصره واتكأ عليها ينظر في ممالكه، إذ نظر إلى شابّ حسنِ الوجه، عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال: السلامُ عليك يا سليمان. فقال سليمان: وعليكم السلام، كيف دخلتَ هذا القصر وقد مَنعتُ من دخوله؟ أمَا منعك البوّاب والحجّاب!. أمَا هِبتَني حين دخلت قصري بغير إذني!! فقال: أنا الذي لا يحجُبُني حاجب، ولا يمنعني بوّاب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرّشا[1]، وما كنتُ لأدخل هذا القصر بغير إذْن. فقال سليمان: فَمَن أذِنَ لك في دخوله؟ قال: ربّه. فأرتعد سليمان وعلم أنه مَلَك الموت. فقال له: أنت ملَك الموت؟ قال: نعم. قال: فيمَ جئتَ؟ قال: جئتُ لأقبِض رُوحك. قال: يا ملك الموت، هذا يوم أردتُ أن يصفو لي وما أسمع فيه ما يغمّني. قال له: يا سليمان، إنك أردت يومًا يصفو لك فيه عيشك حتى لا تغتمّ فيه، وذلك اليوم لم يُخْلَق في الدنيا، فأرضَ بقضاء ربك فإنه لا مَرَدّ له. قال: فأقْبِضْ كما أُمرت، فقبض مَلَك الموت رُوحه وهو متكىء على عصاه.

قال الثعلبيّ قالوا: وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومُصَلاّه أينما كان. وكان للمحراب كُوًى بين يديه ومن خلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يدخل يقول: ألستُ جليدًا[2] إن دخلتُ فخرجت من ذلك الجانب، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر. فدخل شيطان من أولئك فمرّ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا أحترق، فمرّ ولم يَسْمَع صوت سليمان، ثم رجع ولم يَسْمَع، ثم رجع فوقف في البيت فلم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميِّتًا، فخرج فأخبر الناس أنّ سليمان قد مات، ففتحوا عنه وأخرجوه ووجدوا مِنْسَأته [وهي العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرَضة[3]]، فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس أنّ الجنّ كانوا يكذِبونهم، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، فلم يلبثوا في العذاب سنة يعملون.

---

(١) الرّشا: مفردها الرشوة، وهي ما يعطى لقضاء حاجة أو مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطل وإبطال حقّ.

(٢) الجليد: الصبور القويّ المتحمّل.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

قال: ثم إنّ الشياطين قالوا للأرَضة: لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب طعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء والطين. قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو مما تأتيها به الشياطين شكرًا لها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤] وهي الأرَضة، ويقال لها القادح أيضًا، وهي دُوَيْبَّةٌ تأكل العيدان ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤] أي عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ...﴾ [سبأ: ١٤].

قال أهل التاريخ: كان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة، ومدّة ملكه أربعين سنة، ومُلِّك يوم ملّك وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

وقال الكسائيّ قال وهب: عاش سليمان ستين سنة، منها في الملك والنبوّة أربعون سنة. قال: وتفرّقت الإنس والجنّ وغيرهم، فتفرّق بنو إسرائيل بعده ثلاث فرق: فرقة كفروا واتبعوا السحرة، وفرقة اعتزلوا وقالوا: لا نطيع بعده أحدًا، وفرقة اتبعوا ابنه رَحْبَعَم[(١)].

قال الثعلبيّ: ملك بعد سليمان عليه السلام ابنُه رَحْبَعَم، وكان قد استخلفه فنبّأه الله تعالى ولم يكن رسولاً ثم قُبض، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة. ثم ملك بعده ابنه أيشا بن رحبعم، وكان مُلكه ثلاثًا وستين سنة. ثم ابنه أينا.

وقال الكسائيّ: ملك بعد رحبعم ابنه لايي، وملك بعد لايي ابنه أَيْشا بن لايي، ثم بعث الله تعالى بعد أن قبض أيشا، شَعْيَا وهو من ولد هارون بن عمران.

وقال الثعلبيّ في سياقه: لمّا ملك أينا بن أيشا، وكان رجلاً صالحًا، وكان أعرج، وكان به عِرْق النَّسَا، فطمعت الملوك فيه لضَعْفه، وافترقت ملوك بني إسرائيل، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له «زَرَج الهنديّ»[(٢)] في جمع كثير، فبعث الله تعالى عليهم ملائكة فهزموهم، فقصدوا البحر حتى ركِبوه جميعًا، فبعث الله تعالى عليهم الرياح والأمواج حتى ضربت سُفُنَهم بعضها ببعض، فتكسّرت وغرق زَرَجٌ ومَن كان معه، وألقت الأمواج أثقالهم وأموالهم وسلَبهم إلى محَلّة بني إسرائيل، ونُودُوا أنْ خذوا ما غنّمكم الله وكونوا فيه من الشاكرين. ثم لم يزل يغزوهم الملِك بعد الملك من ملوك العراق وغيرهم، فيُهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد، وفشت فيهم المعاصي، وعبد بعض ملوكهم الأصنام، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأصل: «رجعيم» والتصويب عن الطبري.

(٢) في الأصل: «روح» والتصويب عن الطبري.

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الخامس

في أخبار شعيا وإرْمِيَا عليهما السلام وخبر بختنصّر وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وفتنة اليهود

ذكر قصة شَعْيَا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: كان المَلِك إذا مَلَكَ من بني إسرائيل بعث الله معه نبيًا يُرشده ويسدّده ويكون فيما بين الناس وبين الله تعالى، ولا يُنزِل الله تعالى عليه كتابًا إنما يأمر بأحكام التوراة وينهَى عن المعصية، ويدعو الناس إلى ما تركوا من الطاعة. وكان ممن مَلَك منهم «صَدِيقة». فلمّا ملك بعث الله تعالى شَعْيَا بن أمْصِيَا[1]، فملَك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زمانًا، ثم كثُرت في بني إسرائيل الأحداث، فبعث الله سَنْحَارِيب[2] ملك بابل، معه ستمائة ألف راية، فأقبل حتى نزل حول بيت المقدس والملِكُ إذ ذاك مريض في ساقه قَرْحة[3]، فجاء النبيّ شَعْيا عليه السلام فقال لملك بني إسرائيل: إنّ سَنْحاريب ملِكَ بابلَ قد أقبل ونزل بك في ستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفَرِقُوا[4] منهم. فكبُر ذلك على الملك وقال: يا نبيّ الله، هل أتاك وحيٌ فيما حدَث فتخبرَنا به كيف يفعل الله تعالى بنا وسَنْحارِيب؟ قال: لم يأتني وَحْي. فبينما هم كذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيا أن ائتِ ملك بني إسرائيل فمُرْه أن يُوصيَ بوصية ويستخلف على مُلكه مَنْ يشاء من أهل بيته. فأتاه شَعْيَا فقال: إنّ ربك عزّ وجل قد أوحى إليّ أن آمرك أن تُوصيَ وصيّتك وتستخلف من شئتَ على مُلكك من أهل بيتك فإنك ميّت. فلمّا قال له شعيا ذلك أقبل صَدِيقة الملِك على القِبلة فصلّى ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرّع إلى الله عزّ وجل بقلب مخلص وتوكُّل وصبر: [اللهمّ ربَّ الأرباب وإلٰهَ الآلهة القُدّوس المقدّس، يا رحمٰن يا رحيم، يا رؤوف يا من لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، اذْكُرْني بنيّتي وفعلي وحُسْن قضائي في بني إسرائيل، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منّي سرّي

---

(١) في الكتاب المقدّس ١/ ٣٢٤ «آموص».

(٢) سنحاريب: معناه «القمر بكر الأخوة» ويستفاد أن الأشوريين كانوا يتفاءلون بالأسماء كالعرب، وسمّي سنحاريب تفاؤلاً بكثرة الولد «انظر تاريخ مختصر الدول: ٦٤».

(٣) القرحة: البشرة إذا دبّ فيها الفساد.

(٤) فرقوا: خافوا.

وَعَلانِيَتي لك][1]، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وكان عبدًا صالحًا. فأوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أن أخبر صَدِيقة أن الله استجاب له وقَبِلَ منه ورحمه وأخّر أجله خمسَ عشرةَ سنة، وأنجاه من عدوّه سَنْحَاريب وجنوده. فأتاه شعيا فأخبره بذلك، فذهب عنه الجَزَع وخرّ[2] ساجدًا لله تعالى ودعاه. فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صدِيقة يأمر عبدًا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قَرْحة ساقه فيُشفى ويبرأ، ففعل ذلك فشُفِيَ. وقال الملك لِشَعْيَا: سَلْ ربّك أن يجعل لنا عِلْمًا بما هو صانع بعدوّنا هذا. فقال الله تعالى لِشَعْيَا: قل له إني كفيتك عدوّك وأنجيتك منهم، وإنهم سيُصبحون موتى إلا سَنْحَاريب وخمسة نفر من كتّابه. فلمّا أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله تعالى قد كفاك أمر عدوّك؛ فإن سَنْحَاريب ومن معه قد هلكوا. فخرج الملك فالتمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى. فبعث الملك في طلبه، فأدركه الطَّلَبُ في مغارة وخمسةٌ من كتّابه، أحدهم بُخْتَنَصَّرُ، فجعلوهم في الجوامع[3] ثم أتَوْا بهم ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجدًا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعلَ ربّنا؟ ألم يقتلكم بحوله وقوّته ونحن وأنتم غافلون؟! فقال سنحاريب: قد أتاني خبرُ ربّكم ونصرُه إيّاكم، ورحمتُه التي رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي، فلم أُطِعْ مرشدًا ولم يُلقني في الشّقوة[4] إلاّ قلّة عقلي، ولو سمعت أو عَقَلْت ما غزوتكم، ولكن الشّقوة غلبت عليّ وعلى من معي. فقال صَدِيقة: الحمد لله رب العزّة الذي كفاناكم بما شاء. إنّ ربَّنا لم يُبقك ومَن معك لكرامة لك عليه، ولكنّه إنما أبقاك ومَن معك لتزدادوا شقْوةً في الدنيا وعذابًا في الآخرة، ولتُخبروا مَنْ وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا. وَلَدَمُك ودمُ مَن معك أهونُ على الله تعالى من دم قُرَادة[5] لو قُتلت. ثم أمر صَدِيقة أمير جيشه أن يقذف في رقابهم الجوامع، فطاف بهم سبعين يومًا حول بيت المقدس إيليا[6]، وكان يرزقهم في كل يوم خُبزتَيْن من شعير لكل رجل. فقال سَنْحَاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أُمرت. فأمر بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله تعالى إلى شعيا: أن قل لملك بني إسرائيل: يرسل سنحاريب ومَن معه ليُنذروا مَنْ وراءهم، وأن يُكْرِمَهم ويَحملهم حتى يبلُغوا بلادهم. فبلّغ شَعْيَا الملكَ ذلك، ففعل ما أُمِر به، وخرج سنحاريب ومَن معه حتى

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٢) خرّ: جثا على ركبتيه ورأسه إلى الأرض.

(٣) الجوامع: مفردها جامعة وهي القيد.

(٤) الشّقوة: العذاب والشّقاء.

(٥) القرادة: دويبة متطفّلة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور، ومنها أجناس.

(٦) إيليا: اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله، وسمّيت إيلياء باسم بانيها، وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وفيها ثلاث لغات مدّ آخرها وقصره: إيلياء وإيليا، وقصر أولها إلياء «انظر معجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكري ١/٢١٧».

قدموا بابل. فلمّا قدِموا جمع سنحاريب الناسَ وأخبرهم كيف فعل الله بجنوده. فقال له كُهّانه[١] وسَحَرته: قد كنا نقُصّ عليك خبر ربهم وخبر نبيّهم ووحيَ الله إلى نبيّهم، فلم تُطِعنا، وهي أمّة لا يستطيعها أحد من ربّهم. ولبِث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات. وٱستُخلف بُخْتَنَصَّرُ ٱبنُ ٱبنه على ما كان عليه جدّه، فعمِل بعمله وقضى بقضائه، فلبث سبعَ عشرةَ سنة ثم قَبَض الله تعالى صَدِيقةَ مِلِك بني إسرائيل، فمرِج[٢] أمرُ بني إسرائيل وتنافسوا المُلْك حتى قتل بعضهم بعضًا، ونبيّهم شَعْيَا معهم لا يرجِعون إليه ولا يقبلون منه. فلما فعلوا ذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا: أنْ قُم في قومك أُوحِ على لسانك. فلمّا قام أوحى الله تعالى على لسانه وأنطقه بالوحي فقال: يا سماء ٱسمعي، ويا أرض أنصتي؛ فإنّ الله يريد أن يقصّ شأن بني إسرائيل الذين ربّاهم بنعمته، وٱصطنعهم لنفسه، وخصّهم بكرامته، وفضّلهم على عباده، وٱستقبلهم بالكرامة، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعيَ لها؛ فآوَى شاردَها[٣]، وجمع ضالّها، وجَبَر كَسِيرها[٤]، وداوَى مريضَها، وأسمن مهزولها، وحفِظ سمينها. فلمّا فعل ذلك بها تناطحت كِباشها فقتل بعضها بعضًا، حتى لم يبق منهم عظم صحيح يُجبَر إليه آخر كَسِير. فويلٌ لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون ما جاءهم من الخير. إنّ البعير مما يذكر وطنه فيأتيه، وإنّ الحمار مما يذكر الآريّ[٥] الذي يشبَع عليه فيراجعُه، وإنّ الثور مما يذكر المَرْج[٦] الذي يَسمَن فيه فينتابه، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من (أين)[٧] جاءهم الخر وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير، وإني ضارب لهم مثلاً فليسمعوه.

قال لهم: كيف تَرَوْن في أرض كانت جُرُزًا[٨] زمانًا خَرِبةً مَوَاتًا لا عُمْران فيها، وكان لها ربّ حكيمٌ قويّ، فأقبلَ عليها بالعمارة وكرِهَ أن تَخْرَب أرضُه، فأحاط عليها جِدارًا وشيّد فيها قصرًا وأنبط[٩] فيها نهرًا، وصفّف[١٠] فيها غِرَاسًا من الزيتون والرمّان والنخيل والأعناب وألوان الثّمار كلها، وولّى ذلك وٱستحفظه ذا رأي وهمّة حفيظًا قويًّا

---

(١) الكهّان: مفردها كاهن وهو عند اليهود والوثنيين الذي يقدّم الذبائح والقرابين.
(٢) مرج أمرهم: فسد واضطرب واختلط.
(٣) الشارد من الإبل: ما نفر منها واستعصى.
(٤) الكسير: الذي هشم أو فرّق بين أجزائه، المكسور.
(٥) الآري: محبس الدّابة.
(٦) المرج: المرعى الذي تسرح فيه الدواب وترعى.
(٧) في الأصل: «من حيث» وما أثبتناه أصوب للسياق.
(٨) الجُرز: الأرض التي قطع نباتًا.
(٩) أنبط: أظهر وأبرز.
(١٠) صفّف: زرع ورتّب.

أمينًا، فٱنتظرها، فلمّا أطلعتْ[١] جاء طَلْعها خرُّوبًا؟! قالوا: بئستِ الأرض هذه! نرى أن يُهْدَم جِدارُها وقصرُها ويُدَمَّر نهرها ويُقبَضَ قيِّمها ويُحْرَق غرسُها حتى تصير كما كانت أولَ مرّة خرابًا مَوَاتًا لا عُمران فيها. قال الله عزّ وجلّ لهم: إنّ الجِدارَ ذِمّتي، وإنّ القصر شريعتي، وإنّ النهرَ كتابي، وإنّ القيِّم نبيِّي، وإنّ الغِرَاس هُمْ[٢]، وإن الخرُّوب الذي أطلعَ الغراسُ أعمالُهم الخبيثة، وإنّي قضيتُ عليهم قضاءهم على أنفسهم، فإنه مَثَلٌ ضربه الله لهم. يتقرّبون إليّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالني اللحمُ ولا آكلُه. ويدّعون أنهم يتقرّبون إليّ بالتقوى والكفّ عن ذبح الأنفُس التي حرّمتُها، فأيديهم مخضوبةٌ[٣] منها، وثيابهم مترمِّلةٌ[٤] بدمائها؛ يُشيِّدون ليَ البيوت مساجدَ ويطهِّرون أجوافَها، وينجِّسون قلوبهم وأجسادهم ويُدنِّسونها. فأيّ حاجةٍ لي إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها! وأيّ حاجةٍ لي إلى تزويقِ[٥] المساجد ولستُ أدخلها! إنما أمرتُ برفعها لأُذْكَرَ فيها ولأُسبَّح، ولتكون مُصَلًّى لمن أراد أن يصلي فيها. يقولون: لو كان الله يقدِر على أن يجمع ألفتَنا لجَمَعَها، ولو كان الله يَقدِر على أن يُفقِّه[٦] قلوبنا لأفقهها، فٱعمِدْ إلى عُودين يابسين ثم ٱئتِ بهما ناديهم في أجمع ما يكونون، فقل للعودين: إنّ الله يأمركما أن تكونا عودًا واحدًا. فلمّا قال لهما ذلك ٱختلطا فصارا واحدًا. فقال الله تعالى [قل][٧] لهم: إني قد قَدَرتُ على أن أُفقه العودين اليابسين، وعليّ أن أؤلِّف بينهما، فكيف لا أقدِر على أن أجمع أُلفتَهم إن شئتُ! أم كيف لا أقدِر على أن أُفقِّه قلوبهم وأنا الذي صوّرتُها! يقولون: صُمنا فلم يُرفَع صيامُنا، وصلّينا فلم تُنوَّر صلاتُنا، وتصدّقنا فلم تَزْكُ[٨] صدقاتُنا، ودعَوْنا بمثل حِنينِ[٩] الحمام، وبكَيْنا بمثل عُوَاءِ الذئاب، في كل ذلك لا يُسمَع ولا يُستجاب لنا. قال الله تعالى: فسَلْهم: ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم! ألستُ أسمعَ السامعين، وأبصَرَ الناظرين، وأقربَ المُجيبين، وأرحمَ الراحمين! ألأنّ ذات يدِي[١٠] قلّتْ! وكيف ويدايَ مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء، ومفاتيحُ الخزائن عندي لا يفتحها غيري! أو

---

(١) أطلعت: أي خرج طلعها، والطّلع من النخل: ما يبدو من ثمره في أوّل ظهوره.
(٢) الغراس هُمْ: أي القوم.
(٣) المخضوبة: الملوّثة بالدّماء، والخضاب ما يغيّر لون اليد.
(٤) المترملة: المتلطخة.
(٥) التزويق: التزيين.
(٦) أفقه القلب: شرحه للإيمان.
(٧) زيادة عن الثعلبي.
(٨) تزك الصدقة: تنمو وتزداد.
(٩) الحنين: التصويت بشوق وحنّت الإبل: صوّتت شوقًا إلى أولادها.
(١٠) ذات اليد: ما تملكه.

لأن رحمتي ضاقتْ! فكيف ورحمتي وَسِعتْ كلّ شيء، إنما يَتراحَم المتراحمون بفضلها! أو لأنّ البخل يعترِيني! أوَلستُ أكرمَ الأكرمين. والنَّفّاحَ[١] بالخيرات أجْوَدَ مَن أعطَى وأكرمَ مَن سُئِل!. لو أنّ هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التي تُورِث في قلوبهم [النور][٢] فنبذوها وٱشترَوْا بها الدنيا، إذًا لأبصروا من حيثُ أتوا، وإذًا لأيقنوا أنّ أنفسهم هي أعدى العُداة لهم. فكيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسونه بقول الزُّور ويتقوّون عليه بطُعمة الحرام! وكيف أُنوّر صلاتَهم وقلوبُهم صاغيةٌ إلى من يحاربني وينتهك محارمي! أم كيف تزكُو عندي صدقاتُهم وهم يتصدّقون بأموال غيرهم! إنما آجُر عليها أهلَها المغصوبين. أم كيف أستجيب لهم دعاءهم، وإنما هو قولٌ بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد!. إنما أستجيب للدّاعي البَرّ[٣]، وإنما أسمع قول المستعِفّ المستكين[٤]. وإنّ من علامة رضايَ رِضا المساكين. فلو رَحِموا المساكين، وقرّبوا الضعفاء، وأنصفوا المظلوم، ونصروا المغصوب، وعدلوا للغائب، وأدَّوا إلى اليتيم والأرملة والمسكين وكلّ ذي حقّ حقَّه، ثم لو كان ينبغي لي أن أكلّم البشر إذًا لكلّمتهم، وإذًا لكنتُ نورَ أبصارهم، وسمعَ آذانهم، ومعقولَ قلوبهم؛ وإذًا لَدَعَمْتُ أركانَهم فكنتُ قوّة أيديهم وأرجلهم؛ وإذا لَثَبَّتُّ ألسنتَهم وعقولَهم.

يقولون لـمّا سَمِعوا كلامي وبَلَغتْهم رسالاتي إنها أقاويلُ منقولةٌ، وأحاديثُ متوارثَةٌ، وتآليفُ مما يؤلِّف السَّحَرة والكَهَنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، وأن يطّلعوا على علم الغيب بما يُوحِي إليهم الشياطين لاطلعوا، وكلهم يَستخفِي بالذي يقول ويُسِرّه، «وهم يعلمون أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يُبدون وما يكتُمون». وإني قد قضيتُ يوم خلقتُ السماء والأرضَ قضاءً أثْبَتُّه على نفسي وجعلتُ دُونه أجلاً[٥] مؤجّلاً لا بدّ أنه واقع، فإن صدَقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليُخبروك متى أُنفذه، وفي أيّ زمان يكون. وإن كانوا يقدِرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل القُدرة التي بها أقضي؛ فإنّي مُظهره على الدِّين كله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وإن كانوا يقدِرون على أن يؤلِّفوا ما يشاؤون فليؤلِّفوا مثل الحكمة التي أدبِّر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين. فإنِّي قضيتُ يومَ خلقتُ السمواتِ والأرضَ أن أجعل النبوّة في الأُجَراء[٦]، وأجعلَ المُلْك في الرِّعاء[٧]، والعزَّ في الأذلاّء، والقوّة في

---

(١) النفاح: المتكرّم المعطي.
(٢) زيادة عن الثعلبي.
(٣) البرّ: الصالح العطوف.
(٤) المستكين: الخاضع الذليل.
(٥) الأجل: الميقات المعلوم المحدّد.
(٦) الأجراء: جمع أجير وهو من سلم نفسه بعوض.
(٧) الرّعاء: جمع راعي، وهو الذي يرعى الماشية.

الضعفاء، والغِنَى في الفقراء، والثروةَ في الأقلاّء، والمدائن في الفَلَوَات، والآجام[١] في المفاوز[٢]، والثَّرى في الغِيطان[٣]، والعِلْم في الجَهَلة، والحُكْم في الأُمِّيِّين. فسَلْهم متى هذا ومَن القيِّم به وعلى يَدَيْ مَن أُسبِّبه، ومَن أعوانُ هذا الأمر وأنصارُه. وإن كانوا يعلمون فإني باعثٌ لذلك نَبيًّا أُمّيًّا لا أعمى من العُمْيان ولا ضالاً من الضالِّين، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب[٤] في الأسواق، ولا متزيِّن بالفُحْش، ولا قوّالٍ للخَنَا[٥]، أسدّده لكل جميل، وأهَبُ له كلَّ خُلُق كريم، ثم أجعل السكينة[٦] لباسَه، والبِرَّ شِعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ معقولَه، والصدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقه، والعدلَ سيرته، والحقَّ شريعتَه، والهدي إمامَه، والإسلامَ ملّته، أحمدُ اَسمُه، أهدِي به بعدَ الضَّلالة، وأُعلِّم به بعد الجَهَالة، وأرفع به بعد الخَمالة، وأُشهِّر به بعد النَّكِرَة، وأُكَثِّر به بعد القلّة، وأُغنِي به بعد العَيْلة[٧]، وأجمعُ به بعد الفُرقة؛ وأؤلِّف به قلوبًا مختلفةً، وأهواءً مُتشتِّتة، وأُممًا متفرّقة، وأجعل أمّته ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إيمانًا بي، وتوحيدًا لي، وإخلاصًا[٨] بي، يُصلُّون قيامًا وقُعودًا، ورُكَّعًا وسُجودًا، ويُقاتلون في سبيلي صفوفًا وزُحوفًا، ويخرجون من ديارهم وأموالهم اَبتغاء رضواني [ألوفًا][٩]. أُلهِمُهم التكبيرَ والتوحيدَ، والتسبيحَ والتحميد، في مجالسهم ومَسيرهم ومضاجعهم ومُتقلَّبهم ومَثْواهم؛ يكبِّرون ويُهلِّلون ويقدّسون على رؤوس الأشراف، ويُطهِّرون لي الوجوه والأطراف، ويعقِدون الثيابَ إلى الأنصاف؛ قُربانُهم دماؤهم، وأناجيلُهم صدورهم؛ رُهبانٌ بالليل، ليوثٌ بالنهار. ذلك فضلي أوتِيه مَن أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

قال فلما فرغ نبيُّهم شَعْيَا من مقالته عَدوْا عليه ليقتلوه فهرَب منهم فاَنفلقت[١٠] له شجرة فدخل فيها، فأدركه الشيطان فأخذ بهُدبةٍ[١١] من ثوبه فأراهم إيّاها، فوضعوا المنشار في وَسَطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وَسَطها.

---

(١) الآجام: جمع أجمة وهو الشجر الكثير المتلف.
(٢) المفاوز: مفردها مفازة وهي الصحراء.
(٣) الغيطان: مفردها الغوط وهو المنخفض الواسع من الأرض.
(٤) الصخّاب: الكثير الصخب، وصخب القوم: ارتفعت أصواتهم وضجّوا.
(٥) الخنا: الفحش في الكلام.
(٦) السكينة: الوقار والهدوء والخضوع لله عزّ وجل.
(٧) العَيلة: المراد بها هنا الفقر والشدّة في مؤنة الحياة، وعاله الشيء: ثقل عليه وغلبه.
(٨) إخلاصًا بي: تعدية الإخلاص بالباء لا ترضاه اللغة والأصوب أن يقال: وإخلاصًا لي.
(٩) زيادة عن الثعلبي.
(١٠) انفلقت: انشقت.
(١١) هدبة الثوب: طرفه.

ذكر قصة إرميا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: استخلَفَ الله تعالى على بني إسرائيل بعد قتلهم شَعْيَا عليه السلام رجلاً منهم يقال له «ناشِيَةُ بن آمُوص»، وبعث لهم الخَضِرَ نبيًّا. قال: وٱسم الخَضِر إرْمِيَا بن حِلْقِيَا، وكان من سِبْط هارون بن عمران. قال: وإنما سُمِّي الخَضِر لأنه جلس على فَرْوة بيضاء فقام عنها وهي تهتزّ[١] خضراءَ. فقال الله عزّ وجل لإرْمِيَا حين بعثه إلى بني إسرائيل: يا إرميا، من قبل أن خَلَقْتُك ٱخترتُك، ومن قبل أن أُصوِّرك في بطن أمّك قدّستُك، ومن قبل أن أُخرجَك من بطن أمّك طهّرتُك، ومن قبل أن تبلُغ السّعْيَ نبّأتُك، ولأمرٍ عظيم ٱجتبيتُك[٢]؛ فذكِّر قومَك نِعَمِي، وعَرفهم أحداثهم، وٱدعُهم إليّ. وكانت الأحداثُ قدْ عظُمت في بني إسرائيل فركِبوا المعاصِي وٱستحلّوا المحارم. فقال إرميا: إني ضعيف إن لم تقوّني، عاجزٌ إن لم تنصُرني. فقال الله عزّ وجل: أنا أُلهِمُك. فقام إرْمِيَا فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عزّ وجل خطبةً طويلةً بليغةً، بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال في آخرها: وإني أحلف بعزّتي لأُقَيِّضَنّ[٣] لهم فتنةً يتحيّر فيها الحكيم، ولأُسلِّطنّ عليهم جبّارًا قاسيًا قلبُه، أُلبِسه الهيبةَ وأنزِعُ من صدره الرحمة، يتبعه عددٌ مثلُ سوادِ الليل المظلم. ثم أوحَى الله تعالى إلى إرْمِيَا: إنّي مُهلكٌ بني إسرائيل بيَافَثَ، ويافَثُ أهلُ بابلَ، وهم من ولد يافَثَ بن نوح. فلمّا سمع ذلك إرْمِيَا صاح وبكى وشقّ ثيابه ونبذ[٤] الرّمادَ على رأسه. فلمّا سمع الله عزّ وجل تضرُّعه وبكاءه ناداه: يا إرْمِيَا، أشقَّ عليك ما أوحيتُ إليك؟ قال: نعم يا ربّ، أهلِكْنِي قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أُسَرّ به. فقال الله عزّ وجل: وعِزّتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمرُ في ذلك من قِبَلك. ففرح بذلك إرميا وطابتْ نفسُه وقال: لا والذي بعث موسى بالحقّ لا أرضَى بهلاكِ بني إسرائيل. ثم أتى الملكَ فأخبره بذلك، وكان ملكًا صالحًا، ففرِح وٱستبشر وقال: إنْ يعذبنا ربُّنا فبذنوبٍ كثيرة، وإن عفا عنا فبرحمته. ثم إنهم لبِثوا بعد الوحي ثلاثَ سنين لم يزدادوا إلا معصيةً وتماديًا في الشرّ، وذلك حين ٱقتربَ هَلاكُهم ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا، فسلّط الله عليهم بُخْتَنَصّر فخرج في ستمائة ألف راية يريد بيت المَقْدس. فلمّا فَصَلَ[٥] سائرًا أتى الخبرُ الملِكَ فقال لإرميا: أين ما زعمتَ أنّ الله أوحَى إليك؟ فقال إرميا: إنّ الله عزّ وجلّ لا يُخلِف الميعاد وأنا به واثقٌ. فلمّا قرُب الأجلُ[٦] وعزم الله عزّ وجل على

(١) في نسخة الثعلبي «تزهر».
(٢) اجتباه: اختاره واصطفاه.
(٣) قيّض لهم: قدّر وهيّأ.
(٤) نبذ الرّماد: نثره.
(٥) فصل: يقال فصل فلان من البلد: خرج منه.
(٦) قرب الأجل: حان الوقت المحدّد.

هَلاكهم بعث الله تعالى إلى إرميا مَلَكًا فتمثّل له رجلاً من بني إسرائيل فقال له: يا نبيّ الله، أستَفتيك في أهل رَحِمي، وصلتُ أرحامَهم ولم آتِ إليهم إلا حُسْنًا، ولا يزيد إكرامي إيّاهم إلا إسخاطًا لي، فأفتِني فيهم. فقال له: أَحْسِنْ فيما بينك وبين الله وصِلْهم وأبشر بخير. فانصرف المَلَك فمكث أيامًا ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه، فقال له إرميا: أوَما ظَهَرَتْ أخلاقُهم لك بعدُ؟ فقال: يا نبيّ الله، والذي بعثك بالحقّ ما أعلم كرامةً يأتيها أحدٌ من الناس إلى أهل رَحِمِه إلا قدّمتُها إليهم وأفضَل. فقال له إرميا: ارجعْ إلى أهلك وأحسِنْ إليهم، واسألِ الله تعالى الذي أصلحَ عباده الصالحين أن يُصلِحهم. فقام الملك فمكث أيّامًا وقد نزل بختنصّر وجنودُه حولَ بيتِ المقدِس بأكثر من الجراد، ففزع منهم بنو إسرائيل وشقّ عليهم. فقال ملكهم لإرْمِيَا: يا نبيّ الله، أين ما وَعَدَك الله؟ قال: إني بربِّي واثق. ثم أقبل الملك إلى إرميا وهو قاعد على جِدار بيت المقدس وهو يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذي وعده، فقعد بين يديه وقال له: أنا الذي أتيتُك في شأن أهلي مرّتين. فقال إرْمِيَا: ألم يأنِ[1] لهم أن يُفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال الملك: يا نبيّ الله، كل شيء يُصيبني منهم قبلَ اليوم كنتُ أصبِر عليه، فاليومَ رأيتُهم في عمل لا يُرضِي الله عزّ وجل. فقال إرمِيا: على أيّ عمل رأيتَهم؟ قال: على عمل عظيم من سُخْط الله، فغضِبتُ لله ولك وأتيتُك لأُخبرَك. وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحقِّ إلاّ ما دعوتَ الله عليهم ليُهلكهم. قال إرْمِيَا: يا مَلِكَ السمواتِ والأرضِ إن كانوا على حقّ وصوابٍ فأبقهم، وإن كانوا على سُخْطك وعملٍ لا ترضاه فأهلِكْهم. فلمّا خرجتِ الكلمة من فم إرمِيا أرسل الله عزّ وجل صاعقةً من السماءِ في بيت المَقْدِس فالتهبَ مكانُ القُربان[2] وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها.

فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابَه ونَبَذَ الرَّماد على رأسه وقال: يا مَلِك السمواتِ والأرضِ، أين ميعادُك الذي وعدتَني! فنُودِيَ: إنه لم يُصبهم الذي أصابهم إلاّ بفُتياك ودعائك. فاستيقَنَ إرْمِيَا أنها فُتياه[3]، وأن ذلك السائل كان رسول ربه. فطار إرميا حتى خالَطَ الوحوش. ودخل بختنصّر وجنودُه بيتَ المقدس ووطِىء الشام وقَتَل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس؛ ثم أمر جنودَه أن يملأ كلّ رجلٍ منهم ترسه ترابًا[4] ثم يَقذِفه في بيت المقدس، فَقَذَفوا فيه التراب حتى مَلَؤوه؛ ثم أمرهم أن يجمعوا مَن كان في بلدان بيت المقدس كلّهم، فجمعوا عنده كل صغير

---

(١) ألم يأنِ لهم: أي ألم يحن لهم، من آن يئين أي حان.

(٢) القربان: الذبيحة التي يتقرّب بها إلى الله.

(٣) الفتيا في المسألة: إبانة الحكم فيها.

(٤) التُّرس: قطعة من المعدن أو الجلد يحملها المحارب بإحدى يديه ويتّقي بها الضربات.

وكبير من بني إسرائيل، فٱختار منهم مائةَ ألفِ صبيّ، وقيل سبعين ألف صبيّ. فلمّا خرجت غنائم جُنده لتُقسَم قال له الملوك الذين كانوا معه: أيهَا الملك، لك غنائمها كلها، فٱقسِمْ بيننا هؤلاء الصِّبيان الذين ٱخترتَهم من بني إسرائيل، ففعل ذلك، فأصاب كلّ رجل منهم أربعة غِلْمة. وكان من أولئك الغلْمان دانِيَالُ وحَنَانِيَا وعزارِيَا وميشائيل[١]، وسبعةُ آلاف من أهل بيت داود عليه السلام، وأحدَ عشر ألفًا من سِبْط يوسف بن يعقوب، وأخيه بَنْيَامِين عليه السلام، وثمانيةُ آلاف من سِبْط أشْرَس[٢] بن يعقوب؛ وأربعةَ عشر ألفًا من سِبْط ريالون[٣] بن يعقوب ونَفْتَالِيَ[٤] بن يعقوب، وأربعةُ آلاف من سِبْط يَهُوذَا بن يعقوب، وأربعةُ آلاف من سِبط رُوبِيل[٥] ولاوِي ٱبْنَي يعقوب، ومَن بَقِيَ من بني إسرائيل.

قال: وجعل بُخْتَنصّر مَن بَقِيَ[٦] من بني إسرائيل ثلاث فِرَق، فثُلُثًا أقرّ بالشام، وثُلُثًا سَبَى، وثُلُثًا قَتَل. وذهب بآنِيَة بيت المقدس وسَلَبَ حُلِيَّه حتى أقدم ذلك بابِلَ، فكان على سبعين ألفًا ومائةَ ألفِ عَجَلةٍ من حُلِيّ. فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥] يعني بختنصّر وأصحابه ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥] فهذه الواقعةُ الأولى التي أنزلَها الله ببني إسرائيل لٱختلافهم وظلمهم. ولنصل هذا الفصل بخبر بختنصّر.

ذكر خبر بختنصر وٱبتداء أمره وكيف ملك

يقال في ٱسمه: بُخْتَنَصّر (بتشديد الصاد وإسكانها) ويقال فيه: بختناصر[٧]. وقد ٱختُلِف في أمره، فقال قوم: إنه مَلَك الدنيا أجمع. وقال آخرون: بل مَلَك بابِل وما ٱفتتحه. وقال قوم: إنما كان مَرْزُبَانًا[٨] للهراسف[٩] الفارسيّ. وقال قوم: كان أصله

---

(١) في الكتاب المقدّس ٢/ ٦٢٥ «حنينًا وعزريا».

(٢) في الكتاب المقدّس ١/ ٥٠ «أشير». (٣) في الكتاب المقدّس ١/ ٥٠ «زيولون».

(٤) ورد في الأصل بحروف مهملة والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/ ٨٦.

(٥) في الكتاب المقدّس ١/ ٥٠ «رأوبين».

(٦) في نسخة الثعلبي: «فجعل بختنصر سبايا بني إسرائيل».

(٧) يقال له أيضًا: نبوخذ نصر، ونبوكد نصر «راجع الكتاب المقدّس ١/ ٦٤٩».

(٨) المرزبان: الرئيس عند الفرس.

(٩) لهراسف: في صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥ «بهراسف» وقد ذكر أن بُختنصر كان نائبًا له، وهو أحد ملوك الطبقة الرابعة من ملوك الفرس.

من أبناء الملوك، وقيل: بل كان من الفقراء. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما نَقِفُ عليه من ذلك. فمن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسير قوله عزّ وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [الإسراء: ٤] الآيات بسندٍ رفعه إلى سَعِيد بن جُبَير قال: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ التوراة، حتى إذا بلغ: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] بكى وفاضت عيناه ثم أطبق المصحفَ وقال: أي ربّ أرِني هذا الرجلَ الذي جعلتَ هَلاكَ بني إسرائيل على يديه؛ فأُرِيَ في المنام مسكينٌ ببابلَ يقال له بُخْتَنَصَّر، فانطلق بمال وأعبُدٍ[1] له وكان رجلاً مُوسِرًا. فقيل له: أين تريد؟ قال: أريد التجارة. فسار حتى نزل بابِلَ، فنزل دارًا فاكتراها[2]، ليس فيها أحدٌ غيرُه، فجعل يدعو المساكين ويَلْطُفُ بهم حتى لا يأتيه أحدٌ إلا أعطاه. فقال: هل بَقِيَ مسكينٌ غيركم؟ قالوا: نعم، مسكينٌ بفجّ[3] آل فلان مريضٌ يقال له بختنصّر. فقال لِغلْمته: انطلِقُوا بنا، فانطلقَ حتى أتاه فقال له: ما اسمُك؟ قال بختنصّر. فقال لغِلْمته: احتملوه، فنقله إليه فمرّضه[4] حتى برىء، فكساه وأعطاه نفقةً، ثم آذن الإسرائيليّ بالرحيل، فبكى بختنصّر. فقال له الإسرائيليّ: ما يُبْكِيك؟ قال: أبكي أنك فعلتَ بي ما فعلتَ، ولا أجد شيئًا أجزِيك به. قال: بلى، شيئًا يسيرًا. فقال له: وما هو؟ قال: إن مُلِّكْتَ أطعتَني. فجعل يتبعه ويقول: تستهزىء بي! ولا يمنعه من أن يُعطِيَه ما سأله إلاّ أنه يرى أنه يستهزىء به. فبكى الإسرائيلي وقال: لقد علمتُ ما يمنعك مما سألتك إلاّ أنّ الله تعالى يريد أن يُنفِّذ ما قد أمضَى وكتب في كتابه.

قال: وضرب الدهر ضَرَبانه[5] فقال صَيْحون وهو ملِك فارسَ ببابلَ: لو أنّا بَعثنا طليعةً إلى الشام؟ قالوا: وما ضرَّك لو فعلتَ؟ قال: فمن تَرَوْن؟ قالوا: فلان. فبعث رجلاً وأعطاه مائة ألف فارس، وخرج بختنصّر في مطبخه لا يخرج إلا ليأكل من مطبخه [ويعيش منه][6]. فلمّا قدِم الشام رأى صاحبُ الطليعة أكثرَ خلقِ اللّهِ فُرسانًا ورِجالاً، فكسر ذلك في ذَرْعه[7] فلم يسأل. فجعل بختنصّر يجلس في مجالس أهل الشام فيقول: ما يمنعكم أن تغزوا بابِلَ! فلو غَزَوْتموها فما دُون بيتِ مالِها شيءٌ.

---

(١) الأعبُد: مفردها «عبد». (٢) اكتراها: استأجرها.

(٣) الفجّ: الطريق الواسع الواضح بين جبلين، وهنا بمعنى الناحية أو بمضارب أولئك القوم.

(٤) مرّضه: داواه وطبّبه. (٥) ضربان الدهر: أي حدثانه.

(٦) زيادة عن الثعلبي.

(٧) كسر ذلك في ذرعه: أي ثناه عن عزمه وأحبط همّته.

قالوا: لا نُحسِن القتالَ ولا نُقاتل، حتى انتفذ[١] مجالسَ أهلِ الشام. ثم رجع أميرُ الطليعة فأخبر الملِكَ بما رأى. وجعل بختنصّر يقول لفوارس الملِك: لو دعاني الملكُ لأخبرتُه غيرَ ما أخبره فلان. فرُفع ذلك إلى الملك فدعاه، فقال: إنّ فلانًا لمّا رأى أكثرَ أرضِ الله كُراعًا[٢] ورجالاً كسَر ذلك في ذَرْعه ولم يسألهم عن شيء، وإنني لم أدع مجلسًا بالشام إلا جالستُ أهلَه فقلت لهم كذا وكذا، فقالوا لي كذا وكذا. فقال صاحب الطليعة لبختنصّر: بصحبتي لك مائةُ ألف دينار وتنزع[٣] عما قلتَ. قال: لو أعطيتَني بيت مالِ بابلَ ما نزعتُ. فضرب الدهر ضَرَبانه فقال الملك: لو بعثنا جريدة[٤] خَيل إلى الشام، فإن وجدوا مَساغًا سَاغُوا وإلاّ ٱستلَبُوا ما قدروا عليه. قالوا: ما ضرّك لو فعلتَ؟ قال: فمَن تَرَوْن؟ قالوا: فلان. قال: بل الرجل الذي أخبرني بما أخبرني. فدعا بختنصّر وأرسله وانتخب معه أربعةَ آلافٍ من فرسانهم، فأنطلقوا فجاسُوا[٥] خِلال الديار، فسبَوْا ما شاء الله ولم يخرّبوا ولم يقتلوا. ومات صَيْحون الملك، فقالوا: استخلفوا رجلاً. فقالوا: على رِسْلكم حتى يأتي أصحابكم فإنهم فُرسانُكم. فأمهلوا [وأخّروا ذلك][٦] حتى جاء بختنصّر بالسَّبْي وما معه، فقَسّم ذلك في الناس. فقالوا: ما رأينا أحدًا أحقّ بالمُلْك من هذا فملّكوه.

قال: وقال السُّدّيّ بإسناده: إنّ رجلاً من بني إسرائيل رأى في المنام أنّ خرابَ بيتِ المَقْدِس وهَلاكَ بني إسرائيل على يَدَيْ غلام يتيم ٱبن أَرْمَلَةٍ من أهل بابل يُدعَى بختنصّر، وكانوا يَصدقُون فتَصدُق رؤياهم. فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب. فلمّا جاء وعلى رأسه الحطب ألقَى الحُزْمة ثم قعد في جانب من البيت،

---

(١) قوله: أخذ بختنصر يجلس في مجالس أهل الشام ويحضهم على غزو بابل (حتى انتفذ مجالس أهل الشام) قوله (انتفذ) بالذال المعجمة غير صحيح وصوابه (انتفد) بالمهملة يقال: انتفد حقه استوفاه. ومعنى انتفد مجالس أهل الشام أنه استوفاها واستوعبها كلها فلم يدع مجلسًا لهم حتى جلس فيه وكلم أهله. ويشبه ما قلناه في (انتفذ) و(انتفد) ما جاء في اللسان وخلاصته (في حديث ابن مسعود: إنكم مجموعون في صعيد واحد ينفذكم البصر على معنى أن البصر يأتي عليهم كلهم ويجاوزهم. قال أبو حاتم: أصحاب الحديث يروونه بالذال المعجمة وإنما هو بالدال المهملة أي يبلغ البصر أولهم وآخرهم حتى يراهم كلهم ويستوعبهم اهـ) ورواية الحديث (ينفذهم) بالمعجمة من (نفذ) الثلاثي أما ما هنا (نهاية الأرب) فهو (انتفذ) ثلاثي مزيد ولم أعثر عليه في المعاجم وهذا يؤيد أن الصواب (انتفد) بالمهملة.

(٢) الكرَاع: يريد هنا الدّواب من الخيل والبغال والحمير.

(٣) تنزع: تعدل عن قولك وتغيّره.

(٤) الجريدة: الخيل لا رجّالة فيها.

(٥) جاسوا: داروا وتردّدوا وأفسدوا، أي استباحوا.

(٦) زيادة عن الثعلبي.

فكَلّمه ثم أعطاه ثلاثةَ دراهم وقال: اشترِ بهذه طعامًا وشرابًا، فاشترى بدرهم لحمًا، وبدرهم خبزًا، وبدرهم خمرًا؛ فأكلوا وشربوا، حتى إذا كان اليوم الثاني عمل به كذلك؛ وفي اليوم الثالث كذلك. ثم قال: إني أحبّ أن تكتب لي أمانًا[١] إن أنتَ مُلِّكتَ يومًا من الدهر. قال: تسخَر منّي؟ قال: إني لا أسخَر منك، ولكن ما عليك أن تتّخذها عندي يدًا! فكلّمتْه أمّه فقالت: ما عليك إن كان، وإلاّ لم ينقصك شيئًا، فكتب له أمانًا. فقال له: أرأيتَ إن جئتَ والناسُ حَوْلك قد حالوا بيني وبينك فاجعَلْ لي آيةً تعرفني بها. قال: ترفع صحيفتَك على قَصَبة فأعرِفك بها، فكساه وأعطاه. ثم إنّ مِلك بني إسرائيل كان يُكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويُدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرًا دُونه؛ وإنه هَوِيَ أن يتزوّج بنت امرأته. ـ قال وقيل: كانت بنت أخيه، قال الثعلبيّ: وهو الأصحّ إن شاء الله ـ فسأله عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال: لن أرضاها لك. فبلغ ذلك أمّها فحَقَدت على يحيى عليه السلام حين نهاه أن يتزوّج بنتَها، فعَمدت أمّ الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابًا رِقاقًا حمراءَ وطيّبتها[٢] وألبستها من الحُليّ، وألبستها فوق ذلك كساءً أسودَ وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تَسقيَه وأن تتعرّض[٣] إليه، فإن أرادها على نفسها[٤] أبتْ عليه حتى يُعطيَها ما سألتْه، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يُؤتَى برأس يحيى بن زكريا في طَسْتٍ، ففعلتْ. فلمّا أخذ منه الشرابُ أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تُعطيَني ما أسألك. قال: ما تَسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريّا فتُؤتَى برأسه في طَسْتٍ. فقال: وَيْحكِ! سَلِيني غير هذا. قالت: ما أريد إلاّ هذا. فلمّا أبتْ عليه بعث إليه فأُتِيَ برأسه، والرأس يتكلّم حتى وُضِع بين يديه وهو يقول: لا يحِلّ لك. فلمّا أصبح إذا دَمُه يَغْلِي، فأمر بترابٍ فأُلقِيَ عليه، فرقِيَ الدمُ فوق التراب يَغْلِي، فأُلقِيَ عليه أيضًا فارتفع الدمُ فوقه، فلم يزل يُلقَى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي. فبلغ صَيْحون ملك بابل ذلك فنادى في الناس، وأراد أن يبعث إليهم جيشًا [ويؤمّر عليهم رجلًا][٥]. فأتاه بختنصّر فكلّمه وقال: إنّ الذي كنتَ أرسلتَ تلك المرّة ضعيفٌ، وإنّي قد دخلتُ المدينة وسمعتُ كلام أهليها [فابعثني][٦] فبعثه. فسار بختنصّر، حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منه في مدائنهم فلم يُطقْهم. فلمّا اشتدّ عليه المُقامُ وجاع أصحابُه وأرادوا الرجوع خرجت امرأةٌ عجوزٌ من عجائز بني إسرائيل فقالت: أين أميرُ الجُنْد؟ فأُتِيَ بها إليه. فقالت: إنه بلغني أنك تريد أن ترجع بجُنْدك قبل أن تفتح هذه المدينة. قال: نعم، قد طال مُقامي وجاع

---

(١) الأمان: كتابٌ يأمن صاحبه بموجبه من الشرّ.

(٢) طيّبتها: ضمّختها بالطيب. (٣) تتعرّض إليه: تغريه.

(٤) أرادها على نفسها: طلب منها أن يفجُر بها.

(٥) زيادة عن الثعلبي. (٦) زيادة عن الثعلبي.

أصحابي، فلستُ أستطيع المُقام فوق الذي كان منِّي. فقالت: أرأيتَك إن فُتِحَتْ لك المدينةُ أتُعطِيني ما أسألك، فتقتُل مَن أمرتُك بقتله، وتكُفّ إذا أمرتُك أن تكفّ؟ فقال لها نعم. قالت: إذا أصبحتَ فاْقسِمْ جندَك أربعةَ أرباع، ثم اْجعَلْ في كل زاوية رُبْعًا، ثم اْرفعوا أيديَكم إلى السماء فنادُوا: إنّا نستفتحك[1] يا الله بدم يحيى بن زكريّا، فإنها سوف تَسّاقط، ففعلوا؛ فتساقطتِ المدينةُ فدخلوا من جوانبها. فقالت: كُفّ يدك واْقتل على هذا الدم حتى يسكُن، واْنطلقت به إلى دم يحيى بن زكريّا، وهو على تراب كثير، فقتل عليه حتى سَكَنَ، فقتل سبعين ألفًا. فلمّا سكن الدم قالت له: كُفّ يدك فإنّ الله تعالى إذا قُتِلَ نبيّ لم يرضَ حتى يُقتَل مَن قتله ومَن رضِيَ قَتْلَه. وأتاه صاحبُ الصحيفة بصحيفته فكفّ عنه وعن أهل بيته، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تُطرَح الجِيَفُ فيه، وقال: مَن طَرَح فيه جيفةً فله جِزْيَته تلك السنة. قال: وأعانه الروم على خرابه من أجل أنّ بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا.

قال: فلمّا خرّبه بختنصّر ذهب معه بوُجُوه بني إسرائيل وسَرَاتهم[2] وذهب بدَانِيَالَ وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت الملك، فلمّا قَدِم وجد صَيْحون مَلِكَ بابِلَ قد مات فمُلِّكَ مكانه.

ذكر خبر بختنصّر مع دانِيَال

قال: ولمّا سار بختنصّر إلى بابِلَ ومُلِّك بعد موت الملك كان معه دانِيَالُ، وكان أكرمَ الناس عليه هو وأصحابُه، فحسدهم المَجُوس على ذلك، فوشَوْا[3] بهم إليه وقالوا: إنّ دانيالَ وأصحابَه لا يعبدون إلٰهك ولا يأكلون ذَبِيحتك. فدعاهم فسألهم؛ فقالوا: أجَلْ، إنّ لنا ربًّا نعبُده، ولسنا نأكل من ذبيحتكم. فأمر أن يُخَدّ[4] لهم أُخدودٌ فخُدّ لهم وأُلقوا فيه وهم ستّة، وأُلقِيَ معهم سَبُعٌ ضارٍ[5] ليأكلهم، ثم قال: اذهبوا بنا لنأكل ونشرب، فذهبوا فأكلوا وشربوا، ثم عادوا فوجدوهم سبعة والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدِش منهم أحدًا. فقالوا: ما بالُ هذا السابع إنما كانوا ستّة! فخرج السابع إلى بختنصّر، وكان مَلَكًا من الملائكة، فلطَمه لطمةً فصار من الوحش [ومسخه الله] سبع سنين، [ثم ردّه الله إلى صورته وردّ عليه ملكه][6]. هذا ما حكاه السدّيّ.

---

(١) نستفتحك: نطلب منك الفتح والنّصر.

(٢) السّراة: من القوم سادتهم وأكارمهم وأعلاهم فرعًا وشرفًا.

(٣) وشوا بهم: من الوشاية، وهي النميمة والسّعاية بالشّر.

(٤) يُخدَّ لهم: يحفر، والأخدود: الحفرة المستطيلة في الأرض.

(٥) الضاري: المفترس المولع بأكل اللّحوم. (٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

وروى الثعلبيّ بسنده إلى وَهْب قال: لمّا سار بختنصّر إلى بابل ومُلّك بعد موت ملكها واستتبّ أمرُه لبِثَ على ذلك مدّة، ثم رأى رؤيا عجيبة فأفزعته وسأل عنها الكَهَنةَ والسحَرةَ فعجزوا عن تعبيرها. فبلغ ذلك دانِيَال وكان في السجن مع أصحابه وقد أحبّه صاحب السجن وأُعجبَ به لِمَا رأى من حسن سَمْته[١]. فقال له دانيال: إنك قد أحسنتَ إليّ، وإنّ صاحبكم قد رأى رؤيا، فدُلّه عليّ لأُعبِّرها[٢] له. فجاء السجّان فأخبر بختنصّر بقصّة دانِيَال، فاستدعاه فجاء إليه. وكان من عادة من حَضَر بين يَدَي الملك أن يسجُد له، فلما أتَوْا بدانيال قام بين يديه ولم يسجُد له. فقال: ما الذي منعك من السجود؟ فقال: إن لي ربًّا آتاني العلمَ والحكمةَ وأمرني ألاّ أسجُد لغيره، فخشِيتُ إن سجدتُ لغيره أن ينزِع منّي الحكمة والعلم ويُهلكني. فأُعجِب به وقال: نِعْمَ ما فعلتَ حيث وفّيتَ بعهده، وأجللتَ علمه؛ ثم قال: هل عندك علمُ هذه الرؤيا؟ قال: نَعَمْ وأبشر، فأخبره برؤياه قبل أن يخبره الملك بها، وعبّرها له. قال الثعلبيّ: وكانت الرؤيا على ما أخبرَنا به عبد الله بن حامد[٣] في إسناده عن وهب بن منبّه قال: إنّ بختنصّر رأى في آخر زمانِه صنمًا رأسه من ذهب، وصدره من فضّة، وبطنه من نُحاس، وفخذاه من حديد، وساقاه من فَخّار، ثم رأى حجرًا من السماء وقع عليه فدقّه، ثم ربا[٤] الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرة أصلُها في الأرض وفرعُها في السماء، ثم رأى عليها رجلاً بيده فأس وسمع مناديًا ينادي: اضربْ جِذْعَها ليتفرّق الطيرُ من فروعها، وتتفرّق الدوابّ والسباع من تحتها، واترك أصلَها قائمًا. فعبّرها دانيال عليه السلام له فقال: أمّا الصنمُ الذي رأيتَ، فأنت الرأس وأنت أفضلُ الملوك. وأما الصدرُ الذي من فضة فابنك يملك من بعدك. وأما البطنُ الذي رأيتَ من نُحاس فمَلِكٌ يكون بعد ابنك يكون أشدّ الملوك. وأما ما رأيتَ من الفَخذَيْن من حديد فيتفرّق الناس فرقتين في فارس. وأما الفَخَّار فآخرُ ملكهم يكون دون الحديد. وأما الحجر الذي رأيتَه قد ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبيّ يبعثه الله تعالى في آخر الزمان فيفرّق مُلْكَهم كلَّه، ويربو مُلكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب. وأما الشجرةُ التي رأيتَ والطيرُ التي عليها والسِّباعُ والدوابُّ التي تحتها وما أمر بقطعها، فيذهب مُلكك ويردّك الله طائرًا تكون

---

(١) السّمت: الهيئة والوقار والمذهب. (٢) عبّر الرؤيا: فسّرها.

(٣) لعلّه عبد الله بن عبيد بن عُمير الذي ورد ذكره فيما بعد محدّثًا عن وهب بن منبّه لأنه لم نجد في المصادر من يذكر هذا الاسم.

(٤) ربا: زاد وكبر.

نسرًا ملِك الطير، ثم يردّك الله ثورًا ملك الدوابّ، ثم يردّك الله أسدًا ملِك السباع والوحش سبع سنين، وفي كل ذلك قلبك قلب إنسان، حتى تعلم أنّ الله له مُلْك السموات والأرض، يقدر على الأرض ومَن عليها، وكما رأيتَ أصلها قائمًا فإن مُلكك قائم.

قال: فمُسِخَ بختنصّر نسرًا في الطيور، وثورًا في الدوابّ، وأسدًا في السباع، فكان مسخه كله سبع سنين، ثم ردّ الله تعالى إليه مُلكه، فآمن ودعا الناس إلى الله تعالى.

قال: وسُئل وهب بن منبّه: أكان بختنصّر مؤمنًا؟ فقال: وجدتُ أهل الكتاب قد ٱختلفوا فيه، فمنهم من قال: مات مؤمنًا، ومنهم من قال: مات كافرًا؛ لأنه حَرَّق بيت المقدس وكُتُبَ الله وقَتَل الأنبياء، فغضِب الله تعالى عليه ولم يقبل توبته.

قالوا: فلمّا عبّر دانيال لبختنصّر رؤياه أكرمه وصحِبَه وٱستشاره في أموره وقرّبه منه حتى كان أكرمَ الناسِ عليه وأحبّهم إليه، فحسده المجوس على ذلك ووشَوْا به وبأصحابه إلى بختنصّر فقالوا: إنّ دانِيَال وأصحابه لا يعبدون إلٰهك، ولا يأكلون ذَبيحتك. فدعاهم وسألهم فقالوا: إن لنا ربًّا نعبده ولسنا نأكل من ذبائحكم. فأمر بختنصّر بأُخدود، فخُدّ لهم وأُلقوا فيه، وهم ستّة، وأُلقِيَ معهم سبُعٌ ضارٍ ليأكلهم، ثم قالوا: انطلِقوا لنأكل ونشربَ، فأكلوا وشرِبوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسًا والسبع مفترش ذراعَيْه بينهم ولم يخدِش منهم أحدًا ولم ينكأهم[1] بشيء، ووجدوا معهم رجلًا فعدُّوهم فوجدوهم سبعة، فقالوا: ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستّة!. فخرج إليهم السابع، وكان ملَكًا من الملائكة، فلطم بختنصّر لطمةً فصار في الوحوش، ومسخه الله تعالى سبعَ سنين ثم ردّه الله تعالى إلى صورته وردّ عليه مُلْكه.

قال السُّدِّيّ: ثم إن بختنصر لمّا رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله تعالى عليه مُلْكه، كان دانِيَالُ وأصحابُه أكرمَ الناس عليه، فحسدته المجوسُ ووشَوْا به ثانية فقالوا لبختنصّر: إنّ دانِيَالَ إذا شرِب الخمرَ لم يملك نفسه أن يَبُول، وكان ذلك فيهم عارٌ. فجعل بختنصّر لهم طعامًا وشرابًا فأكلوا وشربوا وقالوا للبوّابين: انظروا أوّل مَن يخرج إليكم ليبول فأضربوه بالطَّبْرَزِين[2]، وإن قال لكم أنا بختنصّر فقولوا له:

---

(١) ينأهم: يجرحهم.

(٢) الطّبرزين: كلمة فارسية، وهي آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان، يعلّقها الفارس في سرجه لاستخدامها وقت القتال والمبارزة «انظر صبح الأعشى ٥/ ٢٠١».

كذبتَ، بختنصّر أمرنا بهذا. فحبس الله تعالى عن دانيال البَوْل، وكان أوّلُ مَن قام من القوم يريد البَوْل بختنصّر، فقام مُدِلاًّ[١] وذلك ليلاً، فخرج يسحَب ثيابه، فشدّ عليه البوّاب فقال: أنا بختنصر. فقال: كذبتَ، بختنصّر أمرني أن أقتل أوّلُ مَن يخرج، فضربه فقتله.

وحكى محمد بن إسحاق[٢] بن يَسَار في سبب هلاك بختنصّر غير ما حكاه السُّدّيّ، وذلك أنه قال بإسناده: لمّا أراد الله تعالى هَلاكَ بختنصّر أنبعثَ فقال لمن كان في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيتَ الذي خرّبتُه، وهؤلاء الناس الذين قتلتُهم مَن همْ؟ وما هذا البيت؟ قالوا: هذا بيتُ الله ومسجدٌ من مساجده، وهؤلاء أهله، كانوا من ذرارِي الأنبياء فظلموا وتعدَّوْا وعصَوْا، فسُلِّطتَ عليهم بذنوبهم، وكان ربُّهم ربُّ السموات والأرض وربّ الخلق كلهم، يُكرمهم ويمنعهم ويُعزّهم، فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله تعالى وسلّط عليهم غيرهم. قال: فأخبروني. ما الذي يطلُع بي إلى السماء العُليا لعلّي أطّلع إليها وأقتل من فيها وأتخذها مُلْكًا فإني قد فرغت من الأرض ومَن فيها؟ قالوا: ما يقدِر على هذا أحدٌ من الخلائق. قال: لَتفعلُنّ أو لأقتلنّكم عن آخركم. فبكَوْا وتضرّعوا[٣] إلى الله تعالى، فبعث الله عزّ وجل عليه بقدرته ليُرِيه ضَعفَه وهوانه بعوضةً فدخلت في مَنْخَره ثم ساخت[٤] فيه حتى عضّت بأمّ دماغه فما يَقِرّ ولا يسكن حتى يُوجأ[٥] له رأسُه على أمّ دماغه. فلمّا عرف أنه الموت قال لخاصّته من أهله: إذا مُتّ فشُقُّوا رأسي فأنظروا ما هذا الذي قتلني. فلمّا مات شقّوا رأسه فوجدوا البعوضةَ عاضّة بأمّ دماغه ليُرِيَ الله تعالى عباده قُدرتَه وسلطانَه، ونجّى الله تعالى مَن بَقِيَ في يديه من بني إسرائيل وردّهم إلى إيليا والشام، فبنَوْا فيه وربوا وكثُروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه. قال: فيزعمون أنّ الله تعالى أحيا أولئك الموتَى الذين قُتلوا ولَحِقوا بهم. قال: ثم إنهم لمّا رجعوا إلى الشام وقد أُحرقتِ التوراةُ وليس معهم عهد من الله تعالى جدّد الله عزّ وجل تَوْراتَهم وردّها عليهم على لسان عُزَيْر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) مدلاً: مظهرًا الجرأة في تكسّر وملاحة.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، أقدم مؤرّخي العرب، له السيرة النبوية، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١هـ وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار «الأعلام ٦/ ٢٨».

(٣) تضرّعوا: ابتهلوا.

(٤) ساخت فيه: غاصت.

(٥) يوجأ: يشقّ أو يضرب.

قال: وكان عُمر بختنصّر بأيام مَسْخه نَيِّفًا وخمسين سنة وخمسين يومًا. فلمّا مات بختنصّر ٱستُخلف [ٱبنه][1] بلسطاس. وكانت آنيةُ بيتِ المقدِس التي حملَها بختنصّر إلى بابل باقيةً، فنجّسها بلحوم الخنازير وأكل وشرب فيها، وأقصى[2] دانيالَ ولم يقبل منه، وٱعتزله دانيال. فبينما بلسطاس ذات يوم إذ بدت له كف بغير ساعد وكتبت ثلاثةَ أحرُف بمشهده ثم غابت، فعجِب من ذلك ولم يدر ما هي، فٱستدعَى دانيالَ وٱعتذر إليه وسأله أن يقرأ تلك الكتابة ويخبره بتأويلها. فقرأها دانيال، فإذا هي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. وُزِنَ فخفّ[3]، ووُعِد فنجز، وجُمع فتفرّق». فقال دانيال: أمّا قوله وُزن فخفّ، أي وُزِن عملُك في الميزان فخفّ. ووُعِد مُلْكٌ فنجز اليوم، وجُمِع فتفرّق، أي جُمِع لك ولوالدك من قَبلِك مُلْكٌ عظيمٌ فتفرّق اليوم فلا يرجع إلى يوم القيامة. فلم يلبث إلا قليلاً حتى أهلكهم الله تعالى وضعُف مُلكهم، وبقِيَ دانيال بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس[4].

فهذه الأقاويلُ التي وردت في بختنصّر هي على ما جاء في التفسير[5] والمبتدا[6]. وأمّا قول من قال إنه كان مَرْزُبانًا[7] للهراسف الملك الفارسيّ فسنذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك الفُرْس، على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى في موضعه وهو في الباب الثالث من القسم الرابع من هذا الفنّ في السفر الثالث عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا. وهذه الأخبار التي قدّمنا ذكرها أوردها أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسيره وفي كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان في قصص القرآن». وقال في تفسيره: إلاّ أنّ رواية مَن رَوَى أن بختنصّر غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريّا عليهما السلام غلطٌ عند أهل السِّيَر والأخبار والعلم بأمور الماضِين من أهل الكتاب والمسلمين. وذلك أنهم مُجمعون على أن بختنصّر غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شَعْيَا وفي عهد إرميَا بن حِلْقيّا عليهم السلام، وهي الوقعة الأولى التي قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ [الإسراء: ٥] يعني بختنصّر وجنودَه.

---

(١) زيادة من الثعلبي. (٢) أقصى: أبعد.

(٣) في الأصول: وزن فخفّف.. وجمع ففرّق، والمثبت عن الثعلبي لوضوحه.

(٤) السّوس: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السّلام وقال ابن المقفّع: أوّل سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور السّوس، وقال ابن الكلبي: السّوس بن سام بن نوح عليه السلام «معجم البلدان ٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١».

(٥) هو الكشف والبيان في تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ.

(٦) لعلّه: العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون.

(٧) المرزبان: الرئيس عند الفرس.

قال الثعلبيّ قالوا: ومن عهد إرْمِيَا وتخريب بختنصّر البيت المقدّس إلى مولد يحيى بن زكريّا أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة. والله أعلم.

ذكر خبر عمارة بيت المقدس بعد أن خرّبه بختنصّر وخبر الذي مرّ على قرية

قال الله عزّ وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ...﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: اختلفوا في ذلك المارّ[١] مَن كان، فقال عِكْرمة وقَتَادة والرَّبيع بن أنس[٢] والضحّاك والسُدّيّ وناجية[٣] بن كعب وسليمان بن بُرَيدة[٤] وسَلْم[٥] الخوَّاص: هو عُزَير بن شرخيا. وقال وهب بن مُنَبِّه وعبد الله بن عبيد[٥] بن عُمَيْر: هو إرْمِيَا بن حِلْقِيّا، وكان من سِبْط هارون بن عمران، وقد تقدّم ذكره.

قال: وٱختلفوا أيضًا في القرية التي مرّ عليها، فقال وهب وعِكْرمة وقَتَادة والربيع: هي بيت المقدس. وقال الضحّاك: هي الأرض المقدّسة. وقال ٱبن زَيْد: هي الأرض التي أهلك الله تعالى بها ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقال الكلبيّ: هي دَيْر سَابُرَابَاذ. وقال السُدّيّ: هي سلماباذ. وقيل: هي دَيْر[٦] هِزْقِل. وقيل: هي قرية العِنَب، وهي على فرسخين من بيت المقدس. قال فالذي يقول: إن المارّ إرْمِيَا وإنّ القرية بيت المقدس، هو ما رواه محمد بن إسحاق بن يَسَار عن وهب بن مُنَبِّه: أنه لمّا كان من أمر إرْمِيَا ما قدّمناه، وأنه طار لمّا ٱلتهب مكان القُرْبان وخُسف بسبعة أبواب من أبواب بيت المقدس حتى خالط إرْمِيَا الوحش ودخل بختنصّر وجنودُهُ بيت المقدس وخُرِّب كما تقدّم. فلمّا رجع

---

(١) المارّ: أي الذي مرَّ على تلك القرية.

(٢) هو الربيع بن أنس، بصري نزل خراسان، محدّث صدوق ثقة حُبس بمرو ثلاثين سنة مات سنة ١٣٩هـ «الكاشف ١/ ٢٣٤».

(٣) هو ناجية بن كعب الأسدي، محدّث لم يرو عنه غير أبي إسحاق الثعلبي، عدّه البعض من الثقات «الكاشف ٣/ ١٧٢».

(٤) هو سليمان بُريدة الأسلمي، حدّث بمرو، وعدّ من الثقات، توفي سنة ١٠٥هـ «الكاشف ١/ ٣١١».

(٥) هو عبد الله بن عبيد بن عُمير الليثي، أبو حاتم، توفي سنة ١١٣هـ عُدّ من الثقات «الكاشف ٢/ ٩٥».

(٦) دير هزقل: وأصله دير حزقيل، وهو ديرٌ مشهور بين البصرة وعسكر مُكرم «انظر معجم البلدان ٢/ ٥٤٠».

بختنصّر عن بيت المقدس أقبل إرْمِيَا على حمار له معه عَصيرُ عنب في رِكْوَة[١] وسَلّةُ تين حتى غَشِيَ إيلِيَاء[٢]. فلمّا وقف عليها ورأى خرابها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]!. قال: ثم ربط إرْمِيَا حماره بحبل جديد، فألقَى الله تعالى عليه النوم، فلمّا نام نَزَع منه الرُّوح مائةَ عام وأمات حمارَه، وعَصِيرُه وتينُه عنده، وأعمى الله تعالى عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضُحًى، ومنع الله السباعَ والطيرَ لحمه. فلمّا مضى من نومه سبعون سنة أرسل الله عزّ وجل مَلَكًا إلى مَلِك عظيم من ملوك فارس يقال له: «بُوسَك»[٣] فقال له: إن الله عزّ وجل يأمرك أن تنفِر بقومك فتعمِّر بيت المقدس وإيلياءَ وأرضَها حتى تعود أحسنَ ما كانت، فانتدب الملك ألف قَهْرمان[٤] مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل، فجعلوا يعمِّرونها فعُمِّرت، ونجّى الله تعالى مَن بَقِيَ من بني إسرائيل ولم يمت ببابل أحدٌ منهم وردّهم الله تعالى إلى بيت المقدس وعَمّروها ثلاثين سنة حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه؛ وذلك بعد أن خُرِّبت سبعين سنة. فلمّا مضت المائة سنةٍ أحيا الله عزّ وجل منه عينيه وسائرُ جسده ميّتٌ، ثم أحيا جسده وهو ينظر، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامُه متفرّقةٌ بيضٌ تلوح، فسمع صوتًا من السماء: أيّتها العظامُ الباليةُ إن الله يأمركِ أن تجتمعي، فاجتمع بعضها إلى بعض واتّصل بعضها ببعض. ثم نُودِيَ: إن الله يأمركِ أن تكتسِيَ لحمًا وجِلْدًا فكان كذلك. ثم نُودِيَ: إن الله يأمركَ أن تحيا، فقام بإذن الله ونَهَق. وعمّر الله تعالى إرْمِيَا، فهو الذي يُرَى في الفَلَوَات؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي أحياه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وذلك أن الله تعالى أماته ضُحًى في أوّل النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾، وهو يرى أن الشمس قد غَرُبت، ثم التفت فرأى بقيّةً من الشمس فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، بمعنى بل بعض يوم ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ يعني التّين ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعني العَصِير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي لم يتغير ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. قال وهب: ليس في الجنة كلبٌ ولا حمارٌ إلا كلبُ أصحابِ أهلِ الكهف وحمارُ إرْمِيَا الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. هذا قول من قال إنه إرميا بن حِلْقِيَا.

* * *

(١) الرَّكوة: إناءٌ صغير من جلد. (٢) إيلياء: بيت المقدس.

(٣) في رواية الثعلبي «يوشك» وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي «كوشك» ٤/ ٢٩١.

(٤) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدّخل والخرج.

وأمّا من قال إنه عُزَيْر، فإنه يقول: إنّ بختنصّر لمّا خرّب بيتَ المقدس قتل أربعين ألفًا من قرّاء التوراة والعلماء، وقتل منهم أبا عُزَيْر وحدَه. وكان عُزَيْر يومئذ غلامًا قد قرأ التوراة وتقدّم في العلم، وأقدمه بختنصّر مع بني إسرائيل إلى أرض بابل، وهو من ولد هارون. فلمّا نجا عُزَير من بابل ٱرتحل على حمار حتى نزل على دير هِزْقِل على شطّ دِجْلة، وطاف في القرية فلم ير فيها أحدًا، وعامّة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة وٱعتصر من العنب وشرب منه، وجعل فضل الفاكهة[1] في سَلّة وفضل العصير في زِقّ. فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية، وساق فيه نحو ما تقدّم في خبر إرْمِيَا.

وقال قوم في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] إنّ الله تعالى لم يُمِتْ حمارَه فأحيا الله تعالى عينيه ورأسَه وسائرُ جسده ميّتٌ فقال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فنظر إلى حماره قائمًا كهيئته يومَ ربطه حيًّا، لم يَطْعَم ولم يشرَب مائةَ عام، ونظر إلى الرُّمّة[2] في عُنُقه جديدة؛ وهذا قول الضحّاك وقَتادة. وقال الآخرون: أراد عظام حماره كما تقدّم في قصّة إرْمِيَا. وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت. وقال الضحّاك: وهو أنه عاد إلى قريته وأولادُه وأولادُ أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللِّحية.

وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: أحيا الله تعالى عُزَيرًا بعد مائة سنة، فركب حماره حتى جاء مَحَلّته[3]، فأنكره الناسُ وأنكر الناسَ ومنازلَه، فٱنطلق على وَهْم حتى أتى منزلَه، وإذا هو بعجوز عمياءَ قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنةً، وكانت أمَةً لهم، فخرج عنهم عُزَير وهي ٱبنة عشرين سنة، وكانت قد عَرَفته وعَقِلَتْه؛ فلما أصابها الكِبَرُ والزَّمَنُ[4] قال لها عُزَير: يا هذه، هذا منزل[5] عُزَير؟ قالت: نعم هذا منزل عُزَير وبكت وقالت: ما رأيتُ أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عُزَيرًا وقد نَسِيَه الناس. قال: فإني عُزَير. قالت: سبحان الله! فإنّ عُزَيرًا قد فقدناه من مائة سنة. قال: فإنّي أنا عُزَير، إنّ الله أماتني مائة سنة ثم بعثني. قالت: فإن عُزَيرًا كان رجلًا مُجابَ الدعوة، يدعو للمريض وصاحبِ البلاء بالعافية والشفاء، فٱدعُ الله يردّ عليّ بَصَري

---

(١) فضل الفاكهة: ما زاد منها. (٢) الرّمة: القطعة البالية من الحبل.

(٣) وردت في الأصل محرّفة، والتصويب عن الثعلبي.

(٤) الزَّمن: من الزّمانة وهي الكبر وتعطيل القوى.

(٥) في الأصل: «هذه منازل» والتصويب عن الثعلبي.

حتى أراك، فإن كنتَ عُزَيْرًا عرفتُك. فدعا ربّه تعالى فاستجاب له ومسح بيده على وجهها وعينيها فصحّتا، وأخذ بيدها وقال لها: قومي بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجلَيْها، فقامت صحيحةً كأنما نَشطَت[١] من عِقَال[٢]، فنظرت إليه فقالت: أشهَد أنك عُزَير. فانطلقت إلى مَحَلّة بني إسرائيل وهم في أنديَتهم ومجالسهم وٱبنٌ لعُزَير شيخٌ ٱبن مائة سنة وثمانيةَ عشرَ سنة وبنو ٱبنه شيوخٌ في المجالس، فنادت: هذا عُزَير قد قَدِم وجاءكم، فكذّبوها. فقالت: وأنا فلانة مولاتكم دعا لي ربّه فردّ الله عليّ عينيّ وأطلق رجليّ، وزعم أنّ الله أماته مائة عام ثم بعثه. فنهض الناسُ وأقبلوا إليه، فقال ٱبنه: إنه كان لأبي شامةٌ سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه وإذا هو عُزَير.

* * *

وأمّا خبرُ فتنة اليهود به وقولُهم عُزَيرٌ ٱبن الله، فقد رَوَى عطيّة العَوْفِيّ[٣] عن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: كان عُزَير من أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعَمِلُوا بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعَمِلوا بغير الحقّ، وكان التابوت فيهم. فلمّا رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراةَ وعَمِلوا بالأهواء[٤] رَفَع عنهم التابوتَ وأنساهم التوراة ونَسَخها[٥] من صدورهم، وأرسل عليه مرضًا، فٱستَطلقت[٦] بطونُهم، حتى إنّ الرجل يَمَسّ كَبِدَه، حتى نَسُوا التوراة وفيهم عُزَير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نُسِخَت التوراةُ من صدورهم. وكان عُزَير دعا الله وٱبتهل إليه أن يردّ إليه الذي نُسِخَ من صدورهم. فبينما هو يصلّي ويبتهل إلى الله تعالى إذ نزل نورٌ من السماء فدخل في جَوْفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من التوراة، فأذّن في قومه فقال: يا قوم، قد أتانِيَ الله التوراة وردّها إليّ، فطفِق[٧] يُعلّمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلّمهم. ثم إنّ التابوتَ نزل بعد ذلك. فلمّا رأَوُا التابوت عَرَضوا ما كان فيه على الذي كان يعلّمهم عُزَير فوجدوه مثلَه، فقالوا: والله ما أُوتِيَ عزير هذا إلاّ وهو ٱبن الله.

---

(١) نشطت: خرجت. (٢) العقال: القيد.
(٣) هو عطية بن سعد العوفي، أبو الحسن، محدّث مات سنة ١١١هـ «الكاشف ٢/ ٢٣٥».
(٤) الأهواء: مفردها الهوى وهو الميل إلى ما تحبّه النفس.
(٥) نسخها من صدورها: أي أزالها. (٦) استطلقت بطنه: سال ما فيها.
(٧) طفق: جعل واستمرّ بفعله.

وقال السُّدِّيّ وابنُ عبّاس في رواية عمّار بن ياسر[١]: إنما قالت اليهودُ هذا لأنّ العمالقةَ ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهَرَب علماؤهم الذين بَقُوا ودفنُوا التوراة في الجبال وغيرها، ولحق عُزَير بالجبال والوحوش، وجعل يتعبّد في رؤوس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل إلاّ يوم عيد، وجعل يبكي ويقول: يا ربّ تركتُ بني إسرائيل بغير عالم، فبكى حتى سقطت أشفار[٢] عينيه، فنزل مرّةً إلى العيد، فلمّا رجع إذا هو بامرأة قد تمثّلت له عند قبر من القبور تبكي وتقول: يا مُطْعِمَاه، ويا كاسياه! فقال لها عُزَير: يا هذه اتقي الله واصبِري واحتسِبي، أمَا علمتِ أنّ الموت مكتوبٌ على الناس! وقال لها: وَيْحَكِ! مَن كان يُطعِمُكِ ويكسوكِ قبل هذا الرجل؟ (يعني زوجها التي كانت تندُبه). قالت له: الله تعالى. قال: فإن الله تعالى حيّ لا يموت. فقالت: يا عُزَير، مَن كان يعلِّم العلماء قبلَ بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلِمَ تبكي عليهم وقد علمتَ أنّ الموت حقّ وأن الله حيّ لم يمت. فلمّا علم عُزَير أنه قد خُصِم[٣] ولّى مُدبرًا. فقالت له: يا عُزَير، لستُ بامرأة ولكنّي الدنيا. أمّا أنه ستنبعُ لك في مُصَلاّك عينٌ وتنبتُ لك شجرةٌ، فكُلْ من ثمرة تلك الشجرة واشرَبْ من ماء تلك العين واغتسل وصلّ ركعتين؛ فإنه سيأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخذ منه. فلمّا أصبح نبعت العين في مُصلاّه ونَبَتَتِ الشجرة، ففعل ما أمرتْه به، وجاء شيخ وقال له: افتح فاك، ففتح فاه فألقَى فيه شيئًا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعًا كهيئة القوارير ثلاث مرّات، ثم قال له: ادخُل هذه العينَ فامشِ فيها حتى تبلُغ قومك. قال: فدخلها فجعل لا يرفع قدمه إلاّ زِيدَ في علمه، فرَجَع إليهم وهو أعلم الناس بالتوراة. فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عُزَير، ما كنتَ كذّابًا. فربط على كلّ إصبع له قلمًا وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراةَ كلَّها عن ظهر قلبه، فأحيا لبني إسرائيل التوراة وأحيا لهم السُّنّة. فلمّا رَجَع العلماء استخرجوا كُتُبَهم التي كانوا دفنوها، فعارَضُوا[٤] بها توراةَ عُزَير فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاه الله تعالى هذا إلاّ أنه ابنه.

وقال الكلبيّ[٥]: إنّ بختنصّر لمّا ظهر على بني إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل مَرّةً قُرّاء التوراة، كان عُزَير إذ ذاك غلامًا صغيرًا، فاستضعفه فلم يقتله، ولم يدرِ

---

(١) هو عمّار بن ياسر العنسي، أحد السابقين البدريين، وهو أوّل من بنى مسجدًا، قتل بصفين عن ثلاثٍ وتسعين سنة «الكاشف ٢/ ٢٦١».

(٢) أشفار العين: مفردها شفر وهو أصل منبت الشعر في طرف العين.

(٣) خُصم: أي لقّن حجّة بينة من خصمه. (٤) عارضوا بها: قابلوها.

(٥) الكلبي: هو محمد بن السائب بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسّابة عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، توفي سنة ١٤٦هـ «الأعلام ٦/ ١٣٣».

أنه يقرأ التوراة. فلمّا تُوفِّيَ مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس منهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عزّ وجل عُزَيرًا ليجدّد لهم التوراةَ ويكون لهم آية، فأتاهم فقال: أنا عُزَير. فكذّبوه وقالوا: إن كنتَ عُزَيرًا كما تزعُم فاْتلُ علينا التوراةَ. فكتبها وقال: هذه التوراة. ثم إنّ رجلاً قال: إنّ أبي حدّثني عن جدّي أن التوراة جُعِلتْ في خابية ثم دُفنت في كَرْم. فانْطلقوا معه حتى احتفروها وأخرجوا التوراة، فعارضوها بما كتب عُزَير فلم يجدوه غادر منها آية ولا[1] حرفًا، فعجِبوا وقالوا: إنّ الله لم يقذِف التوراة في قلب رجل واحد منّا بعدما ذهبت من قلوبنا إلاّ أنّه ابنه؛ فعند ذل قالت اليهود: عُزَير ابن الله.

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفن الخامس
في قصة ذي النُّون يونس بن مَتَّى عليه السلام وخبر بلوقيا

ذكر قصة ذي النُّون يونُس بن مَتّى عليه السلام

قال الكسائيّ رحمه الله: قال وهب بن مُنَبِّه: كان مَتَّى رجلاً صالحًا من أهل بيت النبوّة، ولم يُرْزَق الولدَ إلى آخر عمره بعد أن أسنّ هو وزوجته، فسأل الله تعالى الولدَ، فنُودِيَ: إنّ الله قد استجاب دعاءك، فانْطلِقْ إلى حَظِيرة التوبة، وهو الموضع الذي أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فيه لمّا عبدوا العِجْل. فصار إلى هناك وإذا بملَكٍ قد هَبَط من السماء فضرب قُبّة على باب حَظيرة التوبة، وذلك في ليلة عاشوراءَ، وأمرهما أن يدخلاها فدخلا وواقعها[2]، فحملت بيونُسَ، ثم انصرفا إلى منزلهما. فلمّا صار لها أربعةَ أشهُر تُوُفِّيَ متّى وبقيتْ امرأتُه أرملةً ليس لها إلاّ قَصْعة[3] كانت لآل هارون، فكانت تُصِيب رزقَها في المَسَاء والصباح من عند الله. فلمّا وَضَعَت يونُسَ لم يكن لها لَبَن يكفيه، فكانت أمّه تأتي إلى الرُّعاة وتسألهم اللبنَ فلا يجيبونها، فكانت تقول: اللهُمّ هذا الولد هِبَتُك فلا تُهلكه جُوعًا، فكانت المواشِي تأتيه وتَمجّ[4] عليه بضَرْعها حتى يشبعَ، فإذا شَبعَ يقول: الحمد لله، فآمَنَ به جماعةٌ

(١) زيادة عن الثعلبي. (٢) واقعها: جامعها.
(٣) القصعة: وعاء يؤكل فيه ويثرد، وكان يُتخذ من الخشب.
(٤) تمجّ: تسترخي، والضَرع: موضع الدَّر.

من الرُّعاة، فبقيَ كذلك حتى فَطَمته أُمه، وكان يُسمَّى يتيم بني إسرائيل، حتى أتت عليه سبعُ سنين، فأقبل على أمه فقال: يا أمّاه، لا ينبغي أن تذهب أيّامي بالبِطالة، وأُريد أن تُلبِسيني ثوبًا من الصوف حتى ألحقَ بالعُبّاد وأكون معهم. فقالت: يا بنيّ، أنت صغير ولم يأنِ[1] لك أن تَسِيح[2]. فلم يزل بأمّه حتى أجابته إلى ذلك ولَحِق بالعُبّاد وٱشتهر ذكرُه فيهم بكثرة العبادة حتى ٱستكمل من العُمْر خمسًا وعشرين سنة، فرأى في منامه: إنّ الله يأمرك أن تمضِيَ إلى مدينة الرَّمْلة[3] فإنّ فيها وليًّا من أوليائي وله ٱبنةٌ عفيفةٌ فتزوّجها منه. فلمّا أصبح عزمَ على المسير، وصَحِبه جماعةٌ من بني إسرائيل من أصحابه، وسار حتى دخل مدينة الرَّمْلة، وسأل عنه فقيل: إنه في السُّوق يبيع ويشتري. فعجِب يونس من ذلك وجاء إلى السُّوق فرآه وهو يبيع الطيِّب ويُكثر الضِّحك. فقال يونس: ليس هذا من صفات الأولياء والعبّاد. فنظر إليه زكريّا[4] وقام إليه وصافحه وسلّم عليه بٱسمه وٱسم أبيه. قال: وكيف عرفتَني؟ قال: رأيتك في المنام وأُمِرتُ أن أزوّج ٱبنتي منك. وتوجَّه به إلى منزله وقدّم له الطعام فأكلا، وذكر له رؤياه وأنها سببُ مَسِيره إلى الرملة، ثم سأله عن مكسبه بالبيع والشراء فقال: أمّا البيعُ والشراء فمباحٌ، والتاجر فاجر[5] إلاّ من أخَذ الحقّ وأعطاه، وٱتقى الله ولم يمدَح سِلْعته.

فلمّا أقبلَ الليل نزع زكريّا ما كان عليه من الثياب ولبِس الصوف ودخل محرابه ولم يزل في صلاته ودعائه وتضرُّعه حتى أصبح، فنزع الصوف ولبس ما كان عليه بالأمس وبَرَز إلى السوق ويونسُ معه، فكان ذلك دأبَه.

ثم زوّج ٱبنته من يونس ووهَبَ لهما بعضَ ماله. وأقام يونس عنده، ورزق الله يونس من زوجته وَلَدَيْن ومات زكريّا، فٱحتمل يونس زوجته إلى بيت المقدس وأقام هناك يعبد الله تعالى. وشَعْيَا يومئذ ببيت المقدس وهو نبيّ في بني إسرائيل إلى أن بعث الله تعالى يونس نبيًّا.

---

(١) لم يأن لك: أي لم يحن الوقت بعد. (٢) يسيح: ينأى عن النّاس تعبّدًا وترهُّبًا.

(٣) الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت رباطًا للمسلمين وكانت قصبتها، وقد خربت الآن «انظر معجم البلدان ٣/ ٦٩».

(٤) في الأصول: زكريا عليه السلام، والمذكور هنا هو زكريا بن عبدان وليس زكريا النبي أبا يحيى عليهما السلام.

(٥) الفاجر: الفاسق.

قال: وكان في بلاد نِينَوَى[١] مَلِكٌ[٢] وكانت جيوشه كثيرة، قيل: إنها كانت تزيد على عشرة آلاف قائد. وكان إذا غزا تكون معه تماثيل من الأسود والفِيَلة متّخذة من النحاس والحديد، يخرج من أفواهها لَهَبُ النِّيران، ومعه رجال يلعبون بالنيران. فغزا هذا الملك بني إسرائيل على هذه الصورة، فقتل من بني إسرائيل وسبَى، ثم عاد إلى بلاد نِينَوَى، وغزاهم ثانيةً وتكرّرت غزواته فيهم. فأوحَى الله تعالى إلى شَعْيَا نبيّ بني إسرائيل أن يختار من عُبّاد بني إسرائيل أمينًا قويًّا يبعثه إلى بلاد نِينَوَى رسولاً إلى مَن بها من الملوك وغيرهم؛ فإنهم قد جحدوا[٣] حقّي وأنكروا معرفتي. فدخل شَعْيَا على حِزْقِيّا الملك وأمره أن ينادِيَ في عُبّاد بيت المقدس، وبها يومئذ عشرة آلاف عابد، لباسُهم الشعر والصوف ونعالُهم الخُوص[٤]، فنادى فيهم بالاجتماع فٱجتمعوا، فاختار منهم ثلاثة وٱختار من الثلاثة يونُس بن مَتّى، ثم قال له حِزْقِيّا: إن الله أوحَى إلى نبيّه شَعْيَا أن يختار من جملة هؤلاء العُبّاد والزُّهّاد أعبَدهم وأتقاهم، وقد وقع ٱختياره عليك لتُبْعَثَ [إلى أهل][٥] بلاد نِينَوَى. قال يونس: إن في بني إسرائيل مَن هو أعبدُ منّي وأزهدُ، فٱبعث أيها المِلك غيري. قال: لا أبعث سواك، فٱنهض ولا تخالفْني فإنّ هذا عن أمر الله. فٱنصرفَ يونُس إلى أمّه وأخبرها الخبر واستشارها، فقالت: إن الله أنطق المِلكَ في حقّك بالرسالة فسِرْ كما أُمِرتَ ولا تعصِ الله ونبيَّنا شَعْيَا وملكَنا حِزْقِيّا. فعزم على المسير وودَّع أمّه وحمل أهلَه[٦] حتى بلغ شاطىء دِجْلة، فنزل هناك وفكّر في أمره وضَعْفه وعياله وقال: كيف لي بمُطاولة الجبابرة والفراعنة! وأقبل على أهله وقال: قد عزمتُ على الفِرَار، فنهاه أهله عن ذلك. فسكت وقام ليعبُر دِجْلة إلى بلاد نِينَوَى فعبرَ بولده الأكبر، ثم رجع وأخذ ولده الثاني. فلمّا توسّط دِجْلة زاد الماء فَغرق ٱبنه الذي كان معه، وكان في يده نُقْرَةٌ[٧] من الذهب كان قد ورثها من حَمِيه[٨] فغَرِقت، وجاء ذئبٌ إلى ولده الذي عَبَر به فٱحتمله. فصاحت المرأة: يا يونس، إن ٱبنك أخذه الذئب. فخرج من الماء يعدو خلف الذئب فٱلتفتَ إليه وقال: ٱرْجِعْ يا يونُس فإني مأمور، فرجع يونس باكيًا على ولديه. فلمّا بلغ الشطّ لم ير أهله، فجلس يبكي. فأوحى الله إليه: إنك شكوتَ كثرة العيال، وقد أرحتُك منهم، فٱذهب الآن إلى قومك فإني سأردّ عليك أهلك وولَدَيْك

(١) نينوى: هي قرية يونس عليه السلام بالموصل وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى، منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه «معجم البلدان ٥/ ٣٣٩».
(٢) في الكسائي: «يقال له ثعلب بن الأسارد».
(٣) جحدوا الحقّ: أنكروه.
(٤) الخوص: ورق النخل.
(٥) الزيادة عن الكسائي.
(٦) أهله: المراد زوجته وأولاده.
(٧) النقرة من الذهب: ما سبك مجتمعًا منها.
(٨) الحمّ: والد الزوج.

وأنا على كل شيء قدير. فطابت نفسه وسار حتى بلغ بلاد نِينَوَى فتوسّط سُوقها ونادَى: يا قوم، قولوا بأجمعكم: لا إِلٰهَ إلا الله وأنّي يونس عبدُه ورسولُه. فلمّا سَمِعوا ذلك أقبلوا على مَلِكهم وأخبروه به وبمقالته. فأحضره الملك وقال له: من أين أنت؟ قال: رسول الله إليك وإلى أهل مملكتك فآمِنوا بي تنجوا من النار. فأمر الملك بحبسه ثم بعث إليه وزيره، وهو من أهل بيت المقدس، وآسمه سنجير[١]، فقال له: أدخُل على هذا الرجل يونس وتعرَّف أمره. فدخل عليه وسأله عن آسمه وآسم أبيه، ومن أين أقبل وفيماذا جاء. فذكر له أنه رسول الله إليهم. فقال له الوزير: أرى أن ترفُق[٢] فإني أخشى عليك من هذا الملك فإنه جبّار. وآنصرف الوزير إلى الملك وقال له: قد عرفتُ الرجل، وقد ذكر أنه رسول من إلٰه السماء. فهمّ الملك بقتله، فآستوهبه الوزيرُ منه على أن يكون في البلد ولا يقول مثل مقالته. فآستدعى الوزير يونس وذكر له ذلك. فقال له: أمّا القتلُ فلا أخشَى منه، والرسالةُ فلا أتركها حتى يحكم الله بيني وبينه. ثم إنّ الملك خلّى سبيله على أنه مجنون. فلم يزل يونس يدعوهم إلى طاعة الله تعالى في كل يوم عامّة[٣] نهاره، حتى إذا جاء المَسَاء أتى شطّ دِجْلة فيُصَلِّي حتى يُصبِح، ثم يعود إليهم والناس يضربونه ويرجمونه ويسبُّونه حتى ضجِر فآستغاث إلى ربّه. فأوحَى الله تعالى إليه: يا يونس، إنك دعوتَ القوم فلا تعجَل عليهم وآدعُهم أربعين يومًا، فإن آمنوا وإلاّ جاءهم العذابُ. فدعاهم حتى آستكمل العِدّة ولم يؤمنوا. فأوحى الله إليه أنِ آخرُج من بين أظهرهم[٤]، فخرج حتى بلغ شاطىء دِجْلة، فقعد ينظر إلى العذاب كيف ينزل بالقوم. فأمر الله تعالى جبريلَ أن يُرسل على قوم يونس سحابةً فيها ألوانُ العذاب؛ فآنطلقَ إلى مالك وأمره بذلك، فأخرجَ شرارةً من الحُطَمة[٥] على مثال سحابةٍ سوداءَ مظلمة. فجاءت بها الزبانية[٦] حتى بلغت بلاد نِينَوَى وآنبسطتْ حتى أظلّتْ عليها، فظنّ القوم أنها مطر. فنظر وزير الملك إلى السحابة يخرج من أطرافها شَرَرُ النار، فدخل على الملك وقال: الحَذَرَ الحَذَرَ! فليست هذه سحابةَ مطر بل هي سحابةُ عذاب، وأخشَى أن يكون ذلك لتكذيبنا يونس نبيّ الله. ثم قال: أُنظروا إلى يونس إن كان معكم في بلدكم فلا تخافوا، وإن كان قد خرج عنكم فقد هلكتم. فطلبوا يونس فلم يجدوه. وجعلت السحابة تدنو حتى قَرُبتْ منهم ورمتهم بشرر كالرَّماد الأحمر لا يقع على شيء إلاّ

---

(١) في الكسائي: «سنحاريب».

(٢) ترفُق: تحسن الصنيع وتتأنّى.

(٣) عامّة النهار: كلّه.

(٤) أخرج من بين أظهرهم: أي أخرج من وسطهم.

(٥) الحطمة: اسمٌ لجهنّم.

(٦) الزبانية: الملائكة الذين يدفعون أهل النار إليها.

أحرقه. فبينا الناس يقولون: أين نطلب يونس إذا هم بالملك قد خرج عليهم وجميع أصحابه وهم يقولون: أين أنت يا يونس! فإنا لا نعود إلى مخالفتك، فلم يجدوه. فأقبل عليهم سنجير الوزير وقال: أيها الملك، إن يكن يونس قد غاب عنّا فإن إلٰهه لم يغِب، فتعالَوْا حتى نتضرّع[1] إلى الله لعلّه يرحمنا. فخرجوا بأجمعهم ونسائهم وأطفالهم إلى ظاهر البلد يبكون ويتضرّعون، فقام سنجير فيهم وقال: إلٰهنا إنك أمرتَنا أن نُعْتِق رقابَ عَبيدنا وإمائنا ونحن عبيدك وإماؤك فأعْتِقْنا. إلٰهنا إنك أمرتَنا أن نعفو عمن ظلمنا فٱغفر لنا وٱعفُ عنا. اللهم أعْتِقْنا من عذابك فإنّا قد آمنا بنبيّك يونس وبجميع النبيّين فٱغفر لنا ذنوبنا، ثم خَرُّوا سُجَّدًا بأجمعهم. فأوحى الله تعالى إلى ملائكة العذاب أنِ ٱرجعوا، فٱنصرفت السحابة عنهم، وسمعوا صوتًا: أبشِرُوا يا أهل نِينَوَى برحمةٍ من ربكم؛ فرجعوا إلى المدينة وقد آمنوا. وجاء يونس لينظر إلى ما نزل بهم من العذاب، فلقِيه إبليس في صورة شيخ. فقال له يونس: من أين أقبلت أيها الشيخ؟ [قال][2]: من نِينَوَى. قال: فما نزل بهم اليوم؟ قال: ما نزل بنا إلاّ سحابة بيضاء أمطرت مطرًا جَوْدًا[3]، وكان يونس قد وعدنا بالعذاب فلم يكن وعَلِمنا كذبَه. فغضب يونس وقال: لا أعود إلى قوم كذّبوني، وسار. قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال مجاهد وقَتادة والضحّاك والكلبيّ: معناه أن لن نقضيَ عليه بالعقوبة، وهي رواية العَوْفيّ[4] عن ٱبن عبّاس؛ ودليل ذلك قراءة عمر بن عبد العزيز والزُّهريّ[5] «فظنّ أن لن نُقَدِّر عليه» بالتشديد. وقال عطاء[6] وكثير من العلماء: معناه نضيّق عليه الحبس.

قال الكسائيّ: فلم يزل يسير حتى لحق بساحل البحر، فإذا هو بسفينة مارّة فلوّح إليهم فدخلوا إليه فقال: احملوني معكم فإنّي رجل منقطعٌ غريبٌ من بيت المقدس. فحملوه فقعد على كَوْثَل[7] السفينة. فلمّا توسّطوا البحر هبّت عليهم رياح

---

(١) نتضرّع: نبتهل. (٢) التكملة من الكسائي.

(٣) الجود من المطر: الغزير.

(٤) العوفي: هو عطية بن سعد العوفي، أبو الحسن، محدّث مات سنة ١١١هـ.

(٥) الزّهري: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزّهري، من قريش، أبو بكر، أحد أكابر الحفّاظ والفقهاء، تابعي من أهل المدينة، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدًا أعلم بالسُّنة الماضية منه، مات بشغب آخر حدّ الحجاز وأول حدّ فلسطين سنة ١٢٤هـ «الأعلام ٧/ ٩٧».

(٦) عطاء: هو عطاء بن دينار الهذلي، من رجال الحديث، له كتاب في «التفسير» يرويه عن سعيد بن جبير، توفي بمصر سنة ١٢٦هـ «الأعلام ٤/ ٢٣٥».

(٧) الكوثل: ذنب السفينة.

كثيرةٌ من جميع الجوانب وأشرفوا على الغرق، فأخذوا في الدعاء والتضرّع ويونس لا يتكلّم، فأقبل أهل السفينة عليه وقالوا: لِمَ لم تدعُ أنت معنا؟ قال: لأني مغموم لذهاب الأهل والولد. فلم يزالوا به حتى دعا، فازداد البحر هَيَجانًا. قال يونس: اطرحوني في البحر فإنّ هذا من أجْلي. قالوا: ما نفعل. قال: فاقترِعُوا[١]. فاقترَعُوا فوقعت القُرعةُ عليه. فقالوا: إنّ القرعة تُخطىء وتصيب، ولكن تعالَوْا حتى نتساهم[٢]. فجعل كل واحد منهم لنفسه سهمًا ثم رمَوْا بها في البحر، فغرِقت إلاّ سَهْمَ يونس فإنه بَقِيَ على وجه الماء: قال الله عزّ وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: ١٤١]. ثم أقبل حوت عظيم من بحر الهند حتى بلغ جانب السفينة، فقام يونس ليرمي بنفسه، فتعلّق القوم به وقالوا: ألا ترى هذه الأمواج وهذا الحوتُ العظيم! فأقعدوه والبحر يزيد عليهم بكثرة أمواجه وأهواله، فصار إلى جانب السفينة ليرمِي بنفسه، فإذا بالحوت قد دار إلى الجانب الذي قصد أن يَرميَ نفسه منه، فعلم يونس أنه هو المراد، فغطّى وجهه بكسائه ورَمَى نفسه في البحر[٣] فابتلعه الحوت. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢] معناه يلوم نفسه على ما فعله. وبقيَ في جوف الحوت وهو يسمع تسبيح الحيتان بلغاتهم، فلم يزل كذلك حتى بلغ [إلى موضع يُسمَع فيه صَرِيف[٤] الأقلام]. وهو إذا سجد يكون سجوده على كبد الحوت وهو يقول له: يا يونس، أسمعني تسبيح المغمومين المحبوسين في حَبْس لم يُحْبَس فيه أحد من الآدميّين، ويونس يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكانت الملائكة تقول: إلهنا إنّا نسمع تسبيح مكروب كان لك شاكرًا، اللهمّ ارحمه في غُربته. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية. قيل: ظُلْمة الليل، وظُلْمة البحر، وظُلْمة بطن الحُوت. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] أي المصلّين ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤]. واختُلف في مدّة لُبْثه، فمنهم من قال: لبِث أربعين يومًا، وقيل: ثلاثة أيام. فلمّا انقضت المدّة التي

---

(١) اقترعوا: ضربوا قرعة، والقرعة: هي السّهم والنصيب.

(٢) نتساهم: نتبارى في الفوز بالسّهام.

(٣) جاء في نسخة الكسائي: أن ذلك البحر هو بحر الرّوم، وهو البحر الأبيض المتوسط، وسمّي بحر الروم لأن البلاد التي على سواحله كانت كلّها في ملك الرّوم «انظر قاموس الجغرافية القديمة ص٢٢».

(٤) صريف الأقلام: أي صوت جريانها.

قدّر الله عليه ألهمَ الله الحوت أن يرجع إلى الموضع الذي ٱبتلعه فيه. فشقّ ذلك على الحوت لأنه كان قد أنِس به وبتسبيحه، فناداه الملك أنِ ٱقذفه من بطنك فليس هو مَطعمٌ لك. فتقدّم الحُوت إلى الساحل وقذفه. قال الله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥]. قال: خرج كالفرخ الذي لا ريش له، وهو لا يقدر على القيام، فأنبت الله عليه شجرة من يَقْطِين[١] كان لها ثلاثة أغصان: غصن قِبَلَ المشرق، وغصن قِبَلَ المغرب، والغصن الثالث على رأسه. وجاءه جبريل فقال: يا يونس، إن الله قد أعطاك من الجنة ما ترضَى به،ثم أمرَّ يده على رأسه وجسمه فأنبت الله شعره ولحيته، وأمر الله ظبية فوقفت بين يدَيْ يونس وكلّمته بإذن الله، فمصّ من لبنها فقَوِيَ عند شُربه؛ ثم بشّرته بإيمان قومه وأخبرته بما كان من أمرهم وسبب إيمانهم وذكرت ٱشتياقهم إلى رؤيته. وكانت الظبية ترعَى حولَ يونس فإذا جاع أو عطِش أرضعته، فلم يزل كذلك أربعين يومًا. فنام في بعض الأيام ثم ٱنتبه فرأى اليقطينةَ قد جفّت والظبيةَ قد غابت، فٱغتمّ لذلك، فعلم يونس أن الله ضرب له مثلاً بقومه، ثم هبط عليه مَلَكٌ وقال: قُم إلى قومك فإنهم يتمنَّوْن رؤيتك، وأتاه بحُلّتين[٢] فأتزر[٣] بواحدة وارتدى بالأخرى، ثم سار حتى دخل قريةً كثيرة الأشجار والخيرات وأهلها يقطعون تلك الأشجار ويُلقون ثمارها في الأرض، فقال: يا قوم، كيف تفعلون ذلك وتُبطلون على أنفسكم ثمارها! فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، إنك أشفقتَ على قوم لا تعرفهم من قطعهم الأشجار ولم تُشفِق على قومك وهم مائة ألف أو يزيدون! فعلم يونس أنّ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى له، فقال: إلٰهي لا أعود إلى ذلك أبدًا. ثم سار حتى دخل قرية أخرى وقت المساء، فتلقّاه رجلٌ من أهل القرية وسأله أن ينزل عليه فنزل. فلمّا أكل وشرب نظر إلى بيت الرجل وفيه فَخّار كثير يريد أن يُوقد عليه. فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، قل لهذا الفاخِرانيّ أن يكسِر الفَخّار الذي قد عَمِلَه. فقال يونس ذلك للفاخرانيّ، فقال: يا هذا أضفتُك لِمَا رأيتُ فيك من أثر الخير وإذا أنت رجل مجنون، تأمرني أن أُكَسِّر فَخّارًا قد أتعبت فيه نفسي لأنتفع بثمنه! قُم الآن فٱخرج من عندي، وأخرجه. فأوحَى الله تعالى إليه: يا يونس، إنه أشفق علىَ فَخاره وسمّاك مجنونًا وأخرجك من منزله حين أمرتَه بكسره، وأنتَ بُعِثت إلى مائة ألف أو يزيدون فدعوتَ عليهم ولم تفكّر في هلاكهم فترحمهم! قال: إلٰهي

---

(١) اليقطين: شجرة القرع.

(٢) الحلّة: الثوب الجيد الجديد غليظًا كان أو رقيقًا.

(٣) اتتزر: أي جعل إحداهما إزارًا، والإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

لا أعود إلى ذلك أبدًا. فلمّا أصبح سار فإذا هو برجل يزرع زرعًا، فقال له الرجل: ادعُ الله عزّ وجل حتى يبارك لي في زرعي، فدعا له فأنبته الله تعالى من ساعته وقام على سُوقه، ففرح الرجل وأتى بيونس إلى منزله. فأرسل الله جرادًا فأكله، فحزن يونس لذلك، فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، قد حزِنت على إرسال الجراد على الزرع ولم تزرعه، ولم تحزن على إرسال العذاب على مائة ألف أو يزيدون! قال: إلٰهي تبتُ إليك من ذنبي لا أعود إليه أبدًا. وسار حتى دخل قرية وهناك ٱمرأة معها رجل وهو ينادي: مَن [يحمل] هذه المرأة إلى بلاد نِينَوَى [ويردّها][1] إلى زوجها وله مائةُ مثقال من الذهب؟ فنظر إليها يونس فإذا هي ٱمرأته، فقال: أيها الرجل، ما قصّة هذه المرأة؟ قال: إنها كانت قاعدةً على شاطىء دَجلة تنتظر زوجها يونس، فمرّ بها مِلِكٌ من ملوك هذه القرية فٱحتملها وأراد أن يفجُر[2] بها، فأيبسَ الله يَدَيْه ورجلَيْه، فسألها أن تدعوَ له بالفرج ولا يعود إلى ذلك، فدعت له. فلمّا عافاه الله لوقته دفعها إليّ وأعطاني مائة مثقال[3] ذهبًا على أن أحملها إلى بلاد نِينَوَى، وما يمكنني ذلك. قال يونس: أنا أحملها فأعطِني الذهب، فأعطاه إياه وسلّم إليه المرأة. فسارا وقد فرحا حتى أتَيَا قريةً أخرى، وإذا برجل يبيع سمكة، فٱشتراها يونس وقعد ليُصلحها فشقّ بطنها فوجد فيها تلك الصرّة الذهب التي وقعت منه في دجلة، فقال: الحمد لله الذي ردّ عليّ أهلي ومالي، اللهمّ فٱردُدْ عليّ أولادي يا أرحم الراحمين، ثم سار فإذا هو برجل على دابة ومن ورائه غلامٌ، فإذا هو ولد يونس الصغير. فتعلّق به، فقال له الرجل: مَن أنت؟ قال: أنا يونس. فسلّم إليه الغلام وقال: الحمد لله الذي ردّ الأمانة إلى أهلها وخلّص ذمّتي. فسأله يونس عن قصّة الغلام فقال: أنا رجل صيّاد، وكنتُ قد ألقيتُ الشبكة في طرف دِجْلة فوقع هذا الغلام فيها فأخذتُه، وإذا بهاتف يقول: يا صيّاد، احفَظ هذا الغلام حتى يأتِيَ إليك يونس فإنه أبوه فادفَعْه إليه. ثم قال له: يا نبيّ الله، أُدعُ لي أن يُغنيَني الله عن صيد السمك، فدعا له فرزقه الله مالاً وولدًا. وسار يونس حتى قرُب من بلاد نِينَوَى، فإذا هو براعٍ على قارعة الطريق يرعَى غنمًا وهو يقول: اللهمّ اردد عليّ والدي، فرآه يونس فعرَفَه وهو ولده الأكبر، فتعانقا وبكيا طويلاً، ثم قال له: يا أبتِ إنّ هذه الأغنام لرجلٍ في القرية فسِرْ معي حتى أرُدّها إليه، فسارا إلى القرية وإذا بشيخ على باب داره، فقال له الغلام: هذا أبي. فقام الشيخ إلى

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.
(٢) يفجُر بها: يفسُق.
(٣) المثقال: وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع الدّرهم.

يونُس وسلّم عليه. فقال له يونُس: هل تعرف قصّة هذا الغلام؟ قال الشيخ: نعم، كنتُ أرعَى هذه الغنمَ، وإذا بهذا الغلام على ظهر ذئب فكلّمني الذئب بقدرة الله وقال: إذا جاء إليك يونس فأَدَعْ إليه هذا الغلام. ثم قال له: يا نبيّ الله، أُدعُ الله أن يغفر لي ذنوبي وأن يُميتني في وقتي هذا، فدعا له فقبضه الله لوقته، فغسّله يونس وكفّنه وصلّى عليه ودفنه. ثم سار حتى قرُب من المدينة، فإذا هو بغلام يرعى غنمًا فوقف يونس عليه السلام وقال: يا غلام، هل من لَبَنٍ؟ قال الغلام: يا هذا، والذي بعث إلينا يونس نبيًا ما ذقتُ اللبن منذ غاب عنّا نبيّنا يونس. قال: فأنا يونس نبيّ الله. فقبّل الغلام رأسَه وقال: لو رأيتَنا يا نبيّ الله ونحن نجول تحت العذاب لَرَحِمتَنا. قال: يا غلام، اذهبِ الآن إلى المدينة وأخبرِ الناس أنك قد رأيتَني. قال: أخشى أن يكذّبوني. فقال: سِرْ إليهم [وهذه الأغنام شهودٌ لك][1]. فمضى حتى توسّط سوق المدينة وقال: أيها الناس، البُشْرَى فقد رجع إلينا يونس نبيّنا وقد لقيتُه. فاتّصل الخبر بالملك فقام عن سريره وقال: عليّ بالغلام، فأُتِيَ به، فسأله فأخبره بمَقْدَم يونس. ففرح وخرج الملك وأهلُ المدينة والْتقَوْا بيونس وأدخلوه المدينة وأجلسه الملك في موضعه، ووقف بين يديه، وفرح به أهل المدينة. فقام يونس فيهم ما شاء الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إلى أن مات الملك وماتت امرأةُ يونس وولداه جميعًا، فاستخلف يونس الراعي على مدينة نِينَوَى وخرج هو وسبعون رجلًا من العُبّاد حتى جاء إلى جبل يقال له صِهْيَوْن[2] فكانوا هناك يعبدون الله حقّ عبادته، حتى مات يونس عليه السلام، ومات العُبّاد الذين صحبوه، فَقُبِرُوا هناك في جبل صِهْيَوْن، رضي الله عنهم ورحمهم.

ذكر خبر بُلُوقِيَا وما شاهد من العجائب

وهذه القصّة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعضُ من يقف عليها لغرابتها وليست بمستنكرة بعد أن ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بَلِّغوا عنّي ولو آيةً[3] وحدِّثوا عن

---

(١) التكملة عن الكسائي.

(٢) صهيون: «الجبل المشمس أو الجاف» وقد يطلق هذا الاسم للدلالة على كلّ أورشليم إلا أنّه ينحصر غالبًا في الجبل الجنوبي الغربي من المدينة، وكان هذا الجبل محاطًا من كلّ جانب إلاّ جانب الشمال بأودية عميقة الجوانب شاهقتها «انظر قاموس الكتاب المقدّس».

(٣) الآية: المراد هنا الآية القرآنية، أو المعجزة والعلامة الظاهرة.

بني إسرائيل ولا حَرَجَ ومَن كَذَبَ عليّ مُتعمّدًا فَلْيَتبوّأ مَقْعَدَه من النار». ولنأخذ الآن في سَرْد القصّة.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بيواقيت البيان في قصص القرآن بسند رفعه عن عبد الله بن سلاّم[١] قال:

كان في بني إسرائيل رجل يقال له «أوشيا» وكان من علمائهم، وكان كثير المال، وكان إمامًا لبني إسرائيل، وكان قد عَرَف نَعْتَ[٢] النبيّ ﷺ في التوراة، فخبأه وكتمه عنهم. وكان له ٱبنٌ يقال له بُلُوقِيَا خليفة أبيه في بني إسرائيل، وذلك بعد سليمان بن داود علهيما السلام. فلمّا مات أوشيا بقِي ٱبنه بُلُوقِيَا والأمانة في يده والقضاء، ففتّش يومًا خزائن أبيه فوجد فيها تابوتًا من حديد مُقفلاً بقُفْلٍ حديدٍ، فسأل الخُزّان عن ذلك، فقالوا: لا ندري. فٱحتال على القفل حتى فكّه، فإذا فيه صندوق من خشب الساج[٣]، ففكّه وإذا فيه أوراق، فقرأها فإذا فيها نعت النبيّ ﷺ وأُمّته وهي مختومةٌ بالمسك، فقرأ ذلك على بني إسرائيل ثم قال: الويل لك يا أبتِ من الله فيما كتبتَ وكتمتَ من الحقّ وأهله! فقالت بنو إسرائيل: يا بُلُوقِيَا، لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وحرّقناه بالنار. قال: يا قوم، [لا ضَيْر][٤] إنما ترك حظّ نفسه وخسِر في دينه ودُنياه، فألحقوا نعت النبيّ ﷺ وأُمّته بالتوراة. قال: وكانت أمّ بلوقيا في الأحياء، فٱستأذنها في الخروج إلى بلاد الشام، وكانوا يومئذ في بلاد مصر. فقالت: وما تصنع بالشام؟ قال: أسأل عن محمد وأمّته، فلعلّ الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه، فأذِنتْ له. فبرزَ بُلُوقِيَا وقدِم بلاد الشام. فبينما هو يسير إذا ٱنتهى إلى جزيرة من جزائر البحر، فإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عِظَمًا وفي الطُّول ما شاء الله وهنّ يقلن: لا إلٰه إلاّ الله محمدٌ رسول الله. فقلن له: أيها الخَلْق المخلوق مَن أنت؟ وما ٱسمُك؟ قال: ٱسمي بُلُوقِيَا، وأنا من بني إسرائيل. فقُلْنَ: وما إسرائيل؟

---

(١) هو عبد الله بن سلاّم بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابي، قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب، أسلم عند قدوم النبي المدينة، وفيه نزلت الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ بني إسرائيل، مات سنة ٤٣هـ «الأعلام ٤/ ٩٠».

(٢) نعت النبي: أوصافه، وفي الأصول: بعث النبي، والتصويب عن الثعلبي.

(٣) السّاج: ضربٌ من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا وله ورق كثير خشبه جيد أسود صلب.

(٤) زيادة عن الثعلبي، ولا ضير: أي لا ضرّ، يقال: لا ضير ولا ضور ولا ضرّ ولا ضرر ولا ضارورة بمعنى واحد «اللّسان مادة: ضور».

قلت: من ولد آدم. فقُلنَ: سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم إسرائيل. فقال بلوقيا: أيتها الحيّات مَن أنتنّ؟ فقلن: نحن حيّات من حيّات جهنّم ونحن نعذّب الكفّار فيها يوم القيامة. قال بلوقيا: وما تصنعن هاهنا؟ وكيف عرفتُنّ محمدًا؟ فقُلنَ: إن جهنّم تفور وتَزْفِر[١] في كل سنة مرّتين فتُلقِينَا هاهنا ثم نعود إليها، فشِدّة الحرّ في الصيف من حرّها، وشدّة البرد في الشتاء من بردها. وليس في جهنّم دَرَك[٢] من دركاتها، ولا بابٌ من أبوابها، ولا سُرادق من سُرادقاتها إلا وقد كُتب عليه: «لا إله إلاّ الله محمدٌ رسول الله» فمن أجل هذا عَرَفْنا محمدًا ﷺ. قال بلوقيا: أيتها الحيّات، هل في جهنّم مثلكنّ أو أكبر منكنّ؟ فقُلنَ: إن في جهنّم حيّات تدخل إحدانا في أنف إحداهنّ وتخرج من فمها ولا تشعر بذلك لعظمها. قال: فسلّم بلوقيا عليهنّ ومضى حتى أتى جزيرة أخرى، فإذا هو بحيّات كأمثال الجذوع والسوارِي[٣]، وعلى متن إحداهنّ حيّة صغرى صفراء كلما مشتْ اجتمعتِ الحيّات حولها فإذا نفخت صِرْنَ تحت الأرض خوفًا منها. فلمّا رآها ورأته قالت له: أيها الخَلْق المخلوق مَن أنتَ؟ وما اسمُك؟ قال: اسمي بلوقيا، وأنا من بني إسرائيل من ولد إبراهيم. فأخبريني أيتها الحيّة مَن أنتِ؟ قالت: أنا موكّلة بالحيّات واسمي تمليخا، ولولا أني موكّلة بهنّ لقتلتِ الحيّات بني آدم كلهم في يوم واحد، ولكنّي إذا صفّرتُ صفرة [واحدة][٤] وسمِعنَ صوتي دخلنَ في الماء الذي تحت الأرض. ولكن يا بلوقيا إن لَقِيتَ محمدًا ﷺ فأقرئه منّي السلام.

قال: ومضى بُلُوقِيَا إلى بلاد الشام فأتى بيت المقدس، وكان بها حِبْرٌ من أحبارهم يسمّى عفّان الخير، فأتاه فسلّم عليه وقصّ عليه قصّته. فقال له: ليس هذا زمان محمد ولا زمان أُمّته، بينك وبينه بُعْدُ سنين وقرون. ثم قال عفّان: يا بلوقيا أرِني موضع الحية التي اسمها تمليخا، فإن قدرتُ أن أصيدها رجوتُ أن أنال معك مُلكًا عظيمًا ونحيا حياة طيّبة إلى أن يبعث الله محمدًا ﷺ فندخل في دينه. قال: فمن حِرْص بلوقيا على الدخول في دين محمد ﷺ قال: أنا أُريك المكان. فقام عفّان وأخذ تابوتًا من حديد وحمل فيه قَدَحين من فضّة في أحدهما خمر وفي الآخر لبن؛

---

(١) تزفر: يقال زفرت النّار أي سمع لاتّقادها صوت.

(٢) الدّرك: أقصى قعر الشيء، والدّرك: طبقٌ من أطباق جهنّم والمقصود هنا: ناحية قصيّة من نواحيها.

(٣) السّواري: مفردها السّارية وهو عمود من الخشب طويل ينصب عليه الشراع.

(٤) زيادة عن الثعلبي.

ثم سارا جميعًا حتى أنتهيا إلى موضع الحيّة ففتحا باب التابوت وتنحّيا. وجاءت الحيّة تبغي الرائحة فدخلت التابوت وشرِبت من اللبن والخمر حتى سَكِرتْ ونامت. فقام عفّان ودبّ[١] إلى التابوت دبيبًا خفيفًا فأغلق بابه وأحتضنه وسارا جميعًا فلم يمرّا بشجرة ولا بيت إلا كلمهما بإذن الله تعالى. فمرّا بشجرة يقال لها الدواء فقالت: يا عفان، مَن يأخذني ويقطعني ويدقّني ويَعصِر مائي ودُهْني ويطلِي به قدميه فإنه يغوص البحار السبعة ولا تبتلّ قدماه ولا يغرق. فقال عفّان: إيّاكِ طلبتُ، فقطع تلك الشجرة فدقّها وعصر دُهنها وجعله في كوز[٢] ثم خلّى عن الحيّة فطارت بين السماء والأرض وهي تقول: يا بني آدم ما أجرأكم على الله تعالى، ولن تصلوا إلى ما تريدون، وذهبت الحيّة. وسار عفّان وبُلوقِيَا إلى اليمّ فطليا أقدامهما ثم عَبَرا البحر ومشيا على الماء كما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأوّل ثم الثاني، فإذا هما بجبل في وسَط البحر ليس بعالٍ ولا متدانٍ ترابه كالمسك، عليه غمامٌ أبيض، وفيه كهفٌ، وفي الكهف سريرٌ من الذهب عليه شابٌ مُستلقٍ على قفاه ذو وَفْرة[٣]، واضعٌ يده اليمنى على صدره واليسرى على بطنه بمنزلة النائم وليس بنائم وهو ميّت، وعلى رأسه تنّين وخاتَمه في الشمال. قال: وكان ذلك سليمان بن داود، ومُلْك سليمان في خاتمه، وكانت حَلْقته من ذهب وفصّه من ياقوت أحمر مربّع، مكتوبٌ عليه أربعة أسطر، في كل سطر اسمٌ من أسماء الله الأعظم. وكان عند عفّان عِلمٌ من الكتاب، فقال بلوقيا: مَن هذا؟ قال: هذا سليمان بن داود، نريد أن نأخذ خاتَمه فنملك مُلكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدًا ﷺ. فقال بلوقيا: أليس قد سأل سليمانُ ربه ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [صٓ: ٣٥] فأعطاه الله إيّاه على ما سأل، ولا يُنال مُلك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه. فقال عفّان: يا بلوقيا اسكت إنّ الله معنا ومعنا أسم الله الأعظم، ولكن أنت يا بلوقيا فأقرأ التوراة. فتقدّم عفّان لينزِع خاتمَ سليمان من إصبعه، فقال التنّين: ما أجرأك على الله! إن غلبتنا بأسم الله فنحن نغلبك بقوّة الله. قال: فكلّما نفخ التنّين ذكر بلوقيا أسمَ الله، فلم تعمل نفخات التنّين فيهما. ودنا عفّان من السرير لينزعَ الخاتم من إصبع سليمان، فأشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل من السماء، فلمّا نزل صاح بهما صيحة ارتجّتِ الأرض والجبال وتزلزلت منها وأختلطت مياه البحار وماجت[٤] وألتطمت[٥] حتى صار كلّ عَذْب مِلْحًا من شدّة

---

(١) دبّ: مشى مشيًا بطيئًا بحيث لا يُسمع وقع خُطاه.

(٢) الكوز: إناءٌ بعروة يشرب منه.

(٣) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس.

(٤) ماجت المياه: ارتفعت واضطربت.

(٥) التطمت الأمواج: ضرب بعضها بعضًا.

صيحته، وسَقط عفان على وجهه، ونفخ التنّين فخرجت من بطنه شُعلة نار كأنها البرق الخاطف، فاحترق عفّان وعادت نفخته في البحر فما مرتِ البرقة بشيء إلاّ أحرقته ولا بماء إلا أجاشته وأغلته. وذكر بلوقيا اْسم الله الأعظم فلم ينله مكروه، ثم تراءى له جبريل في صورة رجل فقال له: يابن آدم ما أجرأك على الله تعالى! فقال له بلوقيا: مَن أنت رحمك الله؟ قال: أنا جبريل أمين ربّ العالمين. قال له يا جبريل، إنما خرجتُ حبًّا لمحمد ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمّده. قال: فبذلك نجوتَ. ثم صعِد جبريل إلى السماء، ومضى بلوقيا فَطَلَى قدميه بذلك الدُّهن فأضلّ الطريق الذي جاء منه وأخذ في طريق آخر، وسار فقطع ستّة أبحر ووقع في السابع فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الوَرْس[١] والزعفران[٢] وأشجارها النخل والرمّان. قال بلوقيا: ما أشبه هذا المكان بالجنّة على ما وُصِفتْ! ثم دنا من بعض تلك الأشجار فتناول من ثمرها، فقالت الشجرة: يا خاطىء اْبن الخاطىء لا تأخذ منّي شيئًا. فتعجّب، وإذا بحيال[٣] الشجرة قوم يتراكضون، بأيديهم سيوفٌ مسلولة، يتناوش[٤] بعضهم بعضًا بالطعن والضرب. فلمّا رأوْا بلوقيا طافوا به وأحدقوا[٥] من ورائه وهمُّوا به سوءًا، فذكر اْسم الله فهابوه وعجبوا منه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله. ثم قالوا له: مَن أنتَ يا عبد الله؟ قال: أنا من بني آدم اسمي بُلُوقِيَا. قالوا: نعرف آدمَ ولا نعرفك فما أوقعك إلينا؟ قال: إني خرجت في طلب نبيّ يسمّى محمدًا وإنني قد ضَلَلْتُ عن الطريق الذي أردته فرأيت من الأهوال كذا وكذا. قالوا: يا بلوقيا نحن من الجنّ مؤمنون، ونحن مع ملائكة الله في السماء، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كَفَرة الجنّ ونحن هاهنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت لا تصبر معنا. فقال بلوقيا لملك الجنّ: يا صخر، أخبرني عن خَلْق الجنّ كيف كان؟ قال: لمّا خلق الله جهنّم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسُن، خلق منها خَلْقين: خلق في سمائه [سمّاه] حيليت[٦]، وخَلْق في أرضه [سمّاه][٧] تمليت[٨]. فأمّا حيليت فإنه خُلق على صورة أسد، وتمليت في صورة ذئب، وجعل الأسد ذكرًا والذئب أنثى، وجعل طول كلّ واحد منهما مسيرة خمسمائة

---

(١) الورس: نبات كالسمسم أصفر، يزرع باليمن ويصبغ به.

(٢) الزّعفران: نبات بصلي من الفصيلة السوسنية، منه أنواع بريّة، ونوع صبغي طبي مشهور.

(٣) حيال الشجرة: قبالتها أو إزاءها.

(٤) يتناوش: يتناول بعضهم بعضًا بالرّماح ولم يتقاربوا.

(٥) أحدقوا: أحاطوا.

(٦) في الثعلبي: جبليت.

(٧) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٨) في الثعلبي: يمليت.

عام، وجعل ذنبَ الذئب بمنزلة ذنب العقرب، وذنب الأسد بمنزلة الحيّة، وأمرهما أن ينتفضا[١] في النار أنتفاضة ففعلا، فسقط من ذنب الذئب عقارب، ومن ذنب الأسد حيّات. فعقارب جهنّم وحيّاتها من ذلك. ثم أمرهما أن يتناكحا ففعلا، فحمل الذئب من الأسد فولد سبعة بنين وسبع بنات. فأوحى الله تعالى إليهم أن يزوّج البنات من البنين كما أمر آدم، فستّة بنين أطاعوا وواحد لم يُطِع ولم يتزوّج فلعنه أبوه وهو إبليس. وكان اسمه الحارث، وكنيته أبو مرّة؛ فهذا أوّل خلق الجنّ. ثم قال له: يا بلوقيا إنّ دوابّنا لا تثبُت مع الإنس ولكن أُجلّل[٢] فرسي وأبرقعه[٣] حتى لا يعرف راكبه، فاركب عليه على اسم الله تعالى؛ فإذا انتهيتَ إلى أقصى أعمالي[٤] على ساحل بحر كذا وإذا شيخ وشابٌّ ومشايخ معهما فإنك ستلقاهما هناك فادْفع الفرس إليهما وامضِ في حفظ الله راشدًا. فجاء بلوقيا على الفرس حتى انتهى إليهم فسلّم على الشيخ والشابّ ونزل عن الفرس ودفعه إليهما. وكان قد فَصَل من عند ملك الجنّ عند صلاة الغداة ووصل إليهما نصف النهار. فقالا لبلوقيا: مذ كم فارقتَ الملك؟ قال: فارقته غدوةً[٥]. فقالا له: ما أسرع ما جئتَ! قد أتعبتَ فرسنا. فقال بلوقيا: والله ما مددتُ إليه يدًا ولا حرّكتُ عليه رِجلًا ولم أركُضه عُنفًا. قالا: صدقتَ ولكن فرسنا أحسّ بك وبمنزلتك[٦]، فطار ما بين السماء والأرض ليُريح نفسه منك، فكم تراه جاء بك؟ قال: خمسة فراسخ أو أقلّ أو أكثر. قالا: بل جاء بك مسيرة مائة وعشرين سنة، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون «قاف»[٧] وأنت لا تعلم. فحوّلوا عنه السَّرج واللّجام والبُرقع وإذا العرق يقطُر من كلّ شعرة منه، وله جَنَاحان انقضّا من كثرة الطيران. فقال بلوقيا: هذا والله العجب. فقالوا: يا بلوقيا عجائب الله لا تنقضي. ثم سلّم عليهم ومضى فركب اليمّ. فبينما هو يسير إذ رأى مَلَكًا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له الملك: مَن أنت أيها الخَلْق المخلوق؟ فقال: أنا بلوقيا وأنا من

---

(١) انتفض: تحرّك واضطرب.

(٢) جلّل الفرس: ألبسها الجلّ وهو ما تغطى به الدّابة لتصان.

(٣) برقع الفرس: ألبسها البرقع، وهو قناع الدّواب.

(٤) الأعمال: الأملاك.

(٥) العدوة: الغداة، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس.

(٦) منزلة المرء: مكانته وقيمته.

(٧) قاف: هو جبل قاف، وهو مذكورٌ في القرآن، ذهب المفسرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض، «انظر معجم البلدان ٤/ ٢٩٨».

بني إسرائيل من ولد آدم. ثم قال له: أيها الملك ما اسمك؟ قال: [اسمي يوحاييل وأنا موكّل بضوء النهار وظلمة الليل. فقال: ما بال يديك مبسوطتين؟ فقال له: في يدي اليمنى ضوء النهار، وفي يدي اليسرى ظُلْمة الليل، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السمواتُ والأرَضُون. ولم يكن الليل أبدًا، ولو سبقتِ الظُّلمة النور لأظلمتِ السماء والأرض ولم يكن ضوء أبدًا. وبين يديه لَوْح معلّق فيه سطران سطرٌ أبيضُ وسطرٌ أسودُ، فإذا رأيتُ السواد ينتقص نقصتُ الظلمة، وإذا رأيتُ السوادَ يزيد زدتُ الظُّلمة، وإذا رأيتُ السطر الأبيض يزداد زدتُ في البياض والنور، وإذا انتقص نقصتُ؛ فلذلك الليل في الشتاء أطول والنهار أقصر؛ وفي الصيف النهار أطول والليل أقصر. ثم سلّم بلوقيا ومضى، فإذا هو بمَلَك قائم يده اليمنى في السماء ويده اليسرى في الأرض في الماء تحت الثرى وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له: مَن أنت وما اسمك؟ قال اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم. قال له بلوقيا: أيها الملك ما اسمك؟ قال: اسمي ميخاييل. قال: فما لي أراك يمينك في السماء وشمالك في الماء؟ قال: أحبس الريح بيميني والماء بشمالي، ولو رفعتُ شمالي عن الماء لزخرت[1] البحار كلّها في ساعة واحدة ولَطَمَت[2] بإذن الله تعالى، ويدي اليُمنى في الهواء أحبس الريح عن بني آدم لأنّ في السماء ريحًا يقال لها الهائمة[3] لو أرسلتُها لقتلتْ مَن في السماء ومَن في الأرض من بَرْدها. فسلّم عليه بُلُوقِيَا ومضى، وإذا بأربعةٍ من الملائكة، أحدهم رأسه كرأس الثَّور؛ والآخر رأسه كرأس النسر؛ والثالث رأسه كرأس الأسد؛ والرابع رأسه كرأس الإنسان. فالذي رأسه كرأس الثَّور يقول: اللهم ارفع العذابَ عن البهائم، وارفع عنهن برد الشتاء وحرّ الصيف، واجعل لهن في قلوب بني آدم الرأفة والرحمة كيلا يُكْرِهُنَّ ولا يكلّفوهن[4] فوق طاقتهن. واجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وأمّا الذي رأسه كرأس النسر فيقول: اللهمّ ارحم الطيور ولا تعذّبها، وادفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، واجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وأمّا الذي رأسه كرأس الأسد فإنه يقول: اللهمّ ارحم السِّباع ولا تعذبها وادفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، واجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وأمّا الذي رأسه كرأس الإنسان فإنه يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، اللهمّ ارحم المسلمين ولا تعذّبهم وادفع عنهم حرّ النار، واجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. فسلّم عليهم ومضى حتى أتى على

---

(١) زخرت البحار: طمت وفاضت. (٢) لطمت: ماجت.
(٣) الهائمة: المتحيّرة وفي الثعلبي «الهائجة». (٤) كلّفه: حمّله.

جبل قافٍ وإذا هو بملَكٍ قائم على قاف، وهو جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء. فسلّم بلوقيا على الملك، فقالَ له: مَن أنت؟ فقال: أنا بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم. فقال الملك: وأين تريد؟ قال: خرجتُ في طلب مَن يُسمى محمدًا، ولستُ أرى أمره ولا أدري في أيّ بلاد أنا. فقال الملك: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، قد أُمرنا بالصلاة على محمد. قال بلوقيا: أيها الملك، ما اسمك؟ قال: اسمي حزقاييل. قال: وما تصنع هنا؟ قال: أنا أمين الله على قاف، وإذا في يده وَتَرٌ[١] مرّةً يعقِده ومرّةً يُحلّه، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر في كفّ الملك [قال:][٢] فإذا أراد الله أن يضيّق على عباده أمرني أن أمُدّ الوتر وأعقده وأرتق[٣] عُروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد والبلاد. وإذا أراد الله أن يوسّع عليهم أمرني أن أرخي الوتر وأفتق عروق الأرض فتتّسع الدنيا على العباد والبلاد. وإذا أراد أن يخوّف قومًا أمرني أن أحرّك عروق تلك الأرض، فمن أجل ذلك موضع يهتزّ وموضع لا يهتزّ، وموضع يتزلزل وموضع لا يتزلزل. قال بلوقيا: أيُّها الملك ما وراء قاف؟ قال: وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التي جئتَ منها، في كلّ دنيا أربعمائة[٤] ألف باب في كل باب أربعة آلاف ضعف مثل الدنيا التي جئتَ منها، وليس فيها ظُلمة بل كلها نور وأرضها ذهب عليها حُجُبٌ من نور وسكّانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، لذلك أُلهِموا وله خلقوا وبه أُمروا إلى يوم القيامة. قال بلوقيا: فما وراءهم؟ قال: حُجُبٌ ووراء الحُجُب علم الله وقدرته. قال بلوقيا: أخبرني أيها الملك على أيّ شيء هذا الجبل موضوعًا؟ قال: على قرني ثور واسمه قرياطية وهو أبيض رأسه بالمشرق ومؤخره بالمغرب وما بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربه على صخرة بيضاء. قال بلوقيا: أيها الملك، كم الأرضون؟ وكم البحار؟ قال: الأرضون سبعٌ والبحار سبع. قال: فجهنم أين هي؟ قال: تحت الأرض السابعة. قال: فسلّم بلوقيا عليه ومضى حتى انتهى إلى حجابٍ طرفه في السماء وأسفله في الماء عليه باب مقفل وعليه خاتم من نور وعلى الباب ملكان أحدهما رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور وهما يقولان: لا إله إلا الله محمد رسول الله. قال: فسلّم بلوقيا عليهما فردّا عليه السلام وقالا: أيها الخلْق الضعيف المخلوق مَن أنت؟ وما اسمك؟ قال: اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم فقالا: لا إله إلا الله محمد رسول الله هذه أسامي ما عرفناها.

---

(١) الوتر: معلّق القوس.
(٢) زيادة عن الثعلبي.
(٣) أرتق: أسدّ وأغلق.
(٤) كلمة ألف ليست في نسخة الثعلبي.

قال بلوقيا: كيف عرفتم محمدًا ولم تعرفوا آدم ومحمد من نَسْله؟ فقالا: لهذا خُلِقنا وبذلك أُمرنا، ولم نسمع باسم آدم ولا إسرائيل. فقال بلوقيا: افتحا لي الباب حتى أجوز[1] فقالا: ما نحسنُ فتحه وإنّ لله في السماء ملكًا اسمه جبرائيل عسى أن يقدر على فَتْحه. فدعا بلوقيا، فأمر الله تعالى جبريل فنزل عليه وفتح الباب، ثم قال: يا بن آدم ما أجرأك على الله! ثم جاز بلوقيا حتى أنتهى إلى بحرين: بحرٌ مالح وبحرٌ عَذْب. فلمّا وصل إليهما رأى بينهما حاجزًا، وفي البحر المالح جبل من ذهب، وفي البحر العذب جبلٌ من فضّة، وبينهما مَلَك على صورة النمل ومعه ملائكة على تلك الصورة. فسلّم عليهم فردُّوا عليه السلام وقالوا له: مَن أنت؟ فأخبرهم بقصّته. ثم قال بلوقيا: مَن أنتم؟ قالوا: نحن أمناء الله تعالى على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان[2]. فقال لهم بلوقيا: ما هذا الجبل الأحمر؟ قالوا: هذا كنز الله في الأرض وكلّ ذهبٍ في الأرض إنما هو من نصاب[3] هذا الجبل، وكلّ ما في الدنيا من ماء عَذْبٍ هو من هذا البحر. وهذا البحر إنما يجيء من تحت العرش من قبل أن خلق الله تعالى الملائكة؛ وكل ما يجري من ماءٍ مالح فهو من ذلك البحر الملِحْ. وهذا الجبل الأبيض هو من فضّة وهو كنز الله تعالى؛ وكل كنز في الدنيا وكل مَعدِنِ فضّةٍ فهو من عروق هذا الجبل. فسلّم بلوقيا عليهم ومضى حتى أنتهى إلى بحر عظيم، فإذا هو بحِيتان كثيرة عظيمة وقد أجتمعت وبينها حُوتٌ عظيم يقضي بين الحِيتّان. فلمّا نظر إلى بلوقيا قال: لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله. فسلّم بلوقيا وأخبره بحال النبيّ ﷺ وأنه خرج في طلبه، فردّ السلام ثم قال: يا بُلُوقيا، إن لقيتَ محمدًا فأقرئه منّي السلام. فقال: نعم إن شاء الله. ثم قال: أيتها الحِيتان إني جائع عطشان وماء البحر ملحٌ وما أجد ما آكل. فقال الحوت الأعظم: يا بُلُوقِيَا سأُطعمك طعامًا تسير أربعين سنةً لا تَعيَا ولا تجوع ولا تعطَش، قال: فأطعمه ذلك الحوت قُرصًا أبيضَ، فأكله ومضى حتى بلغ العُمْران. قال: ومن قبل أن يبلُغ العُمْران رأى شابًا يجري على الماء كأنه البدر. فقال له بلوقيا: مَن أنت؟ قال: سَلِ الذي خَلْفِي. فسار بُلُوقِيَا يومًا وليلةً فإذا هو بآخر يمرّ على الماء ضوءُه كضوء النجوم. فقال له بلوقيا: يا فتى، مَن أنت؟ قال: سَلِ الذي خَلْفي. فسار بلوقيا يومًا وليلةً، فإذا هو بشابّ كأنه القمر يلوح في آخر الشمس، فقال بلوقيا: أنشُدُك الله إلاّ وقفتَ. قال: فوقف وقال: لماذا

---

(١) أجوز: أمر، واجتاز الطريق: قطعها.

(٢) لا يبغيان: أي لا يبغي الواحد منهما على الآخر فيختلط به.

(٣) النصاب: الأصل والمرجع.

استحلفتَني؟ قال: خَشِيتُ أن تفوتني مثل أصحابك الماضِين، فمَنْ كان الأوّل؟ قال: إسرافيل صاحب الصُّور[١]، والثاني ميكائيل صاحب المطر، والثالث جبرائيل أمين ربّ العالمين. فقال بلوقيا: ماذا تصنعون في اليمّ؟ قال جبريل: حيّة من حيّات البحر قد آذت سُكّانه، فَدَعوُا الله عليها فاْستجاب الله دعاءهم وأمرنا أن نسوقها إلى جهنّم ليعذّب الله بها الكفّار يوم القيامة. قال بلوقيا: كم طولُها وكم عَرْضُها؟ قال: طولُها مسيرة ثلاثين سنة، وعَرْضُها مسيرة عشرين سنة. فقال بلوقيا: يا جبريل، أيكون في جهنّم مثل هذه أو أكبر منها؟ فقال جبريل: إنّ في جهنّم من الحيّات ما تدخل هذه في أنف إحداهنّ ولا تشعر بها من عِظَم خِلْقتها. فسلّم بلوقيا عليه ومضى إلى جزيرة أخرى، وإذا هو بغلام أمردَ[٢] بين قبرين، فسلّم عليه بلوقيا وقال: يا شابّ، مَن أنت وما اسمُك؟ قال: اسمي صالح. قال: فما هذان القبران؟ قال: أحدهما أبي والآخر أمّي، كانا سائحين[٣] فماتا هاهنا، وأنا عند قبريهما حتى أموت. فسلّم بلوقيا ومضى حتى اْنتهى إلى جزيرة، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائرٌ رأسه من ذهب، وعيناه من ياقوت، ومنقاره من لؤلؤ، وبدنه من زعفران، وقوائمه من زُمُرد[٤]، وإذا مائدةٌ موضوعة تحت الشجرة وعليها طعامٌ وحُوتٌ[٥] مَشْوِيّ. فسلّم عليه بلوقيا فردّ عليه الطائر السلام. فقال بلوقيا: أيها الطائر مَن أنت؟ قال: أنا من طيور الجنّة، وأن الله تعالى بعثني إلى آدم بهذه المائدة لمّا هبط من الجنة وكنتُ معه حتى لقِي حوّاء، وأنا هاهنا من ذلك الوقت، وكلّ غريبٍ وعابرُ سبيل يمرّ بها ويأكل منها، وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة. فقال بلوقيا: ولا تتغيّر ولا تنقُص! قال: طعام الجنّة لا يتغيّر ولا ينقُص. فقال لبلوقيا: كُلْ فأكل حاجته، ثم قال: أيها الطائر، هل معك أحدٌ؟ قال: معي أبو العبّاس يأتيني أحيانًا. قال: ومَن أبو العبّاس؟ قال: الخَضِر. فلمّا ذكر اْسمه إذا هو بالخضر عليه السلام قد أقبل عليه ثيابٌ بِيضٌ. قال: فما خطا خطوةً إلاّ نبت الحشيش تحت قدميه. فسلّم عليه بلوقيا وسأله عن حاله. قال بلوقيا: قد طالت غَيْبتي وأريد أن أرجع إلى أمّي. قال الخَضِر: بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة، أنا أردّك في مسيرة خمسمائة شهر. قال الطائر: إن كان بينك وبين أمّك مسيرة خمسمائة

---

(١) الصّور: قرنٌ ينفخ فيه يوم القيامة.

(٢) الأمرد: الذي طرّ شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبدُ.

(٣) كانا سائحين: أي كانا ذاهبين للتعبُّد والترهُّب.

(٤) الزمرّد: حجرٌ كريم شفافٌ شديد الخضرة.

(٥) الحوت: السمكة.

سنة أنا أردّك مسيرة خمسمائة يوم. قال الخَضِر: أنا أردّك إليها في ساعة ثم قال: غمِّض عينيك فغمّضهما ثم قال له: افتحهما ففتحهما، وإذا هو عند أمّه جالس. فسألها: مَن جاء بي؟ فقالت: جئتَ على متن طائر أبيض يطير بين السماء والأرض فوضعك قدّامي. قال: ثم إنّ بلوقيا حدّث بني إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار، فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا. فهذا ما كان من حديث بُلُوقِيا. والله أعلم.

الباب الخامس
من القسم الثالث من الفن الخامس
في أخبار زكريّا وٱبنه يحيى وعمران ومريم وعيسى ابن مريم عليهم السلام

ذكر نسب زكريّا وعمران عليهما السلام وما يتصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى: هو زكريّا بن بَرْخِيَا بن آذَن بن مُسلم بن صَدُوق بن نَحْشان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صُدَيقَة بن ناحُور بن شَلُوم بن نهفاشاط بن أنبا بن لَبْنا بن رَحْبَعَم بن سليمان بن داود عليهم السلام.

وعِمْران بن ماتان. وقال ٱبن إسحاق: هو عمران بن باسَهْم بن أمُون بن مَنَسَّى بن حِزْقِيَّا بن أخريق بن يوثام بن عَزاريا بن أنصِيَا بن ناوش بن يارم بن يهفاشاط بن أنبا بن لَبْنا بن رحبعم بن سليمان بن داود.

وكان زكريّا وعمران متزوّجين بأختين، فٱمرأة زكريّا أسباع، وقيل بَلْيَشْفع بنت فاقود وهي أمّ يحيى. وٱمرأة عمران حَنّة بنت فاقود وهي أمّ مريم بنت عمران.

قالوا: وكان زكريّا نجّارًا قبل أن يُبعَث نبيًّا، وكان كثير العبادة، وكان بيت المقدس قد خلا من الأنبياء، فبينا زكريّا في محراب جدّه داود عليه السلام وقد ٱنفتل[1] عن صلاته إذ هَبَط عليه جبريل بوحي الله تعالى ونبوّته، وأعلمه أنّ الله تعالى قد بعثه رسولاً إلى بني إسرائيل. فخرّ زكريّا ساجدًا لله تعالى على ذلك، وخرج إلى بني إسرائيل ودعاهم، فكذّبه بعضهم وصدّقه آخرون. فأقام زكريّا في بني إسرائيل

(١) انفتل عن الصلاة: انصرف عنها بعد انتهائه منها.

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعِمْران يعبد الله. وكان زكريّا وعِمْران لم يُرزقا الولد. فبينا حَنّة ذاتَ يوم جالسة إلى جانب عمران إذ رأت حمامة تَزُقّ[1] فرخًا لها، فبكت شوقًا منها إلى ولد، وذكرت ذلك لزوجها عمران فقال: قُومي ندعو الله ربّنا في ذلك، فقاما جميعًا وصلّيا ودَعَوَا الله تعالى أن يرزقهما ولدًا، فرأى عمران في منامه إن الله قد استجاب دعاءك. فقام إلى زوجته فواقعها فحملت منه، وقالت ما أخبر الله تعالى عنها. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥] قال: وكان الناس في ذلك الزمان يتقرّبون إلى الله عزّ وجل بتحرير[2] أولادهم، وكانوا يخدمون بيت المقدس في صغرهم إذا بلغوا، فمَنْ أحبَّ أن يقيم على الخدمة أقام، ومن ٱختار الٱنصراف انصرف.

ذكر ميلاد مريم بنت عمران عليه السلام

قال الكسائيّ: ولمّا حرّرتها أمّها لله تعالى قال لها زوجها: إنكِ حرّرتِ ما في بطنك، فإن كان أنثى كيف يكون محرّرًا؟ فاغتمّت لذلك حتى وضعت مريم. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦] ثم قالت: «ربِّ إني كنت نذرتُ لك ما في بطني محرّرًا فتقبّلها منّي» قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. قال: ثم حملتها حتى دخلت بيت المقدس وزكريّا هناك في نَفَر من عُبّاد بني إسرائيل، فقال لها: ما هذه يا حَنّة؟ قالت: هذه ٱبنتي مريم، قد جعلتُها مُرَرة وقد قبِلها الله منّي فٱقبَلوها ولا تردّوها، فأقبل بنو إسرائيل على زكريّا وقالوا: ما تقول في هذه؟ قال: لا بدّ لها من مُكفِّل إلى أن تبلُغ مبلغ الخدمة ثم تكون خادمةً في المسجد. قالوا: أيّنا يَكْفُلها؟ قال زكريا: أنا أولى بها لأنّي زوج خالتها، ولكنّا نقترع[3]، فأخذوا أقلامهم وصاروا إلى عَيْن سُلْوان[4] وقالوا:

---

(١) تزقّ: تطعم.

(٢) تحرير أولادهم: إفرادهم لخدمة المسجد وطاعة الله.

(٣) نقترع: نضرب القرعة.

(٤) سلوان: محلّة في ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جنانًا عظيمة، وقفها عثمان بن عفان رضي الله عنه على ضعفاء بيت المقدس تحت بئر أيوب عليه السلام، ويزعمون أنّ ماء زمزم يزور ماء سلوان كل ليلة عرفة «معجم البلدان ٣/ ٢٤١».

نَرمِي بأقلامنا فيها فأينّا وقف قلمُه فهو الذي يكفُلها؛ فألقَوها فرسبتْ أقلامهم جميعًا إلاّ قلم زكريّا فإنه طفا وغالَبَ الجِرْية[1]، فأخذها وٱسترضع لها بعض نساء بني إسرائيل. ثم مات عِمْرانُ والد مريم. قال: وبنى لها زكريّا بيتًا لا يُصْعَد إليه إلاّ بسُلَّم، وكان لا يصعَد إليها إلاّ زكريّا يحمل إليها الطعام، وٱبن خال لها يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان من العبّاد المحرَّرين، وكان زكريّا إذا صعِد إليها وجد عندها في الصيف فواكه الشتاء، وفي الشتاء فواكه الصيف، فيعجَب من ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ذكر دعاء زكريا أن يرزقه الله عزّ وجل الولد ومولد يحيى بن زكريا

قال الكسائيّ: فلمّا نظر زكريّا إلى ما رَزَق الله عزّ وجلّ من الفاكهة في غير وقتها قال: إن الذي رزق هذه الفواكهَ لقادرٌ على أن يرزق من العجوز العقيم والشيخ الكبير الولد. قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]. قال: ولمّا أراد زكريّا أن يدعو استحيا من الله تعالى، فجلس سبعة أيّام ثم قام إلى المحراب ووافق ذلك يوم عاشوراء، فكلّمه المحراب بإذن الله تعالى وقال: يا زكريّا، أوجدتَ ربّك بخيلاً! يا زكريّا إنّ ربك أبدًا رحيم. فعند ذلك عزم على الدعاء وٱجتهد في العبادة، ثم رفع يديه ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣] معناه أخفاه عن قومه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] يعني غلب بياضه على سواده ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] معناه لم تخيّبني في الدعاء ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥] يعني الذرّية من بعدي أن تصير الحبوريّة[2] في غير أولاد الأنبياء ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] يعني مكاني وحُبُوريّتي والتابوت الذي فيه وأقلام المحرَّرين ومفاتيح القُرْبان، ثم قال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] في بني إسرائيل. فٱستجابَ الله تعالى دعاءه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبُشْرَى فأتاه وأتته الملائكة وأحدقوا بالمحراب. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] الآية. وقال تعالى:

---

(١) غالب الجرية: أي غالب جريان الماء فلم تجرفه المياه في جريانها.

(٢) الحبورية: مفردها الحبر، وهو العالم، ورئيس الكهنة عند اليهود.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ [مريم: ٧ ـ ٩]. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٤١]. قال الكلبيّ: كان زكريّا يوم بُشّر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة. وروى الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان ابن مائة وعشرين سنة. وكانت امرأته بنت ثمانٍ وتسعين.

قالوا: ولمّا جامع زكريّا امرأته اغتسل وعاد إلى محرابه، فجاءته نساء بني إسرائيل وقالوا له: نرى أمرك أعجبُ من امرأتك، فذهب زكريّا ليتكلّم فلم يقدِر على الكلام، فعلم أن امرأته قد حملت فكتب لهم في الأرض، إنّي لا أقدر على الكلام ثلاثة أيام.

قال الثعلبيّ رحمه الله: فإن قيل: لِمَ أنكرَ زكريّا ذلك وسأل الآية[1] بعدما بشّرته الملائكة؟ أكان ذلك شكًّا في وَحْيه؟ أم إنكارًا لقُدْرته، وهذا لا يجوز أن يُوصَف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء؟! فالجواب عنه ما قال عِكْرمة والسُّدّيّ: إنّ زكريّا لمّا سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال: يا زكريّا إنّ الصوت الذي سمِعتَ ليس من الله إنما هو من الشيطان سَخِر بك، ولو كان من الله لأوحاه إليك خَفِيًّا كما ناديته خَفِيًّا وكما يوحي إليك في سائر الأمور؛ فقال ذلك دفعًا للوسوسة[2]. قال: وفيه جواب آخر، وهو أنه لم يشُكّ في الولد وإنما شكّ في كيفيته والوجه الذي يكون منه الولد فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي﴾؟ أي كيف يكون لي ولد؟ أتجعلني وامرأتي شابّين أو ترزقنا على كِبَرنا، أو ترزقني من امرأة عاقر، أم من غيرها من النساء؟ فقال ذلك مستخبرًا لا مستنكرًا. وهذا قول الحسن ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران: ٤١] تكُفّ عن الكلام ثلاثة أيام وتُقْبِل بكلّيّتك على عبادتي وطاعتي؛ لأنه ما حبس لسانه عن الكلام ولكنه نُهِي عنه؛ ويدلّ عليه قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. هذا قول قوم من أهل المعاني. وقال آخرون: عُقِلَ[3] لسانه عقوبةً له لسؤاله الآيَةَ بعد مُشافهةِ الملائكة إيّاه، فلم يقدِر على الكلام ثلاثة أيام، لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلّموا إلاّ رَمْزًا.

---

(١) الآية: العلامة.

(٢) الوسوسة: الكلام الخفي، ووسوس له الشيطان: حدّثه بما لا نفع فيه ولا خير.

(٣) عقل لسانه: حُبس عن الكلام.

قال: وفي بعض الأخبار أنه لمّا وُلد يحيى رُفع إلى السماء فغُذِّيَ بأنهار الجنّة حتى فُطِم ثم أنزِل إلى أبيه، فكان يُضيء البيت لنُوره.

واختلفوا في تسميته بيحيى ولم سُمِّيَ بذلك؟ قال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: لأنّ الله تعالى أحيا به عُقْر[١] أمّه. وقال قَتادة وغيرُه: لأنّ الله تعالى أحيا قلبَه بالإيمان والنبوّة. وقال الحُسين بن الفَضْل[٢]: لأنّ الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يَعْصِ ولم يَهِمّ بمعصية. وقيل: سُمِّي بذلك لأنه ٱستُشهد والشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون.

ويحيى أوّل من أقرّ بعيسى عليه السلام وصدّقه؛ وذلك أنه لمّا كان في بطن أمّه استقبلتها مريم وقد حَمَلتْ بعيسى، فقالت لها أمّ يحيى: يا مريم، أحاملٌ أنت؟ فقالت: لماذا تقولين؟ قالت: إني أرى ما في بطني يسجُد لما في بطنك؛ فذلك تصديقه وإيمانه. وكان يحيى أكبر من عيسى بستّة أشهر، وقُتِل قبل رفع عيسى. وقوله تعالى فيه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] قال ٱبن جُبَير: السيِّد الذي يطيع ربّه عزّ وجل. وقال الضحّاك: السيّد الحَسَن الخُلُق. وقال عِكْرمة: السيّد الذي لا يَغضَب. وقال سُفيان[٣]: السيّد الذي لا يحسُد. وحَصُورًا، قال ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما: هو الذي لا يأتي النساء ولا يقربَهنّ، فَعُول بمعنى فاعل، يعني أنه حَصَر نفسه عن الشهوات: وقال المبرّد: الحَصُور: الذي لا يدخل في اللّعِب ولا الباطل.

ذكر صفة يحيى بن زكريا وحِلْيته

قال كعب الأحبار[٤]: كان يحيى بن زكريّا عليهما السلام حَسَنَ الوجه والصُّورة، ليِّن الجَنَاح[٥]، قصيرَ الأصابع، طويلَ الأنف، مقرونَ الحاجبين، رقيقَ الصوت، كثير العبادة، قويًا في طاعة الله عزّ وجلّ وقد ساد الناس في عبادته.

---

(١) العقر: يقال امرأة عاقر: أي لا تلد.

(٢) هو الحسين بن الفضل بن عُمير البَجَلي، مفسّر معمّر، كان رأسًا في معاني القرآن، أصله من الكوفة، انتقل إلى نيسابور وأنزله عبد الله بن طاهر واليها في دارٍ اشتراها له، فأقام فيها يعلّم الناس، مات سنة ٢٨٢هـ «الأعلام ٢/ ٢٥١».

(٣) سفيان: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيّد أهل زمانه في علوم الدّين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة، انتقل بين مكة والمدينة والبصرة حيث مات فيها سنة ١٦١هـ «الأعلام ٣/ ١٠٤».

(٤) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم زمن أبي بكر، أخذ عنه الصحابة كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، مات في حمص سنة ٣٢هـ «الأعلام ٥/ ٢٢٨».

(٥) الجناح: الجانب من الإنسان.

ذكر نبوّة يحيى عليه السلام وسيرته وزهده

قال الله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢]. قيل: هو أن يحيى عليه السلام قال له أقرانه من الصبيان: يا يحيى اذهب بنا نلعب؛ فقال: أَللّعِبِ خُلِقتُ! وقال الآخرون: هو أنه نبيّ وهو صغير، وكان يَعِظ الناس ويقِف لهم في أعيادهم وجَمعهم يدعوهم إلى الله تعالى، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس.

ولمّا بعثه الله عزّ وجل إلى بني إسرائيل أمره أن يأمرهم بخمس خِصال وضرَب لكلّ خَصْلة منها مثلاً.

أمرهم أن يعبدوا الله تعالى ولا يُشركوا به شيئًا وقال: مَثُلُ الشِّرْكِ مَثُلُ رجل اشترى عَبِيدًا من خالص ماله ثم أسكنهم دارًا له ودفع لهم مالاً يتّجرون فيه ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه، ويؤدّون إليه فضل الرِّبح[1]، فعمدَ العَبِيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى غير سيّدهم.

وأمرَهم بالصلاة وقال: إنّ مَثَل المُصلّي كمثَل رجل استأذنَ على ملكٍ فأذِن له ودخل عليه، فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضيَ حاجته، فلما دخل الرجل ٱلتفت يمينًا وشمالاً ولم يَهُمّ بحاجته، فأعرض الملك عنه بوجهه ولم يقض حاجته.

وأمَرَهم بالصدقة وقال: مثلها كمثل رجل أسره العدوّ فٱشترى[2] منهم نفسه بثمن معلوم، فجعل يعمَل في بلادهم ويؤدّي إليهم من كَسْبه القليلَ والكثيرَ حتى وفّى ثمنه فأُعتق.

وأمَرهم بذكر الله تعالى وقال: مَثَلُ الذِّكْر مثل قوم لهم حِصْنٌ ولهم عدوّ، فإذا أقبل عليهم عدوّهم دخلوا حِصْنهم فلم يقدر العدوّ عليهم، كذلك مَن ذكر الله عزّ وجلّ لا يقدِر عليه الشيطان.

وأمَرهم بالصيام وقال: مثله كالجُنّة[3] لا يصل عدوّه إليه. وكان عليه السلام فيهم كثير التقشُّف والعبادة والزهد والسياحة إلى أن قُتل عليه السلام.

---

(١) فضل الرّبح: زيادته عن الحاجة. (٢) اشترى منهم نفسها: خلّصها من الأسر.
(٣) الجنجة: السّتر، وكل ما وقى النفس من سلاح.

ذكر مقتل يحيى بن زكريّا وأبيه زكريّا عليهما السلام

اختلف العلماء في سبب قتل يحيى؛ فقال بعضهم: كان يحيى عليه السلام في زمن مَلِكٍ من ملوك بني إسرائيل، وكانت له ٱمرأةٌ وهي بنت ملك صَيْدَا[١]، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين، وكانت عاهرة تبرُز للناس، وكان يحيى يزجُرُها عن ذلك ويقول لها: لا تبرُزين كاشفةً عن وجهِك. وكان كثيرًا ما يقول لها: مكتوبٌ في التوراة: إنّ الزُّناة يُوقَفُون يوم القيامة ورِيحهم أنتنُ من الجِيَف. فأمرتْ بيحيى فسُجِن. وكان قد حُبِس رجلٌ من أبناء الملوك، وكان يختلف إليها، فعلم بها وبه يحيى فزجره، فبلغ ذلك ٱمرأة الملك فحملتْ بنتًا لها وٱستقبلت بها زوجها. فقالت: لم فعلتِ ذلك؟ فقالت: وجَبَ لها عليك حقّ. فقال: سَلِيني ما شئتِ. فسألته أهلَ السجن. فظنّ أنها ترحمهم وتسرّحهم فقال: قد فعلتُ. فأمرت المرأة بأهل السجن فعُرضوا. فلمّا مُرّ بيحيى أمرت به فذُبح في طَسْت ثم حملت الطست إلى أبيها بأمر أمّها وقالت: أيها الملك، إني ذبحتُ لك ذبيحةً من أعظم ما وجدتُ، ولو كان مثلُه ألفًا لذبحتهم لك. فقال: ومَن هو؟ قالت: يحيى بن زكريا. قال: هلكتِ وأهلكتِ أبويك. فغيّر الله ما بهم من النعم، وسلّط عليهم عدوَّهم فذبح البنت وأبويها، وسلّط عليهم الكلاب حتى أكلتهم.

وقال الثعلبيّ في تفسيره: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق بن يَسَار قال: عبرت[٢] بنو إسرائيل بعدما عمرت الشام، وعادوا إليها بعد خراب بُخْتَنَصَّر إياها وسَبْيهم منها، فجعلوا بعد ذلك يُحدثون[٣] الأحداث بعد مَهْلَكِ عُزَير عليه السلام، ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الأنبياء، ففريقًا يكذّبون وفريقًا يقتلون، حتى كان آخرُ من بعث الله تعالى فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام. فمات زكريا وقُتل يحيى بسبب نَهْيه الملك عن نكاح ٱبنته في قول عبد الله بن الزبير، وٱبنة ٱمرأته في قول السُّدِّيّ، وٱبنة أخيه في قول ٱبن عباس رضي الله عنهما وهو

(١) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال دمشق، شرقي صور، بينهما ستة فراسخ، قالوا: سمّيت بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، فتحها المسلمون في خلاف عمر سنة ٦٣٨م «انظر معجم البلدان ٣/ ٤٣٧».

(٢) عبرت: كذا في الأصول، ولعلّها: غبرت، أي مكثت وبقيت، وهو أقرب إلى سياق النصّ ومعناه.

(٣) يحدثون الأحداث: أي يأتون بالأعمال المنكرة.

الأصح إن شاء الله تعالى؛ لِمَا رَوَى الأعمش[١] عن المِنْهَال[٢] عن سَعيد بن جُبير عن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: بَعَث عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا عليهم السلام في ٱثني عشر من الحَوَاريّين يعلّمون الناس، فكان مما نَهَوْهم عنه نكاحُ ٱبنة الأخ. قال: وكانت لملكهم ٱبنة أخ تُعجبه يريد أن يتزوّجها، وكانت لها في كل يوم حاجةٌ يقضيها لها. فلمّا بلغ ذلك أمّها أنه نهى عن نكاح بنت الأخ قالت لاَبنتها: إذا دخلتِ على الملك فسألكِ فقولي له: [حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا. فلمّا دخلت عليه سألها حاجتها قالت: حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا. فقال:][٣] سَلِيني غير هذا. قالت: لا أسألكِ إلا هذا. فلمّا أبت عليه دعا بيحيى ودعا بطَسْت فذبحه فيه، فندّت[٤] من دمه قطرة على الأرض، فلم تزل تَغْلي حتى بعث الله عزّ وجل ملك بابل، فقتل عليها من بني إسرائيل حتى سكنت. وقد تقدّم أيضًا خبر مقتله، وأنّ بختنصّر هو الذي قَتَل على دمه حتى سكن[٥]. والصحيح أن بختنصّر إنما قَتَل بسبب قتل شَعْيَا عليه السلام.

قال الثعلبيّ أيضًا: وقال علماء النصارى: إنّ قتل يحيى كان على يدَيْ ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له هِيرُودُس بسبب ٱمرأة يقال لها هَرْدُوبَا، كانت امرأة أخ له يقال له فَلْفُوس، عَشِقها فوافقته على الفجور، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحلّ له، فسألت المرأة هِيرُودُس أن يأتيها برأس يحيى ففعل، ثم سُقِط[٦] في يده وجزِع جَزَعًا شديدًا.

وقال كعب: كان يحيى عليه السلام من أحسن الناس وجهًا وأجملهم في زمانه، فأحبّته ٱمرأة الملك الذي كان في ذلك الزمان حبًّا شديدًا، فأرسلت إليه تراوده[٧]، فأرسل إليها أنه لا عِلْم له بالنساء والملِك أحقّ أن يطأ[٨] فِراشَه. فلمّا جاءها الرسول

---

(١) الأعمش: هو سليمان بن مهران الحافظ، أبو محمد الكاهلي، أحد الأعلام من رجال الحديث، قال ابن المديني: له ألف وثلاثمائة حديث... عاش ثمانيًا وثمانين سنة، مات في ربيع الأول سنة ١٤٨هـ «الكاشف ١/ ٣٢٠».

(٢) المنهال: هو المنهال بن عمرو الأسدي، محدث ثقة، روى عنه الأعمش وشعبة «انظر الكاشف ٣/ ١٥٧».

(٣) زيادة عن الثعلبي، وعبارة الأصول مضطربة.

(٤) ندّت: شردت ونفرت.

(٥) سكن: هدأ.

(٦) سقط في يده: عبارة تقال لكلّ من ندم أو حزن وتحسّر على فائت من فعل أو ترك أو عجز.

(٧) تراوده: طلبت منه أن يستسلم لها ويفجر بها.

(٨) يطأ فراشه: أي يجامع امرأته.

غضِبتْ وقالت: كيف لي أن أقتله حتى لا يخبر الناسَ أني قد راودته!. فلم تزل بالملك حتى وهب لها رأسَ يحيى بن زكريّا، وأرسلت إليه وهو قائم يصلّي في محراب داود في بيت المقدس فضُرِب عنقه وأخذ رأسه. فلمّا أرادوا أن يأخذوا رأس يحيى خَسَف الله بها وبأهلها الأرض عقوبةً لقتلها يحيى عليه السلام.

قال كعب: فلمّا رأى زكريّا أن ٱبنه يحيى قد قُتِل وخُسِف بالقوم انطلق هاربًا في الأرض، حتى دخل بستانًا عند بيت المقدس فيه أشجار. وأرسل الملك في طلبه غضبًا لما لَقِيَتِ المرأة وأهلها. فمرّ زكريّا بشجرة من تلك الأشجار فنادته الشجرة يا نبيّ الله، هَلُمّ إلى هاهنا. فلمّا أتاها التفّت عليه الشجرة ودخل زكريا عليه السلام في وَسَطها، فانطلق عدوّ الله إبليس لعنه الله حتى أخذ بطَرَف ردائه، فأخرجه من الشجرة ليصدِّقوه إذا أخبرهم، وجاء الذين يلتمسون زكريّا، فأخبرهم إبليس أنه دخل الشجرة؛ فقالوا: لا نصدّقك. قال: فإني أُريكم علامة تصدّقونني بها. قالوا: فأَرِناها، فأراهم طَرَف ردائه، فأخذوا الفؤوس فضربوا الشجرة حتى قطوها بٱثنتين، فسلّط الله عليهم أخبثَ أهل الأرض عِلْجًا[1] مجوسيًّا[2]، فٱنتقم الله من بني إسرائيل بدم يحيى وزكريّا، فقتل عظماء بني إسرائيل وسَبَى منهم مائة ألف وعشرين ألفًا.

وقد قيل في سبب قتل زكريا غير هذا، وسنذكره إن شاء الله في أثناء أخبار عيسى ابن مريم على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر هلاك بني إسرائيل وخراب بيت المقدس ثانيًا

قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى في بعض طُرُقه[3] عن محمد بن إسحاق: إن خراب بيت المقدس ثانيًا وقَتْلَ بني إسرائيل كان بعد رفع عيسى ابن مريم وقَتْلِ يحيى بن زكريّا. فلمّا فعلوا ذلك سلّط الله تعالى عليهم ملِكًا من ملوك بابل يقال له خَرْدُوس، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام؛ فلمّا ظهر عليهم أمر رأسًا من رؤوس أجناده يدعى نَبُوزَرَادان صاحب الفيل فقال له: إني قد كنتُ حلفتُ بإلٰهي إن أنا ظهرتُ على أهل بيت المقدس لأقتلنّهم حتى تَسيل دماؤهم في وسَط عسكري إلى ألاّ أجد أحدًا أقتله، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، وأن نَبُوزَرَادَان دخل بيت المقدس فقتلهم في البقعة التي كانوا يقرّبون فيها قُربانهم، فوجدوا فيها دمًا يَغْلي

---

(١) العلج: يطلق على الكافر من غير المسلمين، والعلج أيضًا: الشديد القاسي من الرجال.

(٢) المجوسي: الذي يعبد الشمس والقمر والنار من دون الله.

(٣) طرقه: أي أسانيده، أو كتبه.

فسألهم عنه فقالوا: هذا دَمُ قُربان قرّبناه فلم يُتَقَبَّلْ منّا فلذلك هو يَغْلِي كما تراه، ولقد قرّبنا منذ ثمانمائة سنة القُربان فتُقُبِّل منّا إلاّ هذا القربان. فقال: ما صَدَقتموني الخبر. قالوا له: لو كان كأوّل دمائنا لقُبل ولكنّه قد ٱنقطع منّا المُلْك والنبوّة والوَحي فلذلك لم يُقْبَل. فذبح منهم نَبُوزَرَادَان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رُوحًا من رؤوسهم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد. فلمّا رأى نَبُوزَرَادَان أن الدم لا يهدأ قال لهم: ويلكم يا بني إسرائيل! أَصْدُقوني وٱصبروا على أمر ربكم، فقد طالما ملكتم الأرض تفعلون فيها ما شئتم، قبل ألاّ أترك نافخ نار ذكرًا أو أنثى إلا قتلته. فلمّا رأَوا الجهدَ[1] وشدّة القتل صدَقوه الخبر فقالوا: إن هذا دم نبيّ منّا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَط الله، فلو أطعناه لكان أرشد لنا، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدِّقه فقتلناه فهذا دمه. فقال لهم: ما كان ٱسمُه؟ قالوا: كان اسمه يحيى بن زكريّا. قال: الآن صدَقتموني، لمثل هذا ينتقم منكم ربكم. ولمّا رأى أنهم قد صَدَقوه خرّ ساجدًا وقال لمن حوله: أغلقوا باب المدينة وأخرجوا مَن كان هاهنا من جيش خَرْدُوس. وخلا في بني إسرائيل ثم قال: يا يحيى بن زكريا، قد علم ربّي وربّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قُتِل منهم، فٱهدأ بإذن الله تعالى قبل ألاّ أبقي من قومك أحدًا، فهدأ دم يحيى بن زكريّا بإذن الله تعالى، ورفع نَبُوزَرَادان عنهم القتل وقال: آمنتُ بما آمنت به بنو إسرائيل وصدّقت به وأيقنت أنه لا ربّ غيره. فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس بقيّة الأنبياء عليهم السلام أن نَبُوزَرَادان حَبُور صَدُوق ـ والحبور بالعبرانية حديث الإيمان ـ فقال نَبُوزَرَادان: يا بني إسرائيل، إنّ عدوّ الله خَرْدُوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وَسَط عسكره، وإني لستُ أستطيع أن أعصيه. قالوا له: افعل ما أُمرتَ به، فأمرهم أن يحفِروا خَنْدَقًا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمُر والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتلوا قبل ذلك فطُرحوا على ما قُتل من مواشيهم حتى كانوا فوقها. فلمّا بلغ الدم عسكر خَرْدُوس أرسل إلى نَبُوزَرَادَان أنِ ٱرفع عنهم القتل فقد بلغتني دماؤهم. ثم ٱنصرف عنهم إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد. وهذه هي الوقعة الآخرة التي أنزل الله تعالى فيها وفي الأولى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥] فكان بختنصّر وجنودُه. ثم ردّ الله لهم الكرّة عليهم. وكانت الوقعة الآخرة خَرْدُوس وجنوده فلم تقُم لهم بعد ذلك راية.

---

(١) الجهد: العذاب والمشقة.

وانتقل المُلك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونان، إلاّ أنّ بقايا بني إسرائيل كثروا وانتشروا بعد ذلك. وكانت لهم الديانة والرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك. وكانوا في نَعْمة ومَنَعَة[١] إلى أن بدّلوا وأحدثوا الأحداث واستحلّوا المحارم وضيّعوا الحدود[٢]، فسلّط الله تعالى عليهم طَطُوس بن اسفَيَانوس الرومي فأخرب بلادهم وطردهم عنها، ونزَع الله تعالى منهم المُلْك والرياسة وضرب[٣] عليهم الذلّ، فليسوا في أمّة من الأمم إلاّ وعليهم الصَّغَار[٤] والجزية والمُلْك في غيرهم. وبقي بيت المقدس خرابًا إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعمّره المسلمون بأمره.

قال: ورَوَى أبو عَوَانة[٥] عن أبي بشر[٦] قال: سألت سَعِيد بن جُبَير عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] فقال: أمّا الذين جاسوا[٧] خلال الديار فكان صَرْخان[٨] الخزريّ شعَّث[٩] من الديار وتَبَّر[١٠]. ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦] إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٧] إلى قوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] قال: هذا بختنصّر الذي خرّب بيت المقدس. ثم قال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] قال: فعادوا فعِيدَ عليهم، فبعث الله تعالى عليهم ملك الروم. ثم عادوا أيضًا فعِيدَ عليهم، فبعث عليهم درم أوزن ملك الريّ[١١]. ثم عادوا أيضًا فعيد عليهم، فبعث عليهم سابورَ ذا الأكتاف[١٢].

---

(١) المنعة: العزّ والقوّة.

(٢) الحدود: مفردها الحدّ، وهو العقوبة الشرعية التي يفرضها الدّين على مرتكبي الآثام.

(٣) ضرب عليهم الذل: أي أذلّهم. (٤) الصّغار: الذلّة.

(٥) أبو عوانة: هو الوضاح بن عبد الله الحافظ، أو الوضّاح بن خالد، اليشكري مولى يزيد بن عطاء محدّث ثقة، متقنٌ لكتابه، توفي سنة ١٧٦هـ «الكاشف ٣/ ٢٠٧».

(٦) هو أبو بشر العنبري: الوليد بن مسلم، محدّث ثقة «انظر الكاشف ٣/ ٢١٣».

(٧) جاسوا خلال الدّيار: تردّدوا بين الدّيار جائين ذاهبين وقيل: يقتلونهم جائين ذاهبين «القرآن الكريم المفسّر».

(٨) هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل، ملك الرّوم.

(٩) شعّث: فرّق. (١٠) تبّر: أهلك ودمّر.

(١١) الريّ: مدينة مشهورة من أمّهات البلاد وأعلام المدن الكثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا، وهي داخلة في الإقليم الخامس «انظر معجم البلدان ٣/ ١١٦».

(١٢) هو سابور «ذو الأكتاف» بن هرمز بن نرس بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك من بني ساسان، أحد ملوك الفرس «انظر جمهرة أنساب العرب ٢/ ٥١١».

وقال قتادة: هذه الآيةُ قضاءٌ قُضِيَ على القوم كما يسمعون، فبعث عليهم في الأولى جالوت فسبى وقتل وخرّب بيتَ المَقْدِس وسامهم[١] سوء العذاب، ثم قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] فعاد الله عليهم برحمته. ثم عاد القوم بشرّ ما يحضُرهم. فبعث الله تعالى عليهم ما شاء أن يبعث من نَقْمته وعقوبته. ثم بعث الله تعالى عليهم هذا الحيّ من العرب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] فهم بهم في عذاب إلى يوم القيامة.

وهذه الأخبار التي أوردناها في هذا المكان من خبر زكريّا ويحيى وخراب بيت المقدس ثانيًا، منها ما كان في زمن عيسى عليه السلام، ومنها ما كان بعد رفعه. وإنما أوردناها سياقة وتركنا خبر عيسى عليه السلام لئلا تنقطع بغيرها وليتلو بعضها بعضًا. فلنرجع إلى أخبار عيسى ابن مريم عليه السلام.

ذكر خبر حمل مريم بنت عمران بعيسى عليهما السلام

قال الكسائيّ رحمه الله تعالى: وكانت مريم تنمو وتزيد في كل يوم وتعبد الله تعالى حتى برّزت[٢] في العبادة على نساء بني إسرائيل. فلمّا بلغت مبلغ النساء أتت منزل زكريّا، فقال لها: كيف خرجتِ من بيتك ومفتاحه معي؟ قالت: إني رأيت أمرًا قبيحًا ـ أرادت بذلك الحيض ـ فجئتك بإذن الله. فأمرها زكريّا أن تكون عند خالتها حتى تطهُر، ففعلت ذلك. فلما طهُرت واْغتسلت عادت إلى عبادتها. فكان ذلك عادتها وشأنها إذا حاضت. فذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٧] أي سترًا ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] يعني جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] أي في صورة رجل ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨] أي مطيعًا لربك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٩ ـ ٢١] ثم نفخ في جيبها فوصلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى لوقتها. ويقال: إنّ زكريّا في ذلك الوقت أفضى إلى اْمرأته فحملت بيحيى. وقيل: إنّ اْمرأة زكريّا حملت قبل مريم بثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر. وكانت مريم إذ ذاك بنت خمس عشرة سنة، وقيل ثلاث عشرة سنة.

---

(١) سامهم العذاب: أي أذلّهم وألحق بهم. (٢) برّزت: ظهرت وتفوّقت.

وحكى الثعلبيّ في قصة حمل مريم أنه كان معها في المسجد ٱبن عمّ لها من المحرَّرين[١] يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان رجلاً حكيمًا نجّارًا، يتصدّق بعمل يديه، وكان يوسف ومريم إذا نفِد ماؤهما أخذ كل واحد منهما قُلّته[٢] وٱنطلق إلى المغارة التي فيها الماءُ يستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة. فلمّا كان اليومُ الذي لَقِيها فيه جبريل، كان أطول يوم في السنة وأشدَّ حرًّا، نفِد ماؤها، فقالت: يا يوسف، ألاَ تذهب بنا نستقي؟ فقال لها: إنّ عندي لفضلاً من ماء أكتفي به في يومي هذا إلى غد. قالت: لكني والله ما عندي ماء، فأخذت قُلّتها ثم ٱنطلقت وحدها حتى دخلت المغارة، فوجدت عندها جبريل عليه السلام، قد مثّله الله عزّ وجل بشرًا سويًّا؛ فقال لها: يا مريم، إنّ الله قد بعثني إليك لأهَبَ لكِ غلامًا زكيًّا. قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. قال عِكْرمة: وكان جبريل قد عرَض لها في صورة شابّ أمردَ[٣] وضيء[٤] الوجه، جَعْد الشعر، سويّ الخَلْق. قال الحكماء: وإنما أرسله الله تعالى في صورة البشر لتثبُت مريم عليها السلام وتقدِر على ٱستماع كلامه، ولو أتاها على صورته التي هو عليها لَفَزِعت ونفَرت عنه، ولم تقدِر على ٱستماع كلامه. فلمّا ٱستعاذت مريم منه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] الآية. فلما قال ذلك استسلمتْ لقضاء الله تعالى. فنفخ جبريل في جيب دِرْعها[٥]، وكانت قد وضعته[٦]، ثم انصرف عنها. فلما لبِست مريم درعها حملت بعيسى عليه السلام، ثم ملأت قُلّتها وٱنصرفت إلى المسجد. وقال السُّدّيّ وعِكْرمة: إنّ مريم عليها السلام كانت تكون في المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها حتى إذا طهُرت عادت إلى المسجد. فبينما هي تغتسل من الحيض وقد أخذت مكانًا شرقيًّا ـ قال الحسن[٧]: إنما اتخذت النصارى الشرق قِبلةً لأن مريم انتبذت مكانًا شرقيًّا ـ فاتخذت، فضربت من دونهم حجابًا، أي سترًا. وقال مقاتل: جعلت الجبل بينها وبين قومها، فبينما هي كذلك إذ عرض لها جبريل وبشّرها ونفخ في جيب درعها.

---

(١) المحرّر: الذي أفرد لخدمة المسجد وعبادة الله.

(٢) القلّة: إناء من الفخار يشرب منه.

(٣) الأمرد: الذي طرّ شاربه ولم تبدُ لحيته بعد.

(٤) الوضيء: حسن الوجه وجميله.

(٥) الدّرع: قميص المرأة.

(٦) وضعته: خلعته، ونضّته عن جسدها.

(٧) هو الحسن البصري، تقدّمت ترجمته.

قالوا: فلما اشتملت على عيسى وتبيّن حملُها داخلها الغمّ وعلمت أنّ بني إسرائيل سوف يقذِفونها[١]، فنادتها الملائكة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي من الحيض ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣]. قال: وبشّرها الله تعالى بعيسى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦]. ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩] الآية فطابت نفسها. قال وَهْب: فلمّا اشتملت[٢] على عيسى وكان معها يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي بجبل صِهْيَوْن ـ وجبل صهيون على باب بيت المقدس ـ وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم، وكانت مريم ويوسف يخدمان ذلك المسجد، وكان لخدمته فضل عظيم، فكانا يَلِيان معالجته بأنفسهما وتطهيره، وكان لا يُعْلَم أحدٌ من أهل زمانهما أشدّ اجتهادًا وعبادة منهما. فكان أوّل مَن أنكر حمل مريم يوسف النجّار. فلما رأى ما بها استعظمه وقُطع[٣] به ولم يدر على ماذا يضع أمرَها. فكان إذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تَغِب عنه، وإذا أراد أن يبرّئها رأى الذي ظهر بها من الحمل. فلما اشتدّ ذلك عليه كلّمها، فكان أوّل ما كلّمها به أن قال لها: إنه قد وقع[٤] في نفسي منك ومن أمرك شيء، وقد حَرصت على أن أكتُمه فغلبني ذلك ورأيتُ أنّ الكلام فيه أشفَى لصدري. فقالت: قل قولاً جميلاً. قال: خبِّريني يا مريم، هل ينبُت زرع بغير بَذْر؟ قالت نعم. قال: فهل تنبُت شجرة بغير غيث يصيبها؟ قالت نعم. قال: فهل يكون ولدٌ من غير فَحْل؟ قالت: ألم تعلم أنّ الله عزّ وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بَذْر، والبِذَارُ إنما تكون من الزرع الذي كان أنبته من غير بذر! ألم تعلم أن الله عزّ وجل أبنت الشجر من غير غيث، وبالقَدَر جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق كل واحدة على حدة! أوَتقول إن الله لا يقدر على إنباته! قال يوسف لها: لا أقول هذا، ولكني أعلم أن الله تبارك وتعالى يقدر على ما يشاء، يقول

(١) يقذفونها: يرجمونها بالحجارة كما يُفعل بالزّناة.
(٢) اشتملت على عيسى: أي حملته في بطنها.
(٣) قُطع به: يئس أو حيل بينه وبين ما يريده من اليأس والحيرة.
(٤) وقع في نفسي منك: أي حصل أمرٌ حملني على الشك.

لذلك: كُنْ فيكونُ. فقالت له مريم: أوَلم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وٱمرأته حوّاء من غير ذكر ولا أنثى! قال بلى. فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من أمر الله، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لِما رأى من كتمانها. وقال الكسائيّ: لما قال يوسف لمريم: هل يكون ولد من غير فَحْل؟ قالت: نعم، آدم من غير أب وأمّ. قال صدقتِ. ثم قال: هذا الولد الذي في بطنك مَن أبوه؟ قالت: هذا هبة ربّي لي، ومَثَلُه كمثل آدم خلقه من تراب. فنطق عيسى في بطنها وقال: يا يوسف ما هذه الأمثال التي تضربها! قم فٱشتغل بصلاتك وٱستغفر لذنبك مما قد وقع في قلبك. فقام يوسف وجاء إلى زكريّا وأخبره، فاغتمّ وقال لٱمرأته: إنّ مريم حاملٌ، وأخاف من فُسّاق بني إسرائيل أن يتّهموا يوسف بها. قالت: توكّل على الله وٱستعن به فإنه يردّ عنها مقالة الفُسّاق.

قالوا: ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمله فيه لما رأى من رقّة جسمها، وٱصفرار لونها، وكَلَف[1] وجهها، ونتوء بطنها[2]، وضعف قوّتها. والله أعلم.

ذكر خبر ميلاد عيسى ابن مريم عليهما السلام

قال الكسائيّ رحمه الله: فلمّا دنا وقت الولادة خرجت مريم في جوف الليل من منزل زكريا حتى صارت إلى خارج بيت المقدس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢]. قال: وأخذها الطَّلْق، فنظرت إلى نخلة يابسة فجلست تحتها فاخضَرَّت النخلة من ساعتها وصار لها سَعَفًا[3] وخُوصًا[4] وحملت الرُّطَب[5] لوقتها وأنبع الله في أصل النخلة عينًا من الماء. قال: وعن وهب أنه لمّا دنت ولادة مريم عليها السلام أوحى الله تعالى إليها أن تخرج من المحراب فتتبوّأ منزلاً تلد فيه، فتحوّلت إلى بيت خالتها أمّ يحيى بن زكريا لتَلِد في بيتها. قال: فلمّا دخلت عليها استقبلتها أمّ يحيى وسلّمت عليها. فلمَّ ٱلتقيا أحسّت أمّ يحيى بسجود مَن في بطنها، فقالت: يا مريم، إن الذي في بطني يسجد لما في بطنك.

---

(١) الكلف: حمرة كدرة تعلو الوجه، أو هو لون بين السّواد والحمرة والكلف: شيء يعلو الوجه ويُعرف «بالنّمش».

(٢) نتوء البطن: بروزها.

(٣) السّعف: أغصان النخيل.

(٤) الخوص: ورق النخيل.

(٥) الرّطب: ثمر النخل، إذا أدرك ونضج.

قالوا: ثم أوحى الله تعالى إلى مريم أن تخرج من أرض بَيْتَ[١] لَحْمَ إلى جهة من الأرض تلد فيها، فحملها يوسف النجّار على حمار بأُكَاف[٢] ليس بينها وبين الأُكَاف غير ثوبها وهي مُثْقِلة لا تكاد تقوم. فانطلقا في سواد الليل من بَيْتَ لَحْمَ يؤمّان[٣] الجبال، حتى إذا كانا ببعض الطريق بين نخلات ينزلها الرُّكبان، بينهنّ أوَارِيّ[٤] مبنيّة بناها السَّفْر[٥] ليعلّقوا[٦] فيها دوابّهم. فنزلا ذلك المنزل، فأدركها المخاض، فالْتجأت إلى بعض تلك الأوارِيّ وهو في أصل جِذْع نخلة يابس قَحْل ليس فيه عَرَاجين[٧] ولا غيرها، فأنبته الله تعالى وأثمره حتى أظلّها وأكنّها[٨] وتدلّت عليها غصونه من كل جانب حتى سترها السَّعَف والعراجين. واشتدّ بها الطَّلْق وداومها سبع ليال، وأشرفت على الموت، فقالت ما أخبر الله تعالى به عنها، قال الله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣]. قال: واشتدّ عليها البرد، فعمد يوسف إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة، ثم أشعل فيه النار فأدفأها، وكسر لها سبع جَوْزات فأكلتها. فمن أجل ذلك تُوقِد النصارى النارَ ليلة الميلاد وتلعب بالجوز. قال وقال كعب: إنها خرجت منفردة، فلمّا فقدها زكريّا أهمّه ذلك، وبعث يوسف النجّار في طلبها، فجاء حتى نظر إليها تحت النخلة. قال: ولمّا شكت من ألم الولادة ما شكت وقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ

---

(١) بيت لحم: قرية صغيرة في فلسطين، ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام، وهي إلى الجنوب من أورشليم، محاطة بتلال تكسوها الأشجار وفيها مياه عذبة تتفجر من أراضيها الخصبة «انظر قاموس الكتاب المقدّس، وقاموس الجغرافية القديمة».

(٢) الآكاف: برذعة الحمار. (٣) يؤمّان الجبال: يقصدانها.

(٤) الأواري: مفردها أريّ، وهو محبس الدّابة. (٥) السّفر: جماعة المسافرين.

(٦) قوله: (ليعلقوا فيها دوابهم) فيها أي في (الأواري) وهي الذرائب التي تحبس فيها الدواب وصواب (ليعلقوا) بالقاف (ليعلفوا) بالفاء من العلف وهو إطعام الدابة. نعم: (العليق) بالقاف يكون بمعنى علف الدابة غير أن فعله وهو (علق يعلق) معناه أن يمد البعير مشفره إلى أعلى الشجرة ويرعى من ورقها. قال صاحب النهاية في تفسير حديث «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة» أي تأكل وهو في الأصل للإبل إذا أكلت شجرة العضاه. (فنقل إلى الطير اهـ) ولا يخفى أن الطير حينما تنقر الأثمار من فوق الأشجار تكون شبيهة بالإبل التي تمد أعناقها وتتناول قوتها من أعالي الأشجار. والمؤلف يقول: إن المسافرين من بني إسرائيل بنوا أواري أي زرائب لدوابهم بين نخلات لأجل أن تتناول من العلف ما يسدّ جوعتها. ولا يتصور من هذه الدواب وهي محبوسة في الذرائب المبنية بين أشجار النخيل أن تعلق وإنما هي تعلف.

(٧) العراجين: مفردها عرجون، وهو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسًا، سمّي بذلك لانعراجه.

(٨) أكنّها: سترها.

قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي لا تُعْرَف ولا تذكر ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قيل: إن الذي ناداها عيسى. وقيل: جبريل ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وهو الجدول الصغير. قالوا: كان نهرًا من ماء عذب، يكون باردًا إذا شربت منه، وفاترًا إذا ٱستعملته ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥] أي نضيجًا ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦] أي كلي واشربي من الماء الذي أنبعه الله لك وقرّي عينًا بهذا الولد ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أي صمتًا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

قال: فلما جاء يوسف النجّار كلّمها فلم تتكلم، فتكلّم عيسى في حِجْرها[١] وقال: يا يوسف، أبشر وقَرَّ عينًا وطِبْ نفسًا، فقد أخرجني ربي من ظلمة الأرحام إلى ضوء الدنيا، وسآتي بني إسرائيل وأدعوهم إلى طاعة الله.

واختلف العلماء في مدّة حمل مريم عليها السلام بعيسى ووقت وضعها إياه، فقال بعضهم: كان تسعة أشهر كحمل سائر النساء، وقيل: ثمانية أشهر، وكان ذلك آية[٢] أخرى لأنه لم يعش مولود يوضع لثمانية أشهر غير عيسى، وقيل: ستة أشهر، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل ساعة واحدة. وقال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت، ولم يكن بين الحمل والٱنتباذ[٣] إلا ساعة واحدة؛ لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلاً. وقال مُقاتل: حملته مريم في ساعة وصُوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وهي بنت عشر سنين، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام. قال: فٱنصرف يوسفَ إلى زكريّا وأخبره بولادة مريم وكلام عيسى، فٱزداد زكريّا غمًّا لما يقوله الناس.

قال الثعلبيّ قال وهب: فلما وُلد عيسى عليه السلام أصبحتِ الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رؤوسها، ففَزِعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك، فساروا مسرعين حتى جاؤوا إبليس وهو على عرش له في لُجّة[٤] خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء، فأتَوْه وقد خلت ستّ ساعات من النهار. فلمّا رأى إبليس جماعته فزع من ذلك ولم يرهم جميعًا منذ فرّقهم قبل تلك الساعة إنما كان يراهم أشتاتًا، فسألهم، فأخبروه أنه حدث في الأرض حادث أصبحت الأصنام كلها منكوسةً على رؤوسها، ولم يكن شيء أعون[٥] على هلاك بني آدم منها لما يدخل في أجوافها فتكلّمهم وتدبّر أمرهم، فيظنّون أنها هي التي تكلّمهم، فلمّا أصابها هذا الحادث صغّرها في أعيُن بني

---

(١) حجر المرأة: حضنها.
(٢) الآية: المعجزة والعلامة.
(٣) الانتباذ: الوضع والولادة.
(٤) اللّجة: معظم الماء.
(٥) أعون: من العون، وهو المساعدة.

آدم وأذلّها، وقد خَشِينا ألاّ يعبدها بعد هذا. وٱعلم إنّا لم نأتك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء، فلم نزدد بما أردنا إلا جهلاً. فقال لهم إبليس: إنّ هذا لأمرٌ عظيم، فكونوا على مكانكم. وطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات، فمرّ بالمكان الذي وُلد فيه عيسى عليه السلام. فلمّا رأى الملائكة مُحْدِقين بذلك المكان علم أنّ ذلك الحادث فيه، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رؤوس الملائكة ومناكبهم[١] إلى السماء، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدامُ الملائكة راسيةٌ، فأراد أن يدخل من بينهم فنحَّوْه عن ذلك، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال: ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها شرقها وغربها وبرّها وبحرها والخافِقَيْنِ[٢] والجوّ الأعلى، وكل هذا بلغته في ثلاث ساعات، وأخبرهم بمولد عيسى عليه السلام وقال: ما ٱشتملت قبله أمّ على ولد إلاّ بعلمي، ولا وضعته قطّ إلاّ وأنا حاضرها. وإني لأرجو أن أُضِلَّ به كثيرًا ممن يهتدي، وما كان نبيّ قبله أشدّ عليّ وعليكم من هذا المولود.

قال: ثم خرج من تلك الليلة قوم يؤمُّونه من أجل نجم طلَع، وكانوا قبل ذلك يتحدّثون أنّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دَانِيَال، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمُرُّ[٣] واللُّبان[٤]، فمرّوا بملك[٥] من ملوك الشام، فسألهم أين تريدون؟ فأخبروه بخبرهم. قال: فما بال الذهب والمرّ واللُّبان أهديتموه له من بين الأشياء كلها[٦]؟ قالوا: تلك أمثاله؛ لأنّ الذهب سيّد المتاع كله، وكذلك هذا النبيّ سيد أهل زمانه. ولأنّ المرّ يجبر به الكسر والجُرْح، وكذلك هذا النبيّ يَشْفِي الله تعالى به كل سقيم ومريض. ولأن اللُّبان يبلغ دُخَانه إلى السماء ولا يبلغها دُخان غيره، وكذلك هذا النبيّ يرفعه الله تعالى إلى السماء ولا يرفع في زمانه أحدًا غيره. فلمّا قالوا ذلك للملك حدّث نفسه بقتله فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك فإني راغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره. فٱنطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهديّة إلى مريم، وأرادوا أن يرجعوا إلى الملك ليعلموه بمكان عيسى، فلقيهم مَلَكٌ

---

(١) المناكب: واحدها منكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف.

(٢) الخافقان: هما أفق المشرق وأفق المغرب.

(٣) المرُّ: صمغ شجر، وهو دواء نافعٌ للسّعال ولسع العقرب ولديدان الأمعاء، طيّب الرائحة.

(٤) اللّبان: نبات من الفصيلة البخوريّة يفرز صمغًا وهو الكندر.

(٥) هو هيرودس الأكبر الذي حكم من ٤٠ إلى ٤ قبل الميلاد، والتاريخ المسيحي متأخر عن وقته الأصلي بأربع سنين، ولذلك يكون ميلاد السيّد المسيح في السنة الأخيرة من ملكه، وكان هيرودس هذا حديد الذهن قوي الإرادة مشهورًا بالحيل، غير أنه كان صارمًا لا يبالي الحق في إجراء مقاصده «انظر الكتاب المقدّس ٣/٣».

(٦) في الأصل: أهديتموه بهذه الأشياء والتصويب عن الثعلبي.

فقال لهم: لا ترجِعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنما أراد بذلك ليقتله، فانصرَفوا في طريق آخر. وقال مُجاهد: قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدّثني وحدّثته، فإذا شغلني عنه شيء سبّح في بطني وأنا أسمع.

قالوا: وكان مولد عيسى عليه السلام بعد مضيّ اثنتين وأربعين سنة من مُلْك أغوسطوس[١]، وخمسين سنة مضت من مُلك الأشغانين[٢] ملوك الطوائف. وكانت المملكة لملوك الطوائف، والرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم، والملك عليها من قِبَل قَيْصر هِيرُودُس[٣]، وقيل في اسمه هرادوس.

ذكر رجوع مريم بعيسى عليه السلام بعد مولده إلى قومها

قال الكسائيّ: ثم قامت مريم بعد الولادة وحملت عيسى على صدرها حتى أشرفت به على بني إسرائيل وزكريا بينهم. وقال الثعلبيّ قال الكلبيّ: احتمل يوسفُ مريمَ وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يومًا حتى تَعَالَتْ[٤] مريم من نِفاسها، ثم جاء بهما فكلّمها عيسى في الطريق فقال: يا أمّاه، أبشري فإني عبد الله ومسيحه. قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧]. فلما نظروا إليها بكَوْا و﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] أي عظيمًا فظيعًا لا يُعرف منكِ ولا من أهل بيتك، وكانوا أهل بيت صالحين. ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] واختلف في سبب قولهم لها ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾، فقال الكسائيّ: ناداها هارون وكان أخاها من أمّها، وهو من أحبار[٥] بني إسرائيل وعُبّادهم، وقال لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، فمن أين لك هذا الولد! وقال الثعلبيّ قال قتادة: كان هارون رجلًا صالحًا من أتقياء بني إسرائيل، وليس هارون أخا موسى. وقال وهب: كان هارون من أفسق بني إسرائيل وأظهرهم فسادًا، فشبّهوها به ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي كلّموه ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]!، وضربوا بأيديهم على جباههم تعجُّبًا، فتنحنح عيسى و﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ -

(١) في الأصل: «أغسوطوس» والتصويب عن الطبري ص٧٤٠.

(٢) في الأصل: «الأسكانيين» والتصويب عن الطبري ص٧٠٦.

(٣) في الأصل: «هردوس» والتصويب عن الكتاب المقدس ٣/٣.

(٤) تعالت المرأة من نفاسها: خرجت منه وطهرت.

(٥) الأحبار: العلماء.

٣٣]. قالوا: فلما سمع ذلك أحبار بني إسرائيل علموا أنه لا أبَ له وأنّ الله تعالى خلقه كما خلق آدم. فقال زكريا: الحمد لله الذي برّأنا بقول عيسى من فُسّاق بني إسرائيل. قالوا: ثم لم يتكلم عيسى بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان. وقيل غير هذا. والله أعلم.

ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر وما ظهر له من المعجزات في مسيره ومدّة مُقامه إلى أن عاد

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠]. اختلف العلماء في الرَّبوة فقال عبد الله بن سَلاَم: هي دمشق. وقال أبو هريرة: هي الرَّمْلة[١]. وقال قَتَادة وكعب: هي بيت المقدس. وقال كعب: هي أقرب الأرض إلى السماء. وقال أبو زيد: هي مصر. وقال الضحّاك: هي غُوطَة دمشق. وقال أبو العالية: هي أيلة[٢]. وقال بعض المفسرين: هي قرية من قرى مصر تسمى سَدَمَنْت. وسَدَمَنْت: بلد من بلاد إقليم الفيوم معروفة مشهورة. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ القرار: الأرض المستوية. والمعين: الماء الظاهر. وكان سبب خروج مريم إلى مصر ما حكاه الكسائيّ وغيره من أهل السير قالوا: وبلغ الملك هِيرُودُس خبر عيسى فهمّ بقتل مريم وٱبنها، فخاف زكريا والمؤمنون عليهما من القتل، وذلك بعد مولد عيسى بأيام قلائل، فقال زكريا لمريم: إني أخاف عليك وعلى ٱبنك من هذا الملك، وأمر يوسف النجار أن ينقلهما إلى أرض مصر، وأعطاهما أتانًا[٣] وزوّدهم، فسار يوسف بهما نحو مصر.

* * *

وكان من المعجزات التي ظهرت على يَدَيْ عيسى عليه السلام في مسيره ومُقامه بمصر أنه بينما هم سائرون إلى أرض مصر رأى يوسف النجّار في بعض الطريق أسدًا ففزع منه، فقال عيسى: قرّباني إلى الأسد ولا تَقْرَباه أنتم، فقرّبوه؛ فلما صار بين يَدَيِ الأسد قال عيسى: أيها الوحش، ما وقوفك على قارعة[٤] الطريق؟ قال: لثور

(١) الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت رباطًا للمسلمين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر يومًا، وهي كورة فلسطين، وكانت دار ملك داود وسليمان ورحبعم بن سليمان «معجم البلدان ٣/ ٦٩».

(٢) أيلة: مدين في طريق مكة من مصر، وهي أوّل حدّ الحجاز، يجتمع بها حاج مصر والمغرب «الروض المعطار: ٧٠».

(٣) الأتان: أنثى الحمار.

(٤) قارعة الطريق: أعلاه ووسطه.

يمرّ عليّ لا بدّ لي منه. قال عيسى: هذا الثور لقوم مساكين ليس لهم سواه، ولكن انطلق إلى بريّة كذا وكذا، فإنك سترى جملاً ميّتًا فكُلْه، وٱترك هذا الثور لأصحابه، فمضى الأسد نحو الميتة وتركهم. والله أعلم بالصواب.

معجزة أخرى:

قال: ثم ساروا، فرأوْا قومًا قد ٱجتمعوا بالقُرب من دار ملك من الملوك. فقال لهم عيسى: ما وقوفكم هاهنا؟ قالوا: امض أيها الصبيّ لشأنك. قال: أتحبُّون أن أخبركم بوقوفكم؟ قالوا نعم. قال: إنكم تريدون دخول هذه الدار إذا جنّ[١] الليل فتأخذون مال هذا الملك، فلا تفعلوا فإنه مؤمن، ودلّهم على كنز وقال: إنه كان لقوم ماتوا، فسار أولئك إليه وٱقتسموا منه مالاً عظيمًا.

معجزة أخرى:

قال: ثم ساروا حتى دخلوا قرية عامرة وقد ٱجتمع الناس على باب ملكها ومعهم صنم من حجر وهم يبكون ويسجدون لذلك الصنم. فقال عيسى: ما شأنكم أيها القوم؟ فقالوا: إنّ امرأة هذا الملك قد عسُر عليها وضع الولد، وقد أمرنا الملك أن نسجد لهذا الصنم ونسأله أن يخفّف عنها ما هي فيه. قال عيسى: اذهبوا إلى الملك وقولوا له: لو وضعتُ يدي على بطنها يخرج الولد عاجلاً. فأخبروا الملك فقال: ائتوني به، فأدخلت مريم وعيسى على الملك، فعجِب من نطقه وهو صغير، وأدخل على المرأة، فقال عيسى: إن أخبرتك بما في بطنها وخرج كما أقول أتؤمن بربّي الذي خلقني من روحه؟ قال نعم. قال عيسى: في بطنها غلام على خدّه خال[٢] أسود، وعلى ظهره شامة[٣] بيضاء، ثم وضع يده على بطن المرأة وقال: أيها الجنين، بالذين خلق الخلق وأسبغ[٤] عليهم سعة الرزق أُخرُج. فخرج الولد على ما وصفه عيسى فهمّ الملك أن يؤمن، فقال وزراؤه: إنّ هذه المرأة ساحرة، وهذا الصبيّ مثلها، وقد طردوهما من بيت المقدس، ولم يزالوا به حتى ردّوه عن الإيمان. فأرسل الله تعالى على الملك وقومه صاعقة فأهلكتهم. ثم مضى يوسف بهما حتى دخلوا مصر، ونزلت مريم دار دِهقان[٥] هناك، ولم يكن لها ما تعيش منه إلاّ الغَزْل، فكانت تغزل الكَتّان والصوف بالأُجرة لأهل مصر، ويوسف يحتطب ويبيع الحطب مدّة ليس لهم رزق إلا من ذلك.

---

(١) جنّ الليل: أسدل ظلامه.

(٢) الخال: الشامة.

(٣) الشامة: علامة في البدن يخالف لونها لون سائره.

(٤) أسبغ الرزق: أجراه وأتمّه.

(٥) الدهقان: التاجر أو رئيس الإقليم.

معجزة أخرى:

قال الثعلبيّ قال وهب: كان أوّل آية رآها الناس من عيسى أنّ أمه كانت نازلة في دار دِهقان من أهل مصر أنزلها به يوسف النجّار حين ذهب بها إلى مصر، وكانت داره يأوي إليها المساكين، فسُرق للدِّهقان مال من خزانته فلم يتّهم المساكين، فحزِنت مريم لمصيبة الدّهقان. فلمّا رأى عيسى حُزْن أمّه بمصيبة صاحب ضيافتها قال لها: يا أمّاه، أتحبِّين أن أدلّه على ماله؟ قالت: نعم يا بنيّ. قال: قولي له يجمع لي مساكين داره. فقالت مريم ذلك للدهقان، فجمع له المساكين. فلما اجتمعوا عمَد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مُقعَد، فحمل المقعد على عاتق[١] الأعمى وقال له: قُم به. فقال الأعمى: أنا أضعف من ذلك. فقال عيسى: وكيف قويت على ذلك البارحة! فلمّا سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام. فلما استقلّ قائمًا هوى المُقعَد إلى كُوة الخزانة. فقال عيسى عليه السلام: هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوّته والمقعد بعينيه. فقال المقعد والأعمى: صدق، فردّا على الدهقان ماله. فقال الدهقان لمريم: خذي نصف المال. فقالت: إني لم أُخلق لهذا. قال: فأعطه ابنك. قالت: هو أعظم مني شأنًا. والله أعلم بالصواب.

معجزة أخرى:

قال: ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس[٢] ٱبنًا له، فصنع له عيدًا فجمع عليه أهل مصر وكان يُطعمهم شهرين. فلمّا انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان به حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب. فلمّا رأى عيسى ٱهتمامه بذلك دخل بيتًا من بيوت الدهقان فيه جرار، فأمرّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشي، فكلّما مرّ بيده على جرّة امتلأت شرابًا حتى أتى على آخرها، وهو يومئذ ابن ٱثنتي عشرة سنة.

معجزة أخرى:

قال: وبينا عيسى يلعب مع الصبيان بأرض مصر، إذ وثب غلام منهم على غلام آخر فقتله. فجاء أهله وتعلّقوا بجميع الصبيان وفيهم عيسى وأتَوْا بهم إلى القاضي. فقال القاضي: مَن قتل هذا؟ قالوا: هذا، وأشاروا إلى عيسى. فقال له القاضي: لم قتلتَ هذا الغلام؟ قال: أراك حاكمًا جاهلاً، كان يجب أن تسألني: أقتلته أم لا! قال القاضي: أراك ذا عقل، فما ٱسمك؟ قال: عيسى ابن مريم. قال: يا عيسى، لـمَ قتلتَه؟ قال: يا جاهل، أبهذا أمرتك؟ ثم دنا عيسى من الغلام وقال: قم بإذن الله الذي

---

(١) العاتق: ما بين المنكب والعنق. (٢) أعرس: اتخذ عرسًا.

يحيي العظام وهي رميم[1]، فأستوى جالسًا وقال له: مَن قتلك؟ قال: قتلني فلان ابن فلان، وهذا عيسى ابن مريم بريء من دمي. فعجِب الناس من ذلك وقتلوا قاتل الغلام، وأخذت مريم بيد عيسى وٱنطلقت.

معجزة أخرى:

قال: وأتت به أمّه إلى معلّم ليعلّمه، فقال: إنّ ربي قد أغناني عن تعليم المعلّمين وقد علّمني التوراة والإنجيل. قالت: صدقت، ولكن تكون عند معلّم خير من أن تلعب مع الصبيان. فأتت به إلى معلّم يعلّمه، فعلّمه عيسى. قال الثعلبيّ: وروى محمد الباقر رحمه الله قال: لما وُلد عيسى عليه السلام كان ٱبنَ يوم كأنه ٱبن شهر، فلمّا كان ٱبنَ تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاءت به إلى كتّاب[2] وأقعدته بين يدَي المؤدّب. فقال له المؤدّب: قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقالها عيسى عليه السلام. فقال المؤدّب: قل: أبجد، فرفع عيسى رأسه وقال للمؤدّب: هل تدري ما أبجد؟ فعلاه ليضربه. فقال: يا مؤدّب، لا تضربني، إن كنت تدري وإلاّ فسَلْني حتى أُفسّر لك. فقال: فسِّره لي. فقال عيسى عليه السلام: الألف آلاء[3] الله، والباء بهجة الله، والجيم جلال الله، والدال دين الله. هوّز، الهاء هي جهنم وهي الهاوية، والواو ويل لأهل النار، والزاي زفير[4] جهنم. حُطّي، حُطّت الخطايا عن المستغفرين. كَلَمُن، كلام الله غير مخلوق لا مبدّل لكلماته. سعفص، صاع[5] بصاع والجزاء بالجزاء. قَرَشَتْ تقرشهم حين تحشرهم، أي تجمعهم. فقال المؤدّب لأمه: أيتها المرأة، خذي بيد ٱبنك فقد عُلِّم ولا حاجة له إلى مؤدّب. وقال سَعيد بن جُبَير: قال رسول الله ﷺ: «إنّ عيسى عليه السلام أرسلته أمّه إلى الكُتّاب ليتعلّم، فقال له المعلّم قل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال وما باسم الله. قال لا أدري. قال الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته». والله أعلم الموفّق.

معجزة أخرى:

قال الكسائيّ: وٱنطلقت به أمّه إلى صبّاغ ليعلّمه صنعة الصباغة. فأخذه الصبّاغ وأمره أن يملأ التِّيغارات[6] من تيغار كبير، وناوله أصباغًا وأمره أن يجعل في كل تيغار صِبْغًا، وأن يصبُغ الثياب في تلك التيغارات على ٱختلاف ألوانها، وفارقه الصبّاغ وخرج إلى منزله. فعمَد عيسى إلى تيغار واحد وملأه ماء وأخذ جميع تلك الأصباغ

---

(١) الرّميم: البالي من كلّ شيء.

(٢) الكتّاب: مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن.

(٣) آلاء الله: نعمه.

(٤) زفير جهنم: صوت اتقادها.

(٥) الصاع: مكيال تكال به الحبوب ونحوها.

(٦) التيغارات: مفردها تيغار، وهو إناء تغسل فيه الثياب.

فجعلها فيه، ووضع جميع تلك الثياب فيه وٱنصرف إلى أُمّه. فلما كان من الغد جاء الصبّاغ إلى الحانوت فنظر إلى ما فعله عيسى، فقال له: يا عيسى أهلكتني وأفسدت ثياب الناس. قال عيسى: يا صبّاغ، ما دينك؟ قال: دين اليهود. قال: قل: لا إلٰه إلا الله وأنّي عيسى رُوح الله، وأدخل يدك في هذا التيغار وأخرج كل ثوب على ما تريد. فآمن الصبّاغ بالله وبعيسى عليه السلام وأدخل يده فأخرج كل ثوب على ما أراده أصحابه. قال: وظهر لعيسى بمصر معجزات كثيرة.

ذكر خبر زكريا عليه السلام مع هيرودس الملك وما كان من أمره

قال الكسائيّ: ولمّا كان من أمر عيسى عليه السلام وكلامه ما قدّمناه وتنكّست الأصنام ليلة مولده، جاء إبليس لعنه الله إلى الملك في صورة شيخ وقال له: أيها الملك، إن لك عندي نصيحة فٱخلُ معي. فخلا به وقال: ما نصيحتك؟ قال: قد بلغك ما كان من شأن المولود الذي تكلم في المهد[1]. قال نعم. قال: وقد رأيتَ ما حلّ بالأصنام من شؤم مولده، وإنه لخليق أن يشمَل الأرض كلها بشؤمه، وأنت فلا يمكنك قتله الآن لخروجه من بلادك، وأرى أن تفعل أمرًا يتشاءم الناس بسببه بهذا المولود ويُعينونك على قتله، وأنت مع ذلك تطلبه، فإن ظفرتَ به ذبحته. قال الملك: فما الذي رأيت؟ فلعمري لقد وقع في نفسي إنك لخليق أن يكون عندك رأي ومكيدة. قال: تذبح الولدان، فإن ذلك يبغّضه إلى الناس ويتشاءمون فيه فيكفوك أمره. قال: لقد أتيت بالأمر على وجهه، وأمر بذبح الولدان من سنتين فما دونهما، فوقع الذبح في صبيان بني إسرائيل. قال: ثم انطلق إبليس إلى مجالس بني إسرائيل ونواديهم يقول: الفاحشة في مريم ويقذفها[2] بزكريا، يعرّض بذلك لخيارهم، ويبوح به ويصرح لشرارهم، حتى شاعت الفاحشة على زكريّا. فلما رأى زكريا ذلك هرب وٱتّبعه سفهاؤهم وشرارهم، وسلك في واد كثير النبت، حتى إذا توسّط الوادي انفرجت له شجرة فدخلها وأقبل القوم في طلبه، وإبليس يقدُمهم حتى أوقفهم عليه وهو في الشجرة وقد ٱلتحمت عليه، فأشار عليهم بقطعها، فقُطعت. ثم قال لهم: أيّ العقوبة والنكال أبلغ في هذا الذي أورث آباءكم الطيبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذرّيتهم من بعدهم الفضيحة والعار؟! قالوا: القتل أو النشر. فأشار عليهم بنشره، فنشروه نصفين ثم ٱنصرفوا عنه، وغاب عنهم إبليس لعنه الله. وبعث الله تعالى الملائكة فغسلوا زكريّا وصلّوا عليه ثلاثة أيام ثم دفنوه. وقد قيل في مقتل زكريا غير هذا، وقد تقدّم في أخباره. والله أعلم.

---

(١) المهد: السّرير.

(٢) يقذفها: يرميها ويتهمها بالمنكر.

ذكر رجوع عيسى ومريم عليهما السلام من مصر

قال الكسائيّ قال وهب: وأقامت مريم وٱبنها عيسى بمصر ٱثنتي عشرة سنة حتى أهلك الله الملك هِيُرودُس. قال: وأوحى الله تعالى إلى مريم بوفاة الملك وأمرها أن ترجع إلى بلادها بالشام، فجاء يوسف النجار فرجع بها. فلم تزل هي وٱبنها يسكنان بجبل الخليل بقرية يقال لها الناصرة[١]، وبها سمِّيت النصارى، وبها ٱبتُدعت النصرانية. قال: ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى بعد أن تمت له ثلاثون سنة أن يبرز إلى الناس ويدعوهم إلى الله تعالى، وأنزل عليه الإنجيل. فكان يسير في البلاد ويدعو الناس إلى الله عزّ وجل، ويرغِّبهم فيما عنده، ويزهِّدهم في الدنيا ويضرب لهم أمثالاً، ويداوي المرضى والزَّمْنَى[٢]، ويُبرىء الأكمه[٣] والأبرص[٤]. فأحبّه الناس وسكنوا إليه، وكثُرت أتباعه حتى ٱمتنع وعلا أمره. ثم أحيا الموتى بإذن الله تعالى.

قالوا: وربما ٱجتمع عليه من المرضى والزَّمْنَى في الساعة الواحدة خمسون ألفًا، فمن أطاق منهم أن يبلُغه بلغه، ومن لم يقدر على ذلك أتاه عيسى يمشي إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان.

ذكر خبر الحواريّين[٥] حين ٱتبعوا عيسى عليه السلام وآمنوا به

قال الكسائيّ رحمه الله: ومرّ عيسى على قوم يَصِيدون السمك وهم أربعة: شِمْعُون، وأخ له ٱسمه أنْدِرْيُوس، ويعقوب، ويُوحنّا. فوعظهم وزهّدهم في الدنيا ووعدهم الجنة ونعيمها فآمنوا به وٱتّبعوه. قال: ومرّ بطائفة أخرى فوجدهم على نهر يغسلون الثياب، منهم لُوقا، وتوما، ومرقوس، ويُوحنّا، وأخوان لهم صبيّان لم يبلُغا

---

(١) الناصرة: قرية بينها وبين طبريّة ثلاثة عشر ميلاً، فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ومنها اشتقّ اسم النّصارى، وأهل بيت المقدس يزعمون أن المسيح وُلد في بيت لحم «معجم البلدان ٥/ ٢٥١».

(٢) الزّمنى: أصحاب العاهات والأمراض المزمنة.

(٣) الأكمه: الذي ولد أعمى ولم ير الضوء قط.

(٤) الأبرص: من البرص وهو مرض يحدث في الجسم بياضًا.

(٥) الحواريون: سمّوا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا قصّارين وصبّاغين، والقصّار: الذي يغسل الثياب ورد ذكرهم في القرآن الكريم في غير سورة.

الحُلُم[١]، أحدهما شِمْعُون والآخر يعقوب، وقيل في أسمائهم غير هذا. والله تعالى أعلم. فقال لهم عيسى: يا قوم، إنكم تقصِّرون هذه الثياب وتنظِّفونها من أوساخها، فلم لا تفعلون ذلك مع قلوبكم! ثم قال لهم: إنّي رسول الله إليكم جميعًا، وبشرّهم برسول الله ﷺ فقال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] قال: فآمنوا به واتّبعوه، وكانوا كلهم اثني عشر رجلاً، أربعة منهم كانوا يصيدون السمك، وثمانية يقصِّرون الثياب. وكان من القصّارين رجل أسفلَ النهر يقال له يُوذا[٢] لم يسمع كلام عيسى. فلمّا رأى أصحابه اتّبعوه لحق بهم، وهو الذي ارتدّ[٣] بعد ذلك ودلّ اليهود على عيسى، فصاروا به قبل ارتداده ثلاثة عشر.

ذكر الخصائص والآيات والمعجزات التي أظهرها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام بعد مبعثه

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] الآيات. قوله تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ قال الحسن: ذكر النعمة: شكرها، وأراد بقوله: ﴿نِعْمَتِي﴾ نعمي، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ثم ذكر تعالى النعم فقال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وقال: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]. واختلفوا في روح القدُس ما هو؟ فقال الربيع بن أنس: هو الرُّوح الذي نفخ فيه، أضافه سبحانه إلى نفسه تكرُّمًا وتخصيصًا، نحو: بيت الله، وناقة الله. والقدس: هو الله تعالى يدلّ عليه قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١١٧] وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. وقال آخرون: أراد الله تعالى بالقدس: الطهارة، يعني الروح الطاهرة، سمِّي روحه قدمًا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة إنما كان أمرًا من الله تعالى. وقال السُّدِّيّ وكعب: روح القدس هو جبريل، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان رفيقه وقرينه يُوحِي إليه ويعينه ويسير معه حيثما سار

---

(١) الحلُم: يقال: بلغ الصبيُّ الحلم إذا بلغ مبلغ الرّجال.

(٢) اسمه يهوذ الإسخريوطي كما في الكتاب المقدّس ٣/ ٨٥.

(٣) ارتدّ: أي كفر بعد إسلام.

إلى أن صعِد به إلى السماء. وقال سعيد بن جُبَير وعُبيد بن عُمير: هو اسم الله الأعظم، وبه كان يُحيي الموتى ويُري الناس تلك العجائب. وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ١١٠] يعني الخطّ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني العلم والفهم. ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كان يقرؤهما من حفظه. وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ﴾ [المائدة: ١١٠]. قوله: ﴿تَخْلُقُ﴾ أي تجعل وتصوِّر وتقدِّر ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي كصورة الطير. فكان عيسى يصوِّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفُخ فيه فيصير طيرًا بإذن الله تعالى. قالوا: ولم يخلُق غير الخُفَّاش[١]. وإنما خُص بالخُفّاش لأنها أكمل الطير خَلْقًا، فتكون أبلغ في القُدرة، لأن لها ثديًا وأسنانًا، وهي تَلِد وتَحيض وتطهر. قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا ليتميّز فعل الخلق من فعل الله تعالى، وليعلم أنّ الكمال لله عزّ وجل. وقوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ﴾ [المائدة: ١١٠]. الأكمه: الذي وُلد أعمى ولم ير الضوء قط. قالوا: ولم يكن في الإسلام أكمه غير قَتادة. والأبرص: الذي به وَضَح[٢]، وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ، فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عُمْيان، فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء قوم طُلِبوا للقضاء فطمسوا[٣] أعينهم بأيديهم. فقال لهم: ما دعاكم إلى هذا؟ فقالوا: خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى. فقال: أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل، امسحوا بأيديكم أعينكم وقولوا: باسم الله. ففعلوا ذلك فإذا هم جميعًا يبصرون.

ذكر خبر سام بن نوح وغيره الذين أحياهم عيسى بإذن الله عزّ وجل

قال الكسائيّ قال وهب: سألتْ طائفة من بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام أن يُحيي لهم سام بن نوح وقالوا: أحْيِ لنا سام بن نوح ليكلّمنا وإلاّ قتلناك، وإن فعلتَ آمنّا بك واتّبعناك. فأوحى الله تعالى إليه: نادِه ثلاث مرّات فإنه سيُجيبك. فقام عيسى على قبره وناداه ثلاث مرات: يا سام بن نوح قم بإذن الله، فقام

---

(١) الخفّاش: حيوان ثديي من رتبة الخفاشيات، قادر على الطيران، ولا يطير إلاّ في الليل.

(٢) الوضح: البياض. (٣) طمسوا أعينهم: أعموها.

في الثالثة وهو أشمط[١] الرأس واللحية. فقال له عيسى: أهكذا متّ أبيض الرأس واللحية؟ قال: لا، ولكنّي سمعت نداءك فخفت أن تكون القيامة فشَمِطتُ، وأخبر القومَ بما أرادوه وكلّمهم، ثم ردّه عيسى إلى قبره، وما آمن بعيسى منهم إلاّ قليل.

* * *

قالوا: وممن أحياه عيسى ابن مريم العازر، وكان صديقًا له، فأرسل أخته إلى عيسى إنّ أخاك العازر يموت فأتِه، وكان بينه وبين أن يصل إليه مسيرة ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فأنطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مُطْبِقَة. فقال عيسى: اللهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتَني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرتُهم أني أحيي الموتى بإذنك فأحْيِ العازر. فقام العازر وأوداجه[٢] تقطُر. فخرج من قبره وبقي ووُلِد له.

قالوا: ومرّ عيسى عليه السلام برجل جالس على قبر وكان يكثر المرور به فيجدُه جالسًا عنده، فقال له: يا عبد الله، أراك تكثر القعود على هذا القبر. فقال: يا رُوح الله، امرأة كانت لي وكان من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولي عندها وديعة. فقال عيسى: أتحبّ أن أدعو الله تعالى فيحييها؟ قال نعم. فتوضّأ عيسى وصلّى ركعتين ودعا الله عزّ وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جِذْع محترق. فقال له: ما أنت؟ قال: يا رسول الله أنا في عذاب منذ أربعمائة سنة، فلما كانت هذه الساعة قيل لي أجِبْ فأجبتُ. ثم قال: يا رسول الله، قد مرّ عليّ من أليم العذاب ما إن ردّني الله إلى الدنيا أعطيته عهدًا ألاّ أعصيه، فأدعُ الله لي. فرقّ له عيسى ودعا الله عزّ وجل ثم قال له: امضِ، فمضى. فقال صاحب القبر: يا رسول الله، لقد غلِطت بالقبر، إنما قبرها هذا. فدعا عيسى عليه السلام، فخرج من ذلك القبر امرأة شابّة جميلة. فقال له عيسى: أتعرفها؟ قال: نعم هذه أمرأتي. فدعا عيسى حتى ردّها الله عليه. فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه في حجر المرأة. فمرّ بهما أبن ملك فنظر إليها ونظرت إليه وأُعجب كل واحد منهما بصاحبه، فأشار إليها فوضعت رأس زوجها على الشجرة واتّبعت أبن الملك. فاستيقظ زوجها ففقدها وطلبها فدُلّ عليها، فأدركها وتعلّق بها وقال: أمرأتي، وقال الفتى: جاريتي. فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى فقال الرجل: هذا عيسى وقصّ عليه القصّة. فقال لها

---

(١) الأشمط: من خالط بياض شعره سواد.

(٢) الأوداج: واحدها الوداج، وهو عرقٌ في العنق، وهو الذي يقطعه الذّابح فلا تبقى معه حياة.

عيسى: ما تقولين؟ قالت: أنا جارية هذا ولا أعرف هذا. فقال لها عيسى: ردّي علينا ما أعطيناك. قالت: قد فعلت. فسقطتْ مكانها ميّتة. فقال عيسى: هل رأيتم رجلاً أماته الله كافرًا ثم بعثه فآمن!. وهل رأيتم أمرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت!

قالوا: ومرّوا بميّت على سرير[١]، فدعا عيسى الله تعالى، فجلس الميّت على السرير ونزل عن أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله وبقي ووُلِد له.

وممن أحياه عيسى بإذن الله تعالى أبنة العازر، قيل له: أتحييها وقد ماتت بالأمس! فدعا الله عزّ وجل، فعاشت وبقيت ووُلدت.

قال الكسائيّ: وسأل بنو إسرائيل عيسى عليه السلام أن يُحيي لهم عُزَيرًا، فقال: التمسوا قبره فالتمسوه، فوجدوه في صندوق من حجر، فعالجوه ليفتحوا بابه فلم يستطيعوا ذلك. فرجعوا إلى عيسى وأخبروه أنهم عجزوا أن يُخرجوه من قبره، فأعطاهم ماء في إناء وقال: انضَحوه[٢] بهذا الماء فإنه ينفتح. فأنطلقوا ونضحوه بالماء فأنفتح طابقه. فأقامه عيسى في أكفانه فنزعها عنه، ثم جعل ينضح جسده بالماء ولحمه ينبت وشعره وهم ينظرون. ثم قال عيسى: يا عُزَير احْيَ بإذن الله، فإذا هو جالس. فقالوا: ما شهادتك على هذا الرجل؟ فقال عزير: أشهد أنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وأنه عبد الله ونبيّه وأبن أمَته. قالوا: يا عيسى، ادعُ ربك يحييه لنا فيكون بين أظهُرنا[٣]. فقال عيسى: ردّوه إلى قبره فإنه انقطع رزقه وأنقضى أجله، فردّوه إلى قبره.

ومن معجزاته عليه السلام إخباره عن الغيوب

قال الله عزّ وجل إخبارًا عنه: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. قالوا: لما أبرأ عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله قالوا له: إنك تزعم أنك تُخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما ندّخر. قال نعم. قالوا: فإنّا نجمع خيارنا وأحبارنا ورهباننا فنأمرهم أن يأكلوا ويدّخروا في بيوتهم ثم نأتيك فتخبرنا. قال نعم. فانطلقوا إلى بيوتهم وأكلوا وأدّخروا وأقبلوا إليه من الغد، وسأله كل رجل منهم وهو يخبره بما أكل وأدّخر.

---

(١) السّرير: النعش الذي يحمل عليه الميت ليدفن.

(٢) أنضحوه بالماء: أي رشّوه وطيّبوه من نضح أي رشّ.

(٣) بين أظهرُنا: أي في وسطنا.

ومما أخبر به عيسى عليه السلام من المغيّبات قصّة ٱبن العجوز. وكان من خبره ما حكاه أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله أن عيسى عليه السلام مرّ في سياحته بمدينة ومعه الحواريّون، فقال: إنّ في هذه المدينة كنزًا، فمن يذهب فيستخرجه؟ قالوا: يا روح الله، لا يدخل هذه القرية غريب إلاّ قتلوه. فقال لهم: مكانكم حتى أعود إليكم، ومضى حتى دخل المدينة فوقف بباب فقال: السلام عليكم يا أهل الدار، غريب أطعِموه. فقالت له ٱمرأة عجوز: أمَا ترضى أن أدَعَك لا أذهب بك إلى الوالي حتى تقول أطعموني شيئًا! فبينا عيسى بالباب إذ أقبل ٱبن العجوز فقال له عيسى: يا عبد الله، أضِفْني ليلتك هذه. فقال له الفتى مثل مقالة العجوز. فقال له عيسى: أمَا إنك لو فعلت ذلك زوّجتك بنت الملك. فقال له الفتى: إمّا أن تكون مجنونًا، وإمّا أن تكون عيسى ابن مريم. قال: أنا عيسى. فأضافه وبات عنده. فلمّا أصبح قال له: اغدُ وٱدخل على الملك وقل له: جئت أخطب ٱبنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك. فمضى الفتى حتى دخل على الملك وقال له: جئت أخطب إليك ٱبنتك، فأمرَ به فضُرب وأخرج. ورجع الفتى إلى عيسى فأخبره، فقال له: إذا كان الغد فٱذهب إليه واخطُب إليه فإنه ينالك بدون ذلك. ففعل ما أمره عيسى، فضربه الملك دون ذلك. فرجع إلى عيسى فأخبره، فقال: ارجع إليه وٱخطبها فإنه سوف يقول لك: إني أُزوّجك إياها على حُكْمي، وحُكْمي قصر من ذهب وفضّة، وما فيه من فضّة وزَبَرْجَد[١]، فقُلْ له: أفْعَلُ ذلك. فإذا بعث معك فٱخرج فإنك سوف تجده فلا تُحدِث فيه شيئًا. فدخل عليه فخطب إليه، فقال: تُصدِقها[٢] حُكْمي؟ فقال: وما حكمك؟ فحَكَم الذي سمَّى له عيسى. فقال له: نعم، ابْعَثْ مَن يقبض ذلك. فبعث معه [قومًا][٣]، فدفع إليهم ما سأله الملك. فعجِب الملك من ذلك وسلّم إليه ٱبنته. فتعجّب الفتى وقال لعيسى: يا روح الله، تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحال! قال عيسى: لأنني آثرت ما يبقى على هذا الفاني. فقال الفتى: وأنا أدعه وأصحبك. فتخلّى من الدنيا وٱتّبع عيسى. فأخذ بيده وأتى أصحابه وقال: هذا هو الكنز الذي قلت لكم. فكان ٱبن العجوز مع عيسى حتى مات. والله أعلم.

---

(١) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرّد، وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

(٢) الصداق: المهر.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

ذكر خبر يجمع عدّة معجزات من معجزات عيسى عليه السلام

حكى أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله قال وَهْب: خرج عيسى عليه السلام يسيح في الأرض، فصحبه يهوديّ، وكان مع اليهوديّ رغيفان، ومع عيسى رغيف. فقال له عيسى: تشاركني في طعامك؟ قال اليهوديّ نعم. فلمّا رأى اليهوديّ أنّ عيسى ليس معه إلا رغيف واحدٌ ندِم. فقام عيسى إلى الصلاة فأكل اليهوديّ رغيفًا. فلما قضى عيسى صلاته قدّما طعامهما، فقال عيسى لليهوديّ: أين الرغيف الآخر؟ فقال: ما كان إلاّ رغيف واحد، فأكل عيسى رغيفًا وصاحبُه رغيفًا، ثم انطلقا فجاءا إلى شجرة، فقال عيسى لصاحبه: لو أننا بتنا تحت هذه الشجرة! فناما ثم أصبحا. فانطلقا فلقيا أعمى، فقال له عيسى: أرأيتَ إن عالجتك حتى ردّ الله عليك بصرك هل تشكره؟ قال نعم. فمسّ عيسى عليه السلام بصره ودعا الله تعالى فإذا هو صحيح. فقال عيسى لليهوديّ: بالذي أراك الأعمى بصيرًا كم كان معك من رغيف؟ فقال: والله ما كان إلاّ رغيف واحد، فسكت عيسى عنه. ومرّا فإذا هما بمُقعد، فقال له عيسى: أرأيتَ إن عالجتك فعافاك الله تعالى هل تشكره؟ قال بلى. فدعا الله عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه. فقال صاحب عيسى: ما رأيتُ مثل هذا قط! فقال عيسى: بالذي أراك الأعمى بصيرًا والمُقْعَد صحيحًا، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فحلف له اليهوديّ ما كان معه إلاّ رغيف واحد، فسكت عيسى. وانطلقا حتى انتهيا إلى نهر عَجّاج[1] جرّار، فقال عيسى: لا أرى جسرًا ولا سفينة، فخذ بحُجْزتي[2] من ورائي وضع قدمك موضع قدمي، ففعل ومشيا على الماء. فقال له عيسى: بالذي أراك الأعمى بصيرًا والمقعد صحيحًا وسخّر لك هذا البحر حتى مشيت عليه، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال: لا والله ما كان إلاّ رغيف واحد، فسكت عيسى. وانطلقا فإذا هما بظباء يَرعيْن، فدعا عيسى بظبي فأتاه فذبحه وشوى منه بعضًا وأكلاه، ثم ضرب عيسى بقية الظبي بعصاه وقال: قُم بإذن الله عزّ وجل فإذا الظبي يعدو. فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال: ما كان إلاّ رغيف واحد. فانطلقا فمرّا بصاحب بقر، فنادى عيسى: يا صاحب البقر، اجزر[3] لنا من بقرك هذه عجلاً. قال: ابعَثْ صاحبك يأخذه. فانطلق اليهوديّ فجاء به، فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر إليه. فقال له عيسى: كُلْ ولا تكسِر له عظمًا، ففعل. فلمّا

---

(١) العجّاج: الممتلىء، والجرّار: القويّ الجرّ لغزارة مياهه.

(٢) الحُجزة: معقد الإزار. (٣) أجزر: أي اذبح.

فرغ قذف بعظامه في جلده وضربه بعصاه وقال: قُم بإذن الله تعالى، فقام العجل وله خُوَار. فقال: يا صاحب البقر خذ عجلك. قال: ويحك! من أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم. قال: عيسى السحّار! ثم فرّ منه. فقال عيسى لصاحبه: بالذي أحيا لك العجل، كم كان معك من رغيف؟ قال: ما كان معي إلا رغيف واحد، فسكت عيسى. ومضيا حتى دخلا قرية، فنزل عيسى في أسفلها واليهوديّ في أعلاها، فأخذ اليهوديّ عصا عيسى وقال: أنا الآن أبرىء المرضى وأحيي الموتى. قال: وكان ملك تلك المدينة مريضًا مُدنفًا[1]. فانطلق اليهوديّ ينادي: مَن يبتغي طبيبًا، حتى أتى قصر الملك، فأُخبر بوجعه، فقال: أدخلوني عليه فأنا أبرئه، وإن لقيتموه قد مات فأنا أحييه. فقيل له: إنّ وجع الملك قد أعيا الأطبّاء قبلك، فليس من طبيب يداويه ولا يَشفيه إلاّ صلبه. فقال: أدخلوني عليه، فأدخلوه فضرب الملك بعصاه فمات. فجعل يضربه بالعصا وهو ميّت ويقول: قُم بإذن الله. فأُخِذ ليُصلَب. فبلغ ذلك عيسى، فأقبل إليه وقد رُفع على الخشبة، فقال لهم: أرأيتم إن أحييت لكم الملك أتتركون لي صاحبي؟ قالوا نعم. فدعا الله تعالى عليه السلام فأحياه وقام وأنزل اليهوديّ من الخشبة، فقال: يا عيسى، أنت أعظم الناس عليّ منّة، والله لا أفارقكَ أبدًا. فقال له عيسى: أنشُدُك الله الذي أحيا الظبي والعجل بعدما أكلناهما، وأحيا هذا بعدما مات، وأنزلك من الجِذع بعدما صُلبت، كم كان معك من رغيف؟ قال: والله ما كان معي إلاّ رغيف واحد، قال: لا بأس. ثم انطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خرِبة فيها كنز وفيها ثلاث لَبِنات[2] من ذهب. فقال الرجل لعيسى: هذا المال الك؟ فقال: أجَلْ! واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة للذي أكل الرغيف الثالث. فقال اليهوديّ: أنا والله أكلته وأنت تصلي. فقال عيسى: هي لك كلها. فانطلق عيسى وتركه قائمًا ينظر وهو لا يستطيع أن يحمل واحدة منهنّ، وكلما أراد أن يحمل واحدة ثقُلت عليه. فقال له عيسى: دعه فإنّ له أهلاً يهلِكون عليه. فجعلت نفس اليهوديّ تَطَلَّع إلى المال ويكره أن يعصي عيسى ويعجز عن حمله. فانطلق مع عيسى، فبينما هما كذلك إذ مرّ بالمال ثلاثة نفر فأقاموا عليه. فقال اثنان منهما لصاحبهما: انطلق إلى أهل هذه القرية فأتنا بطعام وشراب ودوابّ نحمل هذا المال عليها. فلمّا ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر: هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال فيما بيننا؟ قال نعم. وقال الذي ذهب في نفسه: هو ذا أجعل في الطعام سمًّا فإذا أكلاه ماتا ويصير المال كله إليّ، ففعل ذلك. فلمّا رجع إليهما قتلاه، ثم أكلا الطعام فماتا. ومرّ عيسى عليه السلام بهم وهم

---

(١) المدنف: المشرف على الهلاك.

(٢) اللبنة: الصفيحة أو السبيكة.

موتى حوله، فقال: هكذا تصنع الدنيا بأهلها، فأحياهم بإذن الله عزّ وجل، فاعتبروا ومرّوا ولم يأخذوا من المال شيئًا. فتطلّعت نفس اليهوديّ صاحب عيسى إلى المال فقال: أعطني المال. فقال له عيسى: خذه فهو حظّك من الدنيا والآخرة. فلمّا ذهب اليهوديّ ليحمله خسف الله تعالى به الأرض، وانطلق عيسى عليه السلام.

ذكر خبر المائدة التي أنزلها الله عزّ وجل من السماء

قال وهب: وسأل بنو إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة من السماء. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٣]. وقرأ عليّ وعائشة وسعيد بن جُبَير ومجاهد رضي الله عنهم «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ» (بالتاء المثناة من أعلاها ونصب الباء الموحدة في ربك) واختاره الكسائيّ وأبو عُبَيد على معنى هل تستطيع أن تدعو ربك وتسأل ربك. قالوا: لأنّ الحواريّين لم يكونوا شاكّين في قدرة الله تعالى. وقرأ الباقون «يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» (بالياء المثناة من تحتها ورفع الباء) وقالوا: إنهم لم يشكّوا في قدرة الله تعالى وإنما معناها هل يُنزل أم لا، كما يقول الرجل لصاحبه: هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل أم لا، وأجراه بعضهم على الظاهر فقالوا: غلِط القوم وكانوا بشرًا، فقال لهم عيسى عليه السلام استعظامًا لقولهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢] معناه أن تشكّوا في قدرة الله أو تنسبوه إلى عَجْز أو نقصان. وقيل: قال لهم: اتقوا الله أن تسألوه شيئًا لم تسأله الأمم قبلكم. قالوا: إنما سألنا لأنّا نريد أن نأكل منها فنستيقن قدرته وتطمئنّ وتسكُن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله، ونكون عليها من الشاهدين، فنقرّ لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالرسالة والنبوّة. وقيل: ونكون عليها من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم. قال الكسائيّ: فأمرهم عيسى بصيام ثلاثين يومًا وأنّ الله بعد ذلك يُطعمهم ويُنزلها عليهم. فصاموا حتى تمّ الأجل[1]، فقام عيسى وصلّى وسأل الله تعالى وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤]. قال قوله: ﴿عِيدًا﴾ أي عائدة من الله علينا وحجة وبرهانًا. والعيد اسم لما أعدته وعاد إليك من كل شيء؛ ومنه قيل ليوم الفطر ويوم

---

(١) الأجل: الوقت المحدّد.

الأضحى عيد، لأنهما يعودان كل سنة. وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾. قال الثعلبيّ: يعني لأهل زماننا ولمن يجيء من بعدنا. وقرأ زيد بن ثابت[١]: «لأُولاَنَا وَأُخْرَانَا». وقال ٱبن عباس رضي الله عنهما: يعني يأكل منها آخر الناس كما يأكل أوّلهم. ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ دلالة وحجة. قال الله عزّ وجل مجيبًا لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقرأ أهل الشام وقَتادة وعاصم «مُنَزِّلُهَا» بالتشديد لأنها نزلت مرّات، والتفعيل يدل على التكثير مرّة بعد مرّة. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي يكفر بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] أي عالَمي زمانهم. قال: فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمُسِخوا قِرَدَةً وخنازير.

قال الثعلبيّ: وٱختلف العلماء في المائدة، هل نزلت أم لا؟ فقال مجاهد: ما نزلت مائدة، وهذا مثل ضُرِب. وقال الحسن: والله ما نزلت المائدة، إنّ القوم لمّا سمعوا الشرط وقيل لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. استعفَوْا وقالوا: لا نريدها ولا حاجة لنا فيها، فلم تنزل. قال أبو إسحاق الثعلبيّ: والصواب أنها نزلت، لقوله عزّ وجل: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقع في خبره الخُلْف ولتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم وغيرهم من علماء الدين في نزولها. قال كعب: أنزلت يوم الأحد، فلذلك اتخذه النصارى عيدًا.

واختلفوا في صفتها وكيفية نزولها، فحكى الكسائيّ عن وهب قال: أنزل الله تعالى على عيسى مِكْتَلاً[٢] فيه ثلاث سَمَكات مشويّات ليس لها شوك ولا قشر وثلاثة أرغفة، والملائكة تحملها حتى وضعوها بين يدَيْ عيسى. قال: وقد قيل: إنّ المائدة كانت سُفْرة[٣] من الأدَم[٤] الأحمر، وكان فيها سمكة واحدة مشويّة وحولها الخُضَرُ والبقول، وعند رأسها خلّ، وعند ذنبها مِلح وخمسة أرغفة على كل منها زيتون، وخمس رمّانات وتمرات. وقال الثعلبيّ في تفسيره: روى قَتادة عن خِلاَس بن

---

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، كاتب الوحي، صحابيّ ولد في المدينة ونشأ فيها، وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام من الأنصار، مات سنة ٤٥هـ «الأعلام ٣/ ٥٧».

(٢) المكتل: زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيرُه، يسع خمسة عشر صاعًا.

(٣) السّفرة: هي التي تتخذ من الجلود، ولها معاليق تنضمُّ وتنفرج فبالانفراج سمّيت سفرة، لأنّها إذا حلّت معاليقها أسفرت عمّا فيها، فقيل لها السّفرة.

(٤) الأدم: الخبز.

عمرو[١] عن عمّار بن ياسر عن النبيّ ﷺ قال: «نزلت المائدةُ خبزًا ولحمًا»[٢]. وذلك أنهم سألوا عيسى طعامًا يأكلون منه لا ينفَد، فقيل لهم: إنها مقيمة لكم ما لم تخونوا أو تخبؤوا أو ترفوا، فإن فعلتم ذلك عُذِّبتم. قال: فما مضى يومهم حتى خبئوا ورفعوا وخانوا. وقال إسحاق بن عبد الله: إنّ بعضهم سرق منها وقال: لعلها لا تنزل أبدًا، فرُفعت ومُسِخوا قِردة وخنازير. وقال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال لبني إسرائيل: «صوموا ثلاثين يومًا ثم سَلُوا الله تعالى ما شئتم يُعطِكم». فصاموا ثلاثين يومًا، فلمّا فرغوا قالوا: يا عيسى، إنا لو عَمِلنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعامًا، وإنّا قد صُمنا وجُعنا، فٱدعُ الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ففعل. فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات[٣] حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم. وروى عطاء بن السائب عن زاذان[٤] وميسرة[٥] قالا: كانت المائدة إذا وُضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي من السماء بكل طعام إلاّ اللحم. وقال سَعيد بن جُبَير عن ٱبن عباس رضي الله عنهم: أُنزِل على المائدة كل شيء إلاّ الخبز واللحم. قال عطاء: أُنزل عليها كل شيء إلا السمك واللحم. وقال عطيّة العَوْفي: نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شيء. وقال عمّار وقتادة: كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة. وقال وهب بن مُنَبِّه: أنزل الله تعالى أقْرِصة[٦] من شعير وحيتانًا. فقيل لوهب: ما كان ذلك يُغني عنهم؟ قال: لا شيء، ولكنّ الله أضعف لهم البركة، فكان قومٌ يأكلون ويخرجون ويجيء الآخرون فيأكلون ويخرجون، حتى أكلوا بأجمعهم وفَضَل. وقال الكلبيّ ومُقاتل: استجاب الله تعالى لعيسى عليه السلام فقال: إني مُنَزِّلها عليكم كما سألتم، فمَن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلاً ولعنة لمن بعدهم، قالوا: قد رَضِينا. فدعا شِمْعون الصَّفا وكان أفضل الحواريّين فقال: هل معك طعام؟ قال: نعم معي سمكتان وسبعة أرغفة. قال: قدّمها. فقطعهنّ عيسى عليه السلام قطعًا

---

(١) هو خلاس بن عمرو الهجري، محدّثٌ ثقة، أخذ الحديث عن الإمام علي وعمّار بن ياسر «الكاشف ١/ ٢١٨».

(٢) راجع نصّ الحديث كاملاً في «الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣٧٢».

(٣) الأحوات: مفردها حوت، وهو نوعٌ من السّمك.

(٤) هو زاذان، أبو عمر الكندي محدّث ثقة توفي سنة ٨٤هـ «الكاشف ١/ ٢٤٦».

(٥) هو ميسرة أبو صالح الكندي محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ١٦٩».

(٦) الأقرصة: مفردها قرص أو قرصة، وهي القطعة من الخبز مبسوطة مدوّرة.

صغارًا ثم قال: اقعُدوا في روضة وترفّقوا[١] رفاقًا، كل رفقة عَشَرة. ثم قام عيسى عليه السلام ودعا الله تعالى فاَستجاب الله له ونزّل فيها البركة، فصار خبزًا صِحَاحًا وسمكًا صحاحًا. ثم قام عيسى فجعل يُلقي في كل رفقة ما حملت أصابعه، ثم قال: كلوا باَسم الله، فجعل الطعام يكثر حتى بلغ رُكَبهم، فأكلوا ما شاء الله وفَضل منه، والناس خمسة آلاف ونيّف. فقال الناس جميعًا: نشهد أنك عبد الله ورسوله. ثم سألوه مرّة أخرى، فدعا الله تعالى، فأنزل الله خبزًا وسمكًا، خمسة أرغفة وسمكتين، فصنع بها ما صنع في المرّة الأولى. فلمّا رجعوا إلى قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم مَن لم يَشهدها، وقالوا لهم: ويحكم! إنما سحر أعينكم، فمَن أراد الله تعالى به الخير ثبّته على بصيرته، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره. فمُسِخوا خنازير وليس فيهم صبيّ ولا اَمرأة. فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا. وقال كعب: نزلت مائدة منكوسة من السماء تَطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلاّ اللحم. وقال قَتادة: كانت تنزِل عليهم بكرة وعشيّة حيث كانوا كالمنّ[٢] والسَّلْوى لبني إسرائيل. وقال يَمَان بن رِئاب: كانوا يأكلون منها ما شاؤوا. وروى عطاء بن أبي رباح عن سَلْمان الفارسيّ[٣] قال: لمّا سأل الحواريّون عيسى ابن مريم أن يُنزل عليهم المائدة لبس صوفًا وبكى وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، واَرزقنا عليها طعامًا نأكله، واَرزقنا وأنت خير الرازقين. فنزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها، وهم ينظرون إليها وهي تَهوِي منقضّة حتى سقطت بين أيديهم. فبكى عيسى وقال: «اللهمّ اَجعلني من الشاكرين، اللهمّ اَجعلها رحمةً ولا تجعلها عُقوبةً ومُثْلَة»[٤] والشهود ينظرون إليها، ينظرون إلى شيء لم يَروْا مثله قطّ، ولم يجدوا ريحًا أطيبَ من ريحه. فقال عيسى عليه السلام: ليَقُمْ أحسنُكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اَسم الله ويأكل منها. فقال شِمْعون الصَّفَا رأس الحواريّين: أنت أولى بذلك منّا. فقام عيسى عليه السلام فتوضّأ وصلّى صلاة طويلة وبكى بكاءً كثيرًا وكشف المنديل عنها وقال: باَسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشويّة ليس عليها

---

(١) ترفّقوا: تصاحبوا.

(٢) المن: طلّ ينزل من السّماء على شجر أو حجر ينعقد ويجفّ جفاف الصمغ، وهو حلوٌ يؤكل.

(٣) سلمان الفارسي: صحابي، كان يسمّي نفسه سلمان الإسلام، كان قويّ الجسم صحيح الرأي عالمًا بالشرائع وغيرها، قال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت» توفي في المدائن سنة ٣٦هـ «الأعلام ٣/ ١١١».

(٤) المثلة: بضمّ الميم: التنكيل.

فلوسًا[١] ولا شَوك تسيل سيلاً من الدسم، وعند رأسها مِلْح، وعند ذنبها خلّ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكرّاث[٢]؛ وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث بيض، وعلى الرابع جُبن، وعلى الخامس قدِيد[٣]. قالوا: فلمّا استقرّت بين يدَيْ عيسى فقال عيسى ليقم أحدكم فيكشف عن المائدة قال شِمْعُون رأس الحواريّين: أنت أولى يا روح الله، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال عيسى عليه السلام: ليس شيء مما ترون، ولكنه شيء أفتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يُمْدِدكم ويَزِدْكم من فضله. قال الحواريّون: يا روح الله، لو أريتنا من هذه الآية اليوم آية أخرى! فقال عيسى: يا سمكة أحْيَيْ بإذن الله. فاضطربت السمكة وعادت عليها فلوسها وشَوْكها ففزعوا منها. فقال عيسى: ما لكم تسألون أشياء إذا أُعطيتموها كرهتموها، ما أخوفني عليكم أن تعذَّبوا! يا سمكة عودي كما كنتِ بإذن الله تعالى. فعادت السمكة مشويّة كما كانت. فقالوا: يا روح الله، كن أوّل من يأكل منها ثم نأكل نحن. فقال عيسى: معاذ الله أن آكل منها، ولكن يأكل منها من سألها، فخافوا أن يأكلوا منها. فدعا عيسى عليه السلام أهلَ الزّمانة[٤] والمرض وأهلَ البَرَص والجُذَام[٥] والمُقْعدين والمُبْتَلين فقال: كلوا من رزق الله ولكم المَهْنأ ولغيركم البلاء. وفي رواية: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم وأذكروا أسم الله. فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلاثمائة رجل وأمرأة من فقير وزَمِن ومريض ومبتلًى كلهم شبعان يتجشّأ[٦]، ثم نظر عيسى عليه السلام إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء. ثم طارت المائدة صُعُدًا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم. فلم يأكل منها يومئذ زَمِنٌ إلاّ صحّ، ولا مريض إلا برأ، ولا مبتلًى إلاّ عُوفِيَ، ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيًا حتى مات؛ وندم الحواريّون ومن لم يأكل منها إذ لم يأكلوا منها. وكانت إذا نزلت أجتمع الفقراء والأغنياء والصغار والكبار والرجال والنساء فيزدحمون عليها. فلمّا رأى عيسى ذلك جعلها نوبة بينهم، فلبثت أربعين صباحًا تنزل ضُحًى ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء[٧] طارت صُعُدًا

---

(١) الفلوس: مفردها الفلس وصوابها بالرفع، وهي القشرة على ظهر السمكة.

(٢) الكرّاث: نباتٌ معمّر من الفصيلة الزنبقية، ذو بصلة أرضية تخرج منها أوراق مفلطحة ليست جوفاء، وفي وسطها شمراخ يحمل أزهارًا كثيرة، وله رائحة قويّة.

(٣) القديد: من اللّحم ما قطع طولاً وملّح وجُفّف في الهواء والشمس.

(٤) الزّمانة: المرضى من ذوي العاهات.

(٥) الجُذام: علّة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط. (٦) يتجشّأ: يخرج صوتًا من فمه عند الشّبع.

(٧) فاء الفيء: أي حلّ، والفيء الظلّ بعد الزوال.

وهم ينظرون إلى ظلها حتى تتوارى عنهم. وكانت تنزل غبًا[١]، تنزل يومًا ولا تنزل يومًا كناقة صالح. وأوحى الله عزّ وجل إلى عيسى أن اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء، فعظُم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها وقالوا: أترون المائدة حقًّا نزلت من السماء! فقال عيسى: هلكتم تجهّزوا لعذاب الله. فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إني شرطت على المكذّبين شرطًا أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذابًا لا أعذّبه أحدًا من العالمين. فقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]. فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلًا. وقال الكسائيّ عن وهب: مُسخ منهم خمسة آلاف وخمسمائة، فباتوا على فرشهم مع نسائهم في ديارهم، فأصبحوا خنازير يسعَوْن في الطُّرقات والكُناسات[٢] ويأكلون العَذِرة[٣]. فلمّا رأى الناس ذلك فزِعوا[٤] إلى عيسى عليه السلام، وبكى على الممسوخين أهلوهم. ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدًا واحدًا فيبكون ويُشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا. وهؤلاء الذين لُعنوا على لسان عيسى كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

ذكر ما قالته الشياطين الثلاثة في عيسى ابن مريم واتّبعهم الناس بعدهم

قال الكسائيّ قال وهب: جاء إبليس إلى عيسى عليه السلام هو وأصحاب له على صُوَر رجال ذوي هيئة وشيبة وعيسى يقول لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فقال إبليس: أتخلُق وتَشفِي المرضَى وتُحيِي الموتى وتنبئنا بالغيب؟ قال عيسى نعم. قال إبليس: هذا الله عزّ وجل! يا أيها الناس فانظروا إليه، فإنه نزل إليكم ليُرِيَكم قُدرته. فقال أحد أصحاب إبليس: بئسما قلتَ يا شيخ! أخطأت وجُرتَ وقلت قولاً عظيمًا، أتزعم أنّ الله يتجلّى لخَلْقه لينظروا إلى قدرته! وهل ينبغي لخلقه أن ينظروا إليه أو يسمعوا كلامه أو يقوموا لرؤيته! لا، ولكنّه ابن الله وليس هو

---

(١) تنزل غبًّا: أي تنزل يومًا وتمتنع يومًا.

(٢) الكناسات: مفردها كناسة، وهي موضع إلقاء القمامة.

(٣) العذِرة: الغائط.

(٤) فزعوا: لجأوا واستغاثوا.

الله. فقال الثالث: كلاكما قال شططًا[١] وأخطأ وجار وقال قولاً عظيمًا، وهل ينبغي لله أن يتخذ صاحبة يكون له منها ولد! وهل ينبغي لولد هو من الله أن تستقلّ به قوّة امرأة ويسعه رَحِمها! ولكنه إلٰه مع الله وليس بولد لله وليس بالله كما قلتما. قال: فتفرّقوا على ذلك ونطق الناس بقولهم، فصار ذلك كلام النصارى. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام وما خاطبه به وجوابه

قال وهب: ثم جاء إبليس إلى عيسى ابن مريم فعارضه في عَقَبة[٢] من عقاب الأرض المقدّسة يقال لها عَقَبة فَيْق، فقال له: أنت المسيح ابن مريم؟ قال عيسى: أنا المسيحُ عيسى ابنُ مريم رُوح الله وكلمتُه وعبدُ الله وابن أمته. فقال له إبليس: فأنت إلٰه الأرض. قال: بل إلٰه الأرض ربّي. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيّتك أن تكلّمت في المهد صبيًّا. قال: بل العَظَمة للذي أنطقني في صغري. قال: بل فأنت الذي بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تخلُق من الطين كهيئة الطير فتنفُخ فيه فيكون طيرًا[٣]. قال عيسى: بل العَظَمة للذي خلقني وخلق ما سخّر لي. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيّتك أنك تَشفِي المرضَى. قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه شَفَيتهم وإن شاء أمرضني. قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تُحيي الموتَى. قال عيسى: بل العَظَمة للذي بإذنه أحييهم، ولا بدّ أنه سيُميت من أحييتُ ويُميتني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعبرُ البحر فلا تبتلّ قدماك ولا ترسخ[٤] فيه. قال: بل العَظَمة للذي ذلّله. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعلم الغيب. قال: بل العظمة لعالم الغيب والشهادة، لستُ أعلم إلا ما علّمني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك كُوّنت من غير أب. قال: بل العظمة للذي كوّنني وكوّن آدم وحوّاء من قبلي. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيتك أنك سيأتي

(١) الشّطط: الجور، وقال شططًا: قال جورًا وحاد عن الحقّ.
(٢) العقبة: مرقى صعبٌ من الجبال، أو الطريق في أعلاها.
(٣) انظر سورة المائدة الآية ١١٠، وآل عمران الآية ٤٩.
(٤) ترسخ: تغوص.

عليك يوم تعلو فيه الخلائق كلها، فتكون السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ دونك، وأنت فوق ذلك كلّه تدبّر الأمر وتَقسِم الأرزاق. قال: فأعظم عيسى قولَه وضاق به ذرعًا[١] وسبّح إعظامًا لِما قال إبليس. قال: فأتاه جبريل فنفخ إبليسَ نفخة ذهب يلطِم منها على وجهه فلا يملك من نفسه شيئًا حتى وقع بالخافق[٢] الأقصى، ثم نهض بالذي أعطاه الله من القوّة فسبق عيسى إلى أسفل العقبة فسدّها وملأ كل ثُلمة[٣] وطريق، ثم قال لعيسى: لقد غضِبتَ غضب إلٰه عظيم، وقد أخبرتك بأنك إلٰه وما أنت من البشر، ولو كنت من البشر ما قمتَ[٤]، منذ فارقتك، أربعين ليلة لم تَطْعَم ولم تشرب ولم تَنَم ولم يضرُع[٥] لذلك جسمُك، وهذا ما لا ينبغي لبشر. قال عيسى: إنّ جسدي ليألَم مما يألم منه البشر، وإني لأطعَم وأشرب وأنام وأغفُل وأفرَح وأحزَن وأجزَع وأهلع وأحتاج إلى أن أتنظّف بالماء وكيف تزعم أني إلٰه وأنت تعلم أني هكذا!. ولم يزل إبليس لعنه الله يحاوره حتى عرَض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته والاعتراف بربوبيته. فضاق عيسى ذَرْعًا وسبّح لله تعالى فقال: «سبحان الله عما يقول وبحمده، ملء سمائه وأرضه، وعدد خلقه، ورضا نفسه، ومبلغ علمه، ومنتهى كلماته، وزنة عرشه». فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل، فنفخه ميكائيل نفخة ذهب منها نحو مطلع الشمس حتى صدم عين الشمس عند طلوعها، فخرّ حصيدًا[٦] محترقًا، فأتبعه إسرافيل فنفخه نحو مغرب الشمس فانطلق لا يملك من نفسه شيئًا حتى حاذى[٧] عيسى فقال: يأبن مريم، لقد لَقِيت منك تعبًا. ومرّت به النفخة حتى وقع في العين الحامية التي تغرب الشمس فيها، فلبث سبعة أيام وسبعَ ليال، متى أراد الخروج منها غطّته الملائكة بأجنحتها، فما رام عيسى بعد ذلك. والله أعلم.

ذكر خبر عيسى مع اليهود حين ظفروا به وأرادوا صلبه وقتله

قال وهب: لـمّا أوحى الله عزّ وجل إلى عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] جَزِع من الموت جَزَعًا شديدًا وقال للحواريّين: هذا الزمان الذي يَقبِض الله فيه الراعي ثم تُفرَّق الرعيّة من بعده، فعرَفوا أنه يعني نفسه، فبكَوْا

---

(١) ضاق به ذرعًا: تذمّر وتململ. (٢) الخافق: الأفق.

(٣) الثلمة: الموضع الذي انثلم، أي حفر وشق.

(٤) في الأصل: «ما قمت لي» بزيادة «لي» والظاهر أنها من زيادات النسّاخ.

(٥) يضرع: يضعف. (٦) الحصيد: الزرع المحصود.

(٧) حاذاه: صار بجانبه.

وجزِعوا، فقال: لا تبكوا من حزن الفراق، فسترَوْن ما هو أشدّ منه، ولستُ مفارقكم حتى يظفر بي عدوّي ثم يأسِرونني، فلا تدفعوا عنّي ولا تمنعوا. قال: وطلبه اليهود ليقتلوه فأستخفى منهم، فدلّهم عليه يُوذَا وهو الذي ارتدّ[1] عنه، فأخذوه من غار جبل بيتَ لَحْم وجعلوا على رأسه إكليلاً من الشّوك ليمثّلوا به، وجعلوا يلطِمونه ويضربونه من خلفه ويقولون له: إن كنت نبيًا كما تزعم فامنع عن نفسك وأدعُ ربك فليحُلْ بيننا وبينك، وهو لا يكلّمهم حتى طلع الفجر، ونصبوا له خشبة ليصلبوه. فلمّا أرادوا أن يرفعوه عليها أظلم الجوّ ظلمةً عظيمة لم تلبس الأرض مثلها، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبينه وصلبوا مكانه يُوذَا الذي دلّ عليه، وأشرقت الشمس وقلب الله قلوب الناس وأبصارهم فجعلوا ينظرون إلى يُوذَا في صورة عيسى قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. قال: ولمّا رفعوا يُوذَا على الخشبة قال: يا هؤلاء، إنّي أذكّركم الله في دمي، إنّي صاحبكم يُوذَا الذي دللتكم على عيسى. ثم أخبرهم خبر الظلمة وأنّ الملائكة حالوا بينهم وبين عيسى وجعلوه مكانه، وأخبرهم بعلامات يعرفونها. فلمّا سمعوا ذلك منه زادهم عليه غيظًا وحنقًا وقالوا: ما أعظَم سحره! كيف اطّلع بسحره على سرّنا وما كنّا نطويه دُونه! وقتلوه وهو صاحبهم.

ذكر خبر رفع عيسى عليه السلام أوّل مرة وهبوطه إلى الأرض ووصيّته إلى الحواريّين ورفعه ثانيًا

قال: رفع الله تعالى عيسى لثلاث ساعات مضت من النهار، فلبث في السماء أيّامًا، قيل سبعة أيام، وقيل أربعين يومًا. والله أعلم. ثم قال الله له: إنّ أعداءك اليهود أعجلوك عن الوصيّة والعهد إلى أصحابك، فانزل إليهم واعهَد لهم وأوصهم، وانزِل على مريم المَجْدَلانيّة[2] فإنها في غار في جبل الجليل. وكانت مريم المَجْدَلانيّة من قرية من قرى أنْطاكِيَةَ يقال لها مَجْدَل[3]. وكانت من أوسط نساء بني إسرائيل حَسَبًا، وكانت أجمل نسائهم وأكثرَهم مالاً، وكانت تُستحاض فلا تطهُر أبدًا وخطبها أشراف بني إسرائيل وملوكهم وأمتنعت من إجابتهم، فظنّوا أنّ ذلك ترفّعًا منها، وإنما كان

---

(١) ارتدّ عنه: كفر بعد إيمانه به.

(٢) كذا في الأصول وفي نسخة الثعلبي، ولعلّها نسبة شاذة إلى مِجْدل، وفي الكتاب المقدس: المجدليّة.

(٣) مِجدل: بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدّال، اسم بلدٍ طيّب بالخابور إلى جانبه تلٌّ عليه قصر، وفيه أسواق كثيرة ويازارٌ قائم «معجم البلدان ٥/٥٦».

بسبب ما يعرض لها. فلمّا ظهر عيسى عليه السلام وشاع ذكره أتته في جملة المرضى ليشفيَها، فخجِلت أن تسأله لكثرة الناس حوله، فجاءت من ورائه فمسّته بيدها فزال عنها ما كانت تشكوه وطهُرت وآمنت بعيسى، وأنفقت مالها فيما أمرها به من وجوه البرّ، وصارت فقيرة وتبتّلت[١] وتخلّت للعبادة، وكانت تُعدّ من أصحاب عيسى. قال: وأمر الله تعالى عيسى أن يأمرها أن تجمع له الحواريّين، وأن يستخلف عليهم شِمْعُون، وأن يُفرّقهم دعاةً إلى الله عزّ وجل في البلاد، وأن يخبرهم بالعلامة التي تأتيهم من الله. ثم أهبطه الله تعالى على مريم فاشتعل الجبل نورًا، وأتته بالحواريّين، فبلّغهم رسالة ربهم، وقال: إن آية ذلك أن تأتيكم الملائكة في ليلتكم هذه بمغارف[٢] فيها نور من نور الله، فكلّ مَن تناول مِغْرفةً منها فليلحَسِ النور الذي فيها فإنه يصبح وقد تكلّم بلغة القوم الذين بُعِث إليهم ويُصبح وهو على باب مدينتهم. قال: والليلة التي هبط عيسى فيها هي الليلة التي تدخّن فيها النصارى باللُّبَان[٣]. قال: فلمّا فرغ عيسى من وصيّته إلى الحواريّين رُفع بعد سبعة أيام، وتوفّاه الله تعالى لثلاث ساعات من النهار، ثم كساه الله الريش وألبسه النور، وقطع عنه المطعم والمشرب وصار مَلَكِيًّا إنسيًّا. قال وهب: برز عيسى عليه السلام للناس يوم برز وهو ابن ثلاثين سنة، ولبث فيهم في نبوّته وفيما كان الناس يرونه منه من العجائب والآيات ثلاث سنين، ورفعه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ عن أهل التاريخ أن الله تعالى أوحى إلى عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ورفعه من بيت المقدس ليلة القَدْر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وتسعين سنة. وقد ورد في الحديث ما يدلّ على أنه رُفع وله مائة وخمس وعشرون سنة. وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في آخر السيرة النبوية على ما تقف إن شاء الله عليه هناك.

ذكر وفاة مريم بنت عمران عليها السلام

قال الكسائيّ قال كعب: ماتت مريم بنت عمران أمّ عيسى عليهما السلام قبل رفعه، فدفنها في مشاريق[٤] بيت المقدس. وحكى الثعلبيّ رحمه الله أنها ماتت بعد رفع عيسى عليهما السلام. وقال في خبره: إنه لمّا صُلِب المشبَّه بعيسى جاءت مريم ابنة

---

(١) تبتّلت: تفرّغت لعبادة الله، والبتول: العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله.
(٢) المغاريف: مفردها مغرفة، وهي ما يغرف به الطعام ونحوه.
(٣) اللبّان: نبات من الفصيلة البخوريّة يفرز صمغًا ويسمّى الكندر.
(٤) المشاريق: مفردها المشريق وهو الشقّ الذي يدخل منه ضوء الشمس عند شروقها، ولعلّ المقصود: مشارق: أي الجوانب الشرقيّة.

عمران وأمرأةٌ كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون يبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما: على ماذا تبكيان؟ فقالتا عليك. فقال: إن الله تعالى رفعني فلم يُصبني إلا خير، وإنّ هذا شيء شُبِّه لهم. ثم قال أيضًا في قصة وفاة مريم عن وهب: لمّا أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريّين وأمر رجلين منهما وهما شِمْعُون ويوحنّا أن يلزما أُمّه ولا يفارقانها، فأنطلقا ومعهما مريم إلى نيرون[١] ملك الروم يدعوانه إلى الله عزّ وجل، وقد بعث الله إليه قبل ذلك بُولُس[٢]. فلمّا أتوه أمر بشِمْعُون وبُولُس فقُتِلا وصُلِبا منكَّسَيْن، وهربت مريم ويوحنّا، حتى إذا كانا في بعض الطريق لحقهما الطلب، فخافا فأنشقت لهما الأرض فغابا فيها، فأقبل نيرون ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئًا فردّوا التراب على حاله، وعلموا أنه أمرٌ من الله عزّ وجل. فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأُخبر به فأسلم. وقد قيل في إسلامه غير هذا، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الباب السادس
من القسم الثالث من الفنّ الخامس
في أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام وما كان من أمرهم مع من أرسلوا إليه وخبر جرجيس

ذكر خبر أخبار الحواريّين

قال الكسائيّ: قال وهب: وأصبح الحواريّون على أبواب المدائن التي بُعِثوا إليها، يتكلّم كل رجل منهم بلغة الأمة التي بُعِث إليها. فبَعَث إلى أهل رُومِيَةَ رجلين من الحواريّين، وبعث إندراوس ولوقا إلى أرض الحبشة، وبعث رجلاً إلى بابل[٣]،

---

(١) في الأصل: «بارون» والتصويب عن الطبري ١/ ٧٣١.

(٢) في الأصل: «بودس» والتصويب عن الطبري ١/ ٧٣١.

(٣) بابل: مدينة من أكبر وأقدم مدن العالم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهي مدينة النمرود، اشتهرت في الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة، وفيها أُلقي إبراهيم الخليل عليه السلام في النار، وأنّ بها هاروت وماروت الملكين اللذين يعلمان الناس السحر، ذكر ذلك القرآن الكريم «صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

وبعث رجلاً إلى إفريقيّة، ورجلاً إلى أصحاب قرية الكهف[١]، ورجلاً إلى بَرْبَر[٢]، ورجلين إلى أنطاكِيَةَ، ورجلاً إلى السِّند والهند، وأقام شمعون مكانه وهو رأسهم، وأُمروا أن يستظهروا[٣] به فيما يهمّهم.

ذكر خبر يوحنّا وبولس اللذين توجّها إلى أنطاكية

قال الكسائيّ: لمّا أصبح يُوحنّا وبولُس على باب أنطاكِيَة دخلاها عند فتوح بابها، ومَلِكُها يومئذ مَخْلنطيس بن مَخْلنطيس، وكان ظالمًا جبّارًا متكبّرًا، فلم يقدِرا على الوصول إليه، وما أمكنهما أن يذكرا ما جاءا فيه مخافة أن يُقْتَلا قبل أن يبلّغاه رسالة الله تعالى. فكانا كذلك مدّة، حتى شَخَص الملك من منزله إلى مُسْتَنزَه له فناداه من بعيد بالإنذار. فلمّا سمع أصواتهما أرسل مَن يسمع مقالتهما فبلّغاه رسالة الله عزّ وجل؛ فأمر الملك بجلد كلّ منهما مائة جلدة وحَلْق رؤوسهما حَلْقَ الشمامسة[٤] ليمثّل بهما، ثم أمر بهما إلى السجن ليخلُدا فيه. فأوحى الله تعالى إلى شِمْعُون بخبرهما وأمره بالانتصار لهما. فخرج حتى بلغ أنطاكِيَة فدخلها، وتلطّف حتى صحِب خواصّ الملك وبطانته[٥] وأنِسوا به وذكروه للملك. ثم طرق[٦] السجن ليلاً، وكان له باب من حديد طوله خمسون ذراعًا وعرضه ثلاثون، وكان إذا فُتِح صرصر[٧] حتى يَسْمَع صريره أقصاهم وأدناهم. فأرسل الله تعالى مَلَكًا فاقتلع الباب من موضعه فلم يُسمَع له صوت، وألقى الله عزّ وجل السُّبات[٨] على أهل السجن وحرّاسه. فدخله شِمْعُون، واجتمع بيُوحنّا وبولس وبشّرهما عن الله بالثواب والخير وانصرف عنهما، وردّ الملك باب السجن إلى موضعه. وكان شمعون يدخل مع الملك وأصحابه إلى بيوت أصنامهم ويسجد لله ويبكي ويُكثر العبادة وهم لا يشكّون أنه يعبد

---

(١) قرية الكهف: قيل: الرقيم اسمُ القرية التي كان فيها أصحاب الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم، والكهف المذكور الذي فيه أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية، بينه وبين طرسوس عشرة أيام أو أحد عشر يومًا قال ابن عبّاس: أصحاب الرقيم سبعة، واسم كلبهم قطمير، واسم ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم أفسس ورستاقها الرّس «معجم البلدان ٣/ ٦١».

(٢) بربر: قد يكون المراد: البربر، وهو اسم لقبائل كثيرة أخرجت من أرض فلسطين وقصدوا المغرب حيث تناسلوا وسمّيت قبائلهم بأسماء الأماكن التي نزلوا فيها.

(٣) يستظهروا: يستقووا.

(٤) الشمامسة: مفردها الشمّاس، وهو من يقوم بالخدمة الكنسيّة ومرتبته دون القسّيس.

(٥) البطانة: حاشية الملك المقرّبين.

(٦) طرق: أتى ليلاً.

(٧) صرصر: أحدث صوتًا متقطّعًا.

(٨) السّبات: النعاس والنوم.

أصنامهم، فأحبّه الملك وقرّبه وسأله عن نسبه، فأخبره أنه من بني إسرائيل وأنه بقيّة قوم انقرضوا، ولم يكن له مَن يأنس به فاعتمدتكم رغبة في قُربكم، وحرصًا على إخائكم. فقال الملك: قد قبلنا قولك وسوّدناك علينا، فأنت أفضلنا وسيّدنا. فلبث فيهم زمنًا يصدرون عن رأيه. فلما تمكّن أمره من الملك قال له: أيها الملك، بلغني أنك سجنت رجلين كانا قد جاءاك يدعوانك إلى غير دينك وإلى عبادة إلٰه غير إلٰهك، ويزعمان أنّ الله أرسلهما إليك، وعجبتُ كيف اجترأا عليك. فماذا قلتَ لهما وما قالا لك؟ وهل أجبتهما بما كان ينبغي لك من الجواب؟ وهل سألتهما حين عظّما لك ربهما أن يذكرا لك سائر عظمته، أو أحييا لك مَيْتًا، أو غير ذلك مما تعرف به مصداق قولهما؟ قال الملك: لقد حال الغضب دون ما تقول. قال: فهل لك أن تدعوهما؟ قال نعم. فأحضرهما بين يديه، فقال لهما شِمْعُون: أخبراني مَن أرسلكما إلى هذا الملك وقومه؟ قالا: أرسلنا الله الذي هو على كل شيء قدير. فقال شمعون: صِفا لي عظمته. قالا: هي أعظم من أن تُحْصَى. قال: فأخبراني ماذا يبلُغ من قدرته؟ قالا: إن شئتَ وصفنا لك ما نُطيق وصفه، وصِفَتُه أعظم من طاقتنا، وإن شئتَ وصفنا لك ذلك في كلمتين تكفيان من كلام كثير. قال: نعم، صِفَا وأوجزا. قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فوضع شمعون يده على رأسه كالمنكر لما قالا، ثم أقبل عليهما وقال: إني أسألكما أمرًا فإن قدَر إلٰهكما عليه آمنّا بكما. قالا: سل. قال: هل يقدر أن يخلق خلقًا ونحن ننظر إليه؟ قالا نعم. قال: اعلما ما تقولان! قالا: قد علمنا، فمتى شئتَ أريناك. فعندها خلا شمعون بالملك وقال: أيها الملك، إنّ هذين الرجلين ليسا ببعيدين من أن يكون ربهما كما قالا، ولا أظنهما عرّضا أنفسهما للملك لمثل هذا الموقف إلا وعندهما ثقةٌ من إلٰههما. وإني أخشى أن يدعُوَا ربهما فيخلق خلقًا ينظر إليه الناس فيُمْرِض ذلك قلوبهم ويزهدون في إلٰهك الذي تعبده ويذهبان بالصوب[1] والشرف. فهل لك أن تدعو إلٰهك فيخلق هذا الخلق الذي نريد أن نتمناه عليهما فيكون لك ولإلٰهك شرف هذا اليوم وصوْبُه؟ قال له الملك: ليس دونك سرّ، إنّ هذا الإلٰه الذي نعبُد لا يسمع ولا يُبصِر ولا يضرّ ولا ينفع ولا يُحيي ولا يُميت. فقال لهما شمعون: إعْرِضا عليّ بعض قدرة إلٰهكما فإن أجابكما وخلَق الشيء على أعيننا ونحن ننظر إليه فقد صَدَقتما والقول قولكما. واجتمع الناس لينظروا. فأوحى الله إليهما أن سَلاَه ماذا يريد، فإني مسخّر لكما ما سألكما. قالا: قد أوْحَى إلينا أنه فاعلٌ ما تسألنا، فسلنا. وكان شمعون قد عهد في المدينة غلامًا مطموس الوجه لم يُخلَق له

---

(١) الصوب: أي الصّواب، ضد الباطل.

عينان، فأُتِيَ به فقال: ادعُوَا ربكما أن يخلُق له عينين ونحن ننظر. قالا نعم. فأوقفاه بين أيديهما ودعَوَا الله وأعانهما شمعون سرًّا، فأجابهم الله تعالى، فأخذ كل واحد منهما حَثْوَةً[١] من تراب وعجنه وجعله كالبندقة[٢]، ووضعا البندقتين في موضع العينين من وجه الغلام فأنشقّ لهما البصر، ثم صارت البندقتان عينين. فخاف الملك، فقال له شمعون: لا تخف إنّ عندي حيلة. قال له الملك: لعلّهما ساحران، أرِنَا ما لا يكون وما ليس بكائن. قال شِمْعون: ليس هذا من السحر، ولكني أخاف أن يأتيَ من إلهِهما ما يُعجِز حيلتنا. فدعا شِمْعون بغلام مطموس وعمل كما عملا فأنشقّ بصره، كما أنشقّ بصر الأوّل، ففرح الملك وأصحابه بذلك. فقال شمعون: إنما صنع ما ترون إلٰه اخترته لنفسي وهو الذي أظهر فُلْجكم[٣]، فأسجدوا لهذا الإلٰه الذي أظفركم بعدوّكم لعلّه يُعينكم على ما يكون بعد هذا. فقال الملك: كيف نسجُد لغير إلٰهنا! قال شمعون: ألم تُخبرني أنه لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، فما قُدرته عليك إن سجدتَ لغيره! قال: صدقتَ. وسجد الملك وسجد قومه لسجوده. ثم قال شمعون ليوحنّا وبولُس: إنّي أسألكما عن أمر، فإن قَدَر عليه إلٰهكما فالحجّة إذًا لكما والقولُ قولكما. قالا: سَلْ عمّا بدا لك. قال: تسألان ربكما أن يُحييَ لنا ميّتًا حتى يكلّمنا ويخبرنا ما خبره، ويُعلمنا ما كان فيه وما لقِي بعدنا. قالا: نعم، إنّ الذي سألتَ يسيرٌ على الله وهيِّن عليه. فوضع شِمعون يده على رأسه كالمُعْظِم والمنكر لما قالا. ثم خلا بالملك وقال: إنك قد رُميتَ بأمر عظيم، وإني أخاف إن أحيا إلٰههما الموتى أن يميل الناس إليهما. قال الملك: إنّا نرجو ألاّ يأتيا بشيء إلا أتيتَ أنت بمثله. قال شِمْعُون: إنّي لا أغُرّكم، إنّ إلٰهي لا يُحيي الموتى، ولا أعلم في الأرض مَن يقدِر على ذلك. قال الملك: فهل تَدَعهما يَدَعانا وندعهما، فإن أبَيَا قاتلناهما؟. قال شِمْعُون: كيف نقاتل مَن لهما إلٰه يُحيي الموتى! ولكن أرجو أن أدعو الإلٰه الذي صنع ما رأيتم فيُعيننا على ما نريد. قال شِمْعُون: هل يقدر إلٰهكما على أن يُحيِيَ الموتى؟ قالا نعم. قال الملك: إنّ عندنا ميّتًا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن دِهْقان[٤] مدينتنا، فدعا به الملك فأُحضر في نَعْش، وقد تغيّر لونه وأرْوَح[٥]، فقال:

---

(١) الحثوة: الغرفة باليد من التراب ونحوه.

(٢) البندقة: واحدة البندق، رصاص كرويّ الشكل صغير يستعمل في بعض القذائف للقتال أو للصّيد.

(٣) الفلج: بمعنى الفوز والنجاح.

(٤) الدهقان: رئيس المقاطعة والإقليم، والتاجر.

(٥) أروح: أنتن.

دونكما ادعُوَا أن يُحيِيَه إلٰهكما. فدعَوَا الله، فما لبث أن تفتّقت[١] عنه أكفانه وردّ الله إليه رُوحه. فسألوه متى مات وماذا لقِي. فقال: مُتّ منذ سبعة أيام، ثم عُرِضْتُ على عملي فقُذِفتُ في سبعة أودية من نار، وذكر ما في الأودية من العذاب والحيّات وغير ذلك. قال: فلمّا صرت إلى الوادي السابع خُفِّف عنّي العذاب. قالوا: فمن أين خُفِّف عنك العذاب؟ قال: أحياني الله وردّ عليّ رُوحي، فجاءني شيء مثل الريح فدخل في رأسي، فلمّا صار في جسدي خَبِيثٌ، ثم قيل لي: انظر فوقك، فشخَصتُ[٢] ببصري وفُتحت أبواب السماء، فنظرتُ فإذا برجل شابّ حَسَنِ الوجه نحيفِ الجسم أبيض يخالطه حمرة متعلّق بالعرش يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة، يعني عيسى ابن مريم. فقال له الملك: أيّ رهط تعني؟ قال: هذا الشيخ الأجلخ[٣]، وهذا الكهل الأنزع[٤]، وهذا الفتى الرَّجْل[٥]. فما زالوا مجتهدين في الدعاء حتى شُفِّعوا، والشافع لهم مُصغٍ إليهم بأذنه كأنه يسمع ما يقولون ثم يرفعه إلى الله فيدعو به. فلما فرغ من كلامه قال: إنّي أحذّركم أيها القوم مثلَ ما كنتُ فيه، فإنه لا إلٰه إلاّ إلٰه عيسى ابن مريم وشِمْعُونَ وبُولُس ويُوحنّا. قال شِمْعُون: اعتصَمنا بالله وتوكّلنا عليه، ثم أخبر الملك بخبره وخبر أصحابه ودعاهم إلى الله، فمنهم من آمن، ومنهم من تولّى. وكان الملك ممن آمن به في عُصبةٍ يسيرةٍ. وأرسل الله على مَن تولّى منهم صيحة[٦] من السماء فإذا هم خامدون.

قال: وكان قد نُعِي إلى الدِّهقان ٱبنُه، وكان اسم الدِّهقان حبيبًا النجّار، ثم لم يلبث أن جاءته البشارة بحياة ٱبنه، ولم يكن له ولدٌ غيرُه، وأُخبر خبر الحَواريّين، فآمن بهم قبل أن يراهم، فأقبل مسرعًا. فلمّا قصّ عليه ابنه قصّته ازداد إيمانًا ويقينًا. قال وهب: فيقال ـ والله أعلم ـ إنّ هذا هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٢٠]. فأوجب الله له بكلامه الجنة، وخُيِّر أن يُعَمَّر هو وٱبنُه مائة عام أو يعجَّل بهما إلى الجنة، فٱختارا الجنة؛ وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يس: ٢٣]. قال: ولم يزل يجاهد قومَه قبل أن تأخذهم الصيحة ويدعوهم إلى الله حتى قتلوه،

---

(١) تفتقت: تشققت. (٢) شخص ببصره: رفعه ونظر إلى أعلى.

(٣) الأجلخ: صوابه [الأجلح] بالحاء المهملة ومعناه: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه.

(٤) الأنزع: الذي انحسر شعره عن جانبي جبينه.

(٥) الرَّجل: بتشديد الرّاء وتسكين الجيم: الذي شعره رأسه بين السّبوطة والجعودة.

(٦) الصيحة: العذاب.

فقيل له: ادخل الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يٰس: ٢٦- ٢٧].

ذكر خبر تُومَا الحواريّ مع ملك الهند وإيمانه به

قال الكسائيّ قال وهب: وجاء توما إلى أرض الهند والسِّنْد. فبينما هو يتردّد على ساحلهم إذا هو بغلام لملك الهند يقال له حَيّان، وكان تاجرًا. فأتاه تُومَا فقال له: هل لك أن تبتاعني للملك؟ فقال له حَيّان: مَن أنت أيها الرجل الكريم؟ قال له تُومَا: إنّي كنتُ عَبْدًا مملوكًا فأعتقني سيّدي وأمرني بالطلب لنفسي، فلم أصادف من الحرّيّة ما كنتُ أظنّ، وكان حالي يوم كنتُ عبدًا خيرًا منه اليوم وأحسن. فقال له حيّان: ما أرى عليك مِيسَم[1] العُبوديّة، وإني لأرى عليك أثر الخير، ثم قال له: ما الذي تُحسِن من الأعمال؟ قال: أعمل سائر الأعمال. فاشتراه بثلاثمائة مثقال[2] من الذهب وانطلق به إلى الملك. فلمّا رآه أجلّه وعظّمه، وسأل التاجر عنه فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائر الأعمال. فقال له الملك: أريد أن تبني لي قصرًا لم يُعمَل مثلُه لأحد قطُّ. قال تُومَا: لك ذلك عليّ، ولكن أرضَك حارّة، وإذا بُنِيَ في زمن الحرّ كان حارًّا لا يُسكَن من حرّه، وكذلك في زمن البرد يكون باردًا، وإني لأرى أن يُعمَل في زمن الاعتدال، فوافقه الملك على رأيه. وعرض للملك غَزَاةٌ فخرج إليها واستَخلف أخاه على المُلْك، وأمره أن يدفع لتُومَا ما يحتاج إليه من الأموال للنفقة على القصر، فصرف له أموالاً كثيرة، ففرّقها توما في الفقراء والمساكين حتى أغناهم، ثم مرِض أخو الملك مرضًا شديدًا وغاب عن حسّه وحركته سبعة أيام. فقدم الملك وهو على تلك الحال، فلما ردّ الله عليه رُوحه قال الملك لتوما: ما فعلتَ في القصر؟ قال: قد فرغتُ منه. فقال الملك لأخيه: ما الذي أعطيتَه من مالي؟ قال: جميع ما في بيت مالك. قال: فهل رأيتَ القصر؟ قال: إنه قبض مني المال ثم اشتكيت فقال لتوما: أين بنيتَ هذا القصر؟ قال: بنيتُه لك في السماء. قال: وكيف لي بسُلَّم أنال به السماء؟ قال: تنال السماء بالسُّلَّم الذي نالها به أخوك. فقال له أخوه: اسمع منّي أيها الملك أُخْبِرْكَ بالعجَب؛ فإنك لو تعلم ما أسبل عليك هذا الرجل من الخير وصرف عنك من الشرّ لقبّلتَ قدميه وجعلته فوق رأسك. قال: أَخْبِرْني خبره. قال: أُخبرك أنّ الله عزّ وجل عرجَ برُوحي، فعرَضني على النار فرأيتُ أمرًا عظيمًا مَهُولاً ووصفه

---

(١) الميسم: العلامة، والسّمة.

(٢) المثقال: وزنٌ مقداره درهم وثلاثة أرباع الدّرهم.

لأخيه، ووصف له صفة ما يُعَذَّب به أهل الشِّرك بالله وعَبَدة الأوثان. قال: ثم قيل لي: إنّ الله عرضك على النار فأراك ما رأيتَ لتكون لمن خَلْفك نذيرًا، وسيُريك الجنة، لتبشِّر بها قومك، ولتُخبِر مَن خلفك بما رأيت. قال: فأُدخلتُ الجنة فرأيت كذا وكذا، ووصف الجنة ونعيمها وما فيها. قال: وأنتهيتُ إلى قصر عظيم من أعظم قصورها وأبوابُه مُغلقة، فقلت لخزنة الجنة: إنّي أحبّ أن أشاهد باطن هذا القصر فإنّي لم أرَ مثله. قالوا: إنّ صاحبه الآن في الدنيا ومفاتيحه عند ملَك من الملائكة. قلت: فلمن ٱدُّخِر هذا القصر؟ قالوا: هذا لأخيك فلان وهو الآن في الدنيا، وعنده رسول من عند الله يقال له تُوما الحوَاريّ من حواريّي عيسى ابن مريم. فإذا رجعتَ إليه فبشِّره وأخبره أنه القصر الذي بناه له تُوما في السماء، وأنفق فيه بيت ماله. ثم ردّ الله بعد ذلك عليّ رُوحي، وأنت تعلم يا أخي أنّ لي شَطْر مالك ومُلْكك وخزائنك، وتعلم ما لي بعد ذلك من الأموال والخزائن، وأنا أعطيك جميع ذلك على أن تُعطيني قصرك الذي رأيته لك في الجنة. قال: يا أخي، ما كنتُ لأُعطيك الباقي بالفاني. ثم أقبل على تُوما وآمن به هو وأهل مملكته، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى حتى أبادها الموت.

ذكر خبر لُوقَا الحواريّ مع ملك فارس

قال: وأصبح لُوقا على باب مدينة من مدائن فارس، وهي التي يسكنها الملك، فإذا غلمانٌ من أبناء الملوك وأبناء الوزراء جلوسٌ على قارعة الطريق يلعبون. فجلس الحواريّ إلى جانب غلام منهم وعلمه كيف يلعب، فغلب جميع أولئك. فلمّا تفرّقوا دعاه الغلام إلى منزله، فقال له: اذهَبْ إلى أبيك وٱستأذِنْه في ذلك. فٱنطلق الغلام إلى أبيه وأخبره بخبر الشيخ، فأذِن له أن يأتيه به، فرجع إليه وقال له: إنّ أبي يدعوك، فأقبل معه. فلمّا ولجَ[1] باب الدار قال: بٱسم الله، فخرج كل شيطان في الدار، وصاحبُ الدار ينظر إلى ذلك، وكانت الشياطين تَظهر لهم وتُشاركهم في طعامهم وشرابهم، فعجِب صاحب الدار من ذلك. وقُدِّم الطعام فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها، فقال لُوقا: بٱسم الله، فنفَرت الشياطين وفرّت من الدار. فقال الشيخ: قد رأيتُ منك اليوم ما لم أره من أحد، وإنّ لك لشأنًا، وخلا به وقال: لا بدّ أن تُخبرني خبرك ولا تكتُمني أمرك. قال: على أن تكتُمه ولا تذكره إلاّ أن آذَنَ لك، قال نعم. فٱستوثق منه وأخبره بخبره. ثم قال له لُوقا: أخبرني أيّ مال الملك أحبّ

---

(١) ولج الدار: دخلها.

إليه وأعجب عنده؟ قال: ما شيء من ماله أحبّ إليه وأعجب عنده من بِرْذَوْن[١] حتى إنه يركبه من سريره. ثم أقام مدّة، فقُدِّم البِرْذَوْن إلى الملك ليركبه على عادته، فلما صار إلى جانب السرير خرّ ميّتًا، فشقّ ذلك على الملك وآلمه وقال: وَدِدتُ لو فديتُه بمال عظيم، وحزِن جلساءُ الملك وخواصُّه لحزنه. قال: وجاء الرجل إلى لُوقَا وقد حَزِن لحُزْن الملك، فسأله عن سبب حُزْنه فذكر له قصّة البِرْذَوْن، فقال له: ارجِعْ إلى الملك وقل له: إني أُحيِيه له إن أطاعني فيما أقول. فرجع إلى الملك وأخبره بذلك، وقال: إنّ هذا الرجل لمّا عَبَر إلى منزلي نفرَتْ منه الشياطين ولم تطعَم من طعامنا، وكانت تأكل معنا قبل ذلك وتشرب كما علمتَ، وقد قال: إن أطاعني الملك أحييتُ له بِرْذَوْنه. فقال الملك: إنّ نفسي لتَطيب بكل شيء أُحيِي به هذا البِرْذَوْن، فعلَيّ بالرجل، فأحضره إلى الملك. فلمّا دخل الدار لم يبق بها شيطان إلا خرج. ثم جلس لوقا إلى جانب الملك، فقال له: بلغني أنك تُحيِي الموتى، فأحْيِ لِي بِرْذَوْني هذا. فقال له: إن أطعتني فيما أقول لك أُحْيِ بِرْذَوْنَك. قال الملك: مُرني بما شئتَ. قال: أُدْعُ ٱبنك وٱمرأتك، وكان ٱبنُه وليّ عهده وٱمرأته منه بمكان، فدعاهما، فأخذ لُوقا بقائمة من قوائم البِرْذَوْن، وكلّ من الملك وٱبنِه وامرأته بقائمة، ثم قال الحواريّ بالفارسيّة: «اللهمّ ربَّ السموات والأرض، خالق السموات والأرض وما فيها لا إلٰه إلاّ أنتَ وحدك لا شريك لك، أحيِ هذا العضو الذي في يدي» فتحرّك ذلك العضو. ثم قال للملك: قل كما قلتُ، فقال الملك مثل قوله. فتحرّك العضو الذي في يده. ثم قال لٱبنه: قل كما أقول، فقال فتحرّك العضو الثالث، ثم قال لٱمرأته: قولي كما قلتُ، فدعت بدعائه، فتحرّك العضو الذي في يدها. ثم قال لهم: قولوا جميعًا كما أقول، فقالوا كلهم: «اللهم ربَّ السموات والأرض خالق السموات والأرض وما فيهما لا إلٰه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك أحْيِ هذا البِرذون». فقام البِرْذَوْن حيًّا ينفُض ناصيته[٢]. فعجِب الملك والناس من ذلك. وسأله الملك عن خبره فأخبره أنه رسول عيسى ابن مريم إليه وإلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فآمنوا به. وقد قيل: إن الذي أُرسل إلى أرض فارس متّى الحواريّ، وإنه لمّا دخل على الملك كان الملك سكرانًا، فلمّا أحيا الفرس أمر الملك أصحابه بقتل متّى فقتلوه. فلمّا أفاق الملك من سكره سأل عنه فقيل له: إنك أمرتَ بقتله فقتلناه، فقال: ما علمتُ بذلك. فقاموا إليه

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيليّة، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء قويّ الأرجل، عظيم الحوافر.

(٢) النّاصية: شعر مقدّم الرأس إذا طال.

وغسلوه وكفّنوه ودفنوه. ويقال: إنّ الله تعالى بعد دفنه خسَف بالملك وأولاده وأهله. والله أعلم. ولنصل أخبار الحوارّين بخبر جرجيس وإن لم يكن منهم، فقد كانت له قصّة عجيبة تلتحق بهم.

ذكر خبر جِرْجِيس رحمة الله عليه

قل أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان في قصص القرآن» بإسناده عن وهب بن مُنَبِّه قال: كان بالموصل ملك يقال له داديه[١]، وكان قد ملك الشام كله ودان له أهله، وكان جبّارًا عاتيًا[٢]، وكان يعبد صنمًا يقال له أفلون، وكان جِرْجِيس عبدًا صالحًا من أهل فِلَسْطِينَ قد أدرك بقايا من حَوَاريّي عيسى عليه السلام، وكان تاجرًا عظيمًا كثير المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه مخافة أن يفتِنوه[٣] عن دينه. فخرج يريد المَوْصِل[٤] ومعه مال يريد أن يُهديه إليه حتى لا يجعل لأحد من الملوك عليه سلطانًا دُونه. فجاءه حين جاءه وقد بَرز في مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنُصِب وأوقدَ نارًا، فمن لم يسجُد لصنمه أُلْقِيَ في النار. فلمّا رأى جِرْجِيس ذلك قُطِع[٥] به وهاله وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده، وألقى الله تعالى في نفسه بغضه ومجاهدته. فعمَد إلى المال الذي أراد أن يُهديه له فقسمه في أهل ملّته حتى لم يبقَ منه شيءٌ وكرِه أن يجاهده بالمال. ثم أقبل عليه وقال له: إنك عبد مملوكٌ لا تملك لنفسك شيئًا ولا لغيرك، وإنّ فوقك ربًّا هو الذي ملّكك وغيرك، وهو الذي خلقك ورزقك ويُحييك ويُميتك ويضرّك وينفعك، وإنك عمَدتَ إلى خَلقٍ من خَلْقه قال له: كن، فكان أصمّ أبكم لا يَنطق ولا يَسمع ولا يُغني عنك من الله شيئًا، فزيَّنته بالذهب والفضة فتنةً للناس، ثم عبدته من دون الله. فكان من جواب الملك إيّاه أن سأله عن حاله وأمره ومَن هو ومن أين هو. فأجابه جرجيس: أنا عبد الله وٱبنُ عبده وٱبنُ أمته أذلّ عباده وأفقرهم إليه، من التراب خُلقت

---

(١) في تاريخ ابن الأثير ١/ ٢٦٤ «دازانه».

(٢) العاتي: الظالم.

(٣) فتنه عن دينه: أخرجه.

(٤) الموصل: مدينة مشهورة في العراق، وهي إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كِبرًا وعِظمًا وكثرة خلق وسعة رقعة، فهي محطّ الرّحال للركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان وسمّيت الموصل لأنها وصلت بين بلد سنجا والحديثة، وقيل بل الملك الذي أحدثها كان يسمّى الموصل، وهي مدينة قديمة الأسّ على طرف دجلة، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى «معجم البلدان ٥/ ٢٢٣».

(٥) قُطع به: يئس أو أصابه نوعٌ من الذّهول.

وإليه أصير. فقال له الملك: لو كان ربّك الذي تزعُم كما تقول لرُئِي عليك أثرُه كما رُئِي أثري على مَن حَوْلي وفي طاعتي. فأجابه جِرْجِيس بتحميد الله وتعظيم أمره وقال: أتعدِل أفلون الأصمّ الأبكم الذي لا يُغني عنك شيئًا بربّ العالمين الذي قامت السموات والأرض بأمره! أو تَعدِل طَرْفَلينا وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس بولاية الله تعالى؛ فإنّ إلياس كان في بدء أمره آدميًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلم تزل به كرامة الله تعالى حتى أنبت له الريش وألبسه النور فعاد إنسيًّا ملكيًّا سماويًّا أرضيًّا يطير مع الملائكة! أم تعدل مَخْلَنْطِيس وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك، بالمسيح ابن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإنّ الله فضّله على رجال العالمين وجعله [وأمه][1] آية للمعتبرين! أم تعدِل أمر هذه الروح الطيّبة التي اختارها الله لكلمته وسوّدها على إمائه وما نالت بولاية الله تعالى، بأزبيل وما نالت بولايتك فإنها كانت من شِيعتك وعلى ملّتك، فأسلمها الله مع عظم مُلْكها حتى ٱقتحمت عليها الكلاب في بيتها فٱنتهشت لحمها وولغت[2] في دمها، وقطّعتِ الضباع أوصالها! قال الملك: إنك لتحدّثنا عن أشياء ليس لنا بها علمٌ؛ فأتني بالرجلين اللذين ذكرتَ أمرهما حتى أنظر إليهما، فإني أنكر أن يكون هذا من البشر. قال له جِرْجِيس: إنما جاءك الإنكار من قِبَل الغِرّة[3] بالله تعالى. وأمّا الرجلان فلن تراهما ولا يريانك إلاّ أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما. فقال له الملك: أمّا نحن فقد أعذرنا إليك وتبيّن لنا كذبك لأنك فخرتَ بأمور عجزتَ عنها. ثم خيّره الملك بين العذاب وبين السجود لأفلون. فقال جرْجيس: إن كان أفلون هو الذي رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبتَ، وإلاّ فاخسأ[4] أيها النّجِسُ الملعون. فلمّا سمعه الملك غضِب وسبّه وسبّ إلٰهه وأمر بخشبة فنُصِبتْ له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدَش بها جسدَه حتى تقطّع لحمه وجلده وعروقه، ونضح خلال ذلك الخلّ والخردل[5]، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم والهلاك. فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستّة مسامير من حديد فأُحميتْ، حتى إذا جُعِلت نارًا سمّر بها رأسه حتى سال دماغه، فحفظه الله من الألم والهلاك. فلمّا رأى ذلك لم يقتله أمر بحَوْض من نحاس وأوقد عليه حتى إذا جعله نارًا أمر به فأُدخل في

---

(١) زيادة عن الثعلبي.

(٢) ولغت في دمها: أي شربت يقال: ولغ الكلب أو نحوه الإناء أو فيه أو منه أو به: شرب ما فيه بأطراف لسانه، أو أدخل فيه لسانه وحرّكه.

(٣) الغِرّة: الغفلة أو الجهل.

(٤) خسأ: بعد وانزجر.

(٥) الخردل: نبات عشبي من الفصيلة الصليبية، ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، تستعمل بزوره في الطبّ، ومنه بزور يتبل بها الطعام.

جوفه وأُطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد حرّه. فلمّا رأى أنّ ذلك لم يقتله دعا به فقال: يا جرجيس، أمَا تجد ألَم هذا العذاب الذي تُعذَّب به؟ فقال: إنّ ربّي الذي أخبرتك به حمل عنّي ألم العذاب وصبّرني لأحتجّ عليك. فلمّا قال له ذلك أيقن الملك بالشرّ وخافه على نفسه ومُلْكه، واجتمع رأيه أن يخلِّده في السجن. فقال له الملأ من قومه: إنك إن تركتَه طليقًا في السجن يكلّم الناس يوشك أن يميل بهم عليك، ولكن مُرْ له بعذاب في السجن يشغله عن كلام الناس. فأمر به فبُطح في السجن على وجهه ثم أوتد له في يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد في كل ركن منها وتدٌ، ثم أمر بأسطوان[1] من رخام فوُضع على ظهره، وحمل ذلك الأسطوان ثمانية عشر رجلاً، فظلّ يومه ذلك مُوتَدًا تحت الحجَر. فلمّا يدركه الليل أرسل الله تعالى [إليه][2] ملكًا فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه وبشّره وعزّاه. فلمّا أصبح أخرجه من السجن وقال له: اِلحَقْ بعدوّك فجاهده في الله حقّ جهاده، فإنّ الله يقول لك: أبشر واصبر فإنّي قد ابتليتك بعدوّك هذا سبع سنين يعذّبك ويقتلك فيهنّ أربع مرّات، في كل ذلك أردّ إليك رُوحك، فإذا كانت الرابعة تقبّلت رُوحك وأوفيتك أجرك. قال: فلم يشعُر الملك وأصحابه إلاّ وجِرْجِيس قد وقف على رؤوسهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى. فقال له الملك: يا جِرْجِيس مَن أخرجك من السجن؟ قال: أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك. فلمّا قال له ذلك مُلىء غيظًا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلِّف منها شيئًا. فلمّا رآها جِرْجِيس أوجس في نفسه خِيفةً وفزعًا منها، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون. فلمّا فرغ من عتابه نفسَه مدّوه بين خشبتين ثم وضعوا سيفًا على مَفْرِق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار قطعتين، فعَمدوا إلى أجزائه فقطّعوها قطعًا، وللملك سبعةُ أسود ضارية، وكانوا صنفًا من أصناف عذابه، فرمَوْا بجسده إليها. فأمرها الله تعالى فخضعت له برؤوسها وأعناقها وقامت على براثنها، فظلّ يوْمه ذلك ميّتًا وهي أوّل موتة ماتها. فلمّا أدركه الليل جمع الله جسدَه الذي قطّعوه بعضَه إلى بعض حتى سوّاه، ثم ردّ الله تعالى إليه رُوحه وأرسل مَلَكًا فأخرجه من قَعْر الجُبّ[3] فأطعمه وسقاه وبشّره وعزّاه. فلمّا أصبحوا قال له المَلَك: يا جِرْجِيس، قال: لَبّيك! قال: اعلم أنّ القدرة التي خلق الله تعالى بها آدم من التراب هي التي أخرجتك من قعر الجُبّ، اِلحَقْ بعدوّك وجاهدْه في الله حقّ جهاده ومُتْ موتَ الصابرين. فلم يشعُرِ

(١) الأسطوان: العمود.

(٢) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٣) الجبّ: البئر الواسعة.

الملك وأصحابُه إلاّ وقد أقبل جِرْجِيس وهم في عيد لهم عُكُوفٌ عليه صنعوه فرحًا بموت جِرْجِيس. فلمّا نظروا إليه وقد أقبل قال الملِك: ما أشبه هذا بجرجيس! قالوا: كأنه هو. قال الملك: ما بِجِرْجِيس من خفاء إنه لهو، ألاَ ترون إلى سكون ريحه وقلّة هيبته. قال جرجيس: أنا هو، بئس القوم أنتم! قتلتم ومثّلتم فأحياني الله بقدرته، فهلمُّوا إلى هذا الرب العظيم الذي أراكم ما أراكم. فلما قال لهم ذلك أقبل بعضُهم على بعض وقالوا: ساحرٌ سحرَ أعينكم. وجمعوا مَن كان ببلادهم من السحَرة. فلمّا جاؤوا قال الملِك لكبيرهم: اِعرض عليّ من كبير سحرك ما يُقِرّ عَيْني. قال: ادعُ لي بثور من البقر. فلمّا أُتِي به نفثَ في إحدى أذنيه فانشقَّت باثنتين، ثم نفثَ في الأخرى فإذا هو ثَوْران، ثم دعا ببذر فحُرِث وبُذِر، فشبّ الزرع واستحصد، ثم دُرِس وذُرِيَ وطُحِن وعُجِن وخُبِز، كلّ ذلك في ساعة واحدة. فقال الملك: هل تقدِر أن تمسَخه لي دابّة؟ قال الساحر: أيّ دابّة أمسخه لك؟ قال: كلبًا. قال: ادعُ لي بقَدَح من ماء. فلمّا أُتِي بالقدح نفث[1] فيه الساحر ثم قال: اعْزِمْ[2] عليه أن يشربه، فشربه جِرْجِيس حتى أتى على آخره. فلمّا فرغ منه قال له الساحر: ماذا تجد؟ قال: ما أجد إلاّ خيرًا، قد كنتُ عطِشتُ فلطَف الله بي بهذا الشراب فقوّاني به عليكم. فأقبل الساحر على الملك فقال له: اِعلم أيها الملك إنك لو كنتَ تقاسي رجلاً مثلك إذًا لقد كنتَ غلبته، ولكنك تُقاسي جبّار السموات والأرض. وهو الملك الذي لا يرام[3].

قال: وكانت امرأةٌ مسكينةٌ من أهل الشام سمعت بجِرْجِيس وما يصنع من الأعاجيب، فأتته وهو في أشدّ ما هو فيه من البلاء، فقالت له: يا جِرْجِيس، إنّي امرأةٌ مسكينةٌ ولم يكن لي مالٌ إلا ثورًا أحرُث عليه فمات، فجئتك لترحمني وتدعو الله تعالى أن يُحييَ لي ثوري. فذرفت عيناه، ثم دعا الله تعالى أن يُحييَ لها ثورها، وأعطاها عصًا وقال لها: اذهبي إلى ثورك فاقرعيه بهذه العصا وقُولِي له: احْيَ بإذن الله. فقالت: يا جِرْجِيس، مات ثوري منذ أيام ومزّقته السباع، وبيني وبينه أيام. فقال: لو لم تجدي منه إلاّ سنًّا واحدة ثم قَرَعْتِها بالعصا لقام بإذن الله تعالى. فانطلقت حتى أتت مَصْرَعَ ثورها، وكان أوّلُ شيء بدا لها أحدَ رَوْقَيه[4] وشعر أذنيه، فجمعت أحدهما إلى الآخر ثم قرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها، فقام الثور بإذن الله تعالى وعمِلت عليه. قال: فلما قال الساحر للملك ما قال، قال رجل من

---

(١) نفث: بصق، ونفثت الحيّة السمّ: رمت به.

(٢) اعزم عليه: أي اجعله يقسم، وعزم الرّاقي أو السّاحر: أي قرأ العزائم.

(٣) لا يرام: ولا ينال بمكروه. (٤) الرّوق: قرن الدابة.

أصحاب الملك، وكان أعظمهم من بعد الملك، إنكم قد وضعتم أمرَ هذا الرجلِ على السحر، وإنكم عذّبتموه فلم يصل إليه عذابكم، وقتلتموه فلم يَمُتْ، فهل رأيتم ساحرًا يدرأ عن نفسه الموت وأحيا ميّتًا قط؟ فقالوا له: إنّ كلامك لكلام رجلٍ قد صغا إليه فلعلّه استهواك. فقال: بل آمنتُ بالله، وٱشهدوا أني بريء مما تعبدون، فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه. فلمّا رأى القوم ذلك اتّبع جِرْجِيس أربعة آلاف رجل. فعمد إليهم الملك فأوثقهم، ثم لم يزل يعذّبهم بأنواع العذاب حتى أفناهم. فلمّا فرغ منهم قال لجرجيس: هلاّ دعوتَ ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قُتلوا بجريرتك[١]! . فقال له جرجيس: ما خُلّي بينك وبينهم حتى حان لهم. فقال رجل من عظماء أصحابه يقال له مَخْلَنْطِيس: إنك زعمتَ يا جِرْجِيس أن إلٰهك هو الذي يبدأ الخَلْق ثم يُعيده، وإني سائلك أمرًا إن فعله إلٰهك آمنتُ بك وصدّقتك وكفيتك، إنّ حولنا أربعةَ عشر كرسيًّا ومائدة، وبيننا أقداحٌ وصِحَافٌ[٢] وهي من أشجار شتّى، فادعُ إلٰهك ينشىء هذه الكراسيّ والأواني كما بدأها أوّل مرّة حتى تعود خضراء يُعرَف كلّ عود منها بلونه وورقه وزهره. فقال له جِرْجِيس: قد سألتَ أمرًا عزيزًا عليّ وعليك، وإنه على الله لهيّن، ودعا الله عزّ وجل، فما برحوا من مكانهم حتى ٱخضرّت تلك الكراسيّ والأواني كلها وساخت عروقها وأُلبست اللحاء[٣] وتشعّبت فأورقت وأزهرت وأثمرت. فلمّا نظرا إلى ذلك انتدب له مَخْلَنْطِيس الذي تمنّى عليه ما تمنّى فقال: أنا أُعذّب لكم هذا الساحر عذابًا يضِلّ عنه كيدُه[٤]. فعمدَ إلى نحاس فصنع منه صورة ثور أجوف واسع، ثم حشاه نَفِطًا ورَصَاصًا وكِبْريتًا وزِرْنيخًا، ثم أدخل جِرْجِيس مع الحشو في جوفه، ثم أوقد تحت الصورة حتى ٱلتهبت وذاب كل شيء فيها وٱختلط، ومات جرجيس في جوفها. فلمّا مات أرسل الله عزّ وجل ريحًا عاصفًا فملأتِ السماء سحابًا أسودَ مظلمًا، فيه رعد وبرق وصواعق، وأرسل الله تبارك وتعالى إعصارًا ملأت بلادهم عجَاجًا[٥] وقتامًا حتى ٱسودّ ما بين السماء والأرض، ومكثوا أيامًا متحيّرين في تلك الظُّلمة لا يفصلون بين الليل والنهار، وأرسل الله تعالى ميكائيل فٱحتمل الصورة التي فيها جرجيس، حتى إذا أقلّها[٦] ضرب بها الأرض ففزع

---

(١) الجريرة: الذّنب.

(٢) الصّحاف: مناقع صغيرة للماء وهي هنا: صحن للطّعام كبير عريض مفردها «الصَّحفة».

(٣) اللحاء: القشر.

(٤) الكيد: المكر والخداع والخبث.

(٥) العجاج: الغبار والدخان، والقتام: السّواد.

(٦) أقلّها: رفعها وحملها.

من وقعها أهل الشام أجمعون فخرّوا على وجوههم صَعِقين، وآنكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيًا. فلمّا وقف يكلّمهم انكشفتِ الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم. فقال له رجل يقال له طَرْفَلينا: لا ندري يا جرجيس أأنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربّك! فإن كان ربك هو الذي يصنع هذا فآدعُه يُحْيي موتانا؛ فإنّ في هذه القبور أمواتًا منهم مَن يعرف ومنهم مَن لا يعرف. فقال له جِرْجِيس: لقد علمتُ ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويُريكم هذه الأعاجيب إلاّ كانت عليكم حجّة، فتستوجبوا غضبه، ثم أمر بالقبور فنُبشتْ وهي عظامٌ رُفَاتٌ وأقبل على الدعاء، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانًا: تسعة رهط وخمس نسوة وثلاثة صبية، وإذا فيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: يا شيخ، ما آسمك؟ فقال: يا جرجيس اسمي نُوبِيل. قال: متى مُتَّ؟ قال: في زمان كذا وكذا. فحسبُوا فإذا هو مات منذ أربعمائة سنة. فلمّا نظر الملك وأصحابه إلى ذلك قالوا: ما بقِي من أصناف العذاب شيءٌ إلاّ وقد عذّبتموه به إلاّ الجوع والعطش، فعذِّبوه بهما. فعمَدوا إلى بيت عجوز كبيرة، وكان لها آبن أعمى أصمّ أبكم مُقعَد، فحصروه في بيتها ولا يصل إليه من عند أحد طعامٌ ولا شرابٌ. فلمّا بلغ به الجوع قال للعجوز: هل بقِي عندك من طعام أو شراب؟ قالت: لا والذي يُحلَف به ما عهِدنا الطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج ألتمس لك شيئًا. فقال لها جرجيس: هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم. قال: فإيّاه تعبُدين؟ قالت لا. فدعاها إلى الله عزّ وجلّ فصدّقته، وانطلقت تطلب له شيئًا، وفي بيتها دِعامة[١] من خشبة يابسة تحمل خشب البيت، فأقبل على الدعاء، فاخضرّت تلك الدِّعامة وأنبتت له كل فاكهة تُؤكَل أو تُعرَف، حتى كان فيها اللُّوبيا واللُّبان[٢] مثل البَرْدِيّ[٣] يكون بالشام، وظهر للدِّعامة فروعٌ من فوق البيت أظلّته وما حوله. فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رَغَدًا. فلمّا رأتِ الذي حدث في بيتها من بعدها قالت: آمنتُ بالذي أطعمك، فادعُ هذا الربّ العظيم ليشفي آبني. قال: أُدنِيه منّي، فأدنته، فبصق في عينيه فأبصر، ونفَث في أذنيه فسمِع. قالت له: أَطْلِق لسانه ورجليه رحمك الله. قال: خذيه فإنّ له يومًا عظيمًا. وخرج الملك يومًا ليسير في مدينته، إذ وقع

(١) الدّعامة: عماد البيت.

(٢) اللبّان: نبات من الفصيلة البخوريّة يفرز صمغًا، يسمّى الكندر.

(٣) البزدي: نبات مائي من الفصيلة السعدية تسمو ساقه الهوائية إلى متر أو أكثر، ينمو بكثرة في منطقة المستنقعات بأعالي النّيل وقد صنع منه المصريون القدماء الورق البردي المعروف للكتابة.

بصره على الشجرة، فقال: إني أرى شجرة بمكانٍ ما كنتُ أعرفها به. قالوا: تلك شجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردتَ أن تعذّبه بالجوع، فهو فيما شاء وقد شبع منها وأشبع العجوز الفقيرة وشفى لها ٱبنها. فأمر الملك بالبيت فهُدِم وبالشجرة لتُقطَع. فلمّا همّوا بقطعها أيبسها الله تعالى وردّها كما كانت أوّل مرّة، فتركوها. وأمر بجرجيس فبُطح على وجهه وأُوتدَ له أربعةُ أوتاد، وأمر بعجلة وأوقرها[1] أسطوانًا وجعل في أسفل العجلة خناجر وشِفارًا، ثم دعا بأربعين ثَوْرًا فنهضت بالعجلة نهضةً واحدة وجِرْجِيس تحتها، فٱنقطَع ثلاثَ قِطَع، فأمر بقِطَعه فأُحرقت بالنار، حتى إذا عادت رَمادًا بعث بذلك الرَّماد وبعث معه رجالاً فذرّوه في البحر، فلم يبرحوا من مكانهم حتى سمعوا صوتًا من السماء: يا بحر، إنّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيّب، فإنّي أريد أن أعيده كما كان. ثم أرسل الله تعالى الريح فأخرجته ثم جمعته حتى صار الرَّماد صُبْرةً[2] كهيئته قبل أن يذرّوه؛ فخرج منه جِرْجِيس مغبرًا ينفُض رأسه، فرجعوا ورجع جِرْجِيس، فأخبروا الملك خبر الصوت [الذي سمعوا][3] والريح التي جمعته، فقال: هل لك يا جرجيس فميا هو خيرٌ لي ولك مما نحن فيه؟ ولولا أن يقول الناس إنك قهرتني وغلبتني لاتّبعتك وآمنتُ بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة وٱذبَحْ له شاة واحدة، ثم إني أفعل ما يسرّك. فقال له: نعم، مهما شئت فعلت، فأدخِلْني على صنمك. ففرح الملك بقوله فقام وقبّل يديه ورجليه ورأسه وقال: إنّي أعزِم عليك ألاّ تظل هذا اليومَ إلاّ عندي، ولا تبيت هذه الليلة إلاّ في بيتي وعلى فراشي، حتى تستريح ويذهب عنك وَصَب[4] العذاب، ويرى الناس كرامتك عليّ، فأُخلي له بيت فظلّ فيه جرجيس، حتى إذا أدركه الليل قام يصلّي ويقرأ الزَّبور، وكان أحسن الناس صوتًا. فلمّا سمعت ٱمرأة الملك ٱستجابت له، فلم يشعُر إلاّ وهي خلفه تبكي معه، فدعاها جِرجِيس إلى الإيمان فآمنت به، وأمرها فكتمت إيمانها. فلمّا أصبح غدا به الملك إلى بيت الأصنام ليسجُد لها. وقيل للعجوز التي كان سجن في بيتها: هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك فأصغى إلى الدنيا وقد أخرج به الملك إلى بيت أصنامه ليسجُد لها فخرجت العجوز تحمل ٱبنها على عاتقها[5] وتوبّخ جِرْجِيس والناس مشغولون عنها. فلمّا دخل جِرْجِيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظر فإذا العجوز وٱبنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقامًا؛ فدعا ٱبن العجوز بٱسمه

---

(١) أوقرها: حمّلها.

(٢) الصُّبْرة: الكومة.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٤) الوصب: المرض والألم.

(٥) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

فنطق وأجابه ولم يكن[١] يتكلّم قبل ذلك، ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشي على رجليه وهما مستويتان وما وطىء على الأرض قبل ذلك قط. فلمّا وقف بين يدي جرجيس قال: اذهَبْ فادْعُ لي هذه الأصنام وهي حينئذ سبعون صنمًا على منابر من ذهب، وهم يعبدون الشمس والقمر معها. فقال له الغلام: كيف أدعو الأصنام؟ قال: قل لها إن جرجيس يسألك ويعزِم عليك بالذي خلقك إلاّ أجبتيه. قال: فلمّا قال لها الغلام ذلك أقبلت تَدَحرج إلى جِرْجِيس، فلمّا انتهت إليه ركض[٢] الأرض برجله فخُسف بها وبمنابرها[٣]، وخرج إبليس من جوف صنم منها هاربًا فَرِقًا من الخَسْف، فلمّا مرّ بجرجيس أخذ بناصيته، فخضع له وكلّمه جرجيس فقال له: أخبرني أيها الرُّوح النَّجِسة والخَلْق الملعون، ما الذي يحملك على أن تُهلِك نفسَك وتُهلِك الناسَ وأنت تعلم أنك وجُندك تصيرون إلى جهنّم؟ فقال له إبليس: لو خُيِّرتُ بين ما أشرقت عليه الشمس وأظلم عليه الليل وبين هلكة واحد من بني آدم وضلالته طَرْفةَ عين لاخترته على ذلك كله، وإنه ليقَعُ لي من الشهوة واللذّة في ذلك مثل جميع ما يتلذّذ به جميع الخلائق. ألم تعلم يا جرجيس أنّ الله تعالى أسجدَ لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا كلّهم وامتنعتُ أنا من السجود وقلتُ أنا خير منه! فلما قال هذا أخلاه جرجيس. فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدًا. فقال الملك: يا جرجيس خدعتني وغدرتني وأهلكت آلهتي. فقال جرجيس للملك: إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنعت منّي فكيف ثقتك - ويلك - بآلهة لم تمنع أنفسها منّي! وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلاّ ما ملّكني ربّي. فلمّا قال جرجيس هذا كلّمتهم امرأة الملك وكشفت لهم إيمانها، وعدّدت عليهم [أفعالهم][٤] وأفعال جرجيس والعِبَر التي أراهم الله تعالى، وقالت لهم: ما تنتظرون من هذا الرجل إلاّ دعوةً فيخسِف الله بكم الأرض كما خسفَ بأصنامكم. اللّهَ اللّهَ أيها القوم في أنفسكم! فقال لها الملك: وَيْحَكِ يا سَكَنْدرة! ما أسرعَ ما أضلّك هذا الساحر في ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفَر منّي بشيء قطّ! فقالت: أمَا رأيتَ الله كيف يُظفره بك ويسلّطه عليك فيكون له الفَلْج[٥] والحجّة عليك في كل موطن! فأمر بها الملك عند ذلك فحُمِلتْ على خشبة جرجيس التي كان عليها عُلِّق، وحُملت عليها الأمشاط التي جُعلت على جرجيس. فلمّا تألّمت قالت: ادعُ ربك يا جرجيس فيخفّف

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٢) ركض الأرض: حرّك التراب بقدمه.
(٣) المنابر: القواعد.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٥) الفلج: الفوز، والحجّة: البيّنة والغلبة.

عني فإني قد آلمني العذاب. فقال لها: انظري فوقك. فلمّا نظرتْ ضحِكت. فقال لها: ما الذي يُضحِكك؟ قالت: أرى مَلَكين فوقي معهما تاجٌ من حليّ الجنة ينتظران به روحي أن تخرج. فلمّا خرجتْ أتيا بذلك التاج ثم صعِدا بها إلى الجنة. قال: فلمّا قبض الله تعالى رُوحها أقبل جِرْجِيس على الدعاء فقال: اللّهمّ أنت أكرمتَني بهذا البلاء لتُعطِيَني فضائل الشهداء، فهذا آخر أيامي التي وعدتَني فيه الراحة من بلائك، فإنّي أسألك ألاّ تقبضَ رُوحي ولا أزول من مكاني هذا حتى تُنزِل بهؤلاء القوم من سطوتك ونقمتك ما لا قِبَل لهم به حتى تشفي به صدري وتُقرّ به عيني؛ فإنهم ظلموني وعذّبوني. اللّهمّ وأسألك ألاّ يدعوَ بعدي داعٍ في بلاء وكرب فيذكرني ويُشير بأسمي إلاّ فرّجتَ عنه ورحِمتَه وأجبتَه وشفّعتني فيه. فلمّا فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارًا من السماء. فلمّا رأَوْا ذلك عمدوا إليه وضربوه بالسيوف غيظًا عليه من شدّة الحريق ليُعطِيَه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده. ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رَمادًا، فحملَها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها، فمكثت زمانًا يخرج من تحتها دُخَانٌ مُنتنٌ لا يشمّه أحدٌ إلاّ سقِم سقمًا شديدًا. وكان مَن آمن بجرجيس وقُتل معه أربعون وثلاثون ألفًا وأمرأة الملك. قالوا: وكان جِرْجِيس في أيام ملوك الطوائف.

وحيث أنتهى بنا القول في سرد ما شرحناه من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وما أتصل بذلك من الأخبار؛ فلنذكر الآن التذييل الذي شرحناه في ترجمة هذا القسم للسبب الذي قدّمناه. وبالله المستعان.

التذييل على القسم الثالث من الفن الخامس

يشتمل على ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض، وما يكون من الفِتَن والحروب، وخروج من يخرج ويتغلّب على البلاد، وخروج المهديّ والدجّال ونزول عيسى ابن مريم وقَتْله الدجّال، وخروج يأجوج ومأجوج[١] وهلاكهم، ووفاة عيسى ابن مريم، وما يكون بعده من أشراط الساعة ويوم القيامة

(١) يأجوج ومأجوج: قال الحسن البصري: أصلهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج من الترك، وقال وهب بن منبه: إنّما سمّي الترك تركًا لأن ذا القرنين لما بنى السدّ على يأجوج ومأجوج كان منهم جماعة غائبون لم يعلموا ببناء السدّ، فتركوا خارج السدّ، فسمّوه تركًا «انظر بدائع الزهور ١/ ٢٦٢».

والنفخ في الصُّور والحَشْر والمعاد. مما أورد إن شاء الله تعالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبويّ، ومن كتاب المبتدا للكسائيّ، ومن كتاب العاقبة للشيخ أبي محمد عبد الحقّ بن عبد الحقّ بن عبد الله الأزْديّ الإشبيليّ على سبيل الاَختصار.

الباب الأوّل

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم

ولنبدأ بذكر الملاحم. قال رسول الله ﷺ: «ستُصالحكم الرُّوم صُلْحًا آمِنًا، ثم تغزُون أنتم وهم عدوًّا[1] فتنتصِرُون وتَغنَمُون وتَسلَمون ثم تنصرفون حتى تَنزِلوا بمَرْج ذي تلول[2]، فيرفع الرجلُ من أهل الصليبِ الصليبَ فيقول غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدُقُّه، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون حينئذ تحت ثمانين غاية[3] تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا». وعنه ﷺ: «إذا وقعتِ الملاحمُ بعث الله بَعْثًا من الموالي هم أكرمُ العرب فَرَسًا وأجودُه سلاحًا يؤيّد الله بهم الدِّين». وعنه ﷺ أنه قال: «الملحمة الكبرى وفتح القُسْطَنْطِينيّة[4] وخروج الدجّال[5] في سبعة أشهر». وعنه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغارَ الأعيُن ذُلْف[6] الأنوف كأنّ وجوههم المَجَانّ[7] المُطْرَقة ولا تقوم الساعة حتى تُقاتِلوا قومًا نِعالُهم الشَّعَر». وفي الحديث الآخر: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا عِراضَ الوجوه كأنّ وجوههم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ. وإنّ

---

(١) أي تغزون عدوًّا لكم ولهم بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذي بينكم وبينهم، أو أنتم تغزون عدوّكم، وهم يغزون عدوّهم بالانفراد.

(٢) التلول: مفردها تلّ، وهو الهضبة والمرتفع.

(٣) الغاية هنا: الرّاية.

(٤) القسطنطينيّة: ويقال قسطنطينة بإسقاط ياء النسبة، وكان تسمّى بيزنطية فلما ملك بلاد الرّوم قسطنطين انتقل إليها وسمّاها قسطنطينية، وهي دار ملكهم إلى اليوم واسمها اصطنبول «انظر معجم البلدان ٤/ ٣٤٧».

(٥) الدجّال: سوف تأتي صنعته نقلاً عن كعب الأحبار.

(٦) الذّلف: قصر الأنف وانبطاحه.

(٧) المجان: مفردها المجنّ وهو الترس، والمطرّقة: التي ألبست طراقًا أي جلدًا يغشاها.

من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا ينتعلون الشَّعَر». وعنه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صِغارَ الأعيُنِ عراض الوجوه كأنّ أعينهم حَدَق الجراد كأنّ وجوههم المَجَانّ المُطْرَقَة ينتعلون الشَّعَر ويتّخذون الدرَق[١] يربطُون خيولهم بالنخل»[٢]. خرّج هذه الأحاديث ابن ماجه[٣].

ذكر خبر المتغلِّبين على البلاد
وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى عليه السلام

قال أبو الحسن الكسائيّ عن كعب الأحبار: ولا بدّ أن يحدُث بين يدَيْ نزول عيسى علامات وحروب وفتن، فأوّل مَن يخرُج ويغلب على البلاد رجلٌ اسمه الأَصْهَبُ من بلاد الجزيرة، ويخرج الجُرْهُمِيّ من بلاد الشام، ويخرج القَحْطانيّ بأرض اليمن، وهو أمثل هؤلاء الثلاثة شَوْكةً. فبينا هؤلاء الثلاثة في مواضعهم وقد تغلّبوا على أمكنتهم بالظلم والجَوْر إذا هم بالرجل السُّفيانيّ قد خرج من غُوطَة دِمَشْق، وقيل: إنه يخرُج من الشام، وقيل: إنه يخرُج من الوادي اليابس. وأخواله من كَلْب، واسمه مُعاوية بن عَنْبسة، وهو رَبَعٌ[٤] من الرجال، دقيق الوجه، طويل الأنف، مُحْدَوْدِب، جَهْوَرِيّ الصوت، يَكسِر عينه اليمنى؛ يحسبُه الذي يراه كأنه أعْوَر وليس بأعْور، يظهر في أوّل أمره بالزهد ويبذُل الأموال، ويُخْطَب له على منابر الشام، ويكون جريئًا على سَفْك الدماء لمن خالفه، ويعطِّل الجمعة والجماعة. وعلامة بدء أمره أنه يخرُج في كل مدينة دجّال يدعو إلى نفسه، ويُظهِر الفسق حتى إنهم يفجُرون في المساجد، فيخرُج عليهم السُّفيانيّ حتى ينزل أرض دمشق، فيجتمع إليه القوم ويبايعونه، ويفرّق الأموال الكثيرة بينهم حتى يقولوا هذا خير أهل الأرض. ثم يسير

---

(١) الدّرق: مفردها الدّرقة، وهي الترس من جلد ليس فيه خشب.

(٢) النخل: موضع غربي مسجد الأحزاب، وقيل: هو على ثلاثة أميالٍ من المدينة، وذكر يعقوب النخل، فقال: هو منزلٌ من منازل بني ثعلبة من المدينة على مرحلتين، وقيل: هو موضعٌ بنجد من أرض غطفان، وقيل: هو منزل لبني مرّة بن عوف على ليلتين من المدينة «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٧٦/ ٢٧٧».

(٣) ابن ماجه: هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور، مصنّف كتاب «السّنن» في الحديث، كان إمامًا في الحديث عارفًا بعلومه، وله تفسير القرآن، وكتابه أحد الصحاح الستة «وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٩».

(٤) الرّبع من الرّجال: الوسيط القامة.

في الشام وعلى مقدّمته رجلٌ من جُهَينة[1] يقال له ناجية حتى ينزل العراق، فيُخرِج إليه القَحْطانيّ جيشًا كثيرًا فيهزمهم ناجية هزيمة قبيحة، فعند ذلك يُوَجِّه السُّفْيَانيّ ثلاث جيوش: جيش إلى الكوفة فيقتُلون قتلاً ذريعًا، وجيش إلى خراسان فيقتُلون ويحرِّقون، وجيش إلى الروم حتى يكثر القتل منهم في الدنيا وفي كل طريق. فعند ذلك يجتمع الصالحون على السُّفيانيّ ويخوِّفونه عقوبة الله في سَفْك الدماء، فيأمر بقتلهم وقتل العلماء والزُّهّاد في جميع الآفاق. فعند ذلك يجتمع المسلمون على رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ يقال له محمد بن عليّ فيبايعونه ويسمّونه المهديّ. والله أعلم.

ذكر خبر خروج المهديّ

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: يُبَايَعُ بين مكة والرُّكن، ويكون أوّل أمره على عدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل: إنه يخرج [قبل هذا ولي] من قرية من قرى حرس[2] في ثلاثين رجلاً، ثم يجتمع إليه المؤمنون من كل ناحية، ثم ينكسف القمر ثلاثَ ليالٍ متواليات، ثم يظهر المهديّ بمكة ويَشِيع أمره؛ فيبلغ ذلك [الزّهرانيّ صاحب][3] السُّفيانيّ، فيبعث إلى المهديّ جيشًا ثلاثين ألفًا فينزلون في البرِّيّة. ثم يخرج السُّفيانيّ إلى البيداء، فإذا استقرّ بالموضع خسف الله تعالى بهم الأرض، فيأخذهم إلى أعناقهم حتى لا يُفلت منهم إلاّ رجلان يخرجان بفرسيهما، فإذا وصلوا إلى القوم رأوْهم وقد خَسَفَ الله بهم، فيخسِف الأرض بواحد منهما، ويحوِّل الله وجه الآخر إلى قفاه، فيبقى كذلك مدّة حياته. ثم يخرُج المهديّ بمن معه إلى بلاد الروم فيسير حتى يسمع بهلاك السُّفيانيّ وأصحابه. قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝﴾ [سبأ: ٥١]. فيحمد المهديّ الله تعالى على ذلك، ويخرج إلى بلاد الروم في نحو مائة ألف فيصل[4] إلى القُسْطَنْطِينِيّة، فيدعو ملكَ الروم إلى الإسلام فيأبَى فيقاتله، ويدوم القتال بينهم شهرين، ثم ينهزم ملك الروم. ويدخل المسلمون إلى القسطنطينية، فينزل المهديّ

---

(١) جهينة: هم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، وهي قبيلة عظيمة، ولها بقايا ببلاد الصعيد من الديار المصرية وبالحجاز وغيرهما، والنسبة إليهم جُهنيّ «انظر جمهرة أنساب العرب ٢/ ٤٤٤ وصبح الأعشى ١/ ٣٦٨».

(٢) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.

(٤) الفيصل: السيف، يريد في نحو مائة ألف رجل، ذكر الفيصل كناية عنهم.

على بابها، ولها سبعة أسوار، فيكبِّر سبع تكبيرات فينهدم كلّ سور منها بتكبيرة. ويدخلها المهديّ ويقتُل خلقًا كثيرًا ويقتُل ملك الروم، ثم يرفع عنهم السيفَ، ويأخذ المسلمون من الغنائم ما لا يُحصَى، حتى إنّ الرجل ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمله. فبينما هم كذلك إذ يأتيهم الخبرُ من خليفة المهديّ بخروج الدجّال واجتماع الناس عليه، فيتركون تلك الغنائم وينصرفون إلى بلادهم مسرعين لمحاربة الدجّال. فيقال: إن المهديّ يسير نحو الدجّال وعلى رأسه عمامة رسول الله ﷺ، فيلتقون ويقتتلون قتالاً شديدًا، فيُقتَل من أصحاب الدجّال أكثر من ثلاثين ألفًا، ثم ينهزم الدجّال فيمرّ نحو بيت المقدس، فيأمر الله الأرض بإمساك قوائم خيله، ويرسل عليهم ريحًا حمراءَ فتقتُل منهم أربعين ألفًا. قال: ثم يُقبِل المهديّ بجيشه زُهَاء[1] مائة ألف، في أيديهم الراياتُ البيض. فيقول المهديّ [لعسكر الدجّال][2]: ويلكم! أتشكّون في هذا الأعور الكذّاب أنه الدجّال؟ فيقولون: لا، ولكنّا نعيش في طعامه. فيُمْسَخُون في الحال قِرَدَةً وخنازير. ثم ينزل عيسى بعد ذلك إلى الأرض ويصلّي خلف المهديّ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خبر خروج الدجّال وصفته وما يكون من أمره إلى أن ينزل عيسى عليه السلام

قال كعب: إنّ الدجّال رجلٌ طويلٌ، عريضُ الصدر، مطموسُ[3] العين اليمنى، واليسرى كأنها كوكبٌ دُرّيّ[4]، مكتوبٌ بين عينيه: «كافر»، يقرؤه كل كاتب أو غير كاتب. ويدّعي أنه الربّ، ومعه يومئذ جبل من خبز، وجبل من لحم، وأجناس الفواكه والخمور، ومعه أصحاب الملاهي يمشون بين يديه بالطبول والطنابير[5] والمعازِف والعيدان[6] والنايات والصُنوج[7] وغير ذلك، فلا يسمعه أحد إلا وتبعه وفَتَنه إلاّ مَن عصمه الله. ويكون معه نارٌ وجنّة، وهو يقول: مَن أطاعني أدخلته

---

(١) الزّهاء: المقدار، أو ما يقارب الشيء.
(٢) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.
(٣) مطموس العين: الذي ذهبت عينه أو شوّهت أو امّحت.
(٤) الكوكب الدرّي: الثاقب المضيء.
(٥) الطنابير: مفردها الطنبور: من آلات اللهو والطرب، ذات عنق وأوتار.
(٦) العيدان: مفردها العود وهو آلة موسيقية وتريّة يضرب عليها بريشة أو نحوها.
(٧) الصنوج: مفرد الصنج وهي صفيحة مدوّة من نحاس يضرب بها على الأخرى.

الجنّة، ومَن عصاني ولم يسجُد لي ألقيته في النار. قال: وعلامة خروجه أن تهبّ ريحٌ مثل ريح قوم عاد، وتُسمَعَ صيحةٌ عظيمةٌ مثل صيحةِ قومِ صالح، ويكونَ مَسْخٌ كمَسْخ أصحاب الرسّ[١]، وذلك عند ترك الناسِ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر. فإذا أخذوا في سَفْك الدماء وٱستحلَوا الرّبا وشيّدوا البنيان وشربوا الخمور، وٱكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك يخرج الدجال من جهة المشرق من قرية يقال لها سيراباد بين الأهواز وأصفهان، ويخرج على حمار له. قال: وهو أحمرُ الحاجبين، أشعرُ الأنف، تخرُج من خلل أسنانه رائحةٌ لا يَشَمّها أحدٌ إلاّ صار إليه نَتنه، في جبهته قرنٌ مكسور تخرج منه الحيّات والعقارب، مُحْدَوْدِب الظهر، قد صُوِّرت آلات السلاح في جسده حتى الرمح والفأس والسهم والدَّرَق[٢]. وهو يتناول السحاب بيده، ويخوض البحار إلى كعبيه، ويستظلّ في ظلّ أذُنِ حماره خلقٌ كثير من أولاد الزّنا، عليهم خِفافٌ[٣] مخروطةٌ، لخِفافهم مناقير كمناقير العِقْبان، لأصابعهم أظافير كالمناجل، ومعه قوم من السَّحَرة يقلِبون الجبال خبزًا والأنهارَ شرابًا، ولا يُطعِم ولا يَسقِي إلاّ من آمن به. ومعه صاحب لوائه من قريته ينادي بأعلى صوته: هذا ربكم فاعرِفوه. فإذا سار الدجّال سارت معه جبال طعامه وأنهار شرابه، وإذا وقف وقفت. يطوف الأرض شرقَها وغربَها حتى يدخل أرض بابِل فيلقاه الخَضِر[٤]، فيقول له الدجّال: أنا ربّ العالمين. فيقول له الخَضِر: كذبتَ يا دجّال! إنَّ ربّ العالمين ربُّ السموات والأرَضين. فيقتله الدجّال ويقول: لو كان لهذا إلٰه كما يزعم لأحياه. فيُحيِي الله الخضِر من ساعته فيقوم ويقول: ها أنا يا دجّال، قد أحياني الله ربّي. ثم يُقبِل الخَضِر على أصحابه ويقول: ويلكم! لا يفْتِننّكم هذا الكافر. ويقال: إنه يقتل الخَضر ثلاث مرّات ويُحييه الله تعالى. ثم يخرج الدجّال نحو مكة، فإذا دنا منها رأى الملائكة[٥] مُحدقين بالبيت الحرام قد نشروا أجنحتَهم على الكعبة، يخرُج من خَلَل

---

(١) أصحاب الرّس: قال السدّي: كانوا بقيّة قوم ثمود، وهم أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد اللذين ذكرهما القرآن الكريم، وقال الكسائي أصحاب الرّس: كانوا بأرض حضرموت ومدينتهم تسمّى الرّس، وكانت ذات أشجار وأثمار وقرى، يسكن بها طائفة من أصحاب الرّس يعبدون الأصنام وطائفة يعبدون النار «بدائع الزهور: ١٢٠».

(٢) الدّرق: مفردها الدّرقة، وهي الترس من جلد يتّقي فيه المقاتل ضربات السيوف.

(٣) الخفاف: مفردها خفّ: وهو الحذاء، والخف: هو للجمل ونحوه بمنزلة الحافر للفرس.

(٤) الخضر: هو العبد الصالح الذي ذكره القرآن الكريم ونبيّ الله موسى عليه السلام في سورة «الكهف».

(٥) في الأصل: ينظر إلى الملائكة، والتصويب عن الكسائي.

أجنحتهم مثلُ شَرَ النِّيران، فلا يقدر على دخولها. ثم يسير إلى المدينة فيجدها كذلك. ثم يمضي إلى بيت المَقْدِس فلا يقدر على دخوله لكثرة مَن حوله من الملائكة. واُختُلف في مدّة إقامته في الأرض، فقيل أربعين سنة، وقيل أربعين يومًا، على ما نورد ذلك من الحديث الصحيح النبويّ الذي يشمَل ذكر هذه الفتن كلها.
قال: وأمّا المسلمون فإنهم يصومون ويصلُّون كما كانوا غير أنهم في غمّ، قد تركوا المساجد ولزموا البيوت، وتطلُع الشمس متلوّنة: مرّة بيضاء، ومرّة صفراء، ومرّة حمراء، ومرّة سوداء، وتكون الأرض في الزلزلة والرجفة[١]، ثم يكون بينه وبين المهديّ ما قدّمنا، ثم ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام.

الباب الثاني من التذييل
على القسم الثالث من الفنّ الخامس
في خبر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وقتله الدجّال وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام

لمّا رأيت أهل السِّيَر قد أكثروا من القول في نزول عيسى عليه السلام وزادوا في القول ونقصوا منه، عدلت عن أقوالهم، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث الصحيح النبويّ، وكذلك خروج يأجوج ومأْجوج وهلاكهم. وختمتُ هذا الباب بالحديث الشامل في خروج الدجّال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام وغير ذلك. وهذه الأحاديث خرّجتها من كتاب السُّنَن للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوِيني، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

ذكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام

قال رسول الله ﷺ، وقد ذكر فتنة الدجّال وما يلاقيه الناس منه، قال: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى ابنَ مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين

---

(١) الرجفة: الزلزلة.

مَهْرُودَتَيْن[١] واضعٌ[٢] كفّيه على أجنحة مَلَكَيْن، إذا طأطأ رأسه قَطَر[٣]، وإذا رفع رأسه يتحدر منه جُمان[٤] كاللؤلؤ، ولا يحلّ لكافر أن يجد ريحَ نَفسِه إلاّ مات. ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه[٥]، فينطلق حتى يدرك الدجّال فيقتله عند باب لُد»[٦]. قال: «ثم يأتي نبيّ الله عيسى عليه السلام قومًا قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة». والله أعلم.

ذكر خبر يأجوج ومأجوج

صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ يأجوج ومأجوج لَيَحْفِرون السدّ كلّ يوم حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال الذي عليهم ارجِعوا فستحفِرونه غدًا فيعيده الله عزّ وجل أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم إلى الناس حفَروا حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال ارجِعوا فستحفِرونه غدًا إن شاء الله واْستثنَوْا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفِرونه ويخرجون على الأرض فيَنْشَفُون المياه ويتحصّن الناس منهم في حصونهم فيرمُون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليهم الدم الذي أجْفط[٧] فيقولون قهَرْنا أهلَ الأرض وعلَوْنا أهلَ السماء فيبعث الله عليهم نَغَفًا[٨] في أقفائهم فيقتلهم بها». قال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنّ دوابّ الأرض لتسمَن وتشكر[٩] شكرًا من لحومهم ودمائهم». وفي الحديث الآخر: «إنّ الله تعالى يُوحِي إلى عيسى أنّي قد أخرجتُ عبادًا لي لا يَدَانِ[١٠] لأحدٍ بقتالهم فاحْرُزْ عبادي إلى

---

(١) بين مهرودتين: أي بين حلّتين شبيهتين بالهرد، والهرد بالضمّ: عروق يصبغ بها، وهو الزعفران أو الكركم الأصفر، وهو عروق ذات صبغ أصفر.

(٢) كذا في سنن ابن ماجه، وفي الترمذي «واضعًا» بالنصب وهو الظاهر، والرّفع على تقدير مبتدأ محذوف أي «وهو واضعٌ».

(٣) قطر: لعلّه سال منه القطر وهو الماء.

(٤) الجمان: اللؤلؤ، أو حبٌّ يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ.

(٥) الطّرف: النظر.

(٦) لدّ: بضم اللاّم وتشديد الدال، قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يُدرك عيسى ابن مريم عليه السلام الدجّال فيقتله «معجم البلدان ٥/ ١٥».

(٧) أجفط: أنتن.

(٨) النّغف: الدود.

(٩) تشكر: تسمن، يقال: شكرت الدّابة إذا سمنت.

(١٠) لا يدان لأحدٍ بقتالهم: أي لا يستطيع أحد أن يقاتلهم أو ينال منهم.

الطور[(١)]. ويبعث الله يأجُوج ومأجُوج وهم كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] فيمرّ أوائلهم على بُحَيرة طَبَريّة فيشربون ما فيها ثم يمرّ آخرهم فيقولون لقد كان في هذا ماء مرّةً وَلَيُحْصَرُ نبيّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغَب نبيّ الله عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجل فيُرسِل الله عليهم النغفَ في رقابهم فيصبَحون فَرَسَي[(٢)] كموت نفسٍ واحدةٍ ويهبط نبيّ الله عيسى وأصحابُه فلا يجدون موضع شِبْرٍ إلاّ قد ملأه زهَمُهُم[(٣)] ونَتَنه ودماؤهم فيرغبون إلى الله عزّ وجل فيُرسِل عليه طيرًا كأعناق البُخْت[(٤)] فتحملهم فتطرحُهم حيث شاء الله عزّ وجل. ثم يُرسِل [عليهم][(٥)] مطرًا لا يَكُنّ[(٦)] منه بيتُ مَدَرٍ[(٧)] ولا وبرٍ فيغسِله حتى يتركه كالّلفَة[(٨)]، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردّي بركتك، فيومئذ تأكل العِصابة من الرمّانة فتُشبعهم ويستظلّون بقِحْفها[(٩)]، ويبارك الله في الرِّسْل[(١٠)] حتى إن اللّقْحة[(١١)] من الإبل تَكفِي الفِئام[(١٢)] من الناس، واللّقْحة من البقر تَكفِي القبيلة، واللقحة من الغَنَم تكفِي الفَخِذ[(١٣)]. فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحًا طيّبة فتأخذ تحت آباطهم فتقِض رُوحَ كلّ مسلم ويبقَى سائر الناس يتهارَجُون[(١٤)] كما يتهارج الخمرُ، فعليهم تقوم الساعة». وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود[(١٥)] رضي الله عنه قال: «لمّا كان ليلةُ أُسْرِيَ برسول الله ﷺ لقِيَ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا[(١٦)]

---

(١) الطور: في كلام العرب: الجبل، ويقال لجميع بلاد الشام الطور، وفي مصر عند موضع يسمى مَدين جبل يسمّى الطور، وعليه كان الخطاب الثاني لموسى عليه السلام.

(٢) فَرْس: أي قتلى، وفرس الذئب الشاة: قتلها «معجم البلدان ٤/٤٧».

(٣) الزّهم: الريح المنتنة.

(٤) البُخت: الإبل الخراسانيّة.

(٥) زيادة عن سنن ابن ماجه.

(٦) يكنّ: يستر أو يحجب.

(٧) بيت مدر: أي بيتٌ مبنيٌّ من الطين اللّزج المتماسك.

(٨) الزّلفة: الصخرة الملساء، والمرآة، والصدفة.

(٩) القحف: من الرّمانة قشرها.

(١٠) الرِّسل: اللبن.

(١١) اللقحة: الناقة القريبة العهد بالنّتاج.

(١٢) الفئام: الجماعة الكثير من الناس، لا واحد له من لفظه.

(١٣) الفَخِذ: هو دُون القبيلة وفوق البطن.

(١٤) يتهارجون: يتسافدون.

(١٥) هو عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمٰن، صحابيّ من السابقين كان خادم رسول الله وصاحب سرّه ورفيقه في حلّه وترحاله، نظر إليه عمر يومًا وقال: وعاءٌ ملىء علمًا، كان قصيرًا جدًا، وكان يكثر من التطيّب، توفي في الكوفة عن ستين عامًا وذلك سنة ٣٢هـ «الأعلام ٤/١٣٧».

(١٦) تذاكروا الساعة: استحضروا ما يعرفونه عنها.

الساعة فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علمٌ، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علمٌ، فردّ الحديث إلى عيسى ابن مريم فقال قد عُهد إليّ فيما دونَ وَجْبتها[1]، فأمّا وَجْبتها فلا يعلمها إلاّ الله، فذكر خروجَ الدجّال قال فأنْزلُ فأقتُله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوجُ ومأجوجُ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ[2] يَنسِلُونَ﴾[3] [الأنبياء: ٩٦] فلا يمرّون بماء إلاّ شربوه ولا بشيء إلاّ أفسدوه، فيجثرون[4] إلى الله تعالى فأدعو الله أن يميتهم فتَنتِن الأرض من رِيحِهم، فيجأرون إلى الله فأدعو الله فيُرسِل السماءَ بالماء فيحملهم فيُلقيهم في البحر ثم تُنسَف الجبال وتُمَدّ الأرض مدّ الأدِيم[5] فعُهِد إليّ متى كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل لا يدري أهلُها متى تَفْجَأهم بولادتها». قال العوّام بن حَوْشَب[6] وهو من رواة هذا الحديث: ووُجد تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]. وفي الحديث الآخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُفْتَح يأجوجُ ومأجوجُ فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعمُّون الأرض وينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقيّة المسلمين في مدائنهم وحصونهم ويضمُّون إليهم مواشِيَهم، حتى إنهم ليمرّون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئًا، فيمرّ آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرّةً ماء، ويَظْهَرون على الأرض، فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولَنُنازِلَنَ أهلَ السماءِ، حتى إنّ أحدهم لَيَهُزّ حَرْبته[7] إلى السماء فترجع مخضَّبةً بالدم، فيقولون قد قتلنا أهل السماء. فبينما هم كذلك إذ بعث الله دوابّ كنغَف[8] الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضًا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حِسًّا، فيقولون مَن رجُلٌ يَشْري نفسه وينظر ما فعلوا، فينزِل منهم رجُلٌ قد وطَّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتَى، فيناديهم ألاَ

---

(١) وجبتها: قيامها أو موعدها.

(٢) الحدب: ما ارتفع وغلظ من الأرض.

(٣) ينسلون: يسرعون.

(٤) يجثرون: يستغيثون ويضرعون بصوت عالٍ.

(٥) الأديم: البساط من جلد.

(٦) هو العوّام بن حوشب الواسطي، أحد الأعلام، محدّث ثقة له نحو مائتي حديث، توفي سنة ١٤٨هـ «الكاشف ٢/ ٣٠٥».

(٧) الحربة: آلة قصيرة من الحديد، محدّدة الرأس، تستعمل في الحرب.

(٨) النغف: الدود، والجراد: نوعٌ من الحشرات يأكل نبات الأرض.

أبْشِروا فقد هلك عدوّكم، فيخرج الناس ويُخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رِعْيٌ إلاّ لحومهم فتَشكَر[١] عليها كأحسن ما شَكِرَت من نابتٍ أصابته قطّ». وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيُوقِد المسلمون من قِسِيّ يأجوج ومأجوج ونُشّابهم وأتْرِستهم سبعَ سنين» والله المعين.

الحديث الجامع لأخبار عيسى ابن مريم عليه السلام والدجّال

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْويني في سِنَنه: حدّثنا عليّ بن محمد قال حدّثنا عبد الرحمٰن المُحارِبيّ[٢] عن إسماعيل بن رافع أبي رافع[٣] عن أبي زُرْعة السَّيبانيّ[٤] يحيى بن أبي عمرو عن أبي أُمامة الباهليّ[٥] قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثًا حدَّثَناه عن الدجّال وحذَّرَناه، فكان من قوله أن قال: «إنه لم تكن فتنةٌ في الأرض مُنذ ذرأ[٦] الله ذريّة آدم ﷺ أعظم من فتنة الدجّال، وإنّ الله عزّ وجل لم يبعث نبيًا إلاّ حذّر أمّته الدجّال. وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارجٌ فيكم لا محالةَ. فإن يخرُج وأنا بين ظَهْرانَيْكم فأنا حَجِيجٌ[٧] لكلّ مسلم، وإن يخرُج من بعدي فكلّ أمرىء حجيج نفسِه، والله خليفتي على كل مسلم. وإنه يخرُج من حِلّة[٨] بين الشام والعراق فيَعِيث[٩] يمينًا ويَعِيث شمالاً يا عباد الله فأثبتوا فإنّي سأصفه لكم صفةً لم يصفها إيّاه نبيّ قبلي: إنه يبدأ فيقول أنا نبيّ، ولا

---

(١) تشكر عليها: أي تسمن من أكلها.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن محمّد المحاربي، أبو محمّد الحافظ، محدّث ثقة، توفي سنة ١٩٥هـ «الكاشف ٢/ ١٦٣».

(٣) هو إسماعيل بن رافع المدني، القاصّ، محدّث ضعيف واهٍ، «الكاشف ١/ ٧٢».

(٤) أبو زرعة السّيباني: هو يحيى بن أبي عمر السيباني، أبو زرعة الشامي محدّث ثقة عاش خمسًا وثمانين سنة، توفي سنة ١٤٨هـ «الكاشف ٣/ ٢٣٢».

(٥) أبو أمامة الباهلي: هو صديّ بن عجلان بن وهب الباهلي، صحابيّ كان مع الإمام عليّ في صفّين، سكن الشام، ومات في حمص سنة ٨١هـ وهو آخر من مات من الصحابة بأرض الشام «الأعلام ٣/ ٢٠٣».

(٦) ذرأ: خلق.

(٧) حجيج لكلّ مسلم: أي ضامن ومدافع وعون.

(٨) حلّة: علم لعدّة مواضع، وأشهرها حلّة بني مزيد مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، والحلّة في اللغة: القوم النزول وفيهم كثرة «انظر معجم البلدان ٢/ ٢٩٤».

(٩) يعيث: يفسد.

نبيّ بعدي، ثم يثنّي فيقول أنا ربكم، ولا تَرَوْن ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور وإنّ ربكم عزّ وجل ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب. وإنّ من فتنته أنّ معه جنةً ونارًا، فناره جنةٌ، وجنته نارٌ. فمن ابتُلِي بنَاره فليستغِثْ بالله وليقرأ فواتح الكهف[١] فتكون عليه بَرْدًا وسلامًا كما كانت النار على إبراهيم. وإنّ من فتنته أن يقول لأعرابيّ أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمّك أتشهد أنّي ربّك فيقول نعم، فيتمثّل له شيطانان في صورة أبيه وأمّه فيقولان يا بنيّ اتبعه فإنه ربك. وإنّ من فتنته أن يسلَّط على نفس واحدةٍ فيقتلها وينشُرها بالمنشار حتى تُلقيَ شِقَّين، ثم يقول انظروا إلى عبدي هذا فإنّي أبعثه الآن، ثم يزعم أنّ له ربًّا غيري، فيبعثه الله ويقول له الخبيثُ مَن ربّك؟ فيقول ربّي الله وأنتَ عدوّ الله أنتَ الدجّال، والله ما كنتُ بعدُ أشدّ بصيرةً بك منّي اليوم». قال أبو الحسن الطَّنافِسِيّ فحدثنا المُحَارِبيّ حدّثنا عُبَيد الله بن الوليد الوَصّافِيّ عن عطيّة[٢] عن أبي سَعِيد[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك الرجلُ أرفعُ أمّتي درجةً في الجنة». قال قال أبو سَعِيد: والله ما كنّا نرى ذلك الرجل إلاّ عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله. قال المُحارِبيّ ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: «وإنّ من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر، ويأمرَ الأرض أن تُنبِت فتُنبِت. وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحيّ فيكذّبونه فلا تَبقَى لهم سائمةٌ[٤] إلاّ هلكت. وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحيّ فيصدّقونه فيأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر ويأمر الأرض أن تُنبِت فتُنبِت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمنَ ما كانت وأعظَمَه وأمدَّه خواصرَ وأدَرَّه ضروعًا. وإنه لا يَبقَى شيءٌ من الأرض إلاّ وطِئه وظهر عليه إلاّ مكة والمدينة لا يأتيهما من نَقْب[٥] من نقابهما إلاّ لَقِيَتْه الملائكة بالسيوف صَلْتةً[٦] حتى ينزل عند الظَّرِيب[٧] الأحمر عند مُنْقَطَع السَّبَخة[٨] فترجُف المدينة بأهلها ثلاث

(١) فواتح الكهف: لعلّ المقصود الآيات الأولى من سورة الكهف.

(٢) هو عطيّة بن سعد العوفي، أبو الحسن محدّث مات سنة ١١١هـ «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

(٣) لعلّه أبو سعيد بن المعلّى الأنصاري صحابيّ توفي سنة ٧٣هـ «الكاشف ٣/ ٣٠٠».

(٤) السائمة: كلّ إبل أو ماشية ترسل للرّعي دون أن تعلف.

(٥) النّقب: الطريق بين الجبلين.

(٦) صلته: أي مجرّدة، يقال: أصلت السيف: شهره وجرّده من غمده.

(٧) قوله: (حتى ينزل عند الظريب الأحمر) ضبط [الظَّرِيب] كقتيل وصوابه [الظُّرَيب] تصغير [ظرب] على وزن كتف بمعنى الجبل الصغير كما في النهاية لابن الأثير.

(٨) السبخة: أرضٌ ذات ملح ونزّ لا تكاد تنبت.

رَجَفات فلا يبقَى منافق ولا مُنافقة إلاّ خرج إليه، فتنفي الخَبَث منها كما ينفي الكِيرُ[١] خَبَث الحديد، ويُدعَى ذلك اليوم يومَ الخلاص. فقالت أمّ شَرِيك بنت[٢] أبي العَكِر يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال هم يومئذ قليلٌ وجلّهم ببيت المقدس وإمامهم رجلٌ صالح. فبينما إمامهم قد تقدّم يصلّي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام الصبحَ، فرجع ذلك الإمام ينكص (يمشي القهقرى) ليتقدّم عيسى عليه السلام يصلّي بالناس، فيضع عليه السلام يديه بين كتفيه ثم يقول له تقدّم فصلِّ فإنها لك أُقيمت فيصلّي بهم إمامهم، فإذا ٱنصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب[٣] فيُفتَح ووراءه الدجّال ومعه سبعون ألف يهوديّ كلهم ذو سيف محلًّى وساج[٤]، فإذا نظر إليه الدجّال ذاب كما يذوب المِلح في الماء فينطلق هاربًا، ويقول عيسى عليه السلام إنّ لي فيك ضربةً لن تسبقني بها فيدركُه عند باب اللُّدّ[٥] الشرقيّ فيقتله فيهزم الله اليهود فلا يبقَى شيء مما خلق الله عزّ وجل يتوارى به يهوديّ إلا أنطق الله ذلك الشيء لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابّةٌ إلاّ الغَرْقدة[٦] فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال يا عبد الله المسلم هذا يهوديّ فتعالَ اقتُله. قال رسول الله ﷺ وإنّ أيامه أربعون سنةً، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشَرَرة يُصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلُغ بابَها الآخر حتى يُمسِي. فقيل له يا رسول الله كيف نُصَلّي في تلك الأيام القِصَار؟ قال تقدّرون فيها الصلاة كما تقدّرونها في هذه الأيام الطِّوال ثم صلّوا. قال رسول الله ﷺ فيكون عيسى ابن مريم في أُمّتي حَكَمًا عَدْلاً وإمامًا مُقْسِطًا[٧]، يدُقّ الصليب[٨]، ويذبح[٩] الخنزير، ويضع[١٠]

---

(١) الكير: جهاز من جلد أو نحوه، يستخدمه الحدّاد وغيره للنفخ في النار لإشعالها، جمعه أكيار وكيرة.

(٢) كذا في الأصول وهو خطأ، والصواب أن أمّ شريك هذه هي بنت دودان بن عمرو بن عامر بن رواحة الدوسيّة، وكانت تحت أبي العكر الدّوسي واسمها غزية، من المهاجرات «انظر أسد الغابة ٥/ ٥٩٤».

(٣) المراد باب المسجد. (٤) السّاج: الطيلسان الأخضر.

(٥) باب اللُّد: أي مدخل مدينة اللُّد بفلسطين، تقدّم ذكرها وتعريفها.

(٦) الغرقدة: ضرب من شجر العضاه. (٧) المقسط: العادل.

(٨) يدقّ الصليب: يكسره.

(٩) يذبح الخنزير: أي يحرّم أكله، أو يقتله بحيث يفنيه من الأرض.

(١٠) يضع الجزية: أي لا يقبلها من أحد من الكفرة، بل يدعوهم إلى الإسلام وهذا بيان منه ﷺ بأنّ الجزية في دينه إلى زمان عيسى عليه السلام، لا أن عيسى يقوم بنسخها.

الجزْية، ويترك الصدقة[١] فلا يُسعَى على شاة ولا بعير، وتُرفَع الشحناء[٢] والتباغُض، وتُنزَع حُمَة[٣] كلّ ذاتِ حُمَة حتّى يُدخِل الوليد يده في فيّ[٤] الحيّة فلا تضرّه، وتفُرّ[٥] الوليدةُ الأسدَ فلا يضرّها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتُملأ الأرضُ من السِّلْم كما يُملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبَد إلاّ الله، وتَضَع الحرب أوزارها، وتُسْلَب قريشٌ مُلْكَها، وتكون الأرض كما ثور الفضّة - وقيل كفاثور[٦] الفضة - تُنبِت نباتَها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القِطْف[٧] من العِنب فيُشبِعُهم، ويجتمع النفر على الرمّانة فتُشبِعُهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بالدُّرَيهمات. قالوا يا رسول الله: وما يُرخِّص الفرس؟ قال: لا يُركَب لحرب أبدًا. قيل له: فما يُغلي الثور؟ قال تُحرَثُ الأرض كلُّها. وإن قبلَ خروج الدجّال ثلاثَ سنوات شِدَاد يصيب الناس فيها جوعٌ شديدٌ، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تَحبِس ثُلث مطرها ويأمر الأرض فتَحبِس ثُلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتَحبِس ثُلثَيْ مطرها ويأمر الأض فتحبِس ثُلثَيْ نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتَحبِس مطرها كلّه فلا تقطُر قطرة ويأمر الأرض فتَحبِس نباتها كلّه فلا تُنبت خَضِرًا، ولا تبقَى ذاتُ ظِلْف[٨] إلاّ هلكت إلاّ ما شاء الله عزّ وجل. قيل: فما يُعِيش الناسَ في ذلك الزمان؟ قال: التهليل[٩] والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مَجرى الطعام». قال المُحارِبيّ[١٠]: ينبغي أن يُدْفَع هذا الحديث إلى المؤدّب حتى يعلّمه الصبيان في المكاتب.

---

(١) يترك الصدقة: أي يترك الزكاة لكثرة الأموال.

(٢) الشحناء: العداوة والبغضاء.

(٣) الحمّة: السمّ، أو اللسعة التي تسبّب السمّ في البدن.

(٤) في الحيّة: أي فمها.

(٥) تفرّ: أي تفتح فمه لترى أسنانه.

(٦) الفاثور: الخوان من رخام أو طست أو جام من ذهب أو فضة.

(٧) القطف: العنقود.

(٨) ذات الظلف: من الأبقار والماشية.

(٩) التهليل: القول: لا إلّه إلا الله.

(١٠) المحاربي: هو عبد الرحمٰن بن محمّد المحاربي، الحافظ محدّث ثقة توفي سنة ١٩٥هـ «الكاشف ٢/ ١٦٣».

الباب الثالث من التذييل
على القسم الثالث من الفنّ الخامس
في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم عليه السلام
إلى أن ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى

ذكر خروج الدابّة وطلوع الشمس من مغربها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تخرُج الدابّة ومعها خاتَمُ سليمان بن داود وعصا موسى بن عِمْران، فتجلو[١] وجه المؤمن بالعصا، وتَخْطِم[٢] أنفَ الكافر بالخاتَم، حتى إنّ أهل الحِواء[٣] ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر». وعن عبد الله بن بُرَيدةَ[٤] عن أبيه رضي الله عنهما قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرضٌ يابسةٌ حولها رملٌ، فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابّة من هذا الموضع» فإذا فتْرٌ[٥] في شِبرٍ. قال ابن بُرَيدة: فحججتُ بعد ذلك بسنين فأرانا عصًا له، فإذا هي أشبه بعصاي هذه كذا وكذا. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلُع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن مَن عليها؛ فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّلُ الآيات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة على الناس ضُحًى». قال عبد الله: فأيّتهما ما خرجت قبل الأخرى فالأخرى منها قريبٌ. قال عبد الله: ولا أظنها إلاّ طلوع الشمس من مغربها. وعن رسول الله ﷺ: «إنّ من قِبَل مغرب الشمس بابًا مفتوحًا عَرْضُه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحًا للتوبة حتى تطلُعَ الشمس من نحوه، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسٌ إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا». والله الهادي للصواب.

---

(١) تجلوا وجه المؤمن: أي تنوّره.

(٢) تخطم أنف الكافر: تسمه، يقال: خُطم البعير: إذا كُوي خطا من الأنف إلى أحد خديه.

(٣) الحواء: بيوت مجتمعة من الناس على ماء.

(٤) هو عبد الله بن بُريدة، قاضي مرو وعالمها، محدّث ثقة، ولد عام اليرموك وعاش مائة سنة توفي سنة ١٢٥هـ «الكاشف ٢/٦٦».

(٥) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتهما.

ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال صاحبُ الصُور مذ وُكِّل به مُستعدًّا ينظر نحو العَرْش إلى أن يُؤمَرَ فينفُخ قبل أن يرتدّ إليه طَرْفه كأنّ عينَيْه كوكبان دُرّيان». وسُئل رسول الله ﷺ ما الصُور؟ فقال: «قَرْنٌ يُنفَخ فيه». وعنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩] قال: «الصور كهيئة القَرْن». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ تكون بينهما مَقْتلةٌ عظيمةٌ دَعْوَتُهما واحدةٌ، وحتّى يُبعَثَ دجّالون كذّابون قريبٌ من ثلاثين كلّهم يزعُم أنه رسول الله، وحتّى يُقبَضَ[1] العلمُ وتكثُرَ الزلازلُ ويتقارَبَ الزمانُ وتَظهَرَ الفِتَنُ ويكثُرَ الهَرْج، وهو القتل، وحتّى يكثُرَ فيكم المالُ فيَفِيضَ حتّى يَهِمّ ربَّ المال مَن يَقبَلُ صَدَقَتَه، وحتّى يَعرِضَه فيقولَ الذي يَعرِضُه عليه لا أرَب لي[2] به، وحتّى يتطاوَلَ الناسُ في البُنيان، وحتى يمُرّ الرّجُلُ بقبر الرّجُلِ فيقول يا ليتني مكانَه، وحتّى تطلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجُلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْويانه. وَلتقُومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبَن لِقْحَتِهِ[3] فلا يَطْعَمُه، وَلَتَقُومَنّ السَّاعةُ وهو يلِيطُ[4] حَوْضَه فلا يَسْقِي فيه. وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد رَفَعَ أُكْلَتَه إلى فِيهِ فلا يَطعَمُها». هذا من صحيح البخاري. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وذكر خبر الدجّال وقتله قال: «. . . . ثم يمكُث الناسُ سَبْعَ سِنينَ ليس بين اثنين عداوةٌ. ثم يرسلِ الله عزّ وجل ريحًا باردةً من قِبَل الشأم فلا يَبقَى على وجه الأرضِ أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرّة من خير أو إيمان إلا قَبَضَتْه، حتّى لو أنّ أحدَكم دخل في كَبِد جَبَلٍ لَدخلتْه عليه حتى تَقبِضَه. قال فيبقَى شرارُ الناسِ في خِفّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباع لا يعرفون معروفًا ولا يُنكرون مُنكرًا، فيتمثّلُ لهم الشيطانُ فيقول ألاَ تستجيبون! فيقولون فما تأمُرُنا؟ فيأمُرُهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقُهُم[5] حَسَنٌ عيشُهُم، ثم يُنفَخُ في الصُور فلا يَسمعُه أحدٌ إلاّ أصغَى لِيتًا[6] وَرَفَعَ لِيتًا. قال وأوّلُ مَن يسمعُهُ رجلٌ

---

(١) يقبض العلم: يزول من الناس، أو يُمسك.

(٢) لا أرب لي به: أي لا حاجة لي به. (٣) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٤) يليط الحوض: يطيّنه ويصلحه، يقال: لاط الحوض يليط ويلوط.

(٥) دارٌّ رزقهم: أي كثير.

(٦) اللّيت: صفحة العنق، وأصغى ليتًا: أي خفض.

يَلُوطُ(١) حوضَ إبلِهِ، قال فيَصعَقُ(٢) ويصعَقُ الناسُ، ثم يُرسِلُ اللّهُ ـ أو قال يُنزِلُ اللّهُ ـ مطرًا كأنه الطَّلّ(٣) أو الظِّلّ ـ الشكّ من الراوي ـ فتُنبتُ منه أجسادُ الناسِ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ثم يقال يأيُها الناسُ هَلُمُّوا إلى ربّكم». ويروى أن هذا المطر الذي تنبت منه الأجساد كمنيّ الرجال.

الباب الرابع
من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس
في أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد
والنفخة الثانية في الصور

ذكر يوم القيامة وأسمائه

هو اليوم الذي وصفه الله عزّ وجل بالعظمة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢]. ووصفه الله بالطُّول فقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٤ ـ ٥].

وليوم القيامة أسماءٌ جاء بها القرآن، وقد ذكرها عبد الحقّ في كتاب العاقبة فقال: «يوم القيامة وما أدراك ما يومِ القيامة! يوم الحَسْرة والندامة، يوم يجد كلّ عامل عمله أمامه، يوم الدمدمة(٤)، يوم الزلزلة، يوم الصاعقة، يوم الواقعة، يوم الراجفة، يوم الرادفة، يوم الغاشية، يوم الداهية، يوم الآزفة(٥)، يوم الحاقّة، يوم الطامّة، يوم الصاخّة(٦)، يوم التَّلاق، يوم الفراق، يوم الميثاق، يوم الانشقاق، يوم القِصاص، يوم لات حين مناص(٧)، يوم التَّنادِ، يوم الأشهاد، يوم الميعاد، يوم المآب، يوم العذاب، يوم الفِرار، يوم القَرار، يوم المِرْصاد، يوم السائلة، يوم المناقشة، يوم الحساب، يوم القضاء، يوم الجزاء، يوم البكاء، يوم البلاء، يوم تَمُور(٨) السماء مَوْرًا

(١) يلوط: يطيّن. (٢) يصعق: يموت ويهلك.
(٣) الطلّ: المطر الخفيف يكون له أثر قليل، أو النّدى.
(٤) الدمدمة: الطحن والهلاك، أو الإطباق. (٥) الآزفة: القيامة، وأزف الوقت: قرُب.
(٦) الصاخة: الداهية والمصيبة.
(٧) لات حين مناص: أي لات الحين وقت مهرب ونجاة.
(٨) تمور: تضطرب وتثور.

وتسيير الجبال سيرًا، يوم الحشر، يوم النشر، يوم الجمع، يوم البَعْث، يوم العَرْض، يوم الوَزْن، يوم الحقّ، يوم الحُكْم، يوم الفصل، يوم الخِزْي، يومٌ عقيمٌ، يومٌ عظيمٌ، يومٌ عَسِير، يومٌ عَبُوس، يومٌ قمطرير[١]، يوم النشور، يوم المصير، يوم الدِّين، يوم اليقين، يوم النفخة، يوم الصَّيْحة، يوم الرَّجْفة، يوم الرجّة، يوم الزجرة، يوم الشدّة، يوم الفَزَع، يوم الجَزَع، يوم القَلَق، يوم العَرَق، يوم الميقات، يوم تخرج الأموات وتظهر المخبآت، يوم الإشفاق، يوم الانشقاق، يوم الانكدار، يوم الانتشار، يوم الانفطار، يوم الافتقار، يوم الوقوف، يوم الانصداع، يوم الانقطاع، يومٌ معلوم، يومٌ موعود، يومٌ مشهود، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩] يوم تُخْرَج الضمائر، يوم ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩] يوم يُدْعَى فيه إلى النار، يوم تُسْجَر[٢] فيه النار، يوم تُقَلَّبُ فيه الوجوه في النار، يوم البروز فيه إلى الله، يوم الصُّدور إلى الله، يوم لا تنفع المعذرة، يوم لا يرجى إلاّ المغفرة. قال: وأهول أسمائه وأشنع ألقابه: يوم الخلود، يومٌ لا انقطاعَ لعذابه، ولا آخرَ لعقابه، ولا يكشف عن كافر ما به. نعوذ بالله من غضبه وبلائه، برحمته وآلائه[٣]. والله معين العاجزين.

ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية

جاء في بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. قال: ثم يأمر الله ملك الموت أن يقبض رُوح جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم يأمر ملك الموت أن يموت فيموت ولا يبقى إلا الله، فينادي جلّ جلاله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ثم يمكث الناس في البَرْزَخ[٤] أربعين عامًا، ثم يحيي الله عزّ وجل إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأكل الترابُ كلّ شيء من الإنسان إلاّ

---

(١) يومٌ قمطرير: أي شديد.

(٢) تبلى السّرائر: تختبر، والسّرائر: ما كان في الدُّنيا مستخفيًا عن أعين الناس، أو كل ما أضمره الإنسان من إيمان أو كفر، واستسرّه من خير أو سر.

(٣) تسجر: توقد.

(٤) البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى القيامة.

عجْبَ الذَّنب»[١]. قيل: يا رسول الله، وما هو؟ قيل: «مثل حبّة خَرْدَل ومنه ينشأ». وفي الحديث الآخر: «ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبُتُون كما ينبُت البقل»[٢]. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله وعزتي وجلالي لَيرجعنّ كلُّ رُوح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجسام، فتدخل في الخياشيم ثم تمشي مَشْيَ السمّ في اللّدِيغ». قال: «وتجتمع الأرواح كلها في الصُّور، ثم ينفخ إسرافيل فيه فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأتْ ما بين السماء والأرض، ثم تدخل في الأجساد» كما تقدّم. وفي الحديث الصحيح أنّ عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، كيف يُحشَر الناس يوم القيامة؟ قال: «حُفَاةً عُرَاةً». قالت: يا رسول الله، والنساء؟ قال: «والنساء». قالت: يا رسول الله، فما نستحيي؟ قال: «يا عائشة الأمر أهمّ من أن ينظُر بعضُهم إلى بعض». وعن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات، فأمّا عَرْضتان فَجدالٌ ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشِماله».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦] قال: «يقوم أحدهم في رَشَحه[٣] إلى أنصاف أُذُنَيه وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١١ ـ ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الأوّلين والآخِرين في صعيدٍ[٤] واحد فيُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذهم البصر» يريد أرضًا مستويةً لا جبلَ فيها ولا أكَمَة ولا رَبْوة ولا وَهْدَة[٥]، أرضٌ بيضاء لم يُسْفَك عليها دمٌ قطّ، ولا عُمِلَ عليها خطيئةٌ ولا ارْتُكِب فيها محرّمٌ. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وفي حديث ثَوْبان[٦]: أن النبيّ ﷺ سُئل أين يكون الناس يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «هم في الظُّلمة دون الْجِسر» والجسر هو الصراط. وفي حديث عائشة «إنهم على الصراط». قال الله عزّ وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ [طه: ١٠٣] أي يقول

---

(١) عَجْب الذنب: العظم الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص.

(٢) البقل: نبات عشبي يؤكل. (٣) الرّشح: العرق.

(٤) الصعيد: الموضع الواسع العريض، أو المرتفع من الأرض.

(٥) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٦) ثوبان: هو ثوبان بن يجدد، أبو عبد الله، مولى رسول الله ﷺ، أصله من أهل السّراة بين مكة واليمن، اشتراه النبيّ وأعتقه خدم النبيّ حتى وفاته ﷺ، توفي في حمص سنة ٥٤هـ «الكاشف ١/ ١١٩».

بعضهم لبعض سرًّا، فيقول أعدلهم قولاً وأرجحهم عقلاً: إن لبثتم إلا يومًا. قال الله عزّ وجل: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٤]. ورُوي عن مجاهد أنه قال: للكفّار هَجْعةٌ[١] قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا بُعِثُوا قالوا: يا ويلَنا مَنْ بَعَثَنا من مَرْقَدِنا! فتخرج الخلائق مذعورين خائفين وَجِلِين، وإذا المنادي يادي: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]، فيطمع في ذلك النداء المؤمنون والكافرون، فينادي المنادي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَر الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصناف رُكبانًا ومُشاةً وعلى وجوههم». قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم أمَا إنهم يتّقون بوجوههم كلّ حَدَب[٢] وشَوْك». وفي حديث مسلم بن الحجّاج[٣] عن أنس[٤] أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحْشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رِجْليه في الدنيا قادرًا على أن يُمْشِيَه على وجهه يومَ القيامة». والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جدًّا لو استقصيناها لطال الكلام وانبسط القول، وخرج التأليف عن شرطه الذي قدّمناه، فلنختم هذا الباب بحديث لَقِيط بن عامر العُقَيليّ[٥] فإنه حديث جامع لأكثر ما في هذا الباب.

حديث لَقِيط بن عامر

قال أبو بكر بن أبي خَيْثمة بإسناده إلى لَقِيط بن عامر العُقَيليّ قال: خرجتُ أنا وصاحب[٦] لي حتى قَدِمْنا على رسول الله ﷺ المدينةَ لانسلاخ رجب، فأتينا رسول الله ﷺ، فوافيناه[٧] حين انصرف من صلاة الغداة فقام [في الناس][٨] خطيبًا

---

(١) الهجعة: النومة الخفيفة من أوّل الليل.

(٢) الحدب: ما ارتفع من الأرض وغلُظ.

(٣) هو مسلم بن الحجّاج أبو الحسين القشيري الحافظ، صاحب الصحيح، قيل ولد سنة ٢٠٤هـ مات في رجب سنة ٢٦١هـ «الكاشف ٣/ ١٢٣».

(٤) أنس: هو أنس بن مالك الصحابي، صاحب رسول الله وخادمه، توفي سنة ٩٣هـ، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة «الكاشف ١/ ٨٨».

(٥) هو لقيط بن عامر بن صبرة، أبو رزين العقيلي، صحابي، محدّث «الكاشف ٣/ ١٢».

(٦) هو نهيك بن عاصم بن مالك المنتفق «انظر البداية والنهاية ٥/ ٧٢».

(٧) ما بين قوسين تكملة عن البداية والنهاية ٥/ ٧٢.

(٨) زيادة عن البداية والنهاية.

فقال: «أيها الناس! ألاَ إني قد خبأتُ لكم صوتي منذ أربعةَ أيام لأُسمعكم اليومَ. ألاَ فهل من أمرىء بعثه قومه فقالوا اعلَمْ لنا ما يقول رسول الله ﷺ. ألاَ ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضّلال. ألاَ إني مسؤولٌ هل بلّغتُ. ألاَ اسمعوا تعيشوا ألا اجلِسوا»(١) فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ [فضحك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه وعلِم أنّي أبتغي لسقطه](٢) فقال: «ضنّ ربك عزّ وجل بمفاتيح خمس من الغيبِ لا يعلمها إلا الله». فقلت: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «عَلِم المنية [قد علم متى منيّة أحدكم ولا تعلمونه](٣). وعَلِم المنيّ حين(٤) يكون في الرَّحِم [قد علمه ولا تعلمونه](٥) وعَلِم ما في غد وما أنت طاعمٌ غدًا ولا تعلمه. وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزِلين(٦) مسنتين(٧) فيظلّ يضحك قد علم أنّ غَوْثكم قريبٌ». قال لقيط: لم لن نعدَم من ربٍّ يضحك خيرًا. «وعلم يوم الساعة». قلت: يا رسول الله، إني سائلك عن حاجتي. قال: «سل عمّا شئتَ». قلتُ: يا رسول الله، علّمنا مما لا يعلم الناس ومما تُعلم. فإنا من قبيل(٨) لا يصدقون تصديقنا أحدًا من مذحج(٩) التي تدنو إلينا، وخثعم(١٠) التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها. قال: «تلبَثون ما لبِثتم ثم يُتَوفّى نبيّكم ثم تلبَثون ما لبثتم ثم تُبعثُ الصيحةُ، فلَعَمْرُ إلٰهك ما تَدَع على ظهرها من شيء إلاّ مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فأرسل ربك السماء [بهَضْبٍ](١١) من عند العرش، فلعمر إلٰهك ما تَدَع على

---

(١) ألا اسمعوا تعيشوا: أي تحيوا حياةً أبدية سعيدة فإنها الحياة المطلوبة.

(٢) ما بين قوسين زيادة عن البداية والنهاية. (٣) ما بين قوسين زيادة عن البداية والنهاية.

(٤) في الأصل متى والتصويب عن البداية والنهاية.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن البداية والنهاية. (٦) الأزل: الشدّة والضيق.

(٧) المسنتون: الذين أصابهم القحط والجدب. (٨) القبيل: القوم.

(٩) مذحج: هم بنو مَذْحِج واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان، قبيلة من قبائل العرب، وإنّما سمّوا مذحجًا لشجرةٍ تحالفوا عندها اسمها مذحج فسمّوا باسمها، ثم لمذحج بطون كثيرة «انظر صبح الأعشى ١/٣٧٨».

(١٠) خثعم: هم بنو خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عدّ من القبائل العدنانية، كانت مساكنهم بسروات اليمن فاخترقوا في الفتحات الإسلامية «انظر صبح الأعشى ١/ ٣٨٢».

(١١) ما بين قوسين زيادة عن العقد الفريد، وفي البداية والنهاية ومسند الإمام أحمد تهضب، وفي العقد: فيرسل ربك ولشيء بهضبٍ وقد جرى التصويب عنه والهضب: المطر «العقد ١/ ٣٠٠».

ظهَرها من مَصْرَع قتيلٍ ولا مَدْفَن ميّت إلا شقّت القبرَ عنه حتى تخلُقه من قِبَل رأسه فيستوي جالسًا، فيقول ربك مهيَمْ[(١)] لما كان فيه، فيقول: يا رب أمتّني[(٢)] أمس اليوم، لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهّله». فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلى والسباع؟ قال: «أنبئك بمثل ذلك في إلّ[(٣)] الله الأرض أشرفتَ عليها وهي مَدِرة بالية فقلتَ لا تحيا أبدًا ثم أرسل ربك عليها السماء، فلم تلبث عليها إلا أيامًا حتى أشرفتَ عليها فإذا هي شَربةٌ[(٤)] واحدة، فلعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يجمعهم من الماء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء[(٥)] ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعةً وينظر إليكم». قلت: يا رسول الله، وكيف ونحن ملء الأرض وهو شخصٌ واحدٌ ينظر إلينا وننظر إليه؟ قال: «أُنبئكم بمثل ذلك في إلّ الله الشمس والقمر آية منه صغيرةً تَرَوْنهما ساعةً واحدةً ويريانكم لا تُضارُّون في رؤيتهما ولَعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يراكم وتَرَوْه منهما أن تروهما ويرياكم لا تضارُّون في رؤيتهما». قلت: يا رسول الله، فماذا يفعل بنا ربّنا إذا لَقِيناه؟ قال: تُعْرَضون عليه باديةً له صَفَحاتُكم لا يخفى عليه منكم خافيةٌ، فيأخذ ربك بيده غَرْفةً من الماء فينضح بها[(٦)] قِبَلكم، فلعمر إلٰهك ما تخطىء وجهَ واحدٍ منكم منها قَطْرةٌ، فأمّا المسلم فتَدَع وجهه مثلَ الرَّيْطة[(٧)] البيضاء، وأمّا الكافر فتخطِمه[(٨)] بمثل الحُمَمِ[(٩)] الأسود. ألاَ ثمّ ينصرف نبيّكم[(١٠)] ويتفرّق على أثره الصالحون، فتسلكون جسرًا من النار يطأ أحدُكم

---

(١) مهيم: كلمة استفهام عن الحال والشأن.

(٢) كلمة أمتني ليست في المصادر التي اعتمدنا عليها، وفي البداية والنهاية: «يا رب أمس اليوم فلعهده».

(٣) إلّ الله: ربوبيته وقدرته، ويجوز أن يكون في إلّ الله: أي في عهده، وفي البداية والنهاية «آلاء الله» أي في نعمه.

(٤) الشربة: الحنظلة الخضراء، أي أن الأرض تخضر بالنبات فتصير في اخضرار الحنظلة ونضارتها.

(٥) الأصواء: القبور.

(٦) ما بين قوسين تكملة عن البداية والنهاية ومسند الإمام أحمد والعقد الفريد.

(٧) الرّيطة: الملاءة والمنديل.

(٨) تخطمه: أي تصيب خطمه وهو أنفه فتجعل فيه أثرًا.

(٩) الحمم: الفحم.

(١٠) زيادة عن البداية والنهاية والعقد ومسند الإمام أحمد.

الجمرة يقول حَسِّ[١]، فيقول ربك وإنّه[٢]. ألا فتطلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهلُه فلعمر إلٰهك ما يبسط أحدٌ منكم يده إلاّ وقع عليها قدحٌ يطهّره من الطّوف[٣] والبَوْل والأذى. وتُحبَس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحدًا». قلت: يا رسول الله، فبم نُبصِر الأرض[٤]؟ قال: «بمثل ساعتك هذه» وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال. قلت: يا رسول الله، فبِمَ نُجْزَى من سيئاتنا وحسناتنا؟ قال «الحسنةُ بعَشر أمثالها والسيئة بمثلها إلاّ أن يعفو الله». قلت: يا رسول الله، ما الجنة وما النار[٥]. قال: «لَعَمْرُ إلٰهك إن للنار لسبعةَ أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عامًا. وإن للجنة لثمانيةَ أبواب ما منها بابان إلاّ يسير الراكب بينهما سبعين عامًا». قلت: يا رسول الله، فعلامَ نَطَّلِعُ[٦] من الجنّة؟ قال: «على أنهار من عسل مصفّى، وأنهارٍ من كأس ما بها صُداع[٧] ولا نَدامة، وأنهارٍ من لبن لم يتغيّر طعمه، وماءٍ غير آسن[٨]، [وفاكهةٍ لَعَمْرُ إلٰهك ما تعلمون][٩] وخير من مثله معه وأزواج مطهّرة». قلت: يا رسول الله، ولنا فيها أزواج أو منهنّ مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذّونهنّ مثلَ لذّاتكم في الدنيا ويَلْذَذْنكم غير أن لا تَوَالُدَ فيها».

انتهى التذييل على القسم الثالث بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه. والله الموفّق للصواب.

---

(١) حسّ: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة كالجمرة والضربة.

(٢) كذا في المصادر التي بين أيدينا والمعنى: إنّه أي نعم أو إنه كذلك.

(٣) الطّواف: الحدث من الطعام.

(٤) في البداية والنهاية» فبم نبصر؟ وفي العقد: فبم نبصر يومئذ».

(٥) في العقد الفريد: فما الجنّة وما النّار، وفي البداية والنهاية: إما الجنة وإما النار.

(٦) نطّلع: ننظر ونرى.

(٧) الصّداع: يريد أثر الخمرة في الإنسان.

(٨) الآسن: الذي تغيّر وفسد طعمه فلا يشرب.

(٩) ما بين القوسين تصويب من العقد والبداية والنهاية ومسند الإمام أحمد، ففي الأصل: وماء غير آسن خيرٌ مما تعلمون وخير من مثله معه.

القسم الرابع من الفنّ الخامس

في أخبار ملوك الأصقاع[1]، وملوك الأمم والطوائف، وخبر سيل العَرِم[2] ووقائع العرب في الجاهلية

ويشتمل على خمسة أبواب:

الباب الأوّل

في أخبار ذي القرنين[3] الذي ذكره الله عزّ وجل في كتابه العزيز في سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٨٤]. واختلف في تسميته ذا القرنين، فقيل: لبلوغه أطراف الأرض، وإنّ الملك الموكّل بجبل قاف[4] سمّاه بذلك. وهذا القول محكيّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. وقيل: إنما سُمِّيَ بذلك لأنه كانت له ذؤابتان من الذهب. ويُعْزَى هذا القول إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: إنما سُمِّي بذلك لأنه رأى في منامه أنه يدنو من الشمس فيضع

---

(١) الأصقاع: مفردها الصّقع أي الناحية.

(٢) سل العرم: العرم: جمع عرِمة وهي السُكر والمُسنّاة التي تسدّ بها المياه وتقطع، وقيل: العرم اسم وادٍ بعينه، وقيل: العرم: المطر الشديد، وقال البخاري: العرم! ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنان فلم يسقها فيبست وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذابًا أرسل عليهم «انظر معجم البلدان ٤/ ١١٠».

(٣) ذو القرنين: هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف.

(٤) جبل قاف: يقال: قاف أثره إذا اتبع أثره فيكون هذا الجبل يقوف أثر الأرض فيستدير حولها، وقاف مذكور في القرآن الكريم وذهب المفسّرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض «معجم البلدان ٤/ ٢٩٨».

يده في قرنَيْها من شرقها وغربها، فقصّ رؤياه على قومه فسمَّوْه ذا القرنين، وهذا القول مرويّ عن وهب. وقيل: إنما سُمِّيَ به لأن الله تعالى كان قد بعثه إلى قوم فضربوه على قَرْنه فمات، فأحياه الله ثم بعثه إليهم فضربوه على قرنه الآخر فمات، ثم أحياه الله، فسُمِّيَ ذا القرنين. وقيل: إنما سُمِّيَ بذلك لأنه أفنى قرنين من الناس. وقيل: لأنه كريم الطرَفين من أهل بيت شرفٍ من قِبَل أبيه وأُمّه. وقيل: لأنه أُعطِيَ علم الظاهر والباطن. وقيل: لأنه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنه ملك فارس والروم. وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

قال وهب: كان ذو القرنين رجلًا من أهل الإسكندرية يقال له الإسكندروس. والعَجَبُ كونه نَسَبَه أنه من أهل الإسكندرية، وقد نقل جماعة من أهل التاريخ أن الإسكندر هو الذي أنشأ الإسكندرية وبناها، فكيف يكون من أهلها وهو الذي أنشأها وإليه نُسبت!. ورُوِي عن وهب أيضًا أن ذا القرنين كان خارجيًا في قومه، ولم يكن بأفضلهم نسبًا ولا حسبًا ولا موضعًا، ثم قال بعد ذلك: إن الله تعالى بعثه نبيًا ورسولاً. ولا يكون الأنبياء إلاّ من أفضل قومهم حسبًا وأشرفهم نسبًا. وقد يكون هذا النقل لٱختلاف الروايات. وما آفة الأخبار إلاّ رُواتها.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبيّ[1] في تفسيره عن ٱبن إسحاق قال حدّثني مَن يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم: أنّ ذا القرنين كان رجلًا من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مرذبة اليونانيّ من ولد يُونان بن يافث بن نوح. قال: وقال ٱبن هشام[2]: ٱسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية، فنُسِبت إليه. قال وقيل: ٱسمه هرمس، ويقال هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بن ذي يزن الحِمْيريّ. وقال وهب: هو روميّ. وقيل: إنه أفريدون [الذي قتل بيوراسب بن أرونداسب][3] الملك الفارسيّ.

---

(١) القرطبي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسّر، كان من الصالحين الزّاهدين العارفين، له مؤلّفات كثيرة منها «الجامع لأحكام القرآن» وكتاب «الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار في أفضل الأذكار» وغير ذلك، توفي سنة ٦٧١هـ ودفن حيث كان مستقرًا في منية ابن الخصيب «انظر الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول ص و ـ ز».

(٢) ابن هشام: هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، مؤرخ، كان عالمًا بالأنساب واللغة وأخبار العرب، ولد ونشأ في البصرة ومات بمصر سنة ٢١٣هـ، من كتبه: «السّيرة النبوية».

(٣) ما بين قوسين تكملة عن القرطبي ١١/ ٤٧ «الأعلام ٤/ ١٦٦».

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في قصصه ـ وذكر الخلاف في نبوّته ـ قال: الصحيح إن شاء الله أنه كان نبيًا غير مُرْسَل، كما رُوي عن وهب وغيره من أهل الكتب. قال وقالوا: كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه إسكندروس. قال ويقال: كان اسمه ابن عيّاش[١]، وكان عياش عبدًا صالحًا. قال وهب: ونشأ ذو القرنين في علم وأدب وثروة وعفّة، ولم يزل يتخلّق بمكارم الأخلاق ويسمو إلى معالي الأمور حتى بعُدت همّته، واشتدّ أمره، وعلا صوته، وعزّ في قومه، وألقى الله تعالى عليه الهيبة، وحدّث نفسه بمعالي الأمور. قال الثعلبيّ: فلمّا استحكم مُلْكه واستجمع أمره أوحى الله تعالى إليه: يا ذا القرنين، إنّي بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافِقَيْن[٢]، وجعلتك حجّتي عليهم، وهذا تأويل رؤياك. وإني باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهي سبع أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمّتان بينهما عَرْض الأرض، وأمّتان بينهما طُول الأرض، وثلاث أمم في وَسَط الأرض، وهم الإنس والجنّ ويأجوج ومأجوج. فأمّا الأمّتان اللتان بينهما طولُ الأرض فأمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، والأخرى [بحيالها عند مطلع الشمس][٣] يقال لها مُنسك. وأمّا الأمّتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى بحيالها في قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل. فلمّا قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين: إلٰهي إنك قد ندبتني[٤] إلى أمر عظيم لا يقدر قدرَه إلا أنت؛ فأخبرني عن هذه الأمم التي بعثتني إليها بأيّ قوّة أُكاثرهم، وبأيّ حِيلةٍ وجَمْعٍ أكابرهم، وبأيّ صبر أقاسيهم، وبأيّ لسان أناطقهم؛ وكيف لي بأن أفقه لغاتهم، وبأيّ سمع أسمع أقوالهم، وبأيّ بصر أنفُذهم، وبأيّ حجّة أخاصمهم، وبأيّ عقل أعقِل عنهم، وبأيّ قلب وحكمة أدبّر أمرهم، وبأيّ قسط[٥] أعدِل بينهم، وبأيّ حلم أُصابرهم، وبأيّ معرفة أفصِل بينهم، وبأيّ علم أُتقن أمرهم، وبأيّ يدٍ أسطو عليهم، وبأيّ رِجْلٍ أطؤُهم، وبأيّ طاقة أُحصِيهم، وبأيّ جُنْدٍ أُقاتلهم، وبأيّ رفقٍ أتألفهم، وليس عندي يا إلٰهي شيء مما ذكرتُ يقوم لهم ويَقْوَى عليهم[٦] وأنت الرؤوف الرحيم، الذي لا تكلّف نفسًا إلا وُسْعَها، ولا تحمّلها إلاّ

(١) في الأصول: ابن عيّاس، والتصويب عن الثعلبي.
(٢) الخافقان: مثنى خافق، وهما أفق المشرق وأفق المغرب.
(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي، وحيال الشيء: إزاؤه.
(٤) ندبتني: دعوتني واخترتني. (٥) القسط: العدل.
(٦) في الأصل «أقوم لهم وأقوى عليهم» والتصويب عن الثعلبي.

طاقتها، ولا تُشقيها؛ بل أنت ترحمها. فقال الله تعالى له: إني سأُطوّقك[١] ما حمّلتك، وأشرح لك صدرك وسمعك فتسمع وتَعِي كلّ شيء، وأوسِّع لك فهمك فتفقه كلّ شيء، وأبسُط لك لسانك فتنطِق بكل شيء، وأفتح لك بصرَك فينفُذ في كل شيء، وأحصي لك قوّتك فلا يفوتك شيء، وأشُدّ لك عضُدك فلا يهولك شيء، وأشيّد لك ركنك فلا يغلبك شيء، وأشدّ لك قلبك فلا يُفزعك شيء، وأشُدّ لك يديك فتسطو على كلّ شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخّر لك النور والظلمة وأجعلهما جندًا من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحوطك الظلمة من ورائك. قال: فلما قيل له ذلك حدّث نفسه بالمسير، وألحّ عليه قومُه بالمُقام، فلم يفعل وقال: لا بدّ من طاعة الله تعالى. قال وهب: وكان أوّل ما بدأ به أن أخذ قومه بالإسلام فأسلموا قهرًا من عند آخرهم، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدًا ويجعلوا طوله أربعمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع، وسُمْك حائطه اثنين وعشرين ذراعًا، وارتفاعه في السماء مائة ذراع، وأمرهم أن ينصبوا فيه سواري[٢]. قالوا: يا ذا القرنين، كيف لنا بخشب يبلغ ما بين الحائطين؟ فلمّا كمل البناء أمرهم بردمه بالتراب، ثم فرض على المُوسِر قدرَه من الذهب وعلى المُقْتِر قدرَه، وأمرهم أن يجعلوا ذلك الذهب كقُلامة الظُّفر ويخلطوه بالتراب وكبسوا التراب حتى ساوى البناء، ثم أمرهم بعد ذلك أن يتّخذوا أعمدةً من النحاس بدلاً من الخشب فصنعوها، وجعلوا على كل حائط اثني عشر ذراعًا، فكان طول كل عمود من النحاس مائتين وأربعة وعشرين ذراعًا، فتمكّنوا من ذلك بسبب الردم. فلمّا استقرّ السقف بما فيه أمر الإسكندر المساكين أن يحوّلوا التراب، ومن خرج له شيء من الذهب فهو له، فسارعوا إلى ذلك ونقلوه واستغنَوْا بما فيه، ثم جَنّد القومَ أربعين ألفًا، وهم أوّل جُنْد اتّبعوه.

وقال الثعلبيّ رحمه الله: إنّ الإسكندر جنّد المساكين بما حصل لهم من قُراضة[٣] الذهب، وكانوا أربعين ألفًا، جعلهم أربعة أجناد، في كل جُنْد عشرة آلاف. قال: ثم عرَض جُنْده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل غير المساكين، وهم أربعون ألفًا؛ ثم انطلق يؤمّ[٤] الأمّة التي عند مغرب الشمس، فسار لا يمرّ بأمّة إلاّ دعاهم إلى الله تعالى، فإن أجابوه قبِل ذلك منهم، وإن أبَوْا عليه

---

(١) سأطوّقك: سأرعاك وأحميك وأحرسك.

(٢) السّواري: الأعمدة، والسارية: العمود الذي يعلّق عليه شراع السفينة.

(٣) قراضة الذهب: نثاره، أي ما سقط منه بالقرص.

(٤) يؤم الأمة: يقصد.

غشيتهم الظُّلْمة فلبست مدائنهم ومنازلهم وأعشت[١] أبصارهم، فيتحيّروا حتى يجيبوه، أو يأخذهم عَنْوة[٢]. ولم يزل كذلك حتى بلغ مغرب الشمس. قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٥ ـ ٨٦] أي ذات حمْأة[٣]، ومن قرأ حامية فمعناه حارّة ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] الآيات إلى قوله: ﴿يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨]. قال الثعلبيّ: فوجد جمعًا وعددًا لا يُحصيه إلا الله تعالى، وقوّة وبأسًا لا يُطِيقه إلا الله تعالى، ورأى ألسنًا مختلفةً وأهواءً متشتّتةً، وهذه الأمّة هي ناسك. فلمّا رأى ذلك كاثرهم بالظُّلْمة فضرب حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد، ثم أخذ عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه، فعمَد إلى الذين تولَّوْا عنه فأدخلهم الظُّلْمة، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم، ودخلت في بيوتهم وغَشِيَتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب، فصاحوا وتحيّروا وأشفقوا[٤] من الهَلكة، فعجُّوا إليه بصوتٍ واحدٍ، فكشفها عنهم وأخذهم عَنْوةً فدخلوا في دعوته، فجنّد منهم أممًا عظيمة وجعلهم جُنْدًا واحدًا، ثم ٱنطلق بهم يقودهم والظُّلْمة تسوقهم من خلفهم وتحرُسهم والنور أمامهم، وسار يريد الأمّة التي في قطر الأرض التي يقال لها هاويل، فكان إذا ٱنتهى إلى بحر أو نهر بنى سُفُنًا من ألواح صغار أمثال النعال ونظمها في ساعة، ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود، فإذا قطع ذلك البحر أو النهر فتقها[٥] ثم دفع إلى كل رجل منهم لَوْحًا فلا يكرُثه[٦] حملُه، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل بهم كما فعل بالأمة التي قبلها. قال: ولما فرغ منها مضى حتى انتهى إلى مُنسك وهي الأمة التي عند مطلع الشمس. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾ [الكهف: ٨٩ ـ ٩١]. قال: وقوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقرّ عليه بناء، وكانوا يكونون في أسراب[٧]

(١) أعشت أبصارهم: ساءت أو ضعفت.

(٢) العنوة: من عنا يعنو، يقال: عنوت لك: أي خضعت وأطعت، قال ابن سيّده: قيل: كلّ خاضع لحقّ أو غيره، عانٍ والاسم من كلّ ذلك «العَنوة» «اللسان: مادة عنا».

(٣) الحمأة: الطين الأسود المنتن.

(٤) أشفقوا من الهلكة: خافوا وحذروا.

(٥) فتقها: شقّها.

(٦) يكرُثه حمله: أي يبلغ منه المشقّة.

(٧) الأسراب: جمع سرب وهو الحفير تحت الأرض.

لهم، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقال الحسن[١]: كانت أرضهم أرضًا لا تحتمل البناء، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم تهوّروا[٢] في الماء، فإذا ٱرتفعت عنهم خرجوا فتراعَوْا كما تَرعَى البهائم. وقال الكلبيّ: هم أمّة يقال لها مُنسك عُراةٌ حُفاةٌ عُماةٌ عن الحقّ. قال: وحدّثني عمرو بن مالك بن أميّة قال: وجدت رجلاً بسَمَرْقَنْد[٣] يحدّث الناس وهم مجتمعون حوله، فسألت بعض مَن سمع حديثه فأخبرني أنه حدّثهم عن القوم الذين تطلُع عليهم الشمس، قال: خرجت حتى جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقيل: [لي] إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فٱستأجرت رجلاً [يرينيهم][٤]، فسرت بقيّة عشيّتي وليلتي حتى صبّحتهم، فإذا أحدهم يفترش أذنه ويلبَس الأخرى. وكان صاحبي يُحسن لسانهم[٥] فسألوه فقال: جئنا ننظر كيف تطلُع الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مثل الصلصلة[٦]، فغُشِيَ عليّ فوقعت، فلمّا أفقت وجدتهم يمسحونني بالدهن فإذا الشمس طلعت على الماء، وهي عليه كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفُسطاط[٧]، فلمّا ٱرتفعت دخلوا في سَرَبٍ لهم وأنا وصاحبي، فلمّا ٱرتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك فيطرحونه في الشمس فينضَج.

نرجع إلى تتمة أخبار الإسكندر ومطلع الشمس. قالوا: ولمّا بلغ الإسكندر مطلع الشمس فعل بمنسك كما فعل بالأمم التي قبلها وجنّد منها جنودًا، ثم كرّ حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهي بدء تأويل، وهي الأمّة التي بحيال هاويل، وهما متقابلتان بينهما عَرْض الأرض. فلمّا بلغها عمل فيها كما عمل بمن قبلها. ولمّا فرغ من الأمم الذين هم بأطراف الأرض وطاف الشرق والغرب عطف[٨] منها إلى الأمم التي هي في وسط الأرض من الجنّ والإنس ويأجوج ومأجوج. فلمّا كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أُمّة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين، إنّ بين هذين الجبلين خَلْقًا من خَلْق الله ليس فهيم مُشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العُشْب ويفترسون الدوابّ والوحوش كما يفترسها السباع، ويأكلون هوامّ الأرض من الحيّات والعقارب وكل ذي رُوح مما خلق الله تعالى.

---

(١) هو الحسن البصري «تقدمت ترجمته». (٢) تهوّروا: أي نزلوا في الماء.

(٣) سمرقند: يقال لها بالعربية «سُمران» بلد معروف مشهور، قيل: إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر، وهو قصبة الصّغد، قال الأزهري: بناها شمر أبو كرب فسمّيت شمركنت. فأعربت فقيل سمرقند «معجم البلدان ٣/ ٢٤٦».

(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٥) يحسن لسانهم: أي يتكلّم لغتهم.

(٦) الصلصلة: الصوت الذي فيه ترجيع، أو هو صوت الرّعد.

(٧) الفسطاط: بيتٌ يتخذ من الشَّعر. (٨) عطف: مال قاصدًا.

وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم. فإن أتت مدّة على ما نرى من نمائهم وزيادتهم فلا شكّ أنهم سيملؤون الأرض ويُخْلون أهلها منها ويظهرون[١] عليها فيفسدون فيها. وليست تمرّ بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقّعهم أن يطلُع علينا أوّلهم من بين[٢] هذين الجبلين[٣].

قال الشيخ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطيّ[٤] في كتابه عن وهب بن مُنَبِّه: إنّ يأجوج ومأجوج أجفلوا[٥] في زمن ذي القرنين يريدون أرضًا وأمّة من الأمم، وكانوا إذا توجّهوا لوجه لم يَعْدِلوا عنه ولا يميلون ولا يعرّجون، وكانت تُسمَع هَمْهَمَتُهم[٦] من مسيرة مائة فرسخ لكثرتهم. فلما سمعت تلك الأمّة حسّهم استغاثوا بذي القرنين، وهو يومئذ في ناحية أرضهم من شرقي أرض الترك والخَزَر[٧] وقالوا: يا ذا القرنين، إنه قد بلغنا ما آتاك الله من السلطان والمُلْك، وما ألبسك من الهيبة، وما أيّدك به من جنود أهل الأرض ومن النور والظلمة، وإنّا جيران يأجوج ومأجوج، وليس بيننا وبينهم إلا شواهق الجبال، وليس لهم إلينا طريق إلا من هذين الصَّدَفين[٨] ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: ٩٢ ـ ٩٤] أي جعلًا وأجرًا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤] أي حاجزًا فلا يصلون إلينا ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى﴾ أي قوّاني ﴿خَيْرٌ﴾ من خراجكم ولكن ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] حاجزًا كالحائط. قالوا: وما تلك القوّة؟ قال: فَعَلَةٌ وصنّاع يُحسِنون البناء والعمل والآلة. قالوا: وما تلك الآلة؟ قال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]

---

(١) يظهرون عليها: ينتصرون ويغلبون أهلها. (٢) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٣) الجبلان: هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان كما في تفسير القرطبي.

(٤) هو عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد، أبو البركات الأنماطي، محدّث بغداد في عصره مولده ووفاته فيها سنة ٥٣٨هـ قال ابن الجوزي: لم تسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث «الأعلام ٤/ ١٨٥».

(٥) أجفلوا: فرّوا مذعورين.

(٦) الهمهمة: صوتٌ كأنّه دويّ الرّعد، والهمهمة: صوت البقر والفيلة وما أشبه.

(٧) الخزر: وهم التركمان، وفي الإسرائيليات أنهم من ولد توغريحا بن تومر بن يافث بن نوح، وقيل: هم من بني طيراش بن يافث، وقيل: نوعٌ من الترك «انظر صبح الأعشى ١/ ٤٢١».

(٨) الصّدفان: مفردها صدف، وهو الناحية والجانب، أو هما جانبا الجبل لأنهما يتصادفان أي يتقابلان.

يعني قِطَعَه، واحدتها زُبْرة، وأتوني بالنُّحاس. قالوا: من أين لنا الحديد والنُّحاس [ما يكفي هذا العمل][١]؟ قال: سأدلّكم على معادن الحديد والنحاس، فضرب لهم في جبلين حتى فلقهما، ثم استخرج منهما معدنين من الحديد والنحاس. قالوا: فبأيّ قوّة نقطع الحديد والنحاس؟ فاستخرج معدن السامور[٢] وهو أشدّ ما خلق الله بياضًا، وهو الذي قطع به سليمانُ صخورَ بيتِ المقدس وجواهره، كما تقدّم. قال الثعلبيّ: ولمّا شغلهم الإسكندر في استخراج الحديد والنحاس سار نحو يأجوج ومأجوج ليعلم علمهم، فانطلق يؤمّهم حتى انتهى إليهم وتوسّط بلادهم، فوجدهم على مقدارٍ واحدٍ ذكرهم وأنثاهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: منهم مَن طوله شبر، ومنهم مَن هو مُفرِطٌ في الطول، لهم مخاليبُ في أيديهم موضع الأظافر، وأنيابٌ وأضراسٌ كالسِّباع، يُسمَع لها حركةٌ إذا أكلوا كقَضْم البغل المسنّ أو الفرس القويّ، ولهم من الشعر في أجسادهم ما يُواريهم وما يتّقون به الحرّ والبرد، ولكل واحد منهم أُذُنان عظيمتان، إحداهما وَبِرَةٌ[٣] والأخرى زَغِبَةٌ[٤]، يفترش إحداهما ويلتحق الأخرى، ويصيّف في إحداهما ويشتيّ في الأخرى[٥]. وقال الأنماطيّ في خبره: ولهم أخفاف كأخفاف الإبل. قالوا: وليس منهم ذكرٌ ولا أنثى إلاّ قد عرف أجلَه الذي يموت فيه. وذلك أنّ الذكر منهم لا يموت حتى يخرج من صُلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد[٦]، فإذا كان ذلك أيقن بالموت وترك طلب المعيشة. قالوا: وهم

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٢) السّامور: الألماس.

(٣) الوبرة: كثيرة الوبر، وهو صوف الإبل والأرانب.

(٤) الزغبة: التي نبت زغبها، والزّغب: صغار الرّيش.

(٥) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/١٠١ «وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدًا فمنهم من هو كالنخلة السحوق ومنهم من هو في غاية القصر ومنهم من يفترش أذنًا من أذنيه ويتغطّى بالأخرى، فكلّ هذه أقوال بلا دليل ورجمٌ بالغيب بغير برها، والصحيح: أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم»...

(٦) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٢/١٠١ «وما قيل من أنّ أحدهم لا يموت حتى يرى من ذرّيته ألفًا، فإن صحّ في خبرٍ قلنا به، وإلا فلا نردّه إذ يحتمله العقل والنقل أيضًا قد يرشد إليه والله أعلم، بل قد ورد حديث مصرّح بذلك إن صح، قال الطبراني وذكر السند مرفوعًا إلى النبي: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم، ولن يموت منهم رجلٌ إلاّ ترك من ذرّيته ألفًا فصاعدًا» وهو حديث غريب جدًّا وإسناده ضعيف، وفيه نكارة شديدة.

يُرْزَقون التنّين في أيام الربيع، يقذفه عليهم السحاب من البحر في كل عام مرّة. فإذا تأخّر عنهم وقت عادته استمطروه كما يُستمطَر الغيث لحِينه، فإن قُذِفوا به أخصبوا وسمِنوا وتوالدوا وكثروا وأكلوا منه حولاً كاملاً لا يأكلون غيره، ويقدّدونه[١] فيعمّهم على كثرتهم. قال: وهم يتداعَوْن تَداعِيَ الحمام، ويعوون عُوَاء الذئاب، ويتسافدون تسافُد البهائم حيث التقَوْا. فلمّا عاينهم ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين فقاس ما بينهما، ثم أوقد على ما جُمع من الحديد والنحاس فصنع منه زُبَرًا[٢] أمثال الصخور العظام، ثم أذاب النُّحاس فجعله كالطين وألاط[٣] به تلك الصخور الحديد ثم بناه.

قالوا: وكيفيّة بنائه على ما ذكره أهل السِّيَر: أنه لمّا قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ، ثم حفَر له الأساس حتى بلغ الماء، وجعل عرضه خمسين فرسخًا، ثم وضع الحطب بين الجبلين، ثم نسَج عليه الحديد، ثم نسج الحطب على الحديد، فلم يزل يحوّل الحديد على الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين الصَّدَفين، وهما الجبلان، ثم أمر بالنار فأُرسلت فيه، ثم قال انفخوا ثم جعل يُفرِغ القِطْر وهو النحاس المُذَاب، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس، فصار كأنه بُرْد حِبرة[٤] من صُفْرة النحاس وحُمرته، وسواد الحديد وغُبْرته؛ فصار سدًّا طويلاً عظيمًا حصينًا. قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧]. وقد رُوي أنّ رجلاً قال يا رسول الله قد رأيتُ سدّ يأجوج ومأجوج. قال: «اِنعَتْه لي». قال: كالبُرْد المُحَبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. قال: «قد رأيتَه». وقد ذكرنا خبر السدّ فيما سلف من كتابنا هذا عن سلاّم التُّرجمان حين أرسله الواثق إلى السدّ فرآه، وهو في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو في السفر الأوّل من كتابنا هذا.

قال الأنماطيّ قال وهب: فبلَغنا ـ والله أعلم ـ أنهم يأتونه في كل سنة مرّة، وذلك أنهم يسيحون[٥] في بلادهم حتى إذا انتهَوْا إلى ذلك الرَّدْم حبسهم فرجعوا يسيحون في بلادهم، فهم كذلك حتى تقرُب الساعة، فإذا جاء أشراطها فتحه الله

---

(١) القديد: اللحم المجفّف.
(٢) الزّبر: القطع.
(٣) ألاط: طيّن.
(٤) بُرد حبرة: على الوصف والإضافة: ضربٌ من البرود اليمانية المخطّطة.
(٥) يسيحون: من السّوح، وهو السّفر والتنقل.

عزّ وجل؛ فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. والله أعلم.

ذكر خبر دخول ذي القرنين الظلمات مما يلي القُطْب الشماليّ لطلب عَيْن الحياة

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: قال عليّ رضي الله عنه: ملَك ذو القرنين ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة اسمه رَفائيل يأتيه ويزوره. فبينما هما ذات يوم يتحادثان إذ قال ذو القرنين: يا رفائيل، حدّثني عن عبادتكم [في السماء]. فبكى وقال: يا ذا القرنين، وما عبادتكم [بشيء][1] عند عبادتنا! إنّ في السماء من الملائكة من هو قائم أبدًا لا يجلس، ومنهم من هو ساجدٌ لا يرفع رأسه أبدًا، ومنهم الراكع لا يستوي[2] أبدًا قائمًا، يقولون: سبحان الملك القدّوس، ربّ الملائكة والرُّوح، ربنا ما عبدناك حقّ عبادتك. فبكى ذو القرنين بكاءً شديدًا ثم قال: إني لأحبّ أن أعيش فأبلُغ من عبادة ربّي حقّ طاعته. قال رفائيل: أوَتحبّ ذلك؟ قال نعم. قال: فإنّ لله عينًا في الأرض تسمَّى عين الحياة فيها من الله عزيمةٌ، إنّ من يشرب منها شربة لم يمت أبدًا حتى يكون هو الذي يسأل ربّه الموت. قال ذو القرنين: هل تعلم موضع تلك العين؟ قال الملَك: لا، غير أنّا نتحدّث في السماء أنّ لله تعالى في الأرض ظُلمة لا يطؤها إنسٌ ولا جانّ، فنحن نظن أنّ العين في تلك الظلمة. فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوّة فقال لهم: أخبروني هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله وما جاءكم من أحاديث الأنبياء ومَنْ كان قبلكم أنّ الله وضع في الأرض عينًا سمّاها عينَ الحياة؟ قالوا لا. وقال عالم من العلماء: إنّي قرأتُ وصيّة آدم، وصّى أنّ الله تعالى خلق في الأرض ظُلمة لم يطأها إنسٌ ولا جانّ ووضع فيها عين الخلد. فقال ذو القرنين: فأين وصيّته في الأرض؟ قال: على قرن الشمس. فبعث ذو القرنين وحشر إليه العلماء والأشراف والملوك، ثم سار يطلب مطلع الشمس، فسار اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظُّلمة، فإذا ظلمة تقوم مثل الدُّخان ليست بظُلمة ليل، فعسكر هناك، ثم جمع العلماء وقال: إنّي أريد أن أسلُك هذه الظلمة. قالوا: إنه مَن كان قبلك من الأنبياء

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٢) لا يستوي: لا يستقيم ويعتدل.

والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها، فإنّا نخاف أن ينبثق عليك أمر تكرهه فيكون فيه فساد [أهل](١) الأرض. فقال: لا بدّ من أن أسلُكها. قالوا: أيها الملك كفّ عنها ولا تطلبْها فإنّا لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط علينا ربّنا لاتّبعناك، ولكنّا نخاف العتب(٢) من الله عزّ وجل وفساد الأرض ومَن عليها. فقال: لا بدّ أن أسلكها. قالوا: شأنك بها. قال: أيّ الدوابّ بالليل أبصر؟ قالوا: الخيل. قال: فأيّ الخيل أبصر؟ قالوا: الإناث. قال: فأيّ الإناث أبصر؟ قالوا: البِكارة(٣). فجمع ذو القرنين ستّة آلاف فرس بهذه الصفة، ثم انتخب من عسكره [أهل الجلد والعقل](٤) ستّة آلاف رجل، فدفع إلى كلّ رجلٍ فرسًا، وعقد للخَضِر عليه السلام على مقدّمته ألفين، وبَقِي هو في أربعة آلاف. وقال ذو القرنين للناس: لا تبرحوا(٥) من معسكركم هذا إلى اثنتي عشرة سنة، فإن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى بلادكم. فقال الخضر: أيها الملك، إنّا نسلُك ظُلمةً لا ندري كم المسير فيها ولا يُبصِر بعضنا بعضًا، فكيف نصنع إذا ضَلَلنا! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال: حيث يصيبكم الضلال فاطرَح هذه في الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت. فسار الخضر بين يديه، يرتحل الخضر وينزل ذو القرنين. فبينا الخضر يسير إذ عرَض له وادٍ فظنّ أنّ العين فيه وأُلْقِي ذلك في قلبه. فقام على شفير الوادي وقال لأصحابه: قِفُوا لا تبرحوا، ورمى بالخرزة في الوادي ومكث طويلاً حتى أجابته الخرزة، فطلب صوتها فانتهىٰ إليها فإذا هي إلى جانب العين. فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين، فإذا ماؤها أشدّ بياضًا من اللبن وأحلى من الشهد، فشرب واغتسل وتوضّأ ولبس ثيابه، ثم رَمَى الخرزة نحو أصحابه، فوقعت الخرزة وصاحت، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه، فركب وقال: سيروا على اسم الله. ومرّ ذو القرنين فأخطأ الوادي فسلكوا تلك الظُّلمة أربعين يومًا وليلة، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر، وإلى أرض حمراء ورملةٍ خشخاشيّة(٦)، فإذا هو بقصر مبنيّ في تلك الأرض طوله فرسخ في فرسخ عليه باب، فنزل ذو القرنين بعسكره، ثم خرج وحده فدخل القصر، فإذا حديدةٌ قد وُضع طرفاها على جانِبَي القصر من

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٢) العتب: اللوم.
(٣) البكارة: مفردها البكرة وهي أنثى البكر، والبكر: الفتيّ من الخيل، وهي هنا: الفرس التي لم تلد بعد.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٥) لا تبرحوا: لا تغادروا.
(٦) الخشخاشية: التي إذا داستها الأقدام تحرّكت وصوّتت.

هاهنا وهاهنا، وإذا طائرٌ أسودُ يشبه الخُطّاف مزموم[١] بأنفه إلى الحديدة، معلّق بين السماء والأرض. فلمّا سمع الطائر خشخشة[٢] ذي القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. فقال: يا ذا القرنين، أمَا كفاك ما وراءك حتى وصلت إليّ! ثم قال الطائر: يا ذا القرنين، حدّثني؛ قال سَل؛ فقال: هل كثُر بناء الآجُرّ والجِصّ في الأرض؟ قال: نعم؛ فانتفض الطائر انتفاضةً ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة، ثم قال: يا ذا القرنين، هل كثُرت شهادات الزور في الأرض؟ قال نعم؛ فانتفض الطائر ثم انتفخ فملأ الحديدة وسدّ ما بين جِداري القصر. ففرِق ذو القرنين فَرَقًا عظيمًا. فقال الطائر: لا تخف، حدّثني. قال سَلْ. قال: هل ترك الناس [شهادة أن][٣] لا إله إلاّ الله بعدُ؟ قال لا، فانضم الطائرُ ثُلُثه ثم قال: هل ترك الناس الصلاةَ المفروضة بعدُ؟ قال لا، فانضمّ ثلثاه. ثم قال: يا ذا القرنين، هل ترك الناس غسل الجنابة بعدُ؟ قال لا؛ فعاد الطائر كما كان. ثم قال: يا ذا القرنين، اُسلُك هذ الدَّرَج درجةً درجةً إلى أعلى القصر، فسلكها وهو خائفٌ وَجِلٌ لا يَدرِي على ماذا يهجُم، حتى انتهى إلى سطح ممدود، عليه صورة رجل شابّ قائم، وعليه ثيابٌ بيضٌ، رافعًا وجهه إلى السماء، واضعًا يديه على فِيهِ، فلمّا سمع خَشْخَشَة ذي القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. قال: يا ذا القرنين، إنّ الساعة قد اقتربت، وأنا منتظرٌ أمر ربّي يأمرني أن أنفُخ [فأنفخ][٤]، ثم أخذ صاحب الصُّور شيئًا بين يديه كأنه حجر وقال: خذه يا ذا القرنين، فإن شبع هذا شَبِعتَ، وإن جاع جُعتَ؛ فأخذه ونزل إلى أصحابه فحدّثهم بأمر الطائر وما قال له وما ردّ عليه، وما قال صاحب الصُّور. ثم جمع علماء عسكره فقال: أخبروني عن هذا الحجر ما أمْرُه؟ [فقالوا: أيها الملك، أخبرنا عما قال لك فيه صاحب الصور. فقال ذو القرنين: إنه قال لي: إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت][٥] فوضعوا ذلك الحجر في إحدى كَفّتَيْ ميزان وأخذوا حجرًا مثله فوضعوه في الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا هو يميل، [فوضعوا معه آخر فإذا هو يميل بهنّ][٦] فلم يزالوا يضعون حتى وضعوا ألف حجر فمال بالألف جميعًا، فقالوا: انقطع علمُنا دون هذا الحجر لا ندري أسحر هو أم علم [ما نعلمه][٦]! فقال

---

(١) المزموم بأنفه: أي جعل له زمان، وهو الخيط الذي يشدّ في البُرة أو في الخشاش ثم يشدّ إلى طرف المقود وهنا: معلّقا بأنفه.

(٢) الخشخشة: صوت الشيء إذا حرّك، وهنا: ربمّا صوت وقع أقدامه أو صوت حركة سلاحه.

(٣) زيادة عن الثعلبي.

(٤) زيادة عن الثعلبي.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

الخضر: نعم أنا أعلمه، فأخذ الميزان بيده ثم وضع الحجر في كفّتها وأخذ كفًّا من تراب فجعله في الكفّة الأخرى ثم رفع الميزان فٱستوى. فخرّت العلماء سُجَّدًا لله تعالى وقالوا: هذا علمٌ لم يبلُغه علمنا. فقال الخضر عليه السلام: أيّها الملك، إنّ سلطان الله عزّ وجل قاهرٌ لخلقه، وأمره نافذٌ فيهم، وحُكْمه جارٍ عليهم؛ وإنّ الله تعالى ابتلَى خَلْقَه بعضهم ببعض، فٱبتلى العالِمَ بالعالم،والجاهلَ بالجاهل، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم؛ وإنه ٱبتلاني بك وٱبتلاك بي. قال ذو القرنين: صدقتَ، فأخبرني ما هذا؟ فقال الخضر: أيها الملك، هذا مَثَل ضربه لك صاحب الصُور، [إن الله تعالى مكّن لك في البلاد، وأعطاك منها ما لم يعط أحدًا، وأوطأك منها ما لم يوطىء أحدًا، فلم][1] تشبَع، وآتيتَ نفسك شرّها، حتى بلغتَ من سلطان الله ما لم يطأه إنسٌ ولا جانٌ، فهذا مثلٌ ضَرَبَه لك، إن ابن آدمَ لا يشبَع أبدًا دون أن يُحثَى عليه التراب، ولا يملأ جوفه إلاّ التراب. فبكى ذو القرنين وقال: صدقتَ، لا جرم أني[2] لا طلبتُ أثرًا[3] في البلاد بعد مسيري هذا حتى أموت، ثم انصرف راجعًا. فلمّا توسّط الظُّلمة وطىء وادي الزَّبَرْجَد[4]، فقال مَن معه لما سمِعوا الخشخشة تحت حوافر دوابّهم: ما هذا أيّها الملك؟ فقال: خذوا منه فإنه من أخذ منه ندم، ومَن تركه ندِم. فمنهم مَن أخذ، ومنهم مَن ترك. فلمّا خرجوا من الظلمة إذا هو الزبرجد. فندم الآخذ كَوْنَه لم يُكثر، والتاركُ كَوْنَه لم يأخذ. قال: فقال النبيّ ﷺ: «رَحِمَ اللّهُ أخي ذا القرنين لو ظفِر بوادي الزَّبَرْجَد في المبتدأ ما ترك منه شيئًا حتى أخرجه إلى الناس لأنه كان راغبًا في الدنيا ولكنّه ظفِر به وهو زاهدٌ في الدنيا لا حاجةَ له فيها».

قال الثعلبيّ: ثم رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف، ومات في طريقه بشَهْرَزُور[5]. وقال عليّ رضي الله عنه: [ثم إنه][6] رجع إلى دُومة[7] الجَنْدلَ فأقام بها

---

(١) ما بين قوسين زيادة من الثعلبي.
(٢) في الأصل: «إنّك لم» والتصويب عن الثعلبي.
(٣) لا طلبت أثرًا: أي لا طلبت غاية ولا قصدت.
(٤) الزّبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرد متعدّد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر، جمعه «زبارج».
(٥) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان وأهدتها زُور بن الضحّاك، ومعنى شهر بالفارسية مدينة وأهل هذه النواحي كلهم أكراد «معجم البلدان ٣/ ٣٧٥».
(٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٧) دُومة الجندل: موضع على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ، وهي في غائط من الأرض، وسمّيت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل، وقيل: هي حصن وقرىً بين الشام والمدينة قرب جبلي طيىء «معجم البلدان ٢/ ٤٨٧».

حتى مات. وصرّح الثعلبيّ في سياقة أخباره أنه الذي قتل دَارَا بن دَارَا[١]، وأنه لم تطُل مدّة عمره. وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر قاتل دارا بن دارا في أخبار ملوك اليونان.

وحكى الأنماطيّ عن وهبٍ في خبر دخول الإسكندر الظُّلُمات: أنه لمّا أنتهى إلى مغرب الشمس ترك مَن معه هناك وسار على الماء في الظلمة ثمانيةَ أيام وثماني ليال حتى أنتهى إلى جبل قاف، وإذا هو بملَك قابضٍ على الجبل يسبّح الله تعالى؛ فخرّ ذو القرنين ساجدًا لله تعالى فلم يرفَع رأسه حتى قوّاه الله تعالى على النظر إلى المَلك. فقال له: كيف قَوِيتَ يأبن آدم على أن تبلُغ هذا الموضع ولم يبلُغه أحدٌ من ولد آدمَ قبلك؟! قال: قوّاني الله الذي قوّاك على قبض هذا الجبل. فأخْبِرْني عن هذا الجبل. قال: إنه قافٌ المحيط بالأرض كلها، ولولا هو لأنكفأت الأرض بأهلها، وليس على ظهر الأرض أعظم منه، وإنه لمحيط بها كالحَلْقة، وهو أوّل جبل أثبته الله، فرأسُه مُلصَقٌ بسماء الدنيا، وأسفله راسخ في الأرض السفلى.

وحكى إبراهيم بن وَصِيف شاه[٢] في كتاب العجائب الكبير: أنّ ذا القرنين لمّا سار إلى الظُّلمة مرّ بجزيرة فيها أُمّة رؤوسُهم رؤوسُ الكلاب العظام باديةٌ أنيابُهم، يخرج من أفواههم مثلُ لَهَبِ النار، وأنهم خرجوا إلى مراكبه فحاربوه فتخلّص منهم، وسار فرأى نورًا ساطعًا فقصده فإذا هو قد بلغ جزيرةَ القصر. قال: وهذه الجزيرة فيها قصرٌ مبنيّ بالبلّور الصافي عالي الطول يشفّ حتى يُرَى نورُه على البعد، فأراد النزول بها، فمنعه بهرام فيلسوف الهند وعرّفه أنّ من نزل إليها وقع عليه النومُ وعزَب[٣] عقلُه فلا يستطيع الخروج منها حتى يهلِك. قال: ويقال إنه ظهر لهم منها قوم قِصَار زُعْرٌ[٤]، لباسُهم ورق الشجر. فسأل بهرامُ عن صبرهم على المُقام بها، فعرّفوه أنّ بها ثمرًا إذا أكلوا منه زال عنهم ذلك، وذكروا أنهم إذا كان الليل ظهر بين شُرَف القصر

---

(١) دار ابن دار: هو داريوس الثالث، سقطت أمبراطوريته بعد أن هزم الإسكندر جيوشه عند أسوس سنة ٣٣٣ق.م، وقد قتله جماعة من قومه، وهو آخر من ملك مصر من الفرس «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥ والموسوعة العربية الميسرة ص٧٧٣».

(٢) هو إبراهيم بن وصيف شاه، مؤرّخ له كتاب «عجائب الدنيا» ثلاثة أجزاء وجواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الدّيار المصرية، توفي سنة ٥٩٦هـ.

(٣) عزب عقله: ضلّ.

(٤) الزّعر: القليل الشّعر المتفرّقه، وزعر الرّجل: ساءت أخلاقه وقلّ خيره.

مثلُ المصابيح تُسرَج[١] إلى الصُّبح ثم تُخمَد نهارًا إلى الليل فتُوقَد. قال: ويقال إنه مرّ في طريقه بجزيرة التِّنِّين[٢] وإنها جزيرة فيها جبال وأنهار وأشجار وزروع وهي عامرة، وعلى مدينتها حصنٌ عالٍ، وبها تِنِّين عظيمٌ قد سام[٣] أهلَها أقبح سَوْم. فلمّا دخلها الإسكندر استغاثوا به من التنِّين وأنه أتلف مواشِيَهم حتى إنهم جعلوا له في كل يوم ثورين ينصِبونهما قريبًا من موضعه، فيخرج فيبتلعهما. فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلِخَا وحشا جلودهما زِفْتًا وكِبْرِيتًا وكِلْسًا وزِرْنيخًا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليبَ حديد، وجعلهما في ذلك المكان. وخرج التنِّين وأقبل كالسحابة السوداء وعيناه تلمعان[٤] كالبرق، والنار تخرج من جوفه، فٱبتلعهما ومضى، فٱضطرمت تلك الأشياء في جوفه، فلمّا أحسّ بثِقَلها ذهب ليقذفها، فتشبّكت الكلاليب في حلقه فخرّ وفتح فاه ليستَرْوِح، فأمر الإسكندر بقِطَع الحديد فأُحمِيَتْ وحُمِلت على ألواح من حديد وقُذِفت في حلقه فمات. ففرح أهل ذلك الموضع بموته وألطفوا الإسكندر وحملوا إليه من طرائف ما عندهم. وكان فيما حملوه إليه دابّة في خَلْق الأرنب، شعرها أصفر يبرق كالذهب، يسمّونها المعراج[٥]، وفي رأسها قرن واحد أسود، إذا رأتها الأسود وسباع الوحش وكلّ دابّة هربَت منها.

وقال الأنماطيّ في سياقة أخبار الإسكندر عن وهب تلو خبر السدّ: ثم انطلق ذو القرنين بعد ذلك، فبينما هو يسير إذ مرّ على شيخ يصلّي، فوقف عليه بجنوده حتى إذا ٱنصرف من صلاته قال له: كيف لم يَرُعْك ما حضرك من الجنود؟! قال: كنت أُناجي مَنْ جنودُه أكثرُ من جنودك، وسلطانُه أعزُّ من سلطانك، وقوّته أشدّ من قوّتك؛ ولو صرفتُ وجهي إليك لم أُدرك حاجتي قِبَله. قال له: هل لك أن تنطلق معي وأواسيَك بنفسي وأستعينَ بك على بعض أمري؟ قال: نعم، إن ضمِنتَ لي أربعةَ خِصالَ: نعيمٌ لا يزول، وصحةٌ لا سَقَمَ فيها، وشبابٌ لا كِبَرَ فيه، وحياةٌ لا موت فيها. قال له ذو القرنين: وأيّ مخلوق يقدِر على هذه الخصال! قال الشيخ: فإنّي مع

(١) تُسرج: توقد وتضاء.

(٢) هذه الجزيرة تسمّى «جزيرة المستشكين» والتنين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير. «انظر مسالك الأبصار ٢/ ٦٧».

(٣) سام: أذلّ وأنزل البلاء والعذاب.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن مسالك الأبصار.

(٥) المعراج: دابة عظيمة عجيبة مثل الأرنب، صفراء اللون، على رأسها قرن واحد أسود، لم يرها شيءٌ من السبّاع والدّواب إلا هرب «انظر حياة الحيوان للدّميري ٢/ ٣٨٤».

مَن يقدر عليها ويملكها، فتركه وسار. فبينما هو يسير إذ دَفَع إلى الأمة الصالحة من قوم موسى الذين يهدون بالحقّ وبه يعدِلون، فوجد أمّة مُقْسِطةً[١] عادلةً يَقسمون بالسَّوِيّة، ويحكمون بالعدل ويتواسَوْن، فكلمتُهم واحدة، وقلوبُهم مؤتلفة مستقيمة، وسِيرتُهم مستوية، وقبور موتاهم في أفنيتهم، وليس على بيوتهم أبواب تُغلَق[٢]، وليس عليهم أُمراءُ، ولا قضاة بينهم، ولا أشراف يتفاوتون، ولا يتفاضلون ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يتسابّون ولا يقتتلون ولا يقحَطون[٣] ولا تصيبهم الآفات[٤]؛ فعجِب من أمرهم وقال: أخبروني خبركم أيها القوم؛ فإنّي قد أحصيتُ الأرض شرقَها وغربَها، وسهلَها وجبلَها، وبَرَّها وبحرها، ونورَها وظُلْمتها، فلم أرَ مثلكم. قالوا: سَلْنا عمّا بدا لك نُخْبِرْك. قال: ما بال قبوركم في أفنيتكم[٥] وعلى أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت ولا يخرجَ ذكره من قلوبنا. قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟ قالوا: ليس فينا متّهم ولا ظَنِين، ولا فينا إلاّ مُؤتَمَنٌ أمين. قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لأنّا لا نتظالم[٦]. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لأنّا لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا تتفاضلون ولا تتفاوتون؟ قالوا: من قِبَل أنّا متواسُون متراحمون. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟ قالوا: لأنّا لا نتنافس. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من أُلفة قلوبنا وصلاحِ ذاتِ بيننا. قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام؟ قالوا: نحن لا نختصم. قال: فما بال كلمتكم واحدة؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضًا. قال: فأخبروني من قِبَلِ ماذا تشابهت قلوبكم واعتدلت سِيرتكم؟ قالوا: من صحّة صدورنا، فنزع الله بذلك الغِلّ والحسَد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسم بالسويّة. قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظٌ؟ قالوا من قِبَل الذل والتواضع. قال: فأخبروني بماذا أنتم أطول الناس أعمارًا؟ قالوا: من قِبَل أنّا نتعاطَى الحقّ ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنّا لا نغفُل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تُصيبكم الآفات؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتوكّل إلاّ على الله، ولا نَستمطر

---

(١) المقسطة: العادلة.

(٢) في الأصل: وليس على أبواب بيوتهم أبواب تغلق، فجرى التصويب ليستقيم السّياق.

(٣) القحط: الجدب.

(٤) الآفات: مفردها «الآفة» وهي كلّ ما يصيب شيئًا فيفسده من عاهة أو مرض أو قحط.

(٥) الأفنية: مفردها «الفناء» بكسر الفاء وهو ساحة الدّار أو الساحة بجانبها.

(٦) نتظالم: أي نظلم بعضنا بعضًا.

بالأنواء[١] ولا بالنجوم. قال: أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يُعطُون مسكينهم، ويُواسُون فقيرهم، ويوقّرون غنيّهم، ويعفُون عمّن ظلمهم، ويُحسنون إلى مَن أساء إليهم، ويحلُمون عمّن جهِل[٢] عليهم، ويستغفرون لمن سبّهم، ويَصِلون أرحامهم، ويؤدّون أمانتهم، ويحفظون وفاءهم لصلاحهم، ويُوفون بعهدهم، ويصدقون في مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون[٣] عن أقاربهم؛ فأصلح الله تعالى لهم بذلك أمرهم، وحفِظهم به ما كانوا أحياء. قال: فأقام ذو القرنين عندهم حتى قبضه الله عزّ وجل، ولم تطُل مدّة إقامته فيهم. قال وهب: عاش منذ بعثه الله تعالى إلى أن قُبض خمسَمائة عام. وقال غيره: أكثر من ذلك، وقد ذكر في المعمَّرين. وقيل: إنه عاش ألف وستمائة وخمسين سنة ومات في حياة أمه. وقيل: إنه أدرك إبراهيم الخليل وٱجتمع معه وأركبه من دوابّه. حكاه الأزرقيّ[٤] وأبو عبيد البكريّ[٥]. والله أعلم.

الباب الثاني
من القسم الرابع من الفنّ الخامس
في أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر

ذكر أخبار ملوك الهند

قال المسعودي[٦] في مروج الذهب: ذكر جماعة من أهل النظر والبحث الذين

---

(١) الأنواء: مفردها النوء، وهو النجم إذا مال للغروب، أو هو المطر.

(٢) جهل: تسافه. (٣) يستنكفون: يمتنعون ويأنفون.

(٤) الأزرقي: هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق، أبو الوليد الأزرقي، مؤرّخ يماني الأصل من أهل مكة، له كتاب «أخبار مكة وما جاء فيها من آثار» توفي نحو سنة ٢٥٠هـ «الأعلام ٦/ ٢٢٢».

(٥) أبو عُبيد البكري: هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، مؤرّخ جغرافي، ثقة، علاّمة بالأدب وله معرفة بالنّبات، توفي بقرطبة عن سنّ عالية وذلك سنة ٤٨٧هـ له مؤلّفات عدّة منها «المسالك والممالك، ومعجم ما استعجم وأعلام النبوة وغير ذلك كثير» انظر «الأعلام ٤/ ٩٨».

(٦) المسعودي: هو علي بن الحسين بن عليّ المسعودي المؤرّخ، أبو الحسن، من ولد عبد الله بن مسعود صاحب النبيّ ﷺ أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٣٤٦، وكان من المعتزلة، له مؤلّفات عدّة «الأعلام ٤/ ٢٧٧».

واصلوا البحث والعناية بتأمّل شأن هذا العالم وبدئه[١] أنّ الهند كانت في قديم الزمان الفرقةَ التي فيها الصلاح والحكمة، وأنه لمّا تجيّلت[٢] الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضمّ المملكة وتستولي على الحوزة[٣] وتكون الرياسة فيها. قال كبراؤهم: نحن كنّا أهلَ البدء وفينا التناهي، ولنا الغاية والصدر والأنتهاء، ومنّا سرى الأب إلى الأرض، فلا شاقّنا أحدٌ ولا عاندنا ولا أراد بنا الأغتماص[٤] إلاّ أتينا عليه وأبدناه أو يرجعَ إلى طاعتنا. فأجمعت على ذلك رأيها ونصبتْ لها ملكًا، وهو «البَرهمَنُ» الأكبر والملك الأعظم، وإليه تُنسَب طائفة البراهمة بالهند، لا إلى إبراهيم الخليل ﷺ. وهذا «البرهمن» هو الإمام المقدّم فيهم الذي ظهرت في أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء، وأمر بأستخراج الحديد من معادنه، وضُربت في أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع السلاح وآلات القتال، وشيّد الهياكل ورصّعها بالجواهر النفيسة المشرقة، وصوّر فيها الأفلاك والبروج الأثني عشر بُرْجًا والكواكب، وبيّن بالصورة كيفيّة العالم، وأرى بالصورة أيضًا كيفيّة أفعال الكواكب في هذا العالَم وإحداثها للأشخاص الحيوانيّة من الناطقة وغيرها، وبيّن حال المدبِّر الأعظم الذي هو الشمس، وبرهن على ذلك كلّه وقرّبه إلى عقول العوامّ وأذهانهم ففهموه، وغرس في نفوس الخواصّ دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المُبدىء الأوّل المُعطي لسائر الموجودات وُجُودَها الفائض عليها بجُوده[٥]. فأنقادت له الهند، وأراهم وجه مصالح الدنيا وأخصبت بلادهم. وجمع الحكماءُ في أيامه كتاب «السند هند»[٦]، وتفسيره دهر الدهور، ومنه فُرِّعت الكتب، ككتاب الأزجهير والمِجَسْطِي، وفُرِّع من الأزجهير الأركند ومن المجسطي[٧] كتاب بطليموس[٨]، ثم عُمِل منها بعد ذلك الزِّيجات. وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهنديّ. وكان البرهمن هذا أوّل من تكلم

---

(١) زيادة عن مروج الذهب.

(٢) تجيّلت الأجيال: أي أتى الواحد منها بعد الآخر.

(٣) الحوزة: الناحية، أو «مكان العلم والحكمة».

(٤) الاغتماص: الاحتقار والاستصغار.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

(٦) السند هند: أحد المذاهب الثلاثة المشهورة للهند في علم النجوم، وهذا المذهب هو الذي تقلّده جماعة من الإسلام وألّفوا فيه الأزياج، وفي طبقات الأمم أن السند هند معناه «الدهر الداهر» «انظر طبقات الأمم لابن صاعد ص١٩».

(٧) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

(٨) بطليموس: هو أحد ملوك اليونان ملك بعد أبيه ويعرف ببطليموس صاحب علم الفلك وهو الذي ألّف كتاب المجسطي، وقد ملك أربعًا وعشرين سنة «صبح الأعشى ٣/ ٤٧٧».

في أوج الشمس[١]، وذكر أنه يقيم في كلّ بُرْج ثلاثة آلاف سنة، ويقطع الفَلَك في ستّة وثلاثين ألف سنة، إلى غير ذلك من هذا الفنّ. وكان مُلْك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستًّا وستين سنة، وولده يعرفون بالبراهمة، والهند تعظّمهم إلى وقتنا هذا، وهم أعلى أجناسهم وأشرفُهم، وهم لا يتغذّون بشيء من الحيوانات. وفي رقاب النساء والرجال منهم خيوط صُفْر يتقلّدون بها كحمائل السيوف، تفرّق بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند. وقد تنوزع في البرهمن، فمنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله إلى الهند، ومنهم مَن زعم أنه كان ملكًا، على حسب ما قدّمناه وهو الأشهر. ولمّا هلك البَرَهْمَن جزِعت عليه الهند جزعًا شديدًا، وملَّكت عليها ولده الأكبر.

ذكر تنصيب ٱبن البَرَهْمَن وهو الباهبُود[٢]

وكان وليّ عهد أبيه من بعده. فسار فيهم سيرةَ أبيه وأحسن النظر إليهم، وزاد في بناء الهياكل، وقدّم الحكماء ورفع من مقدارهم وزاد في مراتبهم، وحثّهم على تعليم الناس الحكمة وبعثهم على طلبها. وكان مُلْكه إلى أن هلك مائةَ سنة. وفي أيامه عمِل النَّرْد[٣] ولعِب به، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب، وأنها لا تُنَال بالكَيْس[٤] ولا بالحِيَل في هذه الدنيا، وأن الرزق لا يتأتّى فيها بالحذق. وذكر أن أرْدَشير بن بابك[٥] أوّل مَن وضع النَّرد ولعب بها، وأرى تقلُّب الدنيا بأهلها وٱختلاف أمرها. وجعل بيوتها لاثني عشر بعدد الشهور، وجعل مهاركها ثلاثين بعدد أيام الشهر، والفصوص أمثلة للقَدَر وتقلبه بأهل الدنيا وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القَدَر له في مراده بها ما يريد، وأن الحازم الفَطِن لا يتأتّى له ما يتأتّى لغيره إذا لم يُسعده القَدَر، وأن الأرزاق لا تُنال في هذه الدنيا إلا بمقادير.

---

(١) أوج الشمس: قال المسعودي: الأوج على رأي البرهمن في وقتنا هذا هو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، في برج الثور، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة، فصار العامر خرابًا والخراب عمارًا والشمال جنوبًا والجنوب شمالاً «انظر مروج الذهب ١/ ٣٥ وما بعدها».

(٢) في مروج الذهب ١/ ٣٧ «الناهود».

(٣) النّرد: لعبة تعرف بلعبة الطاولة أو بطاولة الزّهر.

(٤) الكَيْس: العقل.

(٥) أردشير بن بابك: هو أول ملوك الطبقة الرابعة من الفرس «الأكاسرة» من عقب ساسان بن أردشير بهمن، قتل «أردوان» واستولى على ملكه، فأقام أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكتب عهدًا بالملك في عقبه ومات، فملك بعد ابنه سابور. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٢».

ثم ملك بعده رامان[١]، فكان مُلْكه نحوًا من خمسين ومائة سنة. قال: وله سِير وأخبار وحروبٌ مع ملوك فارس وملوك الصين.

ثم ملك بعده فُور، وهو الذي قتله الإسكندر بن فِيلِبْس اليونانيّ مبارزةً. وكان مُلْكه إلى أن قُتِل أربعين ومائة سنة.

ثم ملك بعده تسام[٢]، وهو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة الذي نقله ٱبن المقفّع. وكان مُلكه مائة وعشر سنين[٣]، وقيل غير ذلك.

ثم ملك بعده بلهيت. وفي أيامه صُنِعت الشِّطْرَنْج فقضى بلعبها على النَّرْد، وبيَّن الظفَر الذي يناله الحازم والنكبة التي تلحق الجاهل وحسب حسابهما، ورتّب لذلك كتابًا للهند يتداولونه بينهم، ولعب بها مع حكمائه. وكانت مدّة مُلكه إلى أن هلك نحوًا من ثمانين سنة، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة.

ثم ملك بعده كُوش[٤]، فأحدث للهند آراءً في الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وما يحتمله أهل العصر من التكليف، وخرج عن مذاهب مَن سلَف. وكان في مملكته وعصره سندباد، وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وٱمرأة الملك، وهو الكتاب المترجم بكتاب السندباد. وعُمِل لهذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العِلَل والأدواء والعلاجات وأشكال الحشائش وصفتها. وكان مُلْك هذا الملك إلى أن هلك عشرين ومائة سنة. ولمّا هلك اختلفت الهند في آرائها فتحزّبت الأحزاب وتجيّلت الأجيال، وٱنفرد كل رئيس بناحيته، فملّك على أرض السند[٥] ملك، وعلى أرض القِنَّوج[٦] ملك، وعلى أرض قِشْمير[٧] ملك. فكانت مدّة ٱجتماع الكلمة ببلاد الهند على ملك واحد على هذا الحكم نحوًا من ألف سنة وستٍّ وستين سنة، وعلى القول الآخر ألف سنة ومائة سنة وست عشرة سنة. وعدّة ملوكهم سبعة ملوك. والله تعالى أعلم.

---

(١) في المسعودي «دامان».
(٢) في المسعودي «وسلم».
(٣) في المسعودي «مائة وعشرين سنة».
(٤) في المسعودي «كورس».
(٥) السِّند: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان، قيل: السّند والهند كانا لأخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح، وقصبتها مدينة يقال لها «المنصورة» «معجم البلدان ٣/ ٢٦٧».
(٦) القَنُّوج: موضع في بلاد الهند، وقيل: إنها أجمة «معجم البلدان ٤/ ٤٠٩».
(٧) قشمير: مدينة متوسطة لبلاد الهند، قيل: إنها مجاورة لقوم من الترك فاختلط نسلهم بهم فهم أحسن خلق الله خلقه «معجم البلدان ٣/ ٣٥٢».

وملك بعد كُوش بمدينة المانكير وهي الحَوْزة الكبرى ملك يسمَّى البَلَهْرَا. قال المسعودِيّ: وأرض الهند أرضٌ متّسعة في البرّ والبحر والجبال. وملكهم يتّصل بملك الزّنْج وهي دار مملكة المَهْراج[١]. وهذه المملكة فَرْزٌ[٢] بين مملكة الهند والصين. قال: ومن عادة الهند أنها لا تملّك الملك حتى يبلُغ عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلاّ في كل برهة معلومة من الزمان. ويكون ظهور الملك للنظر في أمور الرعيّة. وقال أيضًا: رأيت في بلاد سَرَنْديب[٣]، وهي جزيرة من جزائر البحر إذا مات ملكهم صيَّروه على عجلة صغيرة البَكَر، وشعره ينجرّ على الأرض، وٱمرأةٌ بيدها مِكْنسةٌ تحثو التراب على رأسه وتنادي: أيها الناس، هذا مَلِكُكم بالأمس قد مَلَككم وجاز فيكم أمره قد صار إلى ما تَرَوْن من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الملوك الحيّ القديم الذي لا يموت. فلا تغترّوا بالحياة بعده. وكلامٌ هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالَم. ويطاف به في جميع شوارع المدينة وهو كذلك. ثم يُفصَل بأربع قِطَع وقد هُيِّىء له الصندل[٤] والكافور[٥] وسائر أنواع الطِّيب ويُحرَق بالنار ويذرّى رماده في الرياح. قال: وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصّهم لغرض يذكرونه. قال: والمُلْك مقصور في أهل بيت لا ينتقل منهم إلى غيرهم. وكذلك بيوت الوزراء والقضاة وسائر أرباب المراتب، تتوارث مناصبهم ولا تغيّر ولا تبدّل. وعندهم أنّ ملكهم متى شرب الشراب فقد ٱستحق الخلع. والله الهادي.

ذكر أخبار ملوك الصين

قال أبو الحسن عليّ بن عبد الله المسعوديّ في كتابه المترجم بمروج الذهب[٦]: لمّا قسم فَالَغُ[٧] بن عَابَرَ بن أرْفَخْشَذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد

---

(١) المهراج: ومنها المهراجا: وهو لقب أمراء الهند، ويعني الملك الكبير.

(٢) الفرز: موضع منخفض بين ربوتين.

(٣) سرنديب: هي جزيرة سيلان الآن، وهي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند، وفيها الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام ويقال له: «الرّهون» «معجم البلدان ٣/ ٢١٦».

(٤) الصندل: شجر خشبه طيّب الرائحة، يظهر طيب خشبه بالإحراق أو بالدّلك وألوانه مختلفة: أحمر وأبيض وأصفر.

(٥) الكافور: شجر من الفصيلة الغاريّة يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مرّ، وهو أصناف كثيرة.

(٦) راجع مروج الذهب ١/ ٦١ «ط. بولاق».

(٧) في الكتاب المقدّس ١/ ١٨ «فالج».

نوح سار ولد عامور[١] بن تُوبَلَ[٢] بن يَافَثَ بن نوح يَسْرَةَ المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد عامور على ساحل البحر حتى ٱنتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين. فتفرّقوا في تلك البقاع والبلاد وقطنوها وعمّروها، وكوّروا[٣] الكُوَر، ومصروا الأمصار، ومدّنوا المُدُن، وٱتخذوا للملك مدينة عظيمة سمّوها إيقو[٤]، وبينها وبين ساحل البحر الحبشيّ، وهو بحر الصين مسيرة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. فكان أوّل مَن تملّك عليهم في هذه الديار نسطِيرطاس[٥] بن ماعو[٦] بن بزنج[٧] بن عامور. قال: ولمّا ملك فرّق أهله في تلك الديار، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار، وطعّم[٨] الثمار، وقتل السباع. وكانت مدّة ملكه ثلاثمائة سنة ونيّفًا وهلك.

فقام بالأمر بعده ولده عَرُون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعًا عليه وتعظيمًا له، وأجلسه على سرير من الذهب مُرصّع بالجوهر، وجعل مجلسه دونه، وسجد له وهو في جوف ذلك التمثال، وسجد معه أهل مملكته، وفعل ذلك في كل نهار في طرفيه. وكانت مدّة مُلْكه بعد أبيه نحوًا من مائتي سنة وخمسين سنة ثم هلك.

فملك بعده ٱبنه عِبيرون بن عَرُون. ولمّا ملك جعل جسد أبيه عَرون في تمثال من الذهب ونصبه دون مرتبة جدّه، وكان يبدأ بالسجود لجدّه ثم يسجد لأبيه، وساس الرعيّة بأحسن سياسة، وساواهم في جميع أمورهم، وشملهم بعدله، وكثر النسل، وأخصبت الأرض. وكان مُلْكه إلى أن هلك مائتي سنة.

ولمّا مات ملك بعده ولده عَثِينان بن عَبِيرون. قال: ولمّا ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وجرى في أمره على ما سلف من عادتهم في السجود والتعظيم. وطالت مدّته في الملك، وٱتسعت مملكته حتى ٱتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه. وٱتُّخِذَ في أيامه كثيرٌ من المهن مما لطف في الرقة من الصنائع، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك.

---

(١) في المسعودي: «عابور».

(٢) في الأصل «سربل» والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/٥١٧.

(٣) كوّروا الكور: أي أدخلوا من هذه الكورة في تلك، أو زاد في هذه الكورة من تلك، والكورة: الصّقع أو البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

(٤) في المسعودي: «انموا». (٥) في المسعودي: «اسطرماس».

(٦) في المسعودي: «فاعور». (٧) في المسعودي: «بريح».

(٨) طعّم الثمار: يقال: طعّم الغصن بآخر من غير شجره، أي وصله به وركّبه فيه ليتكوّن من الغصنين المركّبين غصنٌ آخر يثمر ثمرًا جديدًا.

فملك بعده أبنه حَرَانان بن عَثِينان. قال: ولما ملك جرى في جسد أبيه على عادتهم، ثم أمر بأتّخاذ الفُلْك[١] وحمل فيها الرجال، وحمل معهم لطائف بلاد الصين وسفّرهم نحو بلاد الهند والسند وإلى إقليم بابل وسائر الممالك مما قرب وبعد في البحر. وأهدى إلى الملوك الهدايا العجيبة والتحف النفيسة. وأمر أصحابه الذين سفّرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف[٢] والتحف والمأكول الذي لا يوجد في بلاده، والمشروب والغروس وأصناف الأقمشة والأمتعة وغير ذلك. وأمرهم أن يتعرّفوا سياسة[٣] كلّ ملك، وملّة كل أمة وشرائعها ونهجها الذي هي عليه، وأن يرغّبوا الناس فيما في بلادهم من الجواهر والطِّيب والآلات. فتفرّقت تلك المراكب في البلاد وفعلوا ما أمرهم به، فلم يَرِدُوا على مملكة من الممالك إلاّ أعجبوا بهم وأستظرفوا ما معهم. فأنشأت الملوك المحيطة ممالكُهم بالبحار السفن وجهّزت نحو الصين، وحملوا إليهم ما ليس عندهم. وكاتبوا ملكهم وكافؤوه على ما كان قد هاداهم به من تحف بلاده، فعمرت بلاد الصين، وأستقامت أمور مملكة الصين. فكانت مدّة حياته في الملك نحوًا من مائتي سنة وهلك، فجزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزنًا شديدًا، وأقاموا النياحة عليه شهرًا.

وملك بعده ابنه توتال بن حرانان. قال: ولما ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وسلك فيه سنّة[٤] من تقدّمه من آبائه، وأستقام أمره، وأحدث من السُّنَن المحمودة ما لم يُحدثه أحدٌ من الملوك قبله. وقال لأهل مملكته: إنّ المُلْك لا يثبت إلا بالعدل لأنه ميزان الباري، وإنّ من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل. وخصّ وشرّف وتوّج ورتّب الناس في رتبهم، ووقفهم على طرائقهم. وخرج يرتاد موضعًا يبني فيه هيكلاً، فوافى موضعًا عامرًا بالنبات، حسن الاعتمام[٥] بالزهر، تخترقه المياه. فخطّ الهيكل هناك، وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان، فشيّد الهيكل وجعل على أعلاه قبّة، وجعل لها مخارق[٦] للهواء متساوية. وجعل في الهيكل بيوتًا لمن أراد الأنفراد للعبادة. فلمّا فرغ من الهيكل نصب في أعلاه تلك

---

(١) الفُلك: السفينة، للمذكر والمؤنّث والواحد والجمع.
(٢) الطّريف: الغريب المستحسن.
(٣) سياسة كل ملك: أي تدبيره لأمور مملكته.
(٤) السنّة: الطريقة في الحكم.
(٥) الاعتمام: قال: اعتمّ النبت، أي تمّ طوله وظهر نَوْره، والاعتمام: ظهور النّور.
(٦) المخارق: الخروق والفتحات.

التماثيل التي فيها أجسام مَن سلف من آبائه، وقال: في ترك ذلك على ما هو عليه خروج عن حدّ الحكمة، ويكون ذلك إلى غير غاية ونهاية. وأمر بتعظيم تلك الأجساد التي جعلها في أعلى القبّة. ثم جمع الخواصّ من أهل مملكته وأخبرهم أنّ من رأيه أن يضمّ الناس إلى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل ويتساوى النظام، وقال: إنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل؛ فرتّب لهم سياسة وشريعة وفرائض، ورتّب لهم قِصَاصًا للنفوس والأعضاء، وقاعدةً تستباح بها الفروج وتصحّ بها الأنساب. وجعل مما رتّبه وقرّره لوازم ونوافل(١)، وأوجب عليهم صلواتٍ لخالقهم تقرّبًا إلى معبودهم منها إيماءٌ لا ركوعَ فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنين وفي شهور محدودة. ورسم لهم أعيادًا، وأوجب على الزُّناة منهم حدودًا، وعلى مَن أراد من نسائهم البِغاءَ جزيةً مقرّرة، وألاّ يستبحن بالنكاح وقتًا من الأوقات، وإن أقلعن عما كنّ عليه تكف الجزية عنهنّ. وما يكون من أولادهنّ ذكورًا يكونون للملك جُنْدًا وعبيدًا، وما يكون من أولادهنّ إناثًا فلأمهاتهنّ ويلحقن بصنعتهنّ. وأمر بقرابين للهياكل ودُخْنٍ(٢) وأبخرة للكواكب. وجعل لكل كوكب منها دُخْنًا يتقرّب إليه بها معمولة من أنواع الطِّيب والعقاقير. وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه وكثُر النسل. فكانت مدّة حياته نحوًا من مائة وخمسين سنة ثم مات، فجزعوا عليه جزعًا عظيمًا، وجعلوه في تمثال من الذهب ورصّعوه بالجوهر وبنوا له هيكلاً عظيمًا، وجعلوا في أعلاه سبعة أنواع من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيدًا يجتمعون فيه عند [ذلك](٣) الهيكل، وصوّروا صورته وذكروا سيرته في لوح من الذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالاً لمن يَرِد بعده في السياسة ونهج السيرة وصوّروا صورته على أبواب المدينة. وعلى الدنانير والفلوس والثياب. وأكثر أموالهم الفلوس الصُّفْر والنُّحاس. قال: واستقرّت هذه المدينة دار ملك الصين وهي مدينة إيفو. قال: ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلي مغرب الشمس من أرضهم يقال لها مدو، وتلي بلاد التُّبَّت(٤). والحرب بين أهل مدو وبين

---

(١) اللوازم: الواجبات، والنّوافل: ما يتطوّع به الإنسان.

(٢) الدُّخن: الأبخرة والأطياب، أو هو نبات برّي من الفصيلية البخيلية، حبّه كحبّ السّمسم.

(٣) ما بين قوسين ممّا تقدّم زيادة عن المسعودي.

(٤) التبت: بلدٌ بأرض الترك، قيل هي في الإقليم الرابع المتاخم لبلاد الهند وهي مملكة متاخمة لبلاد الصين. وفيها عمائر ومدن كثيرة ذوات سعة وقوّة «انظر معجم البلدان ٢/ ١٠».

أهل بلاد التُّبَّت سجال[١]. ولم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورُهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصب لهم توتال من الأحكام. وحروبهم على عدوّهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود جار، والتجّار يختلفون إليهم في البرّ والبحر من كل بلد. ودينهم دين من سلف من آبائهم، وهي ملّة تُدعَى السُّمَنية[٢]، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل الإسلام، يعبدون الصُّوَر ويتوجهون نحوها بالصلوات. فاللبيب فيهم يقصد بصلاته الخالق عزّ وجل، ويقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قِبْلة. والجاهل ومن لا عِلْم له يُشرك هذه التماثيل بإلاهية الخالق ويعتقدهما[٣] جميعًا، وأنّ عبادتهم الأصنام تقرّبهم إلى الله زُلْفى، وأنّ منزلتهم في العبادة تنقُص عن الباريء لجلالته وعظمته وسلطانه، وأنّ عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة، إلى أن ظهرت في أهل الصين آراء ونِحَلٌ حدثت من مذاهب الثَّنَويّة[٤] وأهل الدهر[٥]. وقد كانوا قبل ذلك في الآراء وعبادة التماثيل على حسب ما عليه عوامّ الهند وخواصّهم، فتغيّرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا، إلاّ أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نُصِب لهم من القاعدة التي قدّمناها. قال: ومُلْكهم متصل بمُلْك الطُّغُزْغُر[٦]. وكان اعتقاد الطُّغُزْغُر القول بإلٰه النور والظُّلْمة، وكانوا قبل ذلك جاهليّة جهلاء، سبيلهم في الأعتقاد سبيل أنواع الترك، إلى أن وقع إليهم شيطان من شياطين المانيّة[٧]، فزخرف لهم كلامًا يريهم فيه تَضَادّ هذا العالم وتنافِيَه من موت وحياة وصحّة وسقم وغنى وفقر وضياء

(١) سجال: يقال الحرب بينهم سجال: أي أن النّصر بينهم متداول.

(٢) السُّمنيّة: قوم بالهند من عبدة الأصنام دهريون، قائلون بالتناسخ وينكرون وقوع العلم بالأخبار، يقال: إنه نسبة إلى اسم صنم لهم، وقيل: إن نسبتهم إلى اسم بلد بالهند يقال لها سومات فتكون النسبة على غير قياس «شرح القاموس مادة سمن».

(٣) في الأصل: ويعبدهما والتصويب عن المسعودي، وما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

(٤) الثنوية: أصحاب الاثنين، زعموا أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنّهم قالوا بحدوث الظلام والنور.

(٥) أهل الدّهر: الذين يقولون: ما يهلكنا إلاّ الدّهر، ولا يعتقدون بالآخرة.

(٦) الطغزغر: جيل من الترك كانوا يسكنون أرضًا واسعة على حدود الصين، وهم فيها أصحاب خيام كأعراب البادية، ويقال لهم أيضًا طغزغز، وتغزغز وتغرغر «انظر النجوم الزاهرة ٣/٣».

(٧) المانيّة: ويقال لهم: المانوية، أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في إيران في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام، زعم أن العالم مركّب من أصلين أحدهما النور والآخر الظلمة، وأنهما أزليّان «انظر الملل والنحل للشهرستاني».

وظلام وٱجتماع وٱفتراق وٱتصال وٱنفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادّات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان الناطق والصامت، وما يعرض للأطفال والبُله والمجانين، وأنّ الباري غنيّ عن إيلامهم، وأراهم أنّ هناك ضِدًّا شديدًا دخل على الخير الفاضل في فعله وهو الله تعالى الله ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، فٱجتذب بذلك عقولهم ودانوا به. فإذا كان ملك الصين سُمَنيّ[١] المذهب يذبح الحيوانات، فتكون الحرب بينه وبين ملك الترك قائمة، وإذا كان مانيّ المذهب كان الأمر بينهم مشاعًا.

قال: وملوك الصين ذوو آراء ونِحَل، إلاّ أنهم مع ٱختلاف أديانهم غير خارجين عن قضيّة العقل وسُنَن الحق في نَصْب القُضَاة والأحكام، وٱنقياد الخواصّ والعوامّ إلى ذلك. قال: وأهل الصين شعوبٌ وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها[٢]، ولهم مُراعاةٌ لحفظ أنسابهم. وينتسب الرجل منهم إلى خمسين أبًا وأكثر إلى أن يتصل بعامور[٣]. ولا يتزوّج أهل كل فخذ إلا من فخذهم، ويزعمون أنّ في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنّ ذلك أصحّ للبقاء وأتمّ للعمر.

قال المسعوديّ: ولم تزل أمورُ الصين مستقيمةً في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سَلَف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين؛ فإنه حدث في مُلْك الصين أمر زال به النظام وٱنتقض به حكم شرائعهم ومَنَع من الجهاد. وكان سبب ذلك أنّ خارجيًّا خرج ببلد من مدن الصين وهو من غير بيت المُلْك، يقال له ياسر، شرّير. وكان في ٱبتداء أمره يطلب الفتوّة[٤]، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشرّ، فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره. وأنه ممن لا يبالَى به؛ فاشتدّ أمره، ونما ذكره، وكثر عتوّه[٥]، وقَوِيتْ شوكته، وقطع أهل الشرّ المسافات نحوه. فسار من موضعه وشنّ الغارات، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو[٦]، وهي المدينة العظيمة. قال:

---

(١) السّمنيّ: نسبة إلى السّمنية، أي الدّهريون الذين يقولون بالتناسخ ويؤمنون ببقاء الدهر.

(٢) الأفخاذ: مفردها فخذ، وهو في القبيلة: إحدى فصائلها أو أحيائها.

(٣) في المسعودي «عابور».

(٤) الفتوّة: ألعاب الشباب والقوّة.

(٥) العتو: الاستكبار وتجاوز الحدّ والتعالي والظّلم.

(٦) خانقو: مدينة تقع إلى الشرق من مصبّ نهر حمدان «بنغ تسي كنغ» ونهر حمدان كما رسمه الإدريسي يصبّ في المحيط بفرعين بينهما بعد كبير، ويلتقيان في الدّاخل على مسافة كبيرة وتقع خانقو على الفرع الجنوبي منهما، وذهب محقق وناشر خرائط الإدريس كونراد ميلر إلى أن خانقو هي مدينة «كنتون» الآن «راجع مسالك الأبصار ٢/ ٣٩ الحاشية رقم ٤».

وهي على نهر عظيم أكبر من دِجْلة أو نحوه، تدخله السفن التي ترد من بلاد البصرة وسِيرَاف[١] وعُمَان[٢] ومدن الهند وجزائر الزابج[٣]. وبين هذه المدينة وبحر الصين مسيرة ستة أيام أو سبعة، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين. فقصد الخارجيّ هذه المدينة، والتقى بجيوش الملك فهزمها. وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة. وقتل من أهل مدينة خانقو خَلْقًا لا يُحصَوْن كثرةً. فأحصى من قُتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا على مائتي ألف. ثم سار بجيوشه إلى بلد بلد فأفتتحه، وقصد مدينة إيقو، وهي دار المملكة، وهو في ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل. فخرج إليه الملك في خواصّه في نحو مائة ألف وٱلتقيا، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحو شهر وصبرا جميعًا. ثم كانت على الملك فٱنهزم، وأمعن الخارجيّ في طلبه. وٱنحاز الملك إلى مدينة في أطراف أرض الصين. وٱستولى الخارجيّ على حوزة[٤] الصين وٱحتوى على دار المُلْك وخزائن الملوك السالفة وما أعدّوه للنوائب[٥]. وعلم أنه لا يقوم بالمُلْك لأنه ليس من بيته، فأخرب البلاد وٱستباح الأموال وسفك الدماء. فكاتب ملك الصين ملك الترك أمْرخَان وٱستنجده. فأنجده ملك الترك بولده في نحو أربعمائة ألف فارس وراجل. وقد ٱستفحل أمر الخارجيّ فٱلتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالاً نحو سنة وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرةً، ثم فُقِد الخارجيّ فقيل قُتِل وأسر ولده وخواصّ أصحابه، وعاد ملك الصين إلى دار ملكه. قال: والعامّة تسمّيه «بغيور»، وتفسيره ابن السماء تعظيمًا له. والٱسم الذي يخاطب به ملوك الصين طمغاجيان، ثم لقبوا بعد ذلك ملكهم بالخان[٦]. قال: ولمّا كان من أمر هذا الخارجيّ الذي ذكرناه تغلّب صاحب كل عمل على عمله، وضعف ملك الصين عن مقاومتهم. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما آل إليه مُلْك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجِنْكِزْخانيّة. والله أعلم.

---

(١) سيراف: هي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديمًا فرضة الهند، وهي معرّبة من شير وهو اللبن وآب وهو الماء، فقلت الشين سينًا والباء فاءً، «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٩٤».

(٢) عُمان: اسم كورة عربيّة على ساحل بحر اليمن والهند، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، إلا أن حرّها يضرب به المثل «معجم البلدان ٤/ ١٥٠».

(٣) جزائر الزّابج: هي في أقصى الهند وراء بحر هركند في حدود الصين، وقيل هي بلاد الزّنج، ذات زرع وخصب وضرع وماء كثير، وبها مغائص اللؤلؤ وأفاويه الطيب، وبها جبل يسمّى وبرة يأوي إليه عبّادها «انظر مسالك الأبصار ٢/ ٣٤».

(٤) حوزة الصين: أي عاصمتها ومقرّ حكومتها.

(٥) النّوائب: مصائب الدّهر.

(٦) الخان: السلطان أو الأمير.

ذكر أخبار ملوك الترك

قال المسعوديّ: وقد تنازع الناس في الترك وبدئهم، فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن تُوبل بن يافث بن نوح لمّا قسم فَالغ بن عابَرَ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح كما ذكرنا في أخبار ملوك الصين ساروا يَسْرة المشرق، فقطع قوم منهم من ولد رعُوَ على سمت الشمال وٱنتشروا في الأرض، فصاروا عدّة ممالك، منهم الدَّيْلم(١)، والجِيل(٢)، والطَّيْلسان(٣)، والتتر(٤)، وفَرْغانة(٥)، وأهل جبل الفتح من أنواع اللَّكْز(٦) واللان(٧) والخَزَر(٨) والأبخاز(٩) والسَّرير(١٠) وكمشك وسائر تلك

---

(١) الدّيلم: جيل سمُّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر، وليس باسم لأب لهم، وهي ناحية واسعة من طبرستان وأذربيجان على بحر قزوين، قاعدتها مدينة «رشتَ» وهي الآن إقليم جيلان بإيران «انظر معجم البلدان ٢/ ٥٤٤» ومعجم الخريطة التاريخية لأمين واصف بك.

(٢) الجيل: اسمٌ مصقع واسع مجاور لبلاد الدّيلم فيه قرى كثيرة، ويقال له جيلان، وجيلان قوم من أبناء فارس «انظر تقويم البلدان ومعجم البلدان ٢/ ٢٠١».

(٣) الطيلسان: إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الدّيلم والخزر افتتحه الوليد بن عقبة سنة ٣٥هـ «معجم البلدان ٤/ ٥٦».

(٤) التّتر: جيل من أجناس الترك ظهر سنة ست عشرة وستمائة هجرية بأقاصي بلاد المشرق في جبال طغمان من حدود الصين يتاخمون الترك ويجاورونهم «انظر تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٤ ط بولاق».

(٥) فرغانة: ناحية عظيمة وراء الشاش، ووراء سيحون وجيحون، نسب إليها كثير من العلماء، وهي متاخمة لبلاد تركستان، كثيرة الخير واسعة الرستاق، يقال: كان بها أربعون منبرًا، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخًا «انظر معجم البلدان ٤/ ٢٥٣».

(٦) اللّكز: جيل من الناس كانوا يسكنون بلدة بنوها فسمّيت بهم وهي تقع خلف الدّربند تتاخم خزران، وأهلها مسلمون وفيها نصارى «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٢».

(٧) اللاّن: أمّة كانت تسكن إقليم القفقاس مما يلي جبال القبج «القوقاز» شمالاً، غربي داغستان والدّربند، واللاّن بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخز «انظر معجم البلدان ٥/ ٨».

(٨) الخزر: هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدّربند، ويقولون الخزر: مسمّى بالخزر بن يافث بن نوح «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٦٧».

(٩) الأبخاز: هي اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهي جبال صعبة المسالك وعرة لا مجال للخيل فيها تجاور بلاد اللاّن «انظر مجم البلدان وتقويم البلدان».

(١٠) السّرير: مملكة واسعة بين اللاّن وباب الأبواب وليس إليها إلا مسلكين، مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى أرمينية، والسّرير اسم المملكة لا اسم المدينة «معجم البلدان ٣/ ٢١٨».

الأمم المنتشرة في ذلك الصُّقع والأرمن إلى طَرَابْزَنْدة[١] إلى بحر مانِيطِش[٢] ونِيطِش[٣] وبحر الخَزَر إلى البُلغار[٤] ومَن اتصل بهم من الأمم. وعبر ولد عامور نهر بَلْخ[٥]، ويمّم بلاد الصين الأكثر منهم وتفرّقوا في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار، منهم الخُتَّل وهم سكّان خَتْلان[٦] ووَرْسَنان[٧] والأُسْرُوشَنة[٨]، والسُّغْد[٩] وكانوا بين بُخارَى[١٠] وسَمَرْقَند[١١]، ثم الفراغِنة والشاش[١٢] وإسْبِيجاب[١٣] وأهل ببلاد الفاراب[١٤]، فبنوا المدن والضياع، وانفرد منهم ناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي

---

(١) ذكر أبو الفداء في تقويم البلدان أنها تسمّى الآن طرابزون، وهي ميناء مشهورة على بحر مانيطش غربي سحوم وشرقي سامسون، وأكثر سكانها اللّكزى، وهذه المدينة لها أسواق في السّنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة.

(٢) مانيطش: هو المعروف الآن ببحر آزاق أو بحر «آزوف».

(٣) نيطش: هو المعروف الآن بالبحر الأسود.

(٤) البلغار: جنس معروف، وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها، وهي قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الإتل «الفولجا» «انظر معجم الخريطة التاريخية».

(٥) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان وهي واقعة في الإقليم الخامس «انظر معجم البلدان».

(٦) ختلان: بلاد مجتمعة وراء بلخ قرب سمرقند والنسبة إليها ختلي «معجم البلدان ٢/ ٣٤٦».

(٧) ورستان: من قرى سمرقند «معجم البلدان ٥/ ٣٧١».

(٨) الأشروسنّة: بلاد الغالب عليها الجبال، يحيط بها من الشرق فرغانة، ومن الغرب حدود سمرقند، ومن الجنوب حدود كش والصغانيان. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤٣٢».

(٩) السّغد: ناحية فيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند، وقصبتها سمرقند، وهي كثيرة المياه نضرة الأشجار تمتد مسيرة خمسة أيام لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها «معجم البلدان ٣/ ٢٢٢».

(١٠) بخارى: موقعها في الإقليم الخامس، مدينة خارجها نزهٌ كثير البساتين وليس بتلك البلدان بلد أهلها أحسن قيامًا على عمارة قراهم منهم، وليس فيها ماء جارٍ لارتفاعها ومياهها من النهر الأعظم الجاري من سمرقند «صبح الأعشى ٤/ ٤٣٣».

(١١) سمرقند: موقعها في الإقليم الخامس، وهي قصبة السُغد وهي مبنيّة على ضفّة واديه، وهي مرتفعة عن الوادي وحول سورها رسم خندق عظيم ولها نهر يدخل إليها على حمالات في الخندق «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤٣٤».

(١٢) الشاش: مدينة وراء النهر ثم وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك وأهلها شافعيّة المذهب «انظر معجم البلدان ٣/ ٣٠٨».

(١٣) أسبيجاب: بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان «انظر معجم البلدان».

(١٤) الفاراب: ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك، وهي أبعد من الشاش وهي ناحية سبخة لها غياض «معجم البلدان ٤/ ٢٢٥».

وهم الترك الخَزْلج[١] والتُّغْزُغز وهم أصحاب مدينة كُوشان[٢]، وهي مملكة بين بلاد خراسان والصين. قال: ومن الترك الكَيْماكية[٣] والبَرْسُخانية[٤] والغُزّية[٥] والجفرية[٦]. قال: وأشدّهم بأسًا الغُزّيّة، وأحسنهم صورًا الخَزْلجيّة، وكانوا على بلاد فَرْغانة والشاش وما يلي ذلك الصُّقع[٧]. قال: وفيهم كان المُلْك، ومنهم خاقان الخوّاقين، وكان مُلْكه يجمع سائر مالك الترك وينقاد إليه ملوكها.

قال: ولحق فريق من ولد عامور بتُخُوم الهند، فأثّرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانُهم خلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند. ولهم حضر وبوادٍ، وسكن فريق منهم بلاد التُّبَّت وملّكوا عليهم ملكًا وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان. فلمّا زال مُلْك خاقان سَمَّى أهل التُّبَّت ملكهم بخاقان تشبيهًا بملوك الترك.

ذكر جبل الفتح وما عليه من الملوك والأمم

قال المسعوديّ: وأمّا جبل الفتح فهو جبل عظيمٌ اشتمل على كثير من الممالك والأمم، وفيه اْثنتان وسبعون أمّة، لكل أمّة ملك ولغة تخالف لغة الأخرى. وهو ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعْبٍ من شعابه، وهي التي بناها كسرى. وعلى أحد شعاب هذا الجبل بحر الخَزَر مما يلي الباب واْلأبواب، ومملكة شرْوان، ويلي هذه المملكة مملكة الأرّان[٨]، وملكها يُدعَى الأزان شاه. ومنها مملكة المُوقانية[٩]، ومملكة اللَّكْز، وهي أمّة لا تُحصَى كثرةً تسكن أعالي هذا الجبل،

---

(١) الخزلج: صنفٌ من الترك، وهم الذين كان منهم «السلجوقيون».

(٢) كوشان: مدينة في أقصى بلاد الترك، وأهلها كانوا أشدّ الناس شوكة وملكهم أعظم ملوك الترك «معجم البلدان ٤/ ٤٨٩».

(٣) الكيماكية: نسبة إلى كيماك، وهي ولاية واسعة في حدود الصين وكان أصلها تركًا يسكنون الخيام ويتبعون الكلأ «معجم البلدان ٤/ ٤٩٨».

(٤) البرسخانيّة: نسبة إلى برسخان، وهي إحدى مدن إسفنجياب.

(٥) الغزيَّة: حدود بلادهم ما بين الخزر وكيماك وأرض الخزلجيّة وبلغار.

(٦) الجفريّة: نسبة إلى الجفر وهي في حدود بلاد التغزغز «انظر معجم البلدان ٢/ ٢٣».

(٧) الصقع: الناحية.

(٨) أرّان: ناحية واسعة الأرجاء، لها قاعدتان الأولى بردعة، والثانية تفليس، وبردعة قاعدة مملكة أرّان، وهي من أقاصي أذربيجان «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٦١».

(٩) الموقانية: نسبة إلى موقان، أو موغان، وهي ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرّعي، فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمرّ القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال «معجم البلدان ٥/ ٢٢٥».

وهؤلاء ينقادون إلى ملك شِرْوان، ومنهم كفّار لا ينقادون إليه يقال لهم الدُّودانيّة[١] جاهلية لا يرجعون إلى قِبلة. ويلي مُلك شِرْوان مُلك طَبَرِسْتان. ومن ممالك الجبل مملكة حَيْزان[٢]، وهي داخلة في جملة الخَزَر. ومملكة الخَزَر تلي مملكة حَيْزان، وبين مملكة الخَزَر ومدينة الباب ثمانية أيام. ومدينة الخزر اسمها سَمَنْدَر[٣]. ومن مدن الخَزَر أيضًا مدينة إتِل[٤] بينها وبين سَمَنْدَر سبعة أيام، وهي ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغار ويصب في بحر مانِيطِش. وفي هذه المدينة [خلق][٥] من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية. فالملك وحاشيته وجيشه من اليهود، والجاهلية بها من الصقالبة والروس، وهم يحرقون موتاهم ودوابّ مَن يموت وآلاته. وإذا مات الرجل منهم أُحرقت معه امرأته، وإن ماتت المرأة لا يُحرَق معها الزوج. وأما المسلمون فهم جُند الملك، ويعرفون باللارسية، وهم ناقلة من بلاد خُوارزم كانوا قد وفدوا إلى هذه المملكة لقَحْطٍ أصاب بلادهم في صدر الإسلام. فاستعان بهم الملك فأقاموا عنده على شروط، منها: أن يقيموا شِعار الإسلام، وأن تكون الوزارة فيهم، وأنه إذا كانت الحرب بينه وبين المسلمين لا يحضرونها ويحاربون معه سائر الكفار. وبالمدينة قضاة سبعة: اثنان من المسلمين، واثنان للخَزَر يحكمان[٦] بحكم التوراة، واثنان من النصارى يحكمان بالإنجيل، وواحد من الصقالبة والروس والجاهلية يحكم بالقضايا العقلية. وإذا ورد ما لا علم لهم به من النوازل[٧] الكبار اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا لما توجبه الشريعة الإسلامية. وليس في الملوك مَن عنده جند مرتزقة غير ملك الخَزَر.

---

(١) الدودانية: أمّة يزعمون أنّهم من بني دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة ولعلّهم الذين ذكرهم امرؤ القيس في قوله:

قَـوْلاً لـدودان عـبـيـد الـعـصـا ... مـا غـرّكـم بـالأسـد الـبـاسـل

(٢) حيزان: من مدن أرمينية قريبة من شروان «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٣١».

(٣) سمندر: مدينة خلف باب الأبواب بأرض الخزر بناها أنو شروان بن قباذ كسرى، وكانت دار مملكة الخزر «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٥٣».

(٤) إتل: عاصمة بلاد الخزر، وقد سمّي بها النهر العظيم الذي يمرّ ببلاد الخزر وبلاد الروس وبلغار «انظر معجم البلدان».

(٥) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي ١/ ٨٦.

(٦) في الأصل يحكمون، والتصويب لاستقامة السّياق اللغوي.

(٧) النوازل: المصائب.

قال: وفي دار مملكة الخَزر رجل يكون اسمه خاقان لا يركب ولا يظهر للخاصّة ولا للعامّة، ولا يستقيم مُلْك الخَزَر لملكهم إلاّ أن يكون عنده خاقان معه في قصره. فإذا أجدبت أرض الخَزَر أو نابت بلادهم نائبة[١] أو حرب، جاءت الخاصّة والعامّة إلى ملك الخَزَر وقالوا له: قد تطيّرنا بخاقان[٢] وبأيامه وتشاءمنا به، فاْقتله أو سلّمه إلينا نقتله، من غير أن يكون قد عمل ما يوجب ذلك؛ فتارة يقتله، وتارة يسلّمه إليهم فيقتلونه، وتارة يمانع عنه ويرقّ له. وإذا قتل خاقان أقاموا غيره. قال: وللخَزَر زوارق يركبون فيها من نهر فوق المدينة يصبّ إلى نهر يقال له بُرْطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ملوك الخَزَر، وعمائرهم متّصلة بين مملكة الخَزَر والبُلْغَر، يرِد هذا النهر من نحو بلاد البلغر. ومن بلاد بُرْطاس تُحمَل جلود الثعالب السُّود التي يُعرَف وبرها بالبُرْطاسيّ. قال المسعوديّ: ويبلغ ثمن الجلد منها مائة دينار. وتلبسها الملوك وهو عندهم أغلى من السمور[٣] والفَنَك[٤]، والحُمْر دونها في الثمن.

قال: وفي أعالي نهر الخَزَر مصبّ يتّصل بخليج من نهر نِيطِش، وهو بحر للرُّوس لا يسلُكه غيرهم، وهم على ساحل من سواحله. وهي أمّة عظيمة لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة. وفي أرض الرُّوس معدِن من الفضّة. قال: والرُّوس أمم كثيرة، فمنهم جنس يقال لهم البوداغية، وهم الأكثر، يختلفون بالتجارات إلى بلاد الأندلس والقسطنطينية وروميّة. قال: وبين مملكة حَيْزان التي ذكرناها وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يُحسنون غير اللغة العربية في آجام[٥] هنالك وغياض وأودية وأنهار، ولهم قرى قد سكنوها. وهم على نحو من ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب.

قال: ويلي مملكة حَيْزان مما يلي الفتح والسُّغْد ملك يقال له برزينان[٦] مسلم، ويعرف بلد هذا الملك بالكُرْج. وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى برزينان. ثم يلي مملكة برزينان ملك يقال له عينق، وهم يدينون بدين النصرانيّة، لا ينقادون لملك،

---

(١) النائبة: المصيبة. (٢) الخاقان: الملك.

(٣) السّمور: حيوان برّي يشبه السّنور يتخذ من جلده فِراء ثمينة للينها وإدفائها وحسنها.

(٤) الفنك: دابة يُفترى جلدها أي يلبس فروها.

(٥) الآجام: مفردها الأجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ.

(٦) كذا في معجم ياقوت في كلامه عن الكرج حيث قال: وكلّ ملك في هذه البلاد يقال له «برزينان» «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٤٦».

ولهم رؤساء، وهم مهادنون لأهل مملكة اللاّن. ثم يليهم مما يلي السور والجبل مملكة يقال لها زِرِهْ كَرَان[١]. وتفسير ذلك بالعربية عمّال الزّرَد؛ لأن أكثرهم يعملون الزّرَد والسيوف واللُّجُم والرُّكُب[٢] وغير ذلك من آلات الحديد. وهم ذوو أديان مختلفة من المسلمين والنصارى واليهود. وبلدهم بلد ممتنع خَشِنٌ قد ٱمتنعوا فيه ممن جاورهم من الأمم لخشونته. ثم يلي هؤلاء مَلِك السرير[٣] ويدعى قُبْلان شاه يدين بالنصرانية. ودار مملكته تعرف بخندج، وله اثنتا عشرة ألف قرية يستعبد منهم من شاء. وبلده بلد منيع. وهو شَعْبٌ من جبل الفتح. وهذا الملك يغير على الخَزَر ويستظهر عليهم. ثم يلي هذه المملكة مملكة اللاّن. وملكها يقال له كَرْكُنْداج[٤]، وهذا الاسم غالبٌ على سائر ملوكهم. وكانوا جاهليّة ثم دانوا بالنصرانيّة، ثم رجعوا فيها بعد العشرين والثلاثمائة. وصاحب اللاّن يركب في ثلاثين ألف فارس. ثم يلي ملك اللان أمّة يقال لها كمشك. وتفسير هذا الاسم بالفارسية التِّيه والصَّلَف[٥]. وهم بين جبل الفتح وبحر الروم. وهي تنقاد إلى دين المجوسيّة. قال: وليس في الأمم التي ذكرناها أنقى أجسادًا، ولا أصفى لونًا، ولا أحسن رجالاً، ولا أصبح[٦] نساءً، ولا أقوم قدودًا، ولا أدق خصورًا وأظهر أردافًا، ولا أحسن شكلاً من هذه الأمّة. ونساؤهم موصوفات بلذّة الخلوة. ولباسهنّ البياض والدِّيباج[٧] الروميّ والسَّقْلاطون[٨] وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب. واللاّن تستظهر على هذه الأمّة إلاّ أنها تمتنع منهم بقلاع لها على ساحل البحر. وتلي هذه الأمّة على ساحل البحر أمّة يقال لبلدهم السبع بلدان، وهي أمّة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار. ويلي هذه الأمّة أمّة عظيمة يقال لها إرَم [ذات العماد][٩] ذوو خلق عجيب جاهليّة الآراء. ويلي هذه الأمّة صحراء نحو من

---

(١) زركران: من قرى سمرقند «انظر معجم البلدان ٣/ ١٣٧».

(٢) الرُّكب: مفردها الرّكاب، وهو ما توضع فيه الرِّجل.

(٣) السّرير: مملكة واسعة بين اللاّن وباب الأبواب، وليس لها إلاّ مسلكان، والسّرير اسم المملكة لا اسم المدينة ويقال: إن هذا السّرير كان لبعض ملوك الفرس وهو سريرٌ من ذهب «انظر معجم البلدان ٣/ ٢١٨».

(٤) في معجم البلدان لياقوت عند كلامه عن اللاّن وفي المسعودي «كركنداح» بالحاء المهملة.

(٥) الصّلف: التكبُّر والادّعاء، وكذلك التّيه.

(٦) أصبح الوجه: أشرق وحسن وأضاء.

(٧) الدّيباج: ثوب لحمته وسُداه من الحرير.

(٨) السّقلاطون: الملابس الملوّنة بالألوان القرمزيّة وغيرها، وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه.

(٩) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

مائة ميل، بين جبال أربعة، كل جبل منها ذاهب في الهواء، في وسط هذه الصحراء دارة مقوّرة[١] كأنها خُطّت ببِرْكار[٢]، منحوتة في حجر صَلْد[٣]، استدارتها نحو من خمسين ميلاً قَطْعٌ قائمٌ كأنه حائط مبنيّ، يكوّن قعرها نحوًا من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويُرى بها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، ويرى فيها بالنهار قرى وأنهارٌ تجري، وفيها ناس وبهائم إلا أنهم يُرَوْن لطاف الأجسام لبُعْد قعر الموضع لا يُدرَى من أيّ الأمم هم. ولا سبيل إلى صعودهم ولا إلى النزول إليهم من جهة من الجهات. ووراء تلك الجبال خَسْفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وعياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، الأغلب عليها صُوَر الناس وأشكالهم إلا أنهم ذوو شعور. قال: وربّما وقع في النادر منها القرد إذا ٱحتيل عليه في ٱصطياده، فيكون في نهاية الفَهْم والدراية. وربّما حُمِل الواحد منها إلى الملوك فيُعلَّم القيام على رأسه بالمِذَبّة[٤]. ولهم خاصيّة بمعرفة المسموم من المآكل والمشارب. فإذا دنا الطعام منها شمّته ويُلقَى لها الشيء منه فإن أكلته أكله الملك، وإن ٱمتنعت علم الملك أنّ ذلك مسموم.

قال: وفيما بين بلاد الخَزَر وبين بلاد المغرب أمم أربع من الترك ترجع في أنسابها إلى أب واحدٍ، وهم حَضَرٌ وبَدْوٌ، ذوو مَنَعة وبأس شديد. ولكل أمّة منها ملك. ومسافة كل مملكة منها أيام، متّصلة ممالكهم بعضها ببحر نِيطِش. ولتصل غاراتهم ببلاد رومية وما يلي بلاد الأندلس. وهي تستظهر[٥] على سائر مَن هنالك من الأمم. وبينهم وبين الخزر واللاّن مهادنة، وبلادهم تتّصل بممالك الخزر. فالجِيل الأوّل منهم يقال له نجا. ويليه بجعود[٦]. ويليه بَجِناك؛ وهي أشدّ هذه الأمم الأربع بأسًا، ويليه أنو جرذذ. وكانت لهم حرب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة. ويلي بلاد اللاّن أيضًا أمة يقال لها الأبخازتَدِين بالنصرانية، وملك اللاّن مُستظهِر عليهم وهم متّصلون بجبل الفتح. ثم يلي بلاد الأبخاز مَلِك الخزَرية، وهم أمّة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تُدعَى خزَران ولها ملك. قالوا: وكانوا يؤدّون الخراج إلى صاحب ثَغْر

---

(١) المقوّرة: يقال: قوّر الشيء تقويرًا جعل في وسطه خرقًا مستديرًا.

(٢) البركار: آلة ذات ساقين ترسم بها الدّوائر.

(٣) الصلد: الصلب.

(٤) المذبّة: ما يدفع بها الذّباب.

(٥) تستظهر: تستقوي.

(٦) في المسعودي: «جعرد».

تَفِليس(١). وتليهم أمّة يقال لها الصمصحيّة نصارى، ومنهم جاهليّة لا مَلِك لهم. ويليهم بين ثغر تِفْليس وقلعة باب اللاّن مملكة يقال لها الصنبارية(٢)، وملكهم يقال له كريشكُوش(٣)، ينقادون إلى النصرانيّة، ويزعمون أنهم من العرب من نزار بن معدّ. ثم يلي مملكة الصنباريّة مملكة شكى(٤) وهم نصارى. ويليهم مملكة أخرى وهي مأوى الصعاليك(٥) والذُّعّار(٦)، ثم تتصل بمملكة المُوقانيّة وهي التي على ساحل بحر الخزر. والله أعلم بالصواب.

تم الجزء الرابع عشر، ويليه الجزء الخامس عشر وأوّله: ذكر أخبار مصر

(١) تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول بأرّان، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة لا إسلام وراءها، يجري في وسطها نهر يقال الكُرُّ يصب في البحر، وفيها غروب تطحن، وعليها سورٌ عظيم، وبها حمّامات شديدة الحرّ لا توقد ولا يُستقى لها ماء «معجم البلدان ٢/ ٣٥ ـ ٣٦».

(٢) في الأصل: الضارية والتصويب عن المسعودي.

(٣) في المسعودي «كرسكوس».

(٤) في المسعودي «سكين».

(٥) الصعاليك «مفردها صعلوك» وهو الفقير، ويقال صعاليك العرب: أي فتّاكها.

(٦) الذّعار: مفردها الذّاعر، يقال رجلٌ ذاعر: أي ذو عيوب.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الكتاب المقدّس.
٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ط. مصر.
٤ ـ الأعلام «قاموس تراجم» للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
٥ ـ بدائع الزهور، لابن إياس، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧ ـ تاريخ الأمم والملوك «تاريخ الطبري» مطبعة الاستقامة، مصر.
٨ ـ تاريخ مختصر الدول، لابن العبري، بيروت ١٨٩٠.
٩ ـ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، دار الكتب العلمية.
١٠ ـ حياة الحيوان للدميري.
١١ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب المصرية.
١٢ ـ ديوان امرؤ القيس.
١٣ ـ الروض المعطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري.
١٤ ـ صبح الأعشى، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.
١٥ ـ طبقات الأمم، لابن صاعد.
١٦ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، ط. مصر.
١٧ ـ قاموس الجغرافيا القديمة، لأحمد زكي باشا، ط. مصر.
١٨ ـ قاموس الكتاب المقدّس، لجورج بوست، ط. بيروت ١٨٩٤.
١٩ ـ قصص الأنبياء أو عرائس المجالس، للثعلبي، ط. مصر.
٢٠ ـ قصص الأنبياء، للكسائي، دار الكتب المصرية.
٢١ ـ الكاشف، للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية.
٢٢ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط. مصر.
٢٣ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر.
٢٤ ـ مروج الذهب، للمسعودي، ط. بولاق.

٢٥ ـ مسالك الأبصار، لابن فضل العمري، ط. مصر.
٢٦ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٢٧ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، للبكري، ط. مصر.
٢٨ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية.
٢٩ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر.
٣٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.
٣١ ـ النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية.
٣٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، ط. مصر.

فهرس المحتويات